الفرج بعد الشدة

للقاضي أبي عليّ المحسّن عليّ التنوخي

انتقاء وترتيب ودراسة

الدكتور محمد حسن عبد الله

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: الفرج بعد الشدة
اسم المؤلف: القاضي أبي على المحسن على التنوخي
ترتيب ودراسة: الدكتور محمد حسن عبد الله
الطبعة الثانية
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
مكتبة وهبة: ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٢٨٠ صفحة: ١٧ ×٢٤ سم
رقم الإيداع: ٧٩٤٤/ ٩٢
الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 00 - 3947 - 4

بسم الله الرحمن الرحيم

تنوير

تقوم مادة هـذا الكتاب على اختيـار قصص وأخبار ونوادر، من كـتاب «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» للقاضى التَّنوخِيِّ.

هذا الاختيار انتقاء واصطفاء يرتفع بالتراث إلى «المعاصرة» ويلبى مطالبها، دون أن تتعارض مع «الأصالة».

قدَّمنا لهـذه المختارات بدراسـة فنية ضافـية، وسجلنا -عـقبهـا- القصص دون تعديل يمسّ بناءها الفنى أو نُغَيِّر من محتواها ومغزاها.

إننا نقدِّم هذا الكتاب إلى:

* الباحث فى التراث القصصى عند العرب.
* الكاتب الدرامى للإذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما.
* أهل الدعوة والتذكير.
* المؤرخ الذى يبحث عن الحقيقة خارج كتب التاريخ «الرسمية».
* القارئ العام الذى يبحث عن سر القوة فى حضارة العروبة والإسلام.

دكتور

محمد حسن عبد الله

القسم الأول:

الدراسة الفنية

عن عصر القاضى التَّنُوخىّ، وشخصيته، ومصادره فى اجتناء القصص والأخبار، ومحاور اهتمامه، وخصائص فنه

الفصل الأول

ثلاث صُوَر

العصر - الكاتب - الكتاب

١- صورة العصر:

كتاب «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» ألَّفه القاضي «المُحسِّنُ بن عليٍّ التَّنُوخِيُّ» المعروف بالقاضي التَّنُوخِيِّ. وهذا الكتاب تقوم مادته الأساسية على الأخبار والنوادر التي تُساق في أسلوب قَصصي، ومع أهمية هذا الجانب، من الفن القَصصي في التراث العربي لا يزال قليلَ الحظ من عناية الباحثين، وموضعَ اتهامٍ عند بعض المستشرقين؛ فإن أهمية «الفَرَج بعد الشِّدَّة» تتجاوز كونَه من أحسن المصادر وأقربها إلى المنهج العلمي التَّوثيقيِّ، وإلى الشمول أيضًا، إلى أمور أخرى لا تقل في درجة الضرورة، لعَلاقته بالسيرة الشخصية لمؤلفه، ولِدلالاته المتنوعة التي تتشعب إلى المستويات الاجتماعية، والأنشطة الإنسانية في عصر مؤلِّفه.

ولقد وُلدَ القاضي التَّنُوخِيُّ سنةَ سبع وعشرينَ وثلثمائة (٣٢٧ هـ) بالبَصرَة[1]، وتُوُفِّيَ سنةَ أربعٍ وثمانين وثلثمائة (٣٨٤هـ) ببغداد، وإذًا فقد عاش في صميم القرن الهجريِّ الرابع في أهم مواطن الحضارة العربية الإسلامية، وفي أنضج مراحلها وأشدها خطرًا.

وهذا القرن الرابعُ الهجريُّ، له صورتان على قدرٍ من التَّضَادِّ عظيمٍ، فهو عصر التقدم العلمي والنشاذ التأليفي، عصرُ الانفتاح على الحضارات الأجنبية وتميُّز الحضارة العربية، عصرُ الترف الزائد والفقر القاتل. عصرُ المؤامرات والإضرابات والأوبئة، عصرُ السُّلْطة الضائعة والأمْنِ المفتقَد.

---

(١) انظر: وفيات الأعيان مجلد: ٤/ ١٦٢، وتاريخ بغداد: ٣/ ١٥٦، والنجوم الزاهرة: ٤/ ١٦٨، ومفتاح السعادة: ١/ ٢٤٩. وفي معجم الأدباء (١٧/ ٩٢): أنه ولد سنة ٣٢٩هـ.

في القرن الرابع الهجرى ظهرت الثِّمارُ العظيمةُ التى غرسَها عصرُ الرشيد، وعصرُ المأمون من بعده. فى مجالات الحضارة بكل ما تنطوى عليه من توسع فى العمران، واعتناء بالفنون والآداب. وتشجيع للعلماء، وتيسير للحصول على المعرفة من منابعها المتقدمة. تُوُفِّيَ المأمون سنة ٢١٨هـ، أى قبل ميلاد القاضى التَّنُوخِيِّ بقرنٍ كاملٍ يزيد بِضْعَ سنوات، وفى إبَّانِ تلك الفترة كانت الخمائر قد عَملت عملها، وتفتحت البراعم العظيمة التى شهد عصرُ المأمون نفسُهُ بشائرَها، وفاض نورها فى عصر المُعتصم، واستمر إشعاعُها فى عصور خلفائه لتبلغ الذِّرْوَةَ فى السطوع والإبهار أثناء مراحلَ تُوصَفُ من الناحية السياسية بأنها عصرُ ضعف الخلفاء، واضطراب الأمن، وانتشار الفساد الإدارى. وهذا هو الوجه الآخر القاتم المضادُّ للوجه المشرِق بنور الحضارة العربية.

وإذا كنا لا نستطيع أن نستقصىَ جوانبَ الصورة على امتداد الأرض العربية، ما بين المَشْرِق والأندلس، فإننا لا نستطيع -أيضًا- أن نخوضَ فى تفاصيلها الدقيقة، إنْ تَكُنْ فى حدود العراق وما حوله؛ لأن الوفاء بهذه التفاصيل يتجاوز قدرة هذه الصفحات، ونكتفى بأن نُسجِّل إشاراتٍ دالةً فى حدود الفَترة التى عاشها التنوخى، بذكر بعض أعلام العصر فى بعض مجالات المعرفة، فنجد أمثال أبى الحسن الأشْعَرِىِّ، والإسْفَرايينى، والقُشَيْرى، وإمام الحرمين الجُوَيْنِى، والباقلاَّنى، وأبى بكرٍ الجَصَّاص، وهم من الفقهاء والمتكلمين، ومن علماء اللغة: محمد بن دُرَيْد الأزْدِىِّ، وأبى بكرٍ الأنْبَارِىِّ، وأبى الحسن الرُّمَّانىِّ، ومن المُتَصوِّفَةَ: «جماعة إخوان الصفاء» التى تُعتبر من أهم مدارس الاستنارة العقلية فى تاريخ الفلسفة الإسلامية. وفى مجال الطب وترجمة كتب الحكمة من اليونانية والسُّرْيانية إلى العربية نكتفى بأن نُقلِّب صفحات كتاب ابن أبى أُصَيْبِعَة «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» لنكتشف أن العمل فى ميدان الطب ممارسةً وترجمة. وفى مجال الفلسفة، اختُصَّتْ به أسرٌ يتوارثه أفرادُها جيلاً بعد جيل، مثل آل بَخْتَيْشُوع بن جُورجِس، وآل الطَّيْفُورى وآل حُنَيْن، وحُنَيْن بن إسحق هو الذى نقل بعض ما كتب أرسطو بأمر المأمون، وآل ثابت ابن قُرَّة الحَرَّانى، وفى مجال التأليف كان عصر المشافهة قد وَلَّى، وآتى ثمارَه التوثيقية

فى مؤلفات القرنين الثانى والثالث، ثم طُوِّر التأليـفُ كَمًّا وكَيْفًا، فظهرت الدراسات المتخصصة، كما ظهرت الدراسات الموسوعِيَّةُ المتعددةُ الاهتمامات، بأحجامها الهائلة، وقد ذكرنا من أسماء الفقهاء واللغويين والحكماء مَن لا يَصعُبُ الوقوفُ على ما كتبوا فى حقول نشاطهم الخاص وعلى المستوى الموسوعى - فيما يخص المرحلة التى نعنى بها - يكفى أن نذكر «تاريخ الرسل والملوك» لمحمد بن جَرِيرِ الطَّبَرِىِّ (ت ٣١٠هـ)، و«مُرُوجَ الذهب» للمَسْعودِىِّ (ت ٣٤٦هـ) و«الأغانى» لأبى الفَرَجِ الأصَبهانىِّ (ت ٣٥٦هـ)، و«الفَهْرِسْت» لابن النديِّم (ت ٣٨٥هـ) وهذه المصادر لا يستغنى عنها طالبُ المعرفة فى أى مجال له عَلاقة بالحضارة العربية، منذ أقدم عصورها، وحتى تاريخ تأليف هذه الكتب الموسوعية، وسنرى فى فِقْرَة تالية كيف أضاف القاضى التَّنُوخِىُّ من مؤلفات معاصريه، فَضْلاً عن سابقيه، ما أغنى به سماعه من جلسائه وأساتذته، مما يدل -فى النهاية- على ازدهار حركة التأليف، فضلاً عن الإبداع الفنى، والمُتَنَبِّى وحده (ت ٣٥٤هـ) يُضىء قرنًا كاملاً، بل هو مضىء إلى اليوم وسيبقى كذلك ما بقيت العربية، والنقد الأدبىُّ، ويكفى أن نذكر: ابنَ طَبَاطَبَا العَلَوِىّ صاحب «عيار الشعر» (ت ٣٢٢هـ)، وقُدامةَ بنَ جعفر مؤلف «نقد الشعر» (ت ٣٣٧هـ) والآمِدىَّ، صاحب كتاب «المُوازنة» (ت ٣٧٠هـ)، والقاضى الجُرْجَانِىَّ مؤلف «الوَساطة» (ت ٣٩٢هـ).. هذه دعائم عصر مزدهر بألوان الثقافة المتنوعة، يقف أبو بكر الرَّازِىُّ -الطبيب الفيلسوف- علامةً شامخة على بدايته (توفى سنة ٣١١هـ)، ويقف بَدِيعُ الزمانِ الهَمَذَانِىُّ على نهايته (توفى سنة ٣٩٨هـ)، وقد يكون فى الانتقال من الطب والفلسفة فى البداية إلى المقامات الأدبية وصنعتها اللغوية فى النهاية دلالات مختلفةً على تحرك مركز الثِّقْل فى ثقافة العصر، وتمهيده للطابع الخاص الذى سيميِّز القرن التالى.

لقد ألَّف المستشرق «آدم مِتْز» كتابه تحت عنوان: «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، أو عصر النهضة فى الإسلام»، وهذا الربط أو هذا الوصف له مُسَوِّغاته التى تجد أدلتها فى كل أشكال النشاط الفكرى والفنى والعلمى

والعمرانى[١] ولعل هذه الصياغة لعنوان الكتاب، كانت وراء اختيـاره لعنوان كتابه عن المرحلة ذاتها فى سلسلة كتاباته عن التاريخ والحضارة الإسلامية، إذ سماه «ظُهْرَ الإسلام» والظُّهْر عَالِيَـةُ النهار، وليس فيما قبله -أو بعده- مـا يدانيه فى تمامه. لقد أرجع الشيخ محـمد الخُضرى رقىّ العلوم فى عـصر المأمون إلى سبـبين: أن المأمون نفسَـه قد اشتغل بالعلم وأمْـعَنَ فيه، وأن كثـرةً من العلماء مختلفِى الاتجـاهات قد وُجدت فى عصره[٢]، ولعله كان ينبغى عليه أن يضيف سببًا ثالثًا هو الحرية الفكرية التى أتيحـت للعلماء، بدرجة سـمحت بعـقد ندوات ومناظرات حتـى فى مجلس الخليفة نـفسه، بغير قـيود إلا أدب المناظرة، بل يذكر الشيخ الخـضرى أنه تَنَاظَرَ فى مجلس المأمون اثنان فى معنى «الإمامة» ينصر أحدُهما «الإماميَّة» والآخرُ «الزَّيْديَّة»، يقول الخضرى: «وهذان المذهبان كلاهما إن صَحّا يذهبان بما فى أيدى آل العباس من الإمامة، ولـم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهـما»[٣]. وقد استـمر هذا الاتجاه الصـاعد فى عـصر المعـتصم، وتراجع بعـض الشىء فى عصـر المتوكل (قُـتل سنة ٢٤٧هـ) وتَذَبْذَبَ صعودًا وهبوطًا فيـما بعد، ولكن باب الحوار لم يُغلق على الرغم من تسلط بعض المذاهب المحافظة كالحنابلة، ونستطيع أن نجد فى صميم القرن الرابع محـاورةً مشـهودة بين أبى سعـيد السِّـيرافىّ النحوى (ت ٣٦٨هـ) ومـتَّى بن يُونُس القُنَّائى، الذى «انتهت إليه رئاسة أهل المنطق فى عصره» حول المنطق اليونانى والنحو العربى[٤]، وهى مؤشِّر مهم عن طبـيعة العصر واتجاه التيـارات الفكرية. كما سنجد بعض الخلفاء يقرضـون الشعر، ويُلحِّنون ويُغنُّون، وكان الوزراء من كبار المـثقفين، وحتى أولئك الذين لم يكونوا عربًا فإنهم لم يكونوا أقل حماسة للثقافة العربية، كان عَضُدُ الدولة الـبُويْهِىُّ يقول الشعر ويحـاور ندماءه فيه، وكـان القاضى التَّنُوخِى من جلسائه، كمـا كانت له خزائن كتب نادرة، أقام لـهـا خـازنًا خـاصًا، هـو أحـمـد ابن محـمد مِسْكَوَيْه، الذى اختُـص من الفلسفة بالناحـية الخُلُقية، فـألف «تهذيب

(١) نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة سنة ١٩٦٧.

(٢) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٠٦.

(٣) المرجع السابق ص ٢١٠، وقد عابت عليه بعض الطوائف والعامة ذلك.

(٤) أوردها أبو حيان التوحيدى فى كتابيه: المقابسات ص ١٢١، والإمتاع والمؤانسة: ١/ ١٠٤ وما بعدها.

الأخلاق» كما ألف كتاب «تجارب الأمم» جرى فيه على نَسَق خاص، وهو الاهتمام بمواضع العبرة فى الأحداث التاريخية، والتعليق عليها تعليق الحكيم المجرِّب[1].

هذا هو الوجه المشرق للقرن الرابع الهجرى، أما الوجه الآخر فتمثله أوضاع الخلافة فى ضعفها وضياعها بين المتغلبين من قادة الترك، والديلم، والمتسللين إلى مواقع التأثير فى قصر الخلافة من الجوارى والقَهْرَمَانات والخصيان، والطامحين إلى الاستقلال من أصحاب الحركات الانفصالية، كالقَرَامِطة، والدَّيْلَم، والطُّولُونِيّة، والحَمْدانية، وغيرهم ممن عانت منهم دولة الخلافة العباسية أشد العناء.

إن كتاب «الفَرَجُ بعد الشدَّة» سيقدم لنا من خلال أخباره القصصية صورة ذلك العصر السياسية، وهى لا تزيد على أن تكون سلسلة لا تنقطع من الحروب الداخلية وحوادث النهب والتصفية والمصادرة، وإخراب المدن وكَبْس السجون وقطع الطريق على القوافل، تلك التى تحمل رسائل أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، لقد خُلِعَ الخليفة القاهر، وسُمِلَ[2] (سنة ٣٢٢هـ). وأخذ الخليفة الرَّاضى مكانه، وقد وُلِدَ القاضى التنوخى بعد خمس سنوات مضت من خلافة الراضى، وهذا يعنى أنه عاصر خلافة الراضى، والمتَّقى، والمُسْتَكْفى، والمُطيع، والطائع -الذى خُلِع سنة ٣٨١هـ - وأعقبه القادر، الذى ظل خليفة لأكثر من واحد وأربعين عامًا، وقد مات التنوخى بعد ثلاث سنوات فى خلافته، وهؤلاء الخلفاء الستة لم يكن لهم من الخلافة غير الاسم، وهم بين مقتول ومعزول ومن لا يدرى من أمره شيئًا، فضلاً عن أمر المسلمين. وقد كان منصب الوزارة جزءًا من هذه الفوضى وصدى لها، فكان لمن يتغلب على خصمه، أو يستولى على إقليم، أو يُجزِلُ الرشوة للخليفة. ويكفى أن نقلب صفحات الجزء الثامن من كتاب ابن الأثير «الكامل فى التاريخ»، الذى يرصد الحوادث المستجدة عامًا بعد عام، لنرى الصورة القلقة، بل المفزعة، للحياة السياسية والإدارية، وللنظام المالى فى ذلك العصر الذى يزهو بالعلماء والأدباء. سنكتفى بمجرد إشارة إلى أسباب مبايعة المقتدر بالخلافة بعد وفاة

---

(١) ظهر الإسلام: ١/ ٢٣٢.

(٢) السمل: إفقاد العين إبصارها بتقريب مسمار أو حديدة محماة.

المكتفى. لقد فكر الوزير -وهو العباس بن الحسن- فيمن يصلح للخلافة، فطلب مشورة أصحابه، وكان عبد الله بن المعتز أكثر المرشحين شهرة، ولكن مستشار الوزير رفضه، وقال معللاً: «فَلْيَتَّقِ الله الوزيرُ، ولا يُنَصِّبُ إلاَّ مَنْ قد عَرَفَه، واطلعَ على جميع أحواله، ولا يُنَصِّبُ بخيلاً فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم، ولا طماعًا فيشْرَهُ فى أموالهم، فيصادرهم، ويأخذ أموالهم وأملاكهم، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام، ويرجو الثواب فيما يفعله، ولا يُول من عرف نعمة هذا، وبستان هذا، وضيعة هذا وفرس هذا، ومن قد لقى الناس ولقوه، وعاملهم وعاملوه، ويتخيل، ويحسب حساب نعم الناس، وعرف وجوه دخلهم وخرجهم». فقال الوزير: صَدَقْتَ ونَصَحْتَ، فبمن تشير؟ قال: أصْلَحُ الموجود جعفر بن المعتضد. قال: وَيْحُكَ، هو صبى!! قال ابنُ الفرات (المستشار): إلا أنه ابن المعتضد، ولَِمَ نأتِ برجل كاملٍ يباشر الأمور بنفسه، غير محتاج إلينا؟

هكذا بويع للمقتدر بالخلافة، لأنه لا يعرف شيئًا، ولا يستطيع أن يباشر الأمور بنفسه ومن ثم سيظل أسير إرادة وزرائه، فلا يُستغرب أن تتسلط أم الخليفة، وقَهْرَمَانَةُ قصره، وقد صار لهما الحكم فى كل شئون الدولة، وصارت أعظم المناصب تُنال بالرشوة، ويدل قلق منصب «الوزارة» على هذا الاضطراب العام، فقد شغله العباس بن الحسن، ثم ابن الفرات (إبانَّ فتنة ابن المعتز) ثم ابنُ خاقان، ثم على بن عيسى، ثم ابن الفرات مرة ثانية، ثم حامد بن العباس، ثم عبد الله ابن محمد (بن خاقان الوزير الأسبق) ثم أبو العباس الخصيبى ثم ابن مقلة، ثم سليمان بن الحسن، ثم أبو القاسم الكَلْوَذَانى، ثم الحسين بن القاسم، ثم الفضل ابن حَجَر، فهؤلاء اثنا عشر وزيرًا فى أربعة وعشرين عامًا. تولى بعضهم الوزارة أكثر من مرة، ولم ينلها أكثرهم عن جدارة، بل بما بذل من رشوة لا بد أن يستردها مضاعفة، ومهما يكن من أمر فقد قُتل المقتدرُ بعد حكم طويل، وبدأت المشاورات بين أصحاب النفوذ الحقيقى من القادة والحُجَّاب، وهنا ظهرت مسوغات جديدة لاختيار الخليفة، أجملها ابن الأثير فى عبارات قاطعة قال: «لما قُتل المقتدر بالله عظم قتله على مؤنس (مؤنس المظفر الخادم من أصحاب النفوذ

طوال عصر المقتدر، وقد شارك فى تدبير قتله) وقال: الرأى أن ينصب ولده أبو العباس أحمد فى الخلافة، فإنه تربيتى، وهو صبى عاقل. وفيه دين وكرم، ووفاء بما يقول، فإذا جلس فى الخلافة سمحت نفس جدته -والدة المقتدر- وإخوته، وغلمان أبيه ببذل الأموال، ولم يَنْتَطِحْ فى قتل المقتدر عَنْزَان (ما دام ابنه قد أخذ مكانه)، فاعترض عليه أبو يعقوب إسحق بن إسماعيل النُّوبَخْتى، وقال: بعد الكد والتعب، استرحنا من خليفة له أم، وخالة، وخدم يدبرونه، فنعود إلى تلك الحال؟! والله لا نرضى إلا برجل كامل، يدبر نفسه، ويُدَبِّرُنا».

هكذا اختلت مقاييس اختيار الرجال لأجل المناصب، وافترقت بين قطبين متباعدين: لماذا نأتى برجل كامل يباشر الأمور بنفسه، غير محتاج إلينا؟-: والله لا نرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه، ويدبرنا، لقد اختير «القاهر» على هذا الأساس الأخير. ولكنه قُتل بعد عام ونصف عام لا تزيد، لأنه لم يكن رجل المنصب، كما لم يكن رجل جماعة المسلمين، بل كان رجل المصالح، ومحاور النفوذ، واختلاف الظروف، لا غير.

سيكون «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» شاهد صدق على عصر المؤامرات، والاستنزاف الكبير لأهم مصادر القوة فى الدولة الإسلامية: الإنسان.

٢- صورة شخصية:

ليس من شك فى أن كتاب «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» باستطاعته أن منحنا جوانب مهمة من حياة مؤلفه العملية، وملامحه النفسية، ترتيبًا على أن الكاتب -أى كاتب- يُفيض جانبًا من نفسه فيما يكتب، فضلاً عن دلالة الاختيار للموضوع الذى يُؤْثِرُه، وبخاصة حين يكون الموضوع إنسانياً، له مساس مباشر بالحياة الشخصية لكثير من كبراء العصر ومشاهيره، ومع هذا فإن كتب التراجم قد عُنِيَتْ بإيراد بعض التفاصيل التى سيكون باستطاعتها أن تَجْلُو أمامنا صورة هذا القاضى الأديب، وأسباب اختياره لموضوع الفَرَج بعد الشدة دون غيره، وللتَّنُوخى غير هذا الكتاب ديوان شعر وُصِفَ

بأنه كبير، يفوق فى حجمه ديوان والده، وكتاب «نُشوارُ المحاضرة» وقد طبع مؤخرًا فى أجزاء ثمانية[1]، وكتاب «المُستجاد من فَعَلات الأجواد»، ولكن يبقى الكتاب الذى نحن بصدده أكثر إقناعًا لدى كُتَّاب التراجم. وأقدم عبارة مأثورة أطلقها الثعالبى -صاحب يتيمة الدهر- وقد عاصر التَّنُوخى، إذ عاش الثعالبى بين عامى (٣٥٠ و٤٢٩هـ)، وفيها قال مفتتحًا ترجمته: «هلال ذلك القمر، وغصن هاتيك الشجر، والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله، والفرع المثيل لأصله، والنائب عنه فى حياته، والقائم مقامه بعد وفاته، وفيه يقول أبو عبد الله بن الحجاج (من الوافر):

إذا ذُكِرَ القُضاة وهم شُيُوخٌ ... تَخيَّرْتُ الشبابَ على الشيوخِ

وَمَنْ لم يرْضَ لم أُصْفَعْهُ إلاَّ ... بحضرةِ سيدى القاضِى التَّنُوخِى

وله كتاب «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة»، وناهيك بحسنه، وإمتاع فنه، وما جرى من الفأل بيمنه، لا جَرَمَ أنه أسْيَرُ من الأمثال، وأسرَى من الخيال»[2].

وقد ترددت هذه العبارات فيما كتب عن التنوخى بعد الثعالبى، وهى تشير بإلحاح إلى شخصية والده، وكيف كان الولد صورة أبيه أو مستفيدًا من منزلته، وارثًا لمناصبه فى الحقيقة. أما أوفى ترجمة له فنجدها عند ياقوتَ الحَمَوىِّ[3]، وقد أثبت اسمه، فهو: المحسِّن -بكسر السين- ابن على، بن محمد، ابن داود، بن الفَهْم التَّنُوخى، وكنيته أبو على، وقد كان علىٌّ هذا قاضيًا -فيما بعد- وكان يُكْنَى أبا القاسم، وهو نفس اسم جده -والد المحسِّن- وكنيته، وقد كان قاضيًا أيضا، وهناك اختلاف محدود فى سلسلة نسبه، فجاء فى بعض المصادر «ابن أبى الفهم» بدلاً من «ابن الفهم»[4]، كما أضاف ابن العماد الحنبلى تفصيلاً آخر، فداود بن إبراهيم بن تميم[5] وعنه أخذ محسن

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، حققه ونشره عبود الشالجى سنة ١٩٧١، والنشوار: هو ما يظهر من كلام حسن، وهناك مصادر قديمة وحديثة سمته «نشوان المحاضرة» والكتاب أقل تماسكًا -من الوجهة الفنية- من الفرج بعد الشِّدَّة. أما «المستجاد» فقد حققه محمد كرد على ونشره عام ١٩٧٠.

(٢) يتيمة الدهر: ٢/ ٣٤٦.

(٣) معجم الأدباء: ١٧/ ٩٢.

(٤) تاريخ بغداد ص ١٥٥ -والنجوم الزاهرة: ٤/ ١٦٨.

(٥) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب: ٣/ ١١٢.

الأمين -فيما نظن- وأضاف بعدها: القحطانى التنوخى، وربما كان العكس، هو الصحيح[1].

ومهما يكن من أمر، فإنه بشخصية هذا الوالد -«القاضى أبو القاسم على التنوخى»- يبدأ تاريخ صاحبنا وتتحد مكانته الاجتماعية ووِجْهَتُهُ فى التأليف، فقد كان من أعلام عصره، مرموقَ المنزلة، وقد رُوعِيَتْ هذه المنزلة فى اختيار ابنه المحسِّن لمنصب القضاء وهو لا يزال فى شَرْخِ شبابه، بل أُسْبِغَتْ عليه حمايةُ الوزير أبى محمد الـمُهَلَّبِىِّ - وزير مُعِزِّ الدولة البُوَيْهِىِّ - الذى يصفه ابنُ الأثير بأنه «كان كريمًا فاضلاً، ذا عقل ومروءة»[2].

وهذا المشهد الذى اختير فيه المحسن لتولى القضاء جدير بأن يروى، لما له من معانى التواضع والذكاء والإفادة من الفرصة المتاحة. يقول:

«نزل الوزير أبو محمد المهلبى السوس (بلدة بخوزستان) فقصدته للسلام عليه وتجديد العهد بخدمته، فقال لى: بلغنى أنك شهدت عند ابن سيار قاضى الأهواز؟ قلت: نعم. قال: ومن ابن سيار حتى تشهد عنده، وأنت ولدى، وابن أبى القاسم التنوخى أستاذ ابن سيار؟ قلت: ألا إن فى الشهادة عنده مع الحداثة جمالاً - وكانت سنى يومئذ عشرين سنة - قال: وجب أن تجىء إلى الحضرة لأتقدم إلى أبى السائب قاضى القضاة بتقليدك عملاً تقبل أنت فيه شهودًا. قلت: ما فات ذاك إذا أنعم سيدنا الوزير به، وسبيلى إليه الآن مع قبول الشهادة أقرب. فضحك وقال لمن كان بين يديه: انظروا إلى ذكائه كيف اغتنمها؟ ثم قال لى: اخرج معى إلى بغداد. فقبلت يده ودعوت له، وسار من السوس إلى بغداد، ووردت إلى بغداد فى سنة تسع وأربعين وثلثمائة[3] فتقدم إلى أبى السائب فى أمرى، بما دعاه إلى أن قلدنى عملاً بسقى الفرات، وكنت ألازم الوزير

(١) أعيان الشيعة: ٤٢/ ٩٤.

(٢) الكامل فى التاريخ: ٨/ ٥٤٧.

(٣) لعل هذا سبب نص ياقوت أن المحسن ولد سنة ٣٢٩هـ مخالفًا جميع من ترجموا له، واعتمدوا على روايته هو نفسه بأنه ولد سنة ٣٢٧هـ.

أبا محمد، وأحضر طعـامه ومجالس أنسه[1]، وهكذا صار المحسن قاضيًا وهـو لا يكاد يجاوز العـشرين عامًا، وصـار محسوبًا من خـاصة الوزير المهلبى، ولم يقف الأمر عند حـضور طعامه ومجـالس أنسه، فقد ذكر حـادثة تدل على عمق المحبة التـى يكنها الوزير له، والحماية التى يحـرص على بسطها عليه، فـقد كان الوزير فى مجلس عـام ذات يوم، وكان المحسن عنده، ثم جاء الحـاجب يستأذن لدخول أبى السائب -قـاضى القضاة- وهنا استـدنى الوزير المحسن، وتظاهر بأنه يخاطبـه فى أمر خـاص على جانب من السريـة، وقال للمحـسن همسًـا -بينما قـاضى القـضـاة واقف بالبـاب يرى المشـهـد ولا يسـمع وينـتظر إذن الوزير له بالجلوس: «ليس بيننا سـر، وإنما أردت أن يدخل أبو السائب فيـراك تسارنى فى مثل هذا المجلس الحـافل فلا يشك أنك معى فى أمر من أمور الـدولة، فيرهبك ويحشمك ويتوفر عليك ويكرمك فـإنه لا يجىء إلا بالرهبة، وهو يبغضك بزيادة عداوة كانت لأبيك، ولا يشتهى أن يكون له خلف مثلك».

ويسجـل المحسن لنا صـدى هذه العلاقـة الخاصة بـينه وبين الوزير وأثرها على سلوك قـاضى القضـاة تجاهه، فـيقـول: «وجـئت من غد إلى أبى السـائب فكاد يحملنى على رأسه، وأخذ يجاذبنى بضروب من المحادثة والمباسطة وكان ذلك دهرًا طويلاً».

وهناك جانـب آخر من شخـصيـة هذا الأب القاضى، وأشار إليـه ابن خلكان صراحة، وأغفله المحسن، لما يحرص عليه الابن عادة من إجلال سيرة أبيه، وتجنب ذكر ما يمـس نزاهته ووقاره، فقد وصف هـذا الأب بأنه كان إلى فقهـه وقضائه: أديبًا وشاعرًا ظريفًا، وأنه كان من ندمـاء الوزير المهلبى وسماره وتعيين المحسن فى منصب القضاء وهـو لا يزال صغير السن، وإرهاب قاضى القـضاة من أجله دليل على ما كـان بين الوزير والأب، وعبارة ابن خلكان حاسـمة بالنسبة لتـقرير بعض الصـفات، يقـول: «كان الوزير المهلبـى وغيـره من رؤساء العـراق يميلون إليـه، ويتعصبـون له، ويعدونه ريحانة الندماء، وتاريخ الظرفاء، وكان فى جـملة الفقهاء

---

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٩٥، ٩٦، ٩٧- وعن مولده راجع ص ٩٢.

والقضاة الذين ينادمـون الوزير المهلبى، ويجتمعون عنده فى الأسـبوع ليلتين على إطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة»[1].

سنجد «إطراح الحشمة» و «التبسط فـى القصف والخلاعة» فى مجالس الرؤساء ماثلة فى حـياة المحسن أيضًا، كـما سنرى، مع فقـهه وقضائه وجـده، بل سنجد الوصف بالظرف وسرعة الخـاطر مما اشتهر به ابنه على، وكان قاضـيًا أيضًا، يقول عنه ابن شاكـر الكتبى: «وكـان ظريفًا نبـيلاً جيـد النادرة، اجتاز يـومًا فى بعض الدروب، فسمع امرأة تقول لأخرى: كم عمـر بنتك يا أختى؟ فقالت: رزقتها يوم صفع القاضى وضـرب بالسياط، فرفع رأسـه إليها وقال: يا بظراء، صـار صفعى تاريخك، ما وجدت تاريخًا غيره»؟

«. . . وكان يومًا نـائمًا، فاجتاز واحـد غَثٌّ وأزعجه مما يصيح: شِـرَاكُ النِّعال شِرَاك النِّـعال، فقـال لغلامـه: اجمع كل نَعْل فى البـيت وأعطها لـهذا يصلحـها ويشتغـل بها. ثم نام. وأصلحها الإسكافى واشـتغل بها إلى آخر النهـار، ومضى لشأنه. فلما كان فى اليوم الثانى فعل كذلك ولـم يدعه ينام، فقال للغلام: أدخله، فأدخله فقـال له: يا ماصَّ بَظْرَ أمِّه، أمس أصلحْتَ كل نعل عندنا، والـيوم تصيح على بابنا، هل بلغك أننا نتـصافع بالنعال ونقطعهـا؟ قفاه، قفاه. يـا سيدى أتوب ولا أعود أدخل إلى هذا الدرب أبدًا»[2] ومع هذا الظُرف، بل هذه «الخـلاعة» فى استخدام بعض الألفاظ -التى تجنبنا ذكر ما زاد فحشه منها- لا يتردد ابن شاكر فى وصفه بأنه كان شيعيًا مُعتزِليًا، وكان ساكنًا وقورًا».

هذان شعاعـان مُسَلَّطان على شخصـية صاحبنا المحسِّن التَّـنُوخى، أحدهما من والده أبى القـاسم على التنوخى، والآخـر من ابنه أبى القـاسم على بن المحـسِّن التَّنوخِى، ولعلهما أن يكشفا جانبًا لم يَنُصَّ عليه مؤرخو حياة المحسِّن، وهو ظرفه وتسامحه، بل حسه الفنى الذى يكاد يخرج به عن تزمت الفقيه وجد القاضى.

---

(١) وفيات الأعيان الجزء الأول.

(٢) فوات الوفيات: ٣/ ٦٠-٦٢.

لم يقف تأثير الوالد على ولده عند حدود ما استوجب من الرعاية من خاصة أصدقائه، كما رأينا من حدب الوزير المهلبى على المحسن، مع أن هذا الوالد -نديم المهلبى- كان قد مات منذ عام ٣٤٢هـ، أى قبل أن يتولى ابنه القضاء، بسبع سنين، فهناك جانب «الوراثة» التى يمكن أن نلمح آثارها فى مزاج الابن وتنشئته وميوله، وحرصه على أن يسير على النمط الذى سارت عليه حياة أبيه، وهناك جانب ثالث لا يقل أهمية فيما نحن بصدده، فقد شغل هذا الأب منصب القاضى فى أكثر من مكان.

١- رامهُرمُزْ: وهى مدينة من نواحى خُوزِستَان، نستنتج هذا من قول المحسِّن فى صدر الخبر: «أخبرنى أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى، خليفة أبى على القضاء بها...»[1].

٢- الأهواز: نستنتج ذلك من وصفه لمحمد بن بكر الخزاعى - صاحب ابن دُرَيْد - بقوله فى سياق أسانيده: «وكان شيخًا من أهل الأدب والحديث، فقد استوطن الأهواز سنين، وكان ملازمًا لأبى رحمه الله، يتفقده ويبره..».

٣- الكَرْخ: وهى من ضواحى بغداد وأكثر أهلها من الشيعة. نستنتج ذلك من قوله فى إسناد خبر آخر: «وحدثنى أبى رضى الله عنه قال: لما كنت بالكرخ، أتقلد القضاء بها، وبالمرج وأعمالها، كان بوابى رجل من أهل الكرخ».

٤- البصرة: وقد نص عليه ابن خلِّكان، ونقله عنه أحمد أمين[2] وليس من شك فى أن هذا التنقل بين جهات العراق وفارس كان بمثابة المدد الذى لا ينقطع لذاكرة الصبى بالحوادث المتجددة، والنماذج البشرية المختلفة، ومثيرًا لتداعيات التاريخ القريب والبعيد، ولن نعجب إذًا، حين نجد مادة كتابه مستمدة من تاريخ العراق وفارس، فى نسبتها الغالبة، ومن أخبار مدنهما وحكايات شعبيهما.

---

(١) الفَرَجُ بعد الشدة (القسم الثانى) الفصل الخامس، القصة رقم ٥.

(٢) ظهر الإسلام: ١/ ٢٤٠.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان الأب مصدرًا لبعض الأخبار التى رواها ابنه المحسِّن، مبتدئًا بما عاشه هذا الأب من تجارب وما شاهد من رجال وحوادث، أو ناقلاً رواية عن غيره، كما كان مجلسه يجمع أهم أدباء عصره فى البصرة بخاصة، وفيها سمع المحسِّن من أبى بكر الصولى، وهو لم يزل حَدَثًا[1].

لقد مات القاضى أبو القاسم على التَّنُوخِيُّ، وولده المحسن فى الخامسة عَشْرَةَ من عمره، وإذًا فقد قضى فى رعاية أبيه أهم سنوات تكوينه الثقافى، وأفاد إفادةً مباشرة من «النَّدْوَة» الثقافية التى كان يؤمها مثقَّفو البصرة فى بيت هذا الأب المحَدِّث الشاعر الأديب، ولقد كانت البصرة، إلى عصر المحسِّن، عاصمةً ثقافية هامة، تتوارث الرواية عن بوادى نجد والحجاز مما يليها، وتعتبر مستقراً لنوادر الأعراب ولهجاتهم، مما أغنى ثقافة هذه المدينة وجعل منها مدرسة محددة الملامح، شامخة الأثر، فى الشعر واللغة والنحو، وغير ذلك من مكونات الثقافة العربية التراثية، ولم تكن النوادر والأخبار كل ما تعلمه وسمعه المحَسِّنُ فى مجلس أبيه، فقد ذكرت المصادر أنه سمع الحديثَ النبوىَّ ورواه، ويحدد الخطيبُ البَغْدَادِىُّ بداية ذلك بسنةِ ثلاثٍ وثلاثين وثلثمائة، أى أنه سمع الحديث وهو فى نحو السابعة من عمره، وقد سمع من واهب بن يحيى المازنى، وأبى العباس الأثْرَم، ومحمد بن يحيى الصُّولى والحسن بن محمد بن عثمان النَّسوى، وأبى بكر بن دَاسة، وأحمد بن عُبَيْد الصَّفَّار وطبقتهم، ونزل بغداد وأقام بها وحدَّثَ إلى حين وفاته، وكان سماعه صحيحًا[3]. ولا تختلف عبارة ابن خلكان عما قاله البغدادى[2]. أما ابن العماد الحنبلى فإن عبارته تُشعر بأنه استمر فى سماع الأحاديث النبوية حين ترك البصرة إلى بغداد، كما أنه يخالف فى أول سماعه فيجعله سنة ست وثلاثين وثلثمائة[4]. ولعل هذا أقرب إلى القبول، إذ كان المحسِّن فى التاسعة أو العاشرة من عمره.

---

(١) محمد بن يحيى بن عبد الله، أبو بكر الصولى، توفى سنة ٣٣٥هـ، وقد ذكر القاضى التَّنوخى بأنه سمع منه فى البصرة فى هذه السنة، انظر مثلاً: (القسم الثانى) الفصل الرابع، القصة رقم ١١ بعنوان: صفاء البديهة.

(٢) تاريخ بغداد ص ١٥٥، ١٥٦.　　　(٣) وفيات الأعيان: ٤/ ١٦٠.

(٤) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب: ٣/ ١١٢.

لقد تقلب المحسِّن فى وظائف مختلفة وشغل منصب القاضى فى أكثر من مكان، ومما يؤسف له حقّاً أن المصادر التاريخية القريبة من عصره لم تهتم بأن ترتب هذه الوظائف زمنيّاً، مع أهمية ذلك فى تحديد أطوار خبراته العملية، وعلاقة هذه الخبرات بنشاطه التأليفى، ويمكن اعتبار «نُشْوار المحاضرة» مصدراً أساسيّاً للمعرفة بحياته، من حيث قيام مادته على تدوين ما يدور فى المجالس وما يرتبط به من حوادث لم تُدَوَّنْ فى الكتب، وقد بذل محقق «النِّشوار»[1] -عبود الشالجى- جهدًا طيبًا فى تجميع ما يتصل بحياة القاضى التَّنُوخِى مباشرة، وترتيبه فى سياق زمنى متصل، أو شبه متصل. لقد استقر به الأمر فى بغداد عقب توليه قضاء القصر وبابل بسقْى الفرات، سنة ٣٤٩هـ، وأصبح عضواً فى مجلس الوزير المهَلَّبى. ويستنتج المحقق أن المحسن بقى فى بغداد حتى سنة ٣٥٥هـ ، وأن بعض الأعمال المتصلة بالقضاء قد أسندت إليه أيضًا فى تلك الفترة، ثم غاب عن بغداد ما بين عامى (٣٥٥ و ٣٦٠هـ). ثم عاد إليها ليستأنف ما انقطع من وجاهته الاجتماعية التى احتفظ بها برغم هذا الانقطاع. والدلائل تشير إلى أنه كان يتولى قضاء واسط سنة ٣٦٣هـ، وبعدها لجأ التَّنُوخِىّ إلى البطيحة، هاربًا من ابن بَقِيَّة، وزير عز الدولة بُخْتِيَار، وبقى بعيدًا إلى أن وثق صلته بعضُدِ الدولة -ابن عم عِزِّ الدولة وأقوى شخصية فى عصره- وقد كانت بينهما علاقة خاصة تحتاج قدرًا من الاهتمام.

كان عَضُدُ الدولة البُوَيْهِىُّ (توفى سنة ٣٧٢هـ) أديبًا وشاعراً، وحاكمًا حازمًا، وكان بلاطه يحوى نُخبة من الشعراء والأدباء معدودة، وقد قدَّم ياقوت وصفًا لبعض مجالس السمر فى حضرة عضد الدولة، دل على تنوع ثقافة التَّنُوخِى فى الشعر والرواية والموسيقى، مما سنجد عليه أكثر من دليل فى تحليل مادة كتابه، وسنقتطف مما يدل على مزاج القاضى ومنزلته وتطور علاقته. فقد كان يحضر مجالس سمره وفيها الغناء والشرب، ولكنه كان لا يشرب، وكان يعد قصائد يمدح بها عضد الدولة فى بعض مناسباته الخاصة، كما كان يراعلى منزلة هذا

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ١/ ٢٠-٢٤.

الملك الفارسى إذا ما سمع شيئًا من شعره، حدث أن ذكر أحدهم بيتًا من نظم عضد الدولة وهو:

وَشُرْب الكأسِ من صَهْبَاءَ صِرْفٍ ... يَفِيضُ على الشَّروبِ يدَ النُّضارِ

يقول القاضى التنوخى: «فقطعت المذاكرة، وأقبلتُ أعظم البيت، وأفخِّم أمره وأفرط فى استحسانه، والاعتراف بأننى لا أحفظ ما يقاربه فى الحسن والجودة فأذاكر به»(١).

هذا إذًا.. القاضى التنوخى رجل الحاشية وجليس الملوك، وليس الفقيه أو القاضى، أو الناقد الأدبى، ويتأكد هذا حين نراه يُقَبِّلُ الأرضَ شُكرًا حين يُنعم عليه عَضُدُ الدولة بشيء جزيل، يستمر هذا النمط من الحياة إلى أن تحدثَ الوَحْشَةَ، ثم الفُرْقَةُ والعقوبة. وقد جرى ذلك على مرحلتين، فكانت السَّخْطَةُ الأولى بسبب تسرب خبر ألْقى يُشير إلى أن الملك بسبيله إلى القبض على الصاحب بن عَبَّاد، وقد أسْنَدَ هذا التسريب إلى القاضى التَّنُوخى، فجفاه الملك خَمسةً وأربعين يومًا، يشاركه المجلس دون أن يبادله كلمةً أو يرفعَ إليه وجهًا، والقاضى لا يجسر على الانقطاع أو مفاتحة الملك فيما نُسِبَ إليه، إلى أن يدافعَ عن نفسه، ويعترفَ على نفسه بالوشاية بمن سبق أن اختلق الخبر وحمله عليه.

وكان القاضى التَّنُوخى إبَّانَ قُربه من عضد الدولة قد توسط عَقْد مُصاهرة بين الوزير الفارسىِّ، المتَغَلِّب، والخليفة الطائع، إذ تزوج الخليفةُ من ابنة الوزير، ولكنه مع حبه لها وشَغَفه بها، لم يحاول أن يُنجبَ منها تَخَوُّفًا من تزايد المطامع الفارسية، وقد فَطَنَ عَضُدُ الدولة إلى معنى هذا الامتناع عن معاشرة ابنته، فَحَدَّث القاضى التَّنُوخِي فى الأمر، وحَمَّلَهُ رسالةً إلى الخليفة على لسان والدة الصَّبِيَّة بأنها مُسْتَزِيَدَةٌ لإقبال مولانا -الخليفة- عليها وإدنائه إياها. «فقد كُنْتُ وسيطَ هذه المصاهرة. فقلت: السمعَ والطاعةَ، وعدتُ إلى دارى لألبس ثياب دار الخلافة، فاتفق أن زَلِقَتْ وَوَثِئَتْ رِجْلى»!! والحق أن القاضى تَمَارَضَ، وتصنع حادثةَ

---

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ١٠١.

الانزلاق ورضٍّ عِظام رجْله، لعله تخوَّف من الدخــول فى مرحلة خصومــة قادمة بين الخليفة المستضعَف ووزيره القوى. والمهمة فى ذاتها غير مشجعة، وهى تختلف كثيرًا عن الوَسَاطة فى عقد مصاهــرة، وقد كُشفَ أمر التمارض، فصدر أمر الملك للقاضى أن يلزم بيته، وعُزلَ عَن جميع مناصــبه، وصُودِرت أمواله، واستمر ذلك إلى وفاة عضد الدولة(١).

هكذا استــحكمت الشِّدَّة، التى انتــهت إلى «فَرَج» طال انتظاره، وكــان تأليف كتــاب «الفَرَجُ بعد الشِّــدَّة»، بمثابة نوعٍ من العــزاء أو طلب السُّلْوَان وتبديد قــسوة الانتظار. وهذا يعنــى أن القاضى الـتَّنُوخِى ألف كـتابه وقــد جــاوز الأربعــينَ من العمر، وأصبح صــاحب تجربة، ابْتَلَى الحياة وابتَلَتْهُ الحيــاة، وسنجده فى كتابه هذا يتمتع بقَدْرٍ عظيم من التسامح ورَحَابَةِ الصدر، ينمّ على حِكْمَةٍ وبُعْدِ نظر.

خــرجنــا لنستــسـقى بيُـمْـنِ دعــائه ... وقد كاد هُدْبُ الغيْمِ أن يبلغَ الأرْضَا
فلمــا ابْتَـدا يدعـو تَقَـشَّـعَت السَّـمَـا ... فــمـا تَـمَّ إلاَّ والغــمــام قـد انـقـضَّـا

وقال متغزلاً:

أقــولُ لـهــا والحيُّ قــد فَطِنُـوا بنا ... ومــا لى علـى أيدى المَنـون بَرَاحُ:
لما ســاءنى أن وشَّـحَـتْنِى سيـوفُـهُم ... وأنَّكِ لـى دونَ الوِشَــاحِ وِشَــاحُ

يقول الثعالبى فى تقـديمه للبيتين الأخيرين: «وأنشــدنى غيره له وأنا مرتاب له لفــرط جودته وارتفــاعه عن طبـقتــه»(٢) وهى عبــارة دالة على منزلة التَّنُوخى فى الشعر، أما موقعه، أو موقع كتابه بين فنون النثر فى التراث العربى، فهو ما يحتاج إلى عناية وتفصيل.

٣- صورة كتاب:

قسَّمَ القاضى التَّنُوخِى مادة كتابه فى أربعة عشر بابًا أشار إليها فى مقدمته:

---

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ١١٣، ١١٤.

(٢) يتيمة الدهر: ٢/ ٣٤٧.

الباب الأول: ما أنبأ الله تعالى به فى القرآن، من ذكر الفَرَج، بعد البؤس والامتحان.

الباب الثانى: ما جاء فى الآثار، من ذكر الفَرَج بعد اللأواَء، وما يُتوصل به إلى كشف نازلِ الشِّدَّة والبلاء.

الباب الثالث: مَن بُشِّرَ بفَرَج من نُطْقِ فَالٍ، ونجا من محنةٍ بقَولٍ أو دعاءٍ أو ابتهال.

الباب الرابع: مَن استعطف غضب السلطان بصادق لفظ، أو استوقف مكروهه بموقظ بيان أو وعظ.

الباب الخامس: مَن خرج من حبس أو أسر أو اعتقال، إلى سراح وسلامة وصلاح حال.

الباب السادس: مَن فارق شِدَّة إلى رخاء، بعد بُشْرَى منام، لم يَشُبْ صِدْقَ تأويله كذبُ الأحلام.

الباب السابع: مَن استُنقِذَ من كَربٍ وضيق خناق، بإحدى حَالَتى عَمْدٍ أو اتِّفاق.

الباب الثامن: مَن أشفى على أن يُقْتل، فكان الخلاص إليه من القتل أعجل.

الباب التاسع: مَن شارف الموت بحيوانٍ مُهْلكٍ رآه، فكفاه الله سبحانه ذلك بلطفه، ونجَّاه.

الباب العاشر: مَن اشتد بلاؤه بمرض ناله، فعافاه الله تعالى بأيسر سبب، وأقاله.

الباب الحادى عشر: مَن امتُحِنَ من لصوص بسرق أو قطع، فعُوِّض من الارتجاع والخُلْف بأجمل صنع.

الباب الثانى عشر: مَن ألجأه خوف إلى هرب واستتار، فأُبْدِلَ بأمْنٍ، ومُستجدِّ نِعمة، ومسار.

الباب الثالث عشر: مَن نالته شدة فى هواه، فكشفها الله تعالى عنه، وملَّكَهُ مَنْ يَهواه.

الباب الرابع عشر: ما اختير من مُلَحِ الأشعار فى أكثر معانى ما تقدَّم من الأمثال والأخبار.

بعد قراءة عناوين الأبواب، ونظام تتابعها، يمكن أن نكتشف أنها لا تخضع لاعتبار واحد، ومن ثَمَّ فإنها لا تتكامل، بقدر ما يمكن أن تتداخل. إن الأخبار والقصص والحكايات التى اختيرت لتأخذ مكانها فى هذا الكتاب، تم انتقاؤها على أساسٍ من الشكل الفنى: الشِّدَّة -الفَرَج، وهو أساس سليم، يُعَبَّرُ عنه بلغة الفن الأدبى بكلمتى: الأزمة -الحل. ومن هنا كان ينبغى أن يكون أساس التقسيم فنياً، يعتمد على نوع الأزمة، أو أسلوب الحل، ولكن يبدو أن جانب «الموعظة» فى هذه الأخبار القصصية كان الأكثر وضوحًا فى ذهن المؤلف للرابطة النفسية النابعة من التجربة الخاصة، ومن جانب آخر فإننا لا نستطيع أن نُحَمِّلَ التَّنُوخِيَّ صفة التقصير، ولم تكن أمامه تجربة رائدة، كما لم تكن قضايا المنهج مما يهتم له المؤلفون، وسنرى أنه حتى فى إطار هذا التقسيم العام، فى داخل كل باب، كان التَّدَاعِي يقوم بالدور الأساسى فى تتابع الأخبار والقصص. قبل أى اعتبار آخر.

إن البابين: الأول والثانى استحقا الصدارة لمادتهما ذات الصلة بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وقصص الأنبياء السابقين. وقد تسللت إلى بعض هذه القصص أساطيرُ إسرائيليةٌ وغير ذلك دون أن تفقد حقها فى الصدارة لمغزاها الدينى فى نظر المؤلف، وبصفة عامة فإن فِقْراتِ هذين البابين -وإن دخلت تحت عنوان الكتاب- فإنها خارج طابعه العام، فأكثرها أدعية وأذكار تقال عند الشدائد، أثِرَتْ عن بعض الأنبياء والصالحين والمكروبين من غير هؤلاء وأولئك، وكانت سببًا فى تبديد هذه الشدائد، وليس من اليسير اعتبار هذه الأدعية والأذكار قصصًا أو أخبارًا حتى وإن ذُكرت المناسبةُ فى عبارات موجزة، لا تُشكِّلُ منها عملاً فنياً تصويرياً، وهو الطابع العام لهذا الكتاب، ومن جانب آخر فإن وسائل الفَرَج أو ظروفَه فى هذه المأثورات ذاتِ الطابَعِ الدينى كانت تسلكها فى أبواب الكتاب الأخرى،

ولم يكن من داع لاستقلالها سوى هذه «القدسية» التى أسبغها المؤلف على هذا النوع من الأخبار.

لقد رُوعى فى توزيع الأبواب سببُ الشِّدَّة غالبًا، كما رُوعى أسلوبُ الخلاص منها فى أبواب أخرى، وأهمل هذان الاعتباران اكتفاء بمطلق الشِّدَّة أحيانًا، سبب الأزمة أو الشِّدَّة، رُوعى فى الأبواب: الخامس والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر فى حين أن أسلوب الخلاص من الشِّدَّة قد رُوعى فى اختيار مادة الأبواب: الثالث والسادس، فإن التبشير بالفَرَج من نطق فأل، أو بعد منام، ليس مما يدخل فى علاقة السبب والمسبب. وهو ما رُوعى فى أبواب أخرى هى: الرابع والسابع. وفى حين يُراعَى مطلق الشِّدَّة فى الباب الثانى عشر، وهو ما يَعْنِى أنه كان من الممكن توزيع مادته على أبواب سابقة، فإن الباب الأخير، بما اقتبس من أشعار يلمس بدرجة أو أخرى جميع أقسام الكتاب. لعل هذا التداخل كان من أسباب إيثارنا لتقسيم آخر، يقوم على رعاية موضوع القصة أو الخبر.

ومهما يكن من أمر العلاقة المنطقية المنهجية بين أبواب الكتاب فإننا لا نستطيع أن نوجه لومًا إلى القاضى التَّنُوخِىّ، لقد كان « الاستطراد والتذكر بالمناسبة» أسلوبًا مقبولاً لتأليف الكتب، وبخاصة تلك التى تعتمد على الرواية والرواة، فهذا التعويل الشديد على المشافهة والسماع يجعل المادةَ الكلاميةَ فى حالة من الاستقلال والتشابك فى الوقت نفسه: الاستقلال بذاتها دون وقوف عند «موضع الشاهد» أو «بيت القصيد» أو «العبرة»، لأن الراوى لا بد أن يؤدى الخبر كما انتهى إليه بكل ملابساته، ثم يأتى التشابك من خلال مسارب متعددة، فقد يسترسل الراوى نفسُهُ فى قصص أخرى لا يُستبعَد أن تخالفَ أو تناقضَ ما سبق أن رواه، وقد تُشبهه فى المغزى وتختلف فى الشخصيات التى صنعت الخبر، أو العصر الذى تنتمى إليه.
قبل التَّنُوخِىّ بقرن ونصف القرن تقريبًا ألَّف الجَاحظُ كتابه الشهير «البُخَلاءَ»، وهو محكوم بعنوانه مثل «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» ومع هذا فإن الجاحظ لم يبذل جهدًا فى تقسيم مادته حسب العصور أو البيئات أو أنواع السلوك التى يعتنقها البخلاء.

وبصفة عامة، فإننا يمكن أن نتلمس الاعـتبارات التى يرجح أن الكاتب وضعها موضع الاعتبار عن قصد أو مستهديًا حسه الفنى دون أن يقصد إلى ذلك قصدًا.

أول هذه الاعتبارات: التدرج فى تنمية الشكل الفنى من البساطة إلى التعـقيد، ومن الإيجاز إلى الإطالة والإشباع، ومن الغيـبى الدينى، إلى الواقعى الاجتماعى. يبدأ بالأدعية والأذكار فى مواطن الشِّدَّة التى تعرَّض لها الأنبياء، من آدم إلى محمد عليه السلام، ويغـادر الأنبياء وقصصهم إلى مَن يلوذ بهم من الأوليـاء والصالحين. كما يغـادر «المعجزة» إلى «الكرامة» ثم يمضى إلى المواجـهة بين ذوى السلطان ومن يدور فى فلكهم من الوزراء والعـمَّال، أو المواجـهة بين واحد مـن هؤلاء وشخصٍ مغمور دَفعَتْ به الحوادثُ الـمُستجدَّة إلى براثنهم فنجّاه الله بموعظةٍ أو كلمةِ صِدْقٍ، ثم يتدرج إلى قصص اللصوص وقُطَّاع الطُرق وحيلِهم وما حاق بالنَاس من شرهم، وحين يبلغ الباب قبل الأخير -وقد عقـده لقصص المحبين والعُشَّاق- فإنه يكون قد بلغ أعلى درجات الـتركيب الفنى جـودة، كما يتـمكن من اتخاذ قـصة الحب هذه وسيلة إلى الغـوص فى حياة المجـتمع -بكل طبقاته تـقريبًا- والغوص إلى أعـماقٍ جديدة فى النفس الإنسانية لم يبلغها فى قصصه السابقة.

الاعتبـار الثانى: استـدرار المادة القصصـية بطريق التداعى، وقـد أشرنا إلى هذا الجـانب منذ قليل، فـعلى الرغم من توزيع مـادة الكتـاب فى أبواب ذات عناوين تحاول أن تكون مـحددة -وهذا مـا لم يتحقق- فـإن التداعى داخل قـصص الباب الواحد قد لعب الدورَ الأساسىَّ فى ترتيب هـذه القصص، للأسباب التى أسلفنا، ونتيجـة لذلك فإن طابع «المسامرة» قـد غلب على الكتاب، وقد كـانت «المسامرة» التى يُفَضِّل القاضى التَّنُوخِىُّ أن يدعوَها «المذاكرة» مصدرًا رئيسيًا لإمداده بالقصص فى مجلس أبيه، وقد ترددت هذه العبارة فى صـدر عدد من قصصه: «حدَّثنى أبى فى المذاكـرة، من لفظه وحفظه، ولم أكـتبـه فى الحال، وعَلِق بحـفظى، والمعنى واحـد، ولعل اللفظ يزيد أو ينقص»، بـل إنه ينص على هذه المذاكـرة فى عنوان كتابه الآخر: «نُشوار المحاضرة وأخبارُ المذاكرة».

ويمكن أن نحصر أنواع التداعى التى استخدمت فى ترتيب القصص فى الآتى:

أ- تَدَاعٍ مصدره شخصية «البطل» الذى يدور الخبر من حوله، مثل ذكره لأبيات دَلَّسَ بها الشاعر البحترى على «المعتز» فى سجنه قبل أن يصير خليفة (القسم الثانى: الفصل الثانى -القصة رقم ١٧) فتستدعى أبيات البحترى إلى خاطره أبياتًا أخرى قالها لشخص آخر وقع فى شدة، وذلك هو أبو سعيد الثغرى الذى سجنه المتوكل وصادر أمواله، فتألم له البحترى فى أبيات، كان وصولها إلى أسماع المتوكل سببًا فى إطلاق الثغرى من حبسه، وتوليته، ثم يقول فى الخبر التالى: «ومن محاسن شعر البحترى، الذى يتعلق بهذا الباب، وإن كان تعلقًا ضعيفًا، إلا أن الشىء بالشىء يذكر ولا سيما إذا قاربه»، ثم يأتى بأبيات للبحترى قالها مهنئًا إبراهيم بن المدبر حين فرَّج الله شدَّته، بعد أن أسقط فى أسر الزنج، وتمكن من نقب السجن والهرب.. إلخ، ونستطيع أن نقول: إن التداعى الذى يرجع إلى شخصية البطل لم يستخدم كثيرًا، والقصص والأخبار الخاصة بالرشيد، والحجاج، والبرامكة، والمنصور، والمأمون -على كثرتها النسبية- ليست متتالية، وأحيانًا ليست متقاربة إذا احتكم فيها إلى اعتبارات أخرى.

ب- تداعٍ مصدره شخصية الراوى، أو الكتاب الذى ينقل عنه، وبالنسبة لشخصية الراوية فإنه نقل كثيرًا عن الصولى، كما تتكرر عنده سلسلة الرواية عن أبى قيراط وولديه. وقد يحدث أن يعتمد على النقل من مصدر واحد قصصًا متتابعة، وبخاصة حين يكون هذا المصدر محدد الموضوع، ومِنْ ثَمَّ يمكن أن تتجمع قصصه وأخباره فى إطار معنوى واحد. وقد حدث هذا كثيرًا عند النقل عن الجَهشيَارِى[1]، وجدير بالذكر أن المصدر واحد، وهو كتاب الوزراء والكتَّاب، والموضوع واحد أيضًا، حسْب ما شَرَطَ على نفسه فى توزيع الأبواب، ولكن البطل مختلفٌ فى كل قصة، بل إن الموضوع يختلف كثيرًا إذا دققنا فى مغزاه وتركيبه، ويحدث الأمر نفسه عند النقل عن المدائنى، ولا نستطرد فى هذا الجانب الواضح، أما تداعيات الراوية أو السلسلة من الرواة فإنها أقل تأثيرًا، بالإضافة إلى

(١) محمد بن عَبْدُوس الجَهْشيارى صاحب كتاب «الوزراء والكتّاب» نشر بتحقيق مصطفى السقا وآخران.

أبى قيراط، يمكن أن نجد قصصًا متابعة من رواية: يحيى بن فهد الأزدى، وسعد ابن محمد الأزدى، الشاعر المعروف بالوحيد، وعبد الله بن محمد الصَّرَوِى، كما تكررت سلسلة: على بن أبى الطيب، عن ابن الجَرَاح، عن ابن أبى الدنيا، متقاربة ومتباعدة.

جـ- تداعٍ مصدره المغزى الدقيق للحادثة، أو المعنى اللغوى لها، من النوع الأول: ما حلم به الإسكندر الأكبر، إذ رأى فى منامه كأنه صارع دَارًا -ملك الفُرس- فصرعه دارا، فكَرَبَهُ ذلك وزاد همَّه، ولكن عبارة الرؤيا أشارت إلى أن الإسكندر هو الذى سَيَظْفَرُ بخَصمه، وقد قال له بعض فلاسفته معللاً: «أبشر أيها الملك بالغَلَبَةِ والنصر، فإنك تغلب دَارًا على الأرض؛ لأنك كُنْتَ تِليها لما صَرَعَك»!!

ويستدعى هذا رؤيا رآها عبد الله بن الزبير إِبّانَ صراعه مع عبدَ الملك ابن مروان، فصرع عبدَ الملك، وسمَّرَه فى الأرض بأربعة أوتاد. وقد فسَّر ابنُ سيرينَ هذه الرؤيا بانتصارِ عبد الملك، للأسباب ذاتها التى أعلنها الفيلسوف اليونانى، ويزيد تفصيلاً أن الأوتاد الأربعة هم أولادُ عبد الملك الأربعة الذين يرثون مُلْكه من بعده.

أما التداعى اللغوى فنجده ماثلاً فى حادثة الخلع الثانى للخليفة المُقْتَدِر، يرويها فتذكره بِخَلْع الأمين، مع فارق فى الدوافع والنتائج، يستدعى منه أن يعود إلى حادثة الخلع الأول للمقتدر.

الاعتبار الثالث: الاهتمامُ بتوثيق المادة المَرْوِيَة، سواء أكانت تاريخًا مروياً أبطاله أشخاص معروفون، أو كانت مجرد أخبار عن نكِرَات من عامة الناس، أو كانت حكاياتٍ وضُعت لسبب أو لآخر، كالوعظ والتعليم، وظلت واضحة الاختراع والوضع برغم ذلك.

لقد حرص القاضى التَّنوخِىّ على تسجيل كيفية وصول الخبر أو القصة إليه، ومن هنا كثر ترديد كلمات: حدَّثنى، أخبرنى، حدَّثنا، أخبرنا، إذا ما كانت

المُشَافَهةُ والسَّماعُ طريقةَ التوصيل، وكلمات: «وجدتُ بخط القاضى أبى جعفر»، «وقد ذكر محمد بن داود فى كتابه المسمى كتاب الوزراء»، وما إلى ذلك من عبارات تؤكد صلته المباشرة بالمصدر الذى نقل عنه. وسنعود إلى هذه النقطة بشىء من التفصيل حين نناقش مصادر المؤلف.

الاعتبار الرابع: أن المؤلف التزم بحدود العُنوان الذى اختاره لكتابه، ومع معرفتنا بتكوينه الثقافى الذى تغلب عليه طبيعةُ الفَقِيه، ونشاطه العملى الذى لابد أن يكون قد اصْطَبَغَ بِصِبْغَةِ القاضى، فإنه لم يحتكم إلى فقهه أو قضائه فى انتقاء مختاراته من الأخبار والقصص والحكايات الشعبية، لقد كان يُخفى حِساً فنيا رَحْبًا، يَهَشُّ لروعة المفاجأة ويستجيب لمواطن المُفارقة، ويتجاوب مع الفرح بالحياة، سواء اتفق هذا مع جد الحياة، وعدالة السلوك والحكم أو ناقضه، وربما دلَّت الأبيات القلائل التى اقتبسناها له على شىء من ذلك، ومن الواضح أن قَبُوله منادمةَ مشاهير عصره، وبخاصة عَضُدُ الدولة، وقبولَ أن يكون شاهدًا لما فى هذه المجالس من مخالفة ما ينبغى الْتزامُهُ، حتى وإن لم يُشارك فى الفِعْل، يدل على هذا التسامح السلوكى، ولابد أنه كان يستجيب بطبعه إلى هذه الحياة، وقد ذكر فى «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» قصةَ صاحب الشُرطة الذى رفض أن يكون نديمًا للخليفة، لأن هذا يناقض طَبْعَهُ وانضباطَ مهنته، وبعد جَفْوَةٍ قصيرة، قَبلَ منه الخليفةُ هذا التفسير، بعبارة أخرى: لو أن القاضى التَّنُوخِيَّ لا يملك رغبةً دَفِينَةً فى تَذَوُّقِ مباهج الحياة ومُشاهدة مسرَّاتِها، ما استطاع أحدٌ إكراهَهُ على ذلك.

هذه صورة شديدةُ العمومية للكتاب، تحتاج إلى أن نعود إلى تأمل نواحيها بشىء من التفصيل، من خلال علاقة القاضى التَّنُوخِيّ بموضوع «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة».

●●●

الفصل الثانى

الذات والموضوع

١- حسّ الفنان:

لم يكن القاضى التَّنُوخِيُّ مُبْتَدِعَ عنوان «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة»، فهو مسبوق إليه، كما سنرى، ومع هذا فإن هذا الاختيار لعنوان كتابه، يبدو وكأنه صادر عن نفسه، معبِّر عن رؤيته لنظام الكون ونظام الحياة. لقد اجتاز محنةً شخصية كانت هى الدافع المباشر لتأليف الكتاب، ولكننا نعرف أن «نقطة التحريك» التى تدفع كاتبًا ما إلى الاهتمام بموضوع معيَّن، لا تَعْنِى بالضرورة أن تظل هذه النقطةُ أو هذا الحافزُ الشخصىُّ، يظل مسيطرًا على أفكار المؤلف، وإلا لتشابهت الكتبُ ذاتُ الموضوع الواحد، أو الحافزِ الواحد. سيعود الأمر إلى حجم ذخيرة المؤلف من المعرفة، ومدى انفساح عقله وروحه، للموافَقة أو المخالفةَ، ودرايته الفنية بأساليب القول، وقدرتِهِ على استَبْطَانِ ما هو ظاهر، والغوصِ إلى الرموز والدِّلالات. وفى كل هذه الجوانب ودون أن نعمَد إلى الموازنة التفصيلية بين ما كتب التَّنُوخِىّ، وما كتب سابقوه فى إطار الفَرَج بعد الشِّدَّة، قدَّمَ التَّنُوخِى من براهين اتساع الأفق، والقدرة على الغفران، والحدب على الضعف الإنسانى ومجانبة التزمت والعُنْف، ما يؤكد امتلاء نفسه بحسٍّ الفَنَّان واستنارةِ بصيرته، حتى إن ذلك كان يؤدى به أحيانًا إلى الخروج عما شَرَطَ على نفسه فى عنوان كتابه، وإلى مجانبة الجِد، بل مُناقضة الهدف الأخلاقىِّ الذى حَرَصَ عليه أحيانًا، وأهمله أحيانًا، من زاوية أن «الأخلاقَ ليست شرطًا للفن الجميل، وهذه مَقُولَةٌ لم يبتدعها القاضى التَّنُوخِىُّ، وقد عُرِفَتْ قبل عصره فرددها الجاحظُ فى كتاباته، وبخاصة فى «المحاسن والأضداد» وافتتح بها محمد بن سلام الجمحى كتابه «طبقات فحول الشعراء»[1]، ثم نصَّ عليها قدامة ابن جعفر صراحة[2] وهو يكاد يكون معاصرًا للقاضى التَّنُوخِىّ (توفى قدامة سنة ٣٣٧هـ)

---

(١) طبقات فحول الشعراء - المقدمة.

(٢) فى كتابه: نقد الشعر ص ٦٥.

فلا نستغرب أن نجد هذا القدر من «التسامح» فى الكتاب، فهو -على أية حال- مسبوق بتسامحه السلوكى، النابع من إحساس الفنان، ورجل الحاشية معًا، لقد اقتنع القاضى التّنوخِىّ بأن وراء كل شِّدَّة فرجًا: «إن الله بحكمته، أجرى أمورَ عباده، وأغْذياء نعمته، منذ خلَقَهم، وإلى أن يقبضهم، على التَّقَلّب بين شِدَّة ورَخاء... علمًا منه تعالى بعواقب الأمور، ومصلحة الكافة والجمهور»(١).

إن الأساسَ الغَيْبِىَّ القَدَرِىَّ ثابتُ عند المؤلف، فالفَرَجُ من الله سبحانه، وهو يسبب الأسباب، ولهذا يبدأ كتابه بآيات اليُسْر الذى يُقاوِم العُسر، ومَنْ يجيب المُضْطَرَّ إذا دعاه ويَكْشِفُ السوء، ثم يُثَنّى بما ابتُلِىَ به الأنبياءُ من مِحَنٍ، وكيف ذهب الكيْد البَشرىّ هباءً حين أرادت السماء أن تنصر رُسُلَهَا، ومعَ هذا فإن المشاركة الإنسانية فى رفع البلاء عن المكروبين من القِيَم الدينية الثابتة، فإذا جاء الحديث الشريف بأن: «أفضلَ أعمال أمَّتى انتظارُ الفَرَجِ من الله عزَّ وجَلَّ» فقد نص حديث آخر على أن: «مَنْ ستَرَ أخاه المسلم ستَرَهُ الله يومَ القيامة، ومَنْ نَفَّسَ عن أخيه كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا، نَفَّسَ الله عنه كُرْبَةً من كُرَبِ يوم القيامة، وإنَّ الله فى عَوْنِ العبْد ما كان العبدُ فى عونِ أخيه»، وبعد إقرار هذين المبدأين: أن الفَرَجَ من الله سبحانه، وأن هذا لا يُعفِى الإنسانَ من مشاركة الآخرين فى التغلُّب على صعابهم، يسجل القاضى التّنوخِىّ رسالةَ الشاعرَ أبى الفرج البَبَّغَاء التى أرسلها إليه إبّانَ محنته حينَ صَرَفَهُ عَضُدُ الدولة عن جميع وظائفه واعتقله فى بيته، وفيها يكشف قانون كَوْنِىّ لا فِكَاكَ منه، وهو دَوْرَةُ الكَوْنِ والفساد، وتلازمهما، فلكل شىء إذا مَا تَمّ نُقصانُ، لهذا من حقنا أن نغتبط عند احتكام الأزمة، واشتداد الضائقة، إذْ ليس بعد ذلك إلا الفَرَج «لأن انتهاءَ الشىءِ إلى حَدِّه، ناقلٌ له عما كان عليه ضدّه، فتكاد المحنة بهذه القاعدة، لاقترانها من الفَرَج بفسيح الرجاء، وانتهاء الشِّدَّة منها إلى مستجد الرخاء، أن تكون أحقَّ بأسماء النِعَم».

ثم ينتقل المؤلف مرحلة إلى إضافة أخرى، يعالج بها مرحلة «التَّوَقُّعَ للشِّدَّة، وهى عادةً تسبق مرحلة «الوقوع» فيها، وهو يرفُضُها من مُنطلق فلسفى يعتمد على

---

(١) انظر مقدمة المؤلف.

مبدأ «الاحتمال» فما دام وقوع الشدائد مجرد احتمال، لا يرتفع إلى درجة المستحيل، ولا إلى المحتم الوقوع فإن نسبة الحدوث تتساوى ونسبةَ عَدَم الحدوث، ومن هنا «لاَ يَغْلِبَنَّ على قلبك، إذا اغْتَممْتَ ما تكره دون ما تحب، فلعل العاقبةَ تكون بما تحب، وتَوقِّى ما تكره، فتكون كمن يَسْتسلِفُ الغَمَّ والخوفَ».

ثم تكتمل رؤية القاضى التَّنُوخِىِّ بربط الفعل البشرىِّ بالإرادة الإلهية، فاكتمالُ هذه الإرادة ونفاذُها لا يَعْنِى تعطيلَ الفعلِ البَشرى أو عبثَ السَّعْى عن حل لما يُعانى الإنسان، فهناك دائمًا دَوْرٌ أساسىٌّ للفكر الإنسانى، والفعل الإنسانى، والحيلة الإنسانية، وإذا بَذَلَ الإنسانُ جهَده كلَّه فى البحث والمحاولة، فإنه لابد واجدُ وسيلَةً، فإذا عجزت الوسائل، فإنه لم يعد أمامه إلا انتظار الفَرَج من الله تعالى.

هذا -إذًا- الإطارُ العام الذى تحرك فيه معنى الشِّدَّة، وجَهْدُ الإنسان فى البحث عن مَخرج، أو عن «فَرَجٍ» يقاوم به معاناته، ولأنه أعطى الجُهْد الإنسانى دوراً أساسياً فإن هذا الجُهْد، من حيث يحتكم إلى فِطرته الخاصة، وتجاربه السابقة وأسلوبه فى العمل ومستواه فى التفكير، وطبيعة المجتمع الذى يتحرَّك بين أقطاره، يمكن لهذا الجُهْد أن ينساق إلى أعمال وأقوال، تبتعد -بدرجة أو بأخرى- عن مفهوم الفَرَج الإلهى، الذى ينتظر -عادة- هناك، فى نهاية المطاف، عندما تعجز كلُّ الوسائل البَشرية، ومن ثَمَّ يمكن لهذا الجُهْدِ أن يقع فى مخالفات دينية واضحة، وهفوات سلوكية لا خلافَ على خطئها، ومجانبة للعفة والنزاهة والصدق. والجدير بالتأمل حقاً أن القاضى التَّنُوخِىَّ قد سجَّل ستَّ عشْرَةَ قصة، أو خبرًا من هذا النوع، دون أن يُرْفِقَها بأى تعليقٌ يظهر ما تقوم عليه من تناقض أو مخالفة، وهنا لم يكن فقيهًا يبحث فى الحلال والحرام، وما يجوز وما لا يجوز، ولم يكن قاضيًا يُعْنَى بإصدار الأحكام على كل ما يُشاهد من أفعال، وما يسمع من أقوال، لقد كان فَنّانًا وحسب. كانت الحاسة الفنية تؤدى واجبَها فى التقاط الحادثة النادرة، وتسجيل الحوار المُتَّسِم بالذكاء، والألمعية، واصطياد الحل المفاجئ غير المتوقع وتحليل المواقف الظريفة، دون أن يَشْغَلَ نفسَه

بإصدار الأحكام الأخلاقية على هذا كله، أو على شيء منه، وجدير بالذكر أن هذا النوعَ من القصص والأخبار ينتشر على مساحة الكتاب في جملته، وهذا يَعْني رسوخَ الإيمان الفني والاقتناع بالمفهوم العملي للفَرَج، هذا المفهوم الذي ينهض على التصوّر الاجتماعي لمعنى جَلاء الهَمّ، وكشف الغَمّ، بصرف النظر عن طبيعة هذا الهَمّ، والأسلوب الذي اتبع في كشفه.

أول ما نصادف من قصص هذا النوع ما نقله عن بعض الكتب: أن رجلين أتىَ بهما إلى بعض الولاة، وقد ثبت على أحدهما الزَّنْدَقَةُ، وعلى الآخر شُرْبُ الخمر: فسلَّم الوالي الرجلين إلى بعض أصحابه، وقال له: اضرب عنق هذا: وأشار إلى الزِّنْديق، وحِدَّ هذا: وأشار إلى الشارب.

وقال: خذهما.

فلما ذهب بهما ليخرجا، قال شاربُ الخمر للوالي: أيها الأمير، سَلِّمني إلى غير هذا ليقيم عليَّ الحدّ، فلستُ آمنُ أن يَغْلَطَ فيضربَ عنقي، ويُحِدَّ صاحبي، والغلط في هذا لا يُتلافى!!.

فضحك منه الأمير وخَلَّى سبيله ، وضرب رقبة الزّنْديق.

ومثل ذلك ما يروى في خبر آخر، أن رجلاً قامت عليه البَيِّنَةُ بالسرِقة، ووقف أمام عبد الملك بنِ مَرْوَان، ليأمرَ بإقامة الحدّ عليه، فأمر بقطع يده. فأنشده الرجل بيتين، يتحسر على يده، ويبتهلُ إلى عبد الملك أن يعفوَ عنه، فكان ردُّ الخليفة: هذا حَدٌّ من حدود الله تعالى ولا بد من إقامته عليك.

وهنا تكلمت أُمُّ المحكوم عليه، وهي كبيرة السن. تستعطف أمير المؤمنين لابنها الذي يَعُولُها وأنه ابنُها الوحيد، وتسأله أن يَهَبَهُ لها. ولكن قلب الخليفة لم يَلِنْ لرجاء العجوز، ووصف ابنها بالسوء؛ وأنه لا بد من إقامة حدود الله عَزَّ وجَلَّ.

وهنا قالت العجوز: يا أميرَ المؤمنين، اجعلْهُ من ذنوبِك التي تستغفرُ الله منها!! وهنا أمر عبدُ الملك بإطلاق الفتَى والعفو عنه.

فى هذين الخبرين يُعَطَّل حَدٌّ شرعى، فى مقابل المفارقة اللاذعة، والنكتة المحبوكة التى لجأ إليها السكران فى الخبر الأول، ولروعة التعبير وقُدْرته على تحريك مخاوف الإنسان، وبخاصة مَنْ يتصدى للحكم، ويعرف أنه ليس معصومًا عن الخطأ، ولعله ظَلَمَ أو أخطأ من قبل، وأنه لابد قد اقترف ذنوبًا أعظم من «خطيئة العفو» عن ولد وحيدٍ يَعُولُ أُمَّه العجوز، فى الخبر الثانى.

أما أعشى هَمْدَان، وكان من شعراء الكوفة وفقهائها فى زمن الحَجَّاج، فقد غزا مع الجيش الإسلامى بلاد الدَّيْلَم، فوقع فى أسرهم مدة، وحُبِسَ فى بيت المقاتل الذى أسَرَهُ، وكان لهذا الدَّيْلَمىِّ بنتٌ، رأت الأعشى، فهويته وتسللتْ إليه ليلاً، فكان ما كان بين الأسير والفتاة، وأعجبها فعرضت عليه أن تعاونَه على الهرب، على شريطة أن يأخذها معه، ويصطفيها لنفسه، وهكذا هرب أعشى همْدان.

أما ابن الموصول، وهو بَزَّازٌ (تاجر حرير) من حلب، فقد حبسه سيف الدولة لضرائب كانت متأخرة عليه، وكان ابن الموصول حاذقًا فى تفسير الأحلام، ومن ثَمَّ اخترع لنفسه حُلْمًا، تفسيره أنه لا بد أن يُطلق من حبسه هذا اليوم، وعلى الفور طلب مقابلةَ سيف الدولة، وحكى له رؤياه الملفَّقة، وفسَّرها بين يديه بأنه يجب إخراجهُ من الحبس فى نفس اليوم، فقال له الأمير: أحسنتَ التأويل، والأمرُ على ما ذكرتَ، وقد أطلقتُكَ، وسوَّغْتكَ خَرَاجَكَ فى هذه السنة، فخرج الرجل يشكره، ويدعو له!

وفى قصة طويلة نجد منامًا آخر، حَلَمَ به الخليفة العباسى المعتمد على الله ومضمونه أنه رأى النبىَّ عليه السلام فى المنام، وأنه أمره بإطلاق سراح رجلين مظلومين فى سجونه، فاستيقظَ من غفوته وأمر بإطلاقهما، وسمع منهما أسباب حبسهما، وعرف أنهما مظلومان. لا غرابة فى أن يرى إنسانٌ ما رسولَ الله ﷺ فى منامه، ولكنَّ الغرابة أن الخليفة قبل أن يَغْفُوَ كان جالسًا بين ندمائه يَسْمُرُ، فَحَمَلَ عليه النبيذُ، فجعل يخفِقُ برأسهُ نعاسًا (القسم الثانى -الفصل الأول، القصة رقم ١١).

فكما نرى فإنه فى حال لا يصح معها أن يرى رسول الله فى منامه، والمثير للتأمل أن القاضى التَّنُوخِىّ يورد القصة ذاتَها برواية أخرى، ويكون هاتفُ المنام

فيها رجلاً مجهولاً وليس النبىَّ عليه السلام، وفى هذه الرواية الثانيةُ يُوصفُ خليفةُ المسلمين بأنه كثيرَ الشراب وأنه إذا شرب يُعْربِدُ على جلسائه، وأنه فى الصباح، حين ذُكِرَ أمامَه إطلاقُ سَرَاح الرجلين المحبوسين لم يَذْكُرْ شيئًا مما أمَرَ به وهو تحت تأثير الخمر، والقاضى التَّنُوخِىّ يُسجِّل الروايتين دون أن يُشكِّكَ فى صدق رؤية النبى فى الأولى، أو بُعْدِ الاحتمال فى الثانية. إن الفَرَج قد أدرك السجينَ، وهذا هو جوهر الموضوع، هكذا تتعدد المواقف التى يُسرع فيها «الفَرَجُ» لمن لا يستحقه كجائزة على سلوكٍ أخلاقى، أو اعتقاد صالح، أو صبرٍ جمل، أو بَذْلٍ طيب. إن الفَرَجَ -فيما تقدَّم- ثمرةُ ذكاء يَخْتَلِق، أو يُلفق أو يحتال، أو يتوهم، وهو فى كل هذا كله يصدر عن سلوكٍ نَفْعِىٍّ، وموقف انتهازى، وفى أحسن الأحوال، أوهام الغيبوبة.

ونجد فى قصص أخرى ما هو أشد مُنَاقَضَةَ لمعنى الفَرَج مما تقدّم، ففى أسوأ التصورات لا نجد أحدًا ممن تقدَّم قد أنْزَلَ الضرر بشخصٍ آخر، وإن حصَّلَ لنفسه منفعةً عاجلة، أو أزال عنها خسارةً مُتوقعة. أما النماذجُ التى سنعرض لها الآن، فإنها تصرخ بالتجنىٍّ على برىء، واختلاس حقٍّ ضحية بلا جريرة، والتعدّى على حرماتٍ تستحق أن تُصانَ، وتُصانَ أعراضُ أصحابها. فهذا ابنُ قُمَيْر، مُجَلِّدُ الكتب بالمُوصِل، يأخذ دفترًا لتجليده لأحد القادة الأشداء. الذى يُسرف فى توصية ابن قمير بالحرص على الدفتر، لكنه يسقط فى الماء عند قيامه بالوضوء من النهر، فيُدركه وقد ابتل، ولا يجدَ مَفراً من أن يُجَلِّدَهُ ويحاولَ سَتْر ما حدث دون جدوى، ويَعْزِمُ على إعطاء الدفتر لحارس الباب، والانصراف والهرب قبلَ إدراكه، لكنَّ حارس الباب يُعلمه أن القائد بالداخل، والأوفقَ أن يقدّم له الدفتر بنفسه، وهكذا أسْقِطَ فى يده وتوقع شر عقوبة. ولكنه حين أدْخِلَ وجد القائدَ الشرسَ يجلسَ فى صَحْنِ القصر أمام بِرْكَةِ ماء. وأخرج ابنُ قُمير الدفتر من كُمِّهِ وناوله لأحدِ الغِلْمان، ولكنه سقط من يدِ الغلام فى البركة أمام عينَىْ سيده، الذى أنزل بالغلام المسكين عقوبةَ الضرب بالمقارع، لأنه أفسد دفتره العزيز!! فأى فَرَجٍ، وأى ظلم؟

وتتكرر قصة مَنْ تسوقُه ظروفٌ قاسية إلى مكانٍ موحش، فيجد فيه لصوصًا وقَتَلَة، قد قتلوا نفوسًا بريئة، وسرقوا مالاً حرامًا، فيغافلُهم ويهربُ بمسروقاتهم، ويظهرُ فى مكانٍ آخر وقد صار من الأثرياء، دون أن يَطْرِفَ له رمْش، ودون أن يُطلِقَ المؤلفُ فى أعقابه عبارةَ تَعَجُّب، فضلاً عن استنكار، بل إن منتهب قاطع الطريق، وقد استولى على كل ما خَبَّأ يقول بلهجة نستطيع أن نجد نغمة المباهاة فى تركيبها: «وفزتُ بمالٍ عظيم أغنانى عن مقصدى وعدتُ إلى بلدى» (القسم الثانى -الفصل الأول- قصة رقم ١٣).

ولا يختلف عن ذلك كثيرًا ما فعله ابن عَبْدون الأنبارى الكاتب، وقد خرج من بغداد لا يجد قوتَ يومه، ثم تسوقه الظروف إلى مصر، إبَّانَ ثورة أقباطها فى عصر المأمون، فلما جاء جيش الخلافة هرب كثير من الأسْرِ، ثم مُنِحوا الأمان، وجنى ابنُ عبدون من رَشَاوَى بذل الأمان «فى ليلة واحدة، مائة ألف دينار حلالاً طيبًا».

أما سلاَّمةُ القسّ فقد استمعت إلى نصيحة ابن أبى عتيق، وتمكنت من إلغاء قرار عثمانَ بن حيّان المُرِّىْ، والى المدينة، بتطهيرها من الغناء والزنا، فبقى كل شىء على حاله، وكان الفَرَج!! (القسم الثانى -الفصل الأول- قصة رقم ١٤).

وحين نصل إلى قصص عُشَّاق العرب فإن الفَرَج سيكون أبدًا ماثلاً فى خداع الزوج، أو الضمير العام، وتمكّن العاشق من بلوغ مرامه من معشوقته، فالأشْترُ يعشَق جَيْداء، وهى زوجة، ويضرب لها موعدًا عند الشجيرات، «ولقيها فقبَّل بين عينيها» وقررت أن تقضِىَ ليلتها معه وتخدَعَ زوجَها عن غيابها، فترسل بصديق عشيقها وقد ارتدى ثيابَها ونام فى فراشها إلى الصباح، وجازت الخُدْعَةُ على الزوج الضحية ونَعِمَ الحبيبان بليلة ليس فيها رقيب!!

أما الأسدىّ الذى هَوِىَ امرأةَ من هَمْدان بالكوفة فإنه أثار قلق جيرانها، فراقبوه، حتى إذا دخل عندها اقتحموا المكان ليضبطوه متلبسًا، ولكن هيهات، لقد جاءه الفَرَجُ بطريقة غير متوقعة، كانت المرأة بدينةً جداً، فوضعت حبيبَها -ويبدو

أنه كـان على العكس منها ضـئيـلا جـداً -خَلْفَ ظهرهـا «فأدخلتـه بينهـا وبين القميص، ولزمها من خلفها، وبهذا لم يُعثر عليه».

وتتكرر فعلة الأشْتَر وجَـيْدَاء والزوج المخدوع، مع جميل وبُثَينة وزوجِـها، غير أن الحبيبين يلتقيان فى خَيْمةِ بُثنيـة، وراحا يتحدثان وهما مضطجعان، وذهب بهما النوم حتى أصـبحـا، ورآهما خادم الزوج الذى مـا لبث أن أبلغ سيـده بما عَايَنَ، ولكنَّ حِيَلَ العُشَّاقِ لا تغلبُها مُعاينةٌ ولا مُلاَينة!!

لقد حـاول القاضى التَّنُوخِـى أن يضعَ فى سياق قـصص العِشْق مـا يوحى إلى القـارئ بأنهـا لم تُفْضِ إلى ارتكاب مـحرَّم، أو إلى الـزنا على وجه الـتحـديد، فالأشْتَرُ يقـبِّل بين عَيْنَى جَيْداء، ثم يقطعان الليل فى الحـديث والشكوى، وجميلُ لا يخلو بُثينةَ فى خِـبائها، فمعـهما أمُّ الجُسَيْرِ صـديقتُها، وما دام معـهما ثالث فليس باستطاعة الشيطان أن يكون رابعهما!!

هذه محـاولات سقيمـة، تريد أن تخفف مما يظهر فى هذه القـصص من حرية السلوك العـاطفى، وجُرأة العُـشَّاق -رجالاً ونسـاءً- فى كل العصـور، وعلى كل المسـتويات. ومهمـا حاول القـاضى التَّنُوخِيُّ أو غيرهُ ممن عُـنِيَ بقصص الحب أن يحمِّل الواقعَ بشيء من تَوْشـيَةِ الخيالَ فإن الصـورة ستبقى نابضة بصـدق ما كان، لأنه ما يكون، وما سيكون من صراع الهوى والإرادة، وتَعَاكُسِ الشرعيةِ والتمردِ، فى كل العصور. وسيبقى القاضى التَّنُوخِى جديرًا بصفة الفنَّان الصادق، ذى الحسِّ الملهَم حتى وإن غَمَزَ ذلك فى فِقْهِهِ وقضـائه!! ومهما يكن من أمر، فإننا لم نذكُر ذلك لِنَقْدَح فى نزاهة القاضى التَّنُوخِى أو دينه، والواقع الذى وصـفناه مستمَد من كتابه، وهو يُحـسب له، لا عليه، حين تكون «القَصص» و«أخبـار التاريخ» العام أو الفنىّ، هى الوسيلة.

ومن قَبْلُ ألَّف الفقهاءُ فى الحب والعِشْق بدءًا بمحمد بن داود الظاهرى، وهو قـريب عهـد بالقـاضى التَّنُوخِىّ (توفى سنة ٢٩٦هـ، أى قـبل مـولد التَّنُوخِىّ

بثلاثين عامًا)[1] ومن بعده أَلَّفَ فقهاءُ لا يقلون شُهْرةً بالعلم والنزاهة عن ابن داود، مثل ابن حزم، صاحب «طوق الحمامة» (توفى سنة ٤٥٦هـ)، وابن قَيِّم الجَوْزِيّة، مؤلف «رَوْضَة المحبين ونُزهة المشتاقين» (توفى سنة ٧٥١هـ) وغير هؤلاء من أكابر الفقهاء الذين لم يصرفهم فقهُهُم، ولا أوقَعهم فى الحرَجِ، عن وَصْفِ حالات الإنسان، وجموحِ العواطف وثَورةِ الغرائز، إن هذه إحدى الإنجازات العظيمة للحضارة العربية الإسلامية، أنها اتسعت للبحث فى الإنسان، بما هو إنسان، وليس فى حدود إطارٍ مُفترض، فلا غرابةَ فى أن يَتَّسِعَ مدلول «الفَرَجُ» عند القاضى التَّنُوخيّ، ليعبِّرَ عن انقشاع نازلة عن مكروب، مهما كان كَرْبُهُ، ومهما كانت النازلَةُ، فهو إنسانٌ أولاً، وإنسان أخيرًا، وأَلَمُهُ ألمٌ إنْسانيٌّ يستحق أن نأسى له، وأن نفرَح بِزَوالِه، بصرف النظر عن دواعيه.

٢- المصادر:

تكتسب قضية المصادر التى استمد منها القاضى التَّنُوخِيّ مادته الإخبارية والقصصية أهميتها البالغة من ثلاث جهات:

الأولى: تعود إلى «التوثيق»، فمن الواضح أن الشِعرَ العربيَّ قد نال النصيب الأوفَى من اهتمام الرواة واللغويين والنُّقَّاد، وتعلقت بركابه الخطبُ والوصايا وما أشبهَ ذلك من الأقوال المأثورة فى حِكَمٍ وأمثال. أمّا القصص، التى تنوعت مستوياتها واستخداماتها للوعظ والتعليم والمسامرة، فإنها ظلَّت بعيدة عن اهتمام المشتغلين بالثقافة، وكانت أهم دعاواهم فى تعليل هذه الجفوة أن القصص تُروَى بالمعنى العام، ويزيد فيها كل راوية ما يراه مؤثرًا على جمهوره، مفيدًا للغرض الذى يتوخاه من قصته، وحين تنعدم الثقة فى موضوعية النص الأدبى، ويتسرب الشك فى نسبته إلى صاحبه، واكتمال صيغته، فإن الموقف النقدى يفقد مبررات الخطوة الأولى نحو الدراسة الفنية، ومِنْ ثَمَّ يكتفى بإشارة هنا، وكلمة هناك، عن القُصَّاص، ونادرًا ما يشير إلى القصص، فضلاً عن الاستعانة بلغتها، أو تحليلها فنياً.

---

(١) عن هذه النزعة الإنسانية المتسامحة، راجع: «الحب فى التراث العربى» منشورات سلسلة عالم المعرفة بالكويت.

كما أن حصر هذه المصادر -ما أمكن ذلك- يعتبر كشفًا عن الإطار العام الذى تتحرك فيه ثقافة الكاتب، ومدى ما فيها من تنوع أو انحصار، وعلاقة ذلك بثقافة العصر، وتوجهها العام، وما يحمل هذا التوجه من دلالات على واقع الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية.

أما الجهة الثالثة.. فهى ماثلة فى نوع الصلة بين هذا الكتاب، والمصادر التى اعتمد عليها المؤلف فى تكوين مادته، فهل هو تكرارٌ لما سبق قوله، أو هو تجميعٌ لما قِيل فى أكثر من مجال أو أنه تطويرٌ لفكرة، وتنمية لمنهج، وتعميقٌ لاتجاه قد وُجِدَ من قبل؟

لقد حَرَصَ القاضى التَّنُوخِىُّ على ذكر المصدر الذى أخذ عنه الخبر أو القصة، أو حتى تلك الحكايات الشعبية التى يصعب إسنادُ تأليفها إلى شخص معيَّن. لم يُهمل ذلك مطلقًا.

ويمكن حصر مصادره فى نوعين أساسيين: السماع والمشافهة والنقل عن وثائق مكتوبة في شكل كتب وصحائف معلومة المؤلف أو مجهولته. لقد ظل التَّلَقىِّ المباشرُ عن طريق السماع والمشافهة -أى الروايةَ- مصدرًا أصيلاً لتَنَاقُل المعرفة طوال قرون، وكانت الرواية الشفهية أدعى إلى الثقة وتجنب الخطأ من الكتابة ذاتها، ومع أن التأليف الكتابى قد توسَّع منذ بداية القرن الثالث الهجرى فإنه استبقى إحدى دعائم المشافهة الأساسية، وهى ذكر السند، أو «العنعنة»، محافظًا على هذا التقليد الذى بدأ دينيّاً، هدفُهُ الحرصُ على دقَّة الحديث النبوى. وقد روى القاضى التَّنُوخِى عن أربعة أنواعٍ من الرجال: عن أبيه وجلساء أبيه من مشاهير العصر، وبخاصة فى الفترة المبكرة التى قضاها فى البصرة، وعن بعض مَنْ أخذ من كتبهم، ولكنه عاصرهم، ولعله رأى أن يختبر بعض ما كتبوه على ضوء ما يحدِّثونه به، وعن بعض محترفى القصص فى عصره، وسنرى دلائلَ تشير إلى أن بعضًا من هؤلاء كان مختصّاً براوية نوع معيَّن من القصص أو الحكايات، وعن نكرات لم يحددهم، حتى وإن كانت سلسلة الرواة معلومة النهاية إلا أنها تبدأ من مجهول.

وفيما يختص برواية المحسِّن عن أبيه القاضي أبي القاسم عليٍّ التَّنُوخيِّ، فإن عبارة: «وحدّثني أبي في المُذاكرة من لفظه وحفظه» تتكرر مرات، وقد يتحدَّث الأب من وَحْيِ تجربته الخاصة، ومن ثَمَّ لا مكانَ لذكْرِ سَنَدٍ، مثل حكايته لحادثة بطلُها ابنُ بوابٍ كان يعمل عنده، حين كان يتقلد القضاء في الكَرْخ، أما حين يروى عن آخرين فإنه يذكر السَّنَدَ وربما نقده، تحديدًا لدرجة الثقة فيمن أخذ عنه أبوه، وقد يذكر أن أباه قد أسند الرواية، ولكنه نسبها، فيقول مثلاً: «حدَّثني أبي، أبو القاسم التَّنوخِيّ، بإسناد ذَهَبَ عن حِفْظي»، أو يقول: «حدَّثني أبي رضي الله عنه، في المذاكرة بإسناد لستُ أقومُ عليه، لأني لم أكتبْه في الحال» وهذا الإهمال للسَّنَد فيما روى عن أبيه متوقع، لثقة الابن في صِدْق ما يتلقاه عن أبيه، وهذا جانبٌ نفسيٌّ لا يُمكن إهماله، ولأن هذا الوالدَ قد مات في فترة مبكرة كان المحسِّن صبيًا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره حين مات أبوه، فهذه الأخبار التي رواها عنه ترجع إلى مرحلةٍ مبكرة لم يكن المنهج العلمي قد استقر في حركة عقله أو شَغَلَ تفكيرهَ.

أما جلساءُ هذا الأب فقد ذكرنا أسماءهم، ومن أهمهم أبو بكر الصُّوليُّ، الذي سيأخذ نقلاً عن كتابه الكثيرَ، ولكنه - في أخبار وقصص أخرى - يستخدم صيغة «وحدَّثني»، و«أخبرني» و«أخبرنا»، بل إنه يستخدم عبارات تدل على أن سماعَه من الصُّوليِّ لم يكن ثمرةَ مصادفة، إنه موجودٌ بالمجلس. بل إنه يتلقى عنه، ويستوثق منه، ويجيزُه أن يُحَدِّثَ الآخرين بما سَمِعَ، بل سنفهم من بعض العبارات أن الصوليَّ كان قد انتهى من تأليف كتابه الشهير «كتاب الوزراء» وأنه كان يقرأ عليه على سبيل الإجازة، أي الموافقة على النص بعد مراجعته، وأن المحسِّنَ -الفتى الناشئَ - قد حضر عملية المراجعة والإجازة، فيقول: «قُرِئَ على أبي بكر.. بالبصرة، وأنا حاضر أسمع، في كتابه الوزراء، سنة خمسٍ وثلاثين وثلثمائة»، ويقول: «أخبرني أبو بكر الصُّوليُّ إجازة، ونقلته من خطه»، ويقول: «حدَّثني.. الصولي فيما أجاز لي روايته عنه».. وهكذا تتعدد وسائلُ الاتصال، فيما نقل القاضي التَّنُوخِيُّ عن الصوليِّ، وهناك جلساء آخرون ليسوا على هذه الدرجة من السطوع في كتابه.

أما أبو الفَرَجِ الأصْبَهَانِيُّ -صاحب الأغانى - فقد ترجع علاقته به إلى ما بعد انتقاله إلى بغداد، وعبارات صاحبنا تُشعِر بأنه كان قد ألَّف كتابَه الضخم، ومع هذا فإنه على الرغم من أن القاضى التَّنُوخِيَّ قد نقل عن هذا الكتاب. فإن موقفَه من صاحبه كموقفه من الصولىّ وكتابه، فيستخدم: أخبرنى، وحدّثنى، وأخبرنا، وحدّثنا، ويقول: «أخبرنى أبو الفرج الأصبهانى إجازة، قال...»، ويقول: «وحدثنى أبو الفرج المعروف بالأصبهانى، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا» بل يقول فى عبارة دالة: «حدَّثنى أبو الفرج المعروف بالأصبهانى، رحمه الله تعالى، إملاءً من حفظه، وكتبته عنه فى أصول سماعاتى منه ولم يحضرنى كتابى فأنقله منه، فأثبتُّهُ من حفظى، وتَوَخَّيْتُ ألفاظَه بِجَهْدى»، ويقول فى مكان آخر: «وجدتُ فى كتاب الأغانى الكبير، لأبى الفرج المعروف بالأصبهانى، الذى أجاز لى روايته، فى جُملة إجازة لى...» إلخ.

أما ما رواه القاضى التَّنُوخِيُّ نقلاً عن قَصَّاصِين حِرفتُهُم روايةُ القصص، ومِنْ ثَمَّ تجميعُها أو اختراعُها لتُرْضِيَ حاجات مستجدةً فى المجتمع الإسلامى، فإننا سنجد عليه أكثر من دليل، والذى نُحب أن نُنبِّه إليه ونراه مهماً، دون أن يسوقَنا إلى مزيدٍ من مشكلات القصة التراثية، أن القاضى التَّنُوخيَّ لم يَنقُلْ شيئًا عن أشهر القُصّاص في تاريخ القصة العربية القديمة، بَدْءًا بتميم الدَّارىِّ الذى حدَّثَ إبَّانَ عهد عمرَ بن الخطاب فى مسجد رسول الله ﷺ، واستمرارًا مع: كَعْبِ الأحبار، ووهب بن مُنَبِّه، وعُبيد بن شَرِيَّة الجُرْهُمِىِّ فى زمن بنى أُمَيَّة، وغيرهم ممن أشار إليهم الجاحظ فى أكثر من مكان فى «البيان والتبيين».

وإنما آثرَ أن يروى عن قُصَّاصٍ سَمِعَ منهم مباشرة، أو هم قريبون جداً من عصره، وأغلب الظن فى تفسير ذلك أن القاضى التَّنُوخِىّ، وهو فقيهٌ قبلَ كل شىء، قد رفض الطابَعَ الأسطورىَّ الغالب على قصص هؤلاء، وآثر أن يقتربَ من الواقع، ومن هنا جاءت قصصه أقربَ ما تكون من الأخبار التاريخية، فإذا غادر الواقعَ فإنه يَنْتَقِلُ إلى الحكاية الشعبية، أو «الحدوتة» ويفضِّلها على الطابَع

الأسطوريّ، الذى لم نجدَ من آثاره إلا شَـذَرَاتٍ قليلةً، عالقةً ببـعض ما رَوَى من قصص أنبياء بنى إسرائيل.

نستطيع هنا أن نشير إلى بعـض الـمُحَدِّثين، والطابَعِ العـام الذى يغـلب على ما حدَّثوا به ودلالة ذلك على شيوع مجالس القصّ والرواية، واختـلاف الـمجـال أو النوع الذى يحدِّثُ القاصُّ به، ومِنْ ثَمَّ اختلاف جمهوره.

إن القاضى التَّنُوخيَّ يستخدم عبـارة «حدَّثَنَا» و«منها ما حَدَّثناه» علىّ بن أبى الطَّيِّب الحسن بن علىّ بن مُطَرِّف الرَّامْهُرْمُزِى، وهذا الراوية القاصُّ قد تُوُفِّى سنة ٣٧٦هـ عن ثمانين عامًـا تقريبًا، وقد عرفنا من قَبْلُ أن أبا القـاسم التَّنُوخِيَ - والدَ المحسِّن - كان قد تولى القضاء بمدينة «رامهرمز» كمـا أنها دخلت ضمن المناطق التى تولى مؤلفُنا فيها القضاء فيما بعد. ويلاحَظ هنا أن السلسلة التى تنتهى بعلىٍّ بن أبى الطيب، يَرْوِى فيها - غالبًا - عن أحـمد بن محمـد بن الجَرَّاح، عن أبى بكر عبد الله بن مـحمد بن أبى الدنيا القرشىِّ، ثم تتفرع بعد هذا التوحد فى اتجاهات شتَّى، لكن الطابَعِ العام لما جاء عن طريق هؤلاء الثـلاثة ينحصر فى الوعظ والأخـبار التاريخـية، وتحت الوعظ تندرج الأدعيةُ المأثورةُ، وبعضُ الأحـاديث النبوية، وقِصَصُ بعض الأنبياء، وقـد يجتمعُ الوعظُ والتاريخُ فى خبرٍ واحد، كما نجد فى قصة جلد الحسن بن الحسن فى عصر الوليد ابن عبد الملك، وقـد كتب بذلك إلى والى المدينة، فنجَّاهُ اللهُ، وما شـاهده إبراهيم التَّيْمِىُّ الزاهد حين كان فى حبس الحَجَّاج (القسم الثانى - الفصل الخامس - القصة رقم ٥).

وقد يوجد الخـبرُ التاريخىُّ متحـررًا من توجيه الموعظة، فيكتـسب شكلَ القصة تركيـبًا وتصـويرًا، وهذا نجده فى الأجـزاء الأخرى التى لم تهـتم بالوعظ، وعلى سبيل المثـال، فى قصة وصفـية لكيفيـة تخلص عمر بن هبيرة - وكـان واليًا على العراق - من سجن خـالد بن عبد الله القسرى الذى خلـفه على الولاية وسجنه، وقد جاء أتبـاع عمر، فاكـتروا دارًا بجـانب الحـبس، ودارًا بجـانب سـور المـديـنة -مدينة وَاسِط - وَحُفِرَ نَفَقَانَ، عن طريق النفق الأول خَرَجَ عُمَرُ من سجنه، وعن طريق الثانى خرج من المدينة.

ومثلُ ذلك ما يروى عن استسلام قَطَنِ بنِ معاوية الكلابىّ للمنصور، وكان قد خرج مؤيِّدًا لإبراهيم بن الحسن فى البصرة، أخى «النفس الزَّكية» الثائر العلوى بالمدينة.

ونستطيع أن نجد هذا الطابع الخاص فيما روى عن سعد بن محمد بن على الأزْدى الشاعر المعروف بالوحيد، وقد توفى سنة ٣٨٥هـ، فهو معاصر للقاضى التَّنوُخِىِّ، وجديرٌ بالملاحظة أن مؤلفَنا يستخدم كلمة «حكى» ثلاث مرات فيما رواه عن الوحيد، و«حدّث» مرة واحدة، ولعل هذا أن يكون بمثابة اقتراب من مصطلح «الحكاية» التى تختلف عن «الخبر» و«القصة» كما سنرى، وجديرٌ بالملاحظة أيضًا أن هذه الحكايات الأربع التى حكاها القاضى التَّنوُخِىّ عن «الوحيد»، تتعلق ثلاثٌ منها بحوادثَ غريبةٍ، تقوم على الصراع بين الإنسان والوحش المفترس، فهذا رجل شجاع ينازل الأسد ويستنقذ منه شخصًا كان على وشك الموت بين براثنه، وهذا آخر يلقى بنفسه من علوٍّ شاهق استنقاذًا لثروة ضائعة، فيسقط على أسد كامن بين البردى (القسم الثانى - الفصل الثالث - القصة رقم ١).

وهذا ثالث يلجأ إلى كهف يحتمى به من القيظ فتغلقه عليه أفعى ضارية، لا يعرف كيف يتخلص منها، ثم يأتى ابنُ عُرْسٍ فيستدعى زميلاً له، ثم يحتالان فى الهجوم على الأفعى بَغْتَةً، أحدُهما عند الرأس والآخر عند الذَّنَب، فيقتلانها، ويبدو أن هذا الشاعر المغمور كان مختصاً برواية حكايات الحيوان وغرائبه، فإن بارَحَهَا فإلى الغرائب بشكل عام، فإن الحكاية الرابعة التى أخذها عنه القاضى التَّنُوخِىّ عن رجل فَرْد وقع فى أسر سبعين من قُطَّاع الطريق، جرَّدوه من كل ما معه، لكنه راح يستعطفهم حتى تركوا له بِرْذَوْنَهُ، ثم راح يستعطف مرة أخرى حتى أعطوه قوسَه ونَشَّابه، لعله أن يدفعَ بهما شرّاً، ولكنه استطاع بهما أن يُقَارِعَ السبعين، وأن يهزمَهم ويستردَّ منهم ما اغتصبوا منه!!

وكما نجد حكايات الحيوان وغرائبَ الصراع معه عند الشاعر «الوحيد» فإننا نجد القصصَ التى تهتم بِحَيل اللصوص وقد آثرها عبيدُ الله بن محمد الصَّرَوِىُّ، وإن

لم يقف جهده عليها، لكن الميل إلى المفاجأة والإغراب هو القاسَم المشترك فى كل ما حدَّث به تقريبًا، فهذا رجل يجد هِمْيَانَهُ (حافظة نقوده) بعد أعوام من فقده، وقد صار فقيراً، وتعلق حبل نجاته بجوهرة ثمينة أخفاها فى مكان سرِّى من هذا الهِمْيان المفقود، ويزداد أمر المصادفة غرابة أن يجد بعض أصدقائه هذا الهِمْيان، وينتفع بما فيه من مال، ولا يفطن إلى الجوهرة، وتتكرر القصة على نحو آخر لا يقل غرابة، وهذا رجل يهرب من قتل محقق عشوائى، ليقع فى مثله، فينجو مرة ثانية، وثالثة، وكأن حياته سلسلة مواقف يتعرض فى كل منها للقتل، ولكن الحقيقة تنتصر، وهذا رجل يهرب من الفقر، فى حين تعانى امرأته المخاض، ثم يعود بعد زمن طويل، ليجد ابنه شخصية ثرية مشهورة، وزوجته قابلة قصر الخلافة (القسم الثانى - الفصل الثالث - القصة رقم ٥).

وهذا كاهن فى دير معزول، يتصدَّى لمعاونة المسافرين العابرين ثم يقتلهم داخل الدير ويستولى على ممتلكاتهم، وهذا عبدٌ آبق، يسامحه سيده حين يعثر عليه فى بلاد بعيدة، ولكنه لا يسامح سيده، بل يسعى فى هلاكه واغتصاب ماله، وهذا قاطع طريق لا يكتفى بسرقة العابرين، وإنما يصر على قتل رجل وحيد، وحين يضع السيف على عنقه يظهر أسد يأخذ قاطع الطريق بين فكيه ويمضى، وهذا لص يتمكن من سرقة بضاعة دكان علانية، ولكن صاحب الدكان الذى كان لصاً فى حداثته يتمكن من استرداد بضاعته (القسم الثانى - الفصل الأول - القصة رقم ١٢).

إن ما يخرج عن هذا الطابع العام: طابع الفَتْك والمغامرة والمصادفة لا يُمثِّلُ نسبةً عالية فيما نقل التَّنوخِيّ عن الصَّرَوِىّ. ويحق لنا أن نلتفت إلى ما يمكن أن يعتبر «ظاهِرَةً» اختُصَّ بها هذا القاصّ، فإنه غالبًا ما يَرْوِى عن نفسه دون ذكر سلسلة الرواة، فكأنه يحكى مشاهداته، غير أن الشخص الذى يمثل «بطل» القصة، يغلب أن يكون مُنَكَّرًا، غيرَ محدَّد الاسم، فنجد مثل هذه المداخل فى قصصه: «حدَّثنى عُبَيْدُ الله بنُ محمد الصروىُّ، قال: حدَّثنى أبى: أن رجلاً حَجَّ..»، أو: «... كان يجاورُنا ببغداد فتىً من أولاد الكُتَّاب»، أو: «أن رجلاً من أولاد التجار زالت نعمتُه»، أو: «حدَّثنى شيخٌ كان يخدمنى»، أو: «حدَّثنى رجل من

أهل الجند»، أو: «حدَّثنى أكَّارٌ (فلاح أو زارع) بنهر سَابِس يقال له سَارِخ»، أو: «حدَّثنى بعض إخوانى أنه كان ببغداد رجل يطلب التلصُّص فى حَدَاثته». فى كل هذه القصص وغيرها يختفى التوثيق الدقيق الذى يُحيط برواية الخبر التاريخى، حتى وإن تشكَّل بالصياغة القصصية، ونجد الحكاية الغريبة، ملازمةً للبطل المجهول، أو المصنوع.

هؤلاء أهمُّ القُصَّاص والرواة الذين أخذ عنهم القاضى التَّنُوخِيّ مباشرة، بطريق السماع والمشافهة، ولا شك أن هناك غيرَهم، مثل محمد بن عبد الواحد المعروف بغُلام ثعلب، فينص على لقائه، والحَمْل عنه، «وأجاز لى جميعَ ما يصح عندى من رواياته»، وعلىٌّ بن هشامٍ الكاتب، المعروف بابن أبى قِيرَاط، وقد اهتما بالأخبار التاريخية غالبًا.

أما المصادرُ المكتوبة التى نَصَّ القاضى التَّنُوخِيُّ على أنه نقل عنها فإنها كثيرة، بعضها محدَّد بالكتاب والمؤلف، ويذكر أحيانًا اسمَ الكاتب دون الكتاب، أو العكس، كما أنه قد يشير إلى النقل عن صحائفَ مكتوبةٍ دون تحديد.

مع توافر الحافزِ الذاتىِّ فيما واجه القاضى التَّنُوخِيّ من محنة العزل عن القضاء، وتحديد إقامته بمنزله، ومطالبته بسداد أموال جزيلة، فإن حافزًا آخر قد توافر له فى شكل تجاربَ سابقةٍ ألِّفَتْ تحت العنوان ذاته، أو ما يقاربه، يقول فى مقدمة كتابه: «وكنتُ وقفتُ فى بعض مِحَنى على خمس أو ست أوراق، جمعها أبو الحسن علىُّ بنُ محمد المَدَائنى، وسماها «كتابُ الفَرَجِ بعد الشِّدة والضِّيقَة» ويصف القاضى التَّنُوخِيّ ما فى هذه الأوراق بأنه حسن، ولكنه قليل. والمدائنىُّ - وقد تُوُفِّىَ سنة ٢٢٥ هـ، أى قبل مولد المحسِّن بقَرْن من الزمان - أديبٌ راويةٌ مؤرِّخ، بَصْرىٌّ، سكن المدائنَ، وعاش في بغداد، والأوراقُ المشارُ إليها لا تُذكر بين مؤلفاته، وقد نقل القاضى التَّنُوخِيّ أربعةَ عَشَرَ خبرًا منسوبًا إلى المدائنى: ثمانيةٌ منها يغلب عليه الطابعُ الدينىُّ، والتاريخى، وهو يذكر اسم كتابه، أو أوراقه، غالبًا، ويحدُثُ أن يأخذ عن المدائنىِّ من أكثر من طريق، فيقول مثلاً: «قال

المدائنيُّ فى كتابه، وجاء به القاضى أبو الحسين فى كتابه عن المدائنى بغير إسناد».
ومرة أخرى أخذ عن شخص آخر، أسند ما أخذه إلى المدائنيِّ، ومرة واحدة يقول: «ووجدتُ فى كتاب المتيمين للمدائنيِّ»، وهذا يعنى أن ما نقله القاضى التَّنوخيّ عن المدائنيِّ قد تضمن كل ما اشتمل عليه كتاب «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة والضِّيقَة» وتجاوزه أيضًا.

أما كتاب عبد الله بن محمد بن أبى الدُّنيا «كتابُ الفَرَجِ بعد الشِّدَّة» فقد وصفه القاضى التَّنوخيُّ بأنه فى نحو عشرين ورقةً، وأن طابَعَه العامُ رواية الأحاديث النبوية، وأخبارَ الصحابة والتابعين، وما يقارب ذلك من الأدعية والأذكار، ويشعر المؤلف أن أخبارًا من هذا اللون لا تتطابق مع ما يهدف إليه من وضع كتاب بنفس العنوان، لكنه يتجاوز الغاية التى تَوَخَّاها ابنُ أبى الدنيا، وابن أبى الدنيا - على أية حال - قد أفاد بدَوْره من المدائنيِّ، وهو أقرب عهدًا إلى عصر المؤلف، لأنه تُوُفِّيَ سنة ٢٨١هـ، وقد ذُكِرَ اسمُ ابن أبى الدنيا فى كتاب التَّنُوخِيّ خمسًا وخمسين مرة، دون أن يُقْرنَ إلى كتابه المشار إليه، لقد كان فى جميع هذه المرات واحدًا فى سلسلة الرواة لخبر أو قصة أو أبياتٍ من الشعر، ولا ندري لماذا ترك القاضى التَّنُوخِيّ ذِكْرَ كتاب ابن أبى الدنيا فى تضاعيف كتابه برغم الإشارة إليه فى مقدمته.

أما الكتابُ الثالثُ الذى سبق هذا الكتابَ الذى نحن بصدده، إلى اسم «الفَرَج بعد الشِّدَّة» فقد أَلَّفه القاضى أبو الحسين عمر بن القاضى محمد بن يوسف القاضى، رحمهم الله، فى مقدار خمسين ورقة، أَوْدَعَهُ أكثرَ ما رواه المدائنيُّ، وأضاف إليه أخبارًا أُخَرَ «أكثرُها حَسَنٌ وفيها غير ما هو مماثل عندى لما عزَاه».
والطريف أن القاضى التَّنُوخيَّ يأخذ على ابن أبى الدنيا والقاضى حسين، أنهما لم يشيرا إلى أن المدائنيّ قد سبقهما إلى التأليف في موضوع كتابيهما، ويرى أن عَدَمَ معرفتهما بكتاب المدائنيّ تُعَدُّ أمرًا طريفًا، وأن معرفتهما به وتجاهلهما لذكره ترويحًا لما كتبا تُعَدُّ أطرف. . وقد نقل القاضى التَّنُوخِيُّ عن كتاب القاضى أبى الحسن ستًا وثلاثين مرة، انتشرت على مساحة فصول كتابه كلِّها تقريبًا، وهذا يعنى أن القاضى أبا الحسين في كتابه هذا كان الأكثرَ قُرْبًا من تَصَوُّر القاضى التَّنُوخِيِّ لموضوع الفَرَجِ

بعد الشِّدَّة، سنجد أخبارًا وقصصًا تعود إلى العصر الجاهلى، بل نجد حالةً فريدة روى فيها خبرًا مصدرُهُ وَهْبُ بنُ مُنَبِّه، ولكنه ليس روايةً لأساطير القدماء، وإنما هو صاحب الحادثة التى لا تزيد عن رؤيا رآها فى أيام عُسْر، أما أكثر ما فى الكتاب فيرجع إلى عصر الراشدين، وبنى أُميَّة، ودولة بنى العباس، التى يفوز رجالاتها بأكبر نصيب، وبخاصة المأمونُ والبرامكة، ثم يأتى دَوْر القصص التى نجد فى بعضها طابَعَ الحكاية الشعبية. ويهتم القاضى أبو الحسين اهتمامًا واضحًا بأخبار الولاة وتقلُّبِ الزمن بهم من الفقر والضياع إلى الثروة والجاه. أو العكس، وهو موضوع قد أخذ نصيبًا موفورًا من كتاب التَّنُوخِيّ كما سنرى في هذا التحليل للمصادر، والمحتوى، وكما سنقرأ فى القسم الثانى من هذا الكتاب، الذى يقوم على الانتقاء.

وهناك كتب أخرى، أفاد منها القاضى التَّنُوخِيّ، ونقل عنها أكثرَ مما فعل مع الكتب السابقة فى مقدمتها «الأغانى» للأصفهانى، الذى تلقى عنه مشافهة أيضًا، وكان يَحدُثُ أن يوثِّقَ ما سمع بِعَرْضِه على ما قرأ، أو العكس، فحين يروى خبر ما كان بين عبد الله بن طاهر والحِصْنِىِّ، وكيف أساء الحصنىُّ إلى القائد العباسى بمعارضة قصيدته، ومناقضة مفاخرها الفارسية، يُسنِد الرواية إلى أبى الفرج المخزومىِّ، الشاعر المعروف بالبَبَّغاء، وهو من أصدقاء القاضى التَّنُوخِيّ (القسم الثانى - الفصل الثانى - القصة رقم ١٤).

ثم يورد رواية ثانية للخبر نفسه، فيقول: «ووقع إلىَّ هذا الخبر بخلاف هذا، فأخبرنى أبو الفرج الأصبهانى، قال. . .»، وبعد أن ينتهى من هذه الرواية يتبعها برواية ثالثة للأصبهانى أيضًا، فيقول: «وحدّثنى أبو الفرج المعروف بالأصبهانى، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا»، فهل تختلف «أخبرنى» عن «حدَّثنى»؟ اختلافَ القراءة عن السماع، وإن انتهى كلاهما إلى نقل المعرفة بالشىء؟ هذا احتمال قد يُقوِّيه قولُه فى صدر خبر آخر: «وجدتُ فى كتاب الأغانى الكبير، لأبى الفرج المعروف بالأصبهانى، الذى أجاز لى روايته فى جملة ما أجازه لى. .» وقد أثبتنا قصة الحِصْنى المشار إليها - كما أوضحنا - ولكن دون هذه التفريعات التى لا تضيف شيئًا يتعلق بالجانب الفنىِّ فيها.

لقد نقل القاضى التَّنُوخِىُّ من «الأغانى» وروى عن صاحبه تسعًا وثلاثين مرة، ومع التنوع الموضوعى، والامتداد الزمنى الذى تمثله مادة هذا الكتاب الموسوعى الضخم، نتوقع أن تمتد النُّقُولُ إلى أطراف الكتاب على ضخامته. يفوز الخلفاء العباسيون ورجال دولتهم بأكبر نصيب، وكذلك المغنون، وتظهر ملامح العصر الأموىِّ أحيانًا، كما نجد خبرًا واحدًا عن الإسكندر حين بلغ حدود الصين، وقرر إخضاعها لسُلْطانه، ولنا هنا ملاحظة أساسية نثبتها، فعلى الرغم من أن القاضى التَّنُوخِىّ كان يعرف الفارسيَّةَ، وعمل طويلاً فى أوساط فارسية، ونَادَمَ عضُدَ الدولة الفارسىَّ، وكان الكثيرُ من أخبار الأكاسرة وغيرهم من عظماء الفُرس، بل وأخبار اليونان والهند، معروفًا لدى المثقف العربى فى القرن الرابع الهجرى، فإن النسبةَ العظمى من مادة كتاب القاضى التَّنُوخِىّ تعتمد على المجتمع العربى، وأخبار رجاله، بدرجة لا تجعلنا نُعطى أيَّةَ أهمية لما يتجاوز هذا الحد، ومنه هذا القليل الذى ظهر فيه الإسكندر أو كسرى!!

ويأتى «كتاب الوزراء» لمحمد بن عَبْدوس الجَهْشِيارى في مرتبة متقدمة بين المصادر المكتوبة التى اعتمد عليها، يكاد ينافس «الأغانى» فى الأهمية، وإن كان عدد مرات النقل أقل (نقل عنه خمسًا وثلاثين مرة) ولم يسمع منه مشافهةً بالطبع برغم صداقة الجَهْشِيارى لأبيه، لأن الجَهْشِيارى توفى سنة ٣٣١هـ، وكان مؤلفُنا لم يتجاوز الرابعة من عمره تقريبًا، وهو فى صدر كل خبر يكاد يكرر عبارة واحدة: «ذكر محمد بن عَبَدُوس فى كتابه «كتاب الوزراء» أو «في كتاب الوزراء» ما عدا مرةً واحدة قال فيها: «قال محمدُ بنُ عبدوس فى كتاب أخبار الوزراء والكتَّاب»، والكتاب المذكور محدَّد العنوان محدَّد الموضوع. ومن الطبيعى أن يكون النقل عنه محكومًا بموضوعه.

ويكاد يلحق بالكتابين السابقين ما كتبه الصُّولِىُّ فى كتاب «الوزراء» وقد نقل عنه سَبْعَ عَشَرَةَ مرة، وعن «الأوراق» مرة واحدة، ولكن تأثير الصُّولِىُّ على مؤلفنا يتجاوز ما نَقَلَ عن كتابه، إلى ما حدَّث عنه، فضلاً عن التأثير الشخصى الذى يمكن توقُّعُه، وهذا الكتاب مثلُ سابقه محكومٌ بموضوعه، ومع هذا يمكن أن

نلاحظ أنه أكثر توسعًا، بمعنى أنه لم يتوقف عند حدود ما كان يَحْدُثُ للوزراء، وإنما تجاوزه إلى ما يحدُثُ منهم، ولهذا نجد بعض أخبار الحسين بن الضحَّاك الشاعر، وأخبار الغناء والمغنين، وقد يعارضُ روايةَ الصُّولِىّ برواية الأغانى، كما يذكر مرات أنه سمع الخبر يُقرأ على الصُّولِىّ نفسِهِ في مسجد البصرة.

ويمكن أن نقول مطمئنين، فى ختام حديثنا عن المصادر: إن كتاب الفَرَجُ بعد الشِّدَّة للقاضى التَّنُوخِىِّ، مع أنه مسبوقٌ فى موضوعه، ناقلٌ عن كثير من السابقين، قد تجاوز كل أولئك شكلاً ومضمونًا، ونقصد بالشكل الجانبَ الكمِّىَّ الذى تفوَّق به على كل سابقيه، والجانبَ المنهجىَّ المتمثلَ فى توزيع مادة الكتاب على فصول متنوعة المعنى، وإن اتفقت فى الشكل العام (أزْمَةٌ يَعقُبُها حَلٌّ)، والجانب التركيبىَّ حيثُ يزاوِجُ بين الروايات للقصة الواحدة، ويدير بينها حواراً مثمرًا، وينمِّيها بطريقة فريدة، ونقصد بالمضمون أنه تجاوز بالشِّدَّة، أو الأزْمة أن تحدث لكاتبٍ أو وزيرٍ أو خليفة، إلى الناس عامة، وشُذَّاذهِم، فلم يتوقف عند الطبقة العُليا من المجتمع، بل غَمَرَ جميعَ الطبقات، وربما جميعَ الأجناس التى كانت تعيش تحت لواء الخلافة العبَّاسية من عرب وفُرْس ودَيْلَم وتُرْك وأكرادٍ ورُوم، ولم يتوقف عند المعنى الأخلاقىِّ للفَرَجِ، وإنما عَنَى به انفراج الأزمة، أو لحظةَ التَّنوْير فى مفهوم القصة القصيرة المعاصرة، وهذه جميعًا إضافاتٌ إيجابيةٌ ينتمى بها هذا الكتاب إلى تراث أُمَّته العربية، ويضيفُ إليه.

●●●

الفصل الثالث

تحليلُ المُحتوَى

● المحاور:

إن المحور الرئيسى الذى يدور حوله الكتاب هو الأخبار والقصص والحكايات التى تصور مواقف مختلفة فى حياة أشخاص تاريخيين، أو مجهولين أو مُخْتَرَعين. وهذا المحور الرئيسى يضم فى إطاره محاور جزئية، يمكن أن نختزل مفهوم كل محور فى «الموضوع» و «الهدف» أى المضمون الذى سيبدو بمثابة طريقة مُيَسَّرة للتعريف الموضوعى للكتاب، على أن نعود إليه على المستوى الصياغى، أو أسلوب بناء كل نوع. وقد عرضنا من قبل لطريقة المؤلف فى تقسيم أبواب كتابه، ورأينا ما فيها من خلطٍ فى أسس التقسيم، وتداخُل بين الأنواع، وهذا يعنى أن المحاور التى نجمع مفرداتها الآن، ونحاول أن نستخلص لها صورة وهدفًا سنجدها متفرقة الأجزاء -أو المفردات- على مساحة الكتاب، وليست مجموعة فى باب واحد، ومن هنا جاءت أهمية ما قمنا به من إعادة الترتيب.

ويمكن أن نحصر هذه المحاور فيما يأتى:

١- الأخبار والشخصيات التاريخية.

٢- صورة الحياة الاجتماعية.

٣- الحكاية الشعبية.

٤- القصص الوعظية.

٥- قصص وأخبار آل البيت.

٦- القصص التعليمية.

وهذا الترتيب يتدرج تنازلياً مع الجانب الكمى لكل موضوع، كما أن التوزيع قام على التغليب، فقد يكون الخبر عن رجل من آل البيت، ولكنه يُصَوِّرُ سلوكًا اجتماعياً معينًا، وهنا سيُحْدِسُ القارئ أين يقع مركز الاهتمام فى هذا الخبر.

أولاً: الأخبار والشخصيات التاريخية:

من المتوقع أن يفوز الخلفاء، ومَنْ يدور فى فلكهم من الوزراء والكُتَّاب والقادة بأكبر نصيب، لأن التاريخ المدوَّنَ يهتم بأخبارهم، ومع هذا لا نجد ما كُتب حول هؤلاء تكرارًا لما نجده فى كتب التاريخ، من جانبين: أن القاضى التَّنوخِىَّ فى اختيار مادة كتابه، حين ينتقى من حياة شخصية شهيرة كالحَجَّاج، أو المأمون مثلاً، فإنه يختار «المواقف» التى تدل على طبيعة الشخص، وليس «الأعمال» التى يسارع المؤرخون إلى تدوينها، ومن هنا تكون اختياراته متوغلة فى التفاصيل التى قد لا يلتفتُ إليها المؤرِّخ عادة. وإنه كثيراً ما يُعْنَى بأشخاص لهم وجود تاريخى، ولمواقف حياتهم دلالات تاريخية إنسانية وحضارية، ولكنهم لم يبلغوا من الشُهْرة بحيث يهتم بهم المؤرخون، ومع هذا لا يمكننا أن نستوعب طبيعة المرحلة وظروفها دون أن نضع هذه المواقف العابرةَ تحت الضوء.

خلفاءُ بنى العباس ورجال دولتهم هم الأكثر ظهورًا، ولا يحتاج هذا إلى تعليل، فإنهم الأقرب عهدًا، والأطول زمنًا، والأزمات فى عصرهم أكثر، وسنجد القليل عن عصر بنى أمية، وما دمنا بصدد شدة تنفرج، ومحنة تنزل وتنقشع، فإن الحجاج بن يوسف الثقفى يحظى وحده بنصف ما كتب عن العصر الأموى، والأخبار التى تدور حول الحجاج تصور قسوته، وجو الإرهاب الذى ساد فى عصره، حتى صار الإقبال على العبادة مظنة الاتهام بقول الخوارج وسلوكهم، يقول أحد المحبوسين شارحًا تهمته: «جاء العرِّيف، فتبرأ منى، وقال: إن هذا كثير الصوم والصلاة، وأخاف أنه يرى رأى الخوارج»!! وسجْنُ الحجاج كان يسمى الديماس، ومعناه: الحفرة العميقة لا ينفذ إليها الضوء. هذا هو القول «الجاهز» عن الحَجَّاج، ولكن أخبارًا أخرى تُدخل بعض التفاصيل التى تتحفظ نسبياً على هذه الصورة القاسية الجافية. فهذا الشعبى يخرج مع ابن الأشْعَث على الحَجَّاج وحين

تنجلى الفتنة يقف أمام الحجاج مُقراً بذنبه، معتذراً، وهنا يقول لجلسائه: هذا عامر، ضرب وجوهنا بسيفه وأتانا يعتذر بالباطل، ردوا عليه عطاءه!!. وحين يُساق إليه أسرى فتنة ابن الأشْعَث يأمر بقتل طائفة منهم، وتقدم رجل قبل أن يضرب عنقه فقال: يا حجاج، والله لئن كنا أسأنا فى الفعل، فما أحْسَنْتَ فى العقوبة، وإن كنا لؤمنْا فى الجناية، فما كَرُمْتَ فى العفو. فقال: رُدُّوه. فَرُدَّ. فقال: أخبرنى كيف قلت؟ فأعاد الكلام. فقال الحَجَّاج: صدقتَ والله، أفٍّ لهذه الجيَف، أما كان فيها أحد ينبهنا كما نبهنا هذا؟ أطلقوا عنه، وعن باقى الأسْرَى!!

ويأتى بعد الحَجَّاج عُبَيدُ الله بن زياد، وخالد القَسْرىُّ، وهما لا يقلان ضراوة عن الحَجَّاج، ومع هذا، ومع ما سنجد للقاضى التَّنُوخى من مَيْلٍ إلى آل أبى طالب لا مجال للشك فيه، ومع ما هو معروف عن دَوْر ابن زياد فى استشهاد الحُسيْن رضى الله تعالى عنه، ومع أن الكتاب قد سجَّل خبراً يؤكد هذه القسوة فى ابن زياد، فإنه يروى خبراً آخر يُظهره فى صورة مَنْ يخشى الله، ولا يجسر على الاستخفاف بكلامه الشريف، فها هو رجل من القراء يُساق إليه على أنه من الخوارج، وفى حين ينكر الرجل التهمة يتوعده عَبْيدُ الله بالانتقام، ويأمر بسَجْنه، فيتمتم الرجل بكلمات غير مُبينَة، فاغتاظ ابنُ زياد، وأمره بالجهر بما هَمَس به، فإذا هما بيتان من الشعر:

عسى فَرَجٌ يأتى به اللهُ إنه	له كلَّ يوم فى خليقته أمْرُ
إذا اشتدَّ عُسْرٌ فَارْجُ يُسْراً فإنه	قضى اللّه أن العُسْرَ يتبعُهُ يُسْرُ

فسكت ابنُ زياد ساعة، ثم قال: قد أتاك الفَرَج. خلُّوا سبيله!!

يمكن أن نجد مثل هذه المواقف مذكورة لمعاوية، وعبد الملك، وهشام، والوليد ابن يزيد، لا نجد هذا الشر المطلق فى نفوسهم بغير عقال، إنهم بشر، يهتزون للكلمة الطيبة، ويأسرهم المعروف، ويُقدِّسون الأعرافَ العربية، حتى يَعْفُوَ أحدُهم عن ألدِّ أعدائه حين يكتشف وجوده على مائدته وقد أكل من طعامه.

أما خلفاءُ بنى العبـاس.. فإن الحديث حولهم أكثرُ تنوعًا، فأكـثرهم قد اعتَقَلَ وزيرَه أو قتله، وهذا وحـده مَعِينٌ لا ينضَب للشـدائد، كما أنهم -هم أنفـسهم- عانوا شدائد وأهوالاً حين تسلط الأتراك ثم الديْلَمُ على الخلافة، فهم بين مقتول، ومخلوع، ومـسمـول (السَّمْل هو إطفـاءُ نور العينين بتـعريضهـما لحـرارة شديدة كمسـمار محمى)، ومَـنْ ليس له من الأمـر شيء، ومـع ذلـك فـإنهـم كـانـوا إذا ما قَـدِروا أنزلوا البلاء حتى بأولئك الذين أوصلوهم إلى الخـلافة، وأيدوا مُلكهم.

إن هذه الأخبار والقصص المدونَّة أشهـر من أن نتوقف عندها، وسنكتفى بالإشارة إلى ما تدل عليه من قلق نظام الحكام والفساد الإدارى والمالى، أما الآن فنتعرف إلى ما يمكن أن يعتبر «إضافة» لم يهتم بها المؤرخون.

من ذلك هذه القصة، التى جرت فى عهد المعتضد لأحد رجاله ومنها أن الخليفة كان له جهـاز استخبارات خاص، يرفع تقـاريره إليه هو شخصيّـاً، وأن هذا الجهاز كان يراقب كبـار رجال الدولة -وليس أعداءها- وأن العاملين فيه كـانوا يُنْتَقَوْن ممن لا يتوقع أحد منهم هذه المهـمة، وأنهم كانوا يحتالون بكل وسـيلة ممكنة للحصول على الأسرار. وربما دل الخبـر -القصة- على أن الوزير كان له جهازه المضـاد. فقد كان للقاسم بن عبيد الله -وزير الـمُعْتَضِد- سنة ٢٨٨هـ حياة خاصة عابثة، يشرب فيها ويلعب مع جواريه بغير تَحَرُّج، غـير أنه كان يخفى ذلك كله عن الخليفة حتى لا يستنقصـه، ويتهمه بالتشـاغل عن الأعمال. لكن الخليفة ألـقى فى طريقه جُمْلَةً تدل على معرفـته بما يجرى فى الخفـاء. فخرج الوزير وقد كـاد أن يَتْلَف غَمّاً. إذ كيف بلغه الـسر، وهل يدل هذا على معرفتـه بباقى الأسرار كالهـبات والرَّشَاوَى؟ «وكان له فى داره صاحبُ خَبَرٍ جَلْدٍ يرفع إليه الأمور، فأحضره وعرفه ما جرى بينه وبين الـمُعتَضِد، وقال له: ابحث لى عمَّن أخرج هذا الخبر، فإن فعلتَ، زِدْتُ فى رزقك وأجْزَتُـك بكذا وكذا، وإن لم تُخـرْجه نفيـتُك إلى عُمَـان. وحلف له على الأمرين»، وهكذا وقف رجل الاستخبارات فى مواجهة رجل الاستخبارات الآخر، واستطاع أن يكشـفَه فى ثياب الـمُكدِّين (الشـحاذين) يتظاهر بأنه عجـوز، ويحمله بثياب تخفـيه إلى دار الـقاسم الـذى يسـتجوبه سـراً، ويأبى إلا أن يعرف حقـيقته

«أوَ لا ترى ضَوْءَ الدنيا» فيُضطر إلى الاعتراف بأنه فلان الهاشمىُّ، وأنه يتجسس للمعْتَضد. فيحبسه، ويتغافل عنه، إلى أن يطلب الخليفة منه بنفسه إطلاق مخبره الخاص، الذى كشف أمره (القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٨).

ونعرف من قصة أخرى أن الإدارة السياسية فى العهد العباسى عرفت منصب مَنْ يسمى فى زماننا «وزيراً بلا وزارة» أو «وزير المتابعة» وكان فى عمله يتبع الوزير -فهو بمثابة مساعد له- وليس الخليفة، فقد كان أبو جعفر بن أحمد حاجبًا لأبى محمد المُهَلَّبى قبل تولى الوزارة، فلما صار المُهلبى وزيراً «كان يُصرِّفُه فى الاستحثاث على العمال، وفى الأعمال التى يتصرف فيها العمال الصغار»، ونفهم من سياق القصة أن وزير المتابعة يُنتدَبُ لأداء مهمة عاجلة وأنه «قائم بحضرة الوزير» لمثل هذا الشأن. (القسم الثانى -الفصل الثالث- القصة رقم ١، وقد سبقت الإشارة إليها).

ونعرف أيضًا أن المأمون بعد أن تغلب على أخيه بسيوف الخُرَسَانية، أراد أن يكافِئَهم بتوليتهم المناصب، والأعمالَ الإدارية والمالية التى يمكن أن تُعتبر بمثابة تعويض، ولأنهم أهل ثقته، وقد أدَّى هذا إلى تعطيل الموظفين القُدامى واضطراب معيشتهم، ومن هذه القصة نجد شيخًا خُرسَانياً مُغفلاً، أميًا، يُقبل على أكبر الكُتَّاب سناً، ويطلب منه أن يختار له عملاً مناسبًا ليتولاه كما أمر أمير المؤمنين.. ويسخر الكاتبُ المُتمَرِّسَ من هذا الطلب الساذَجِ من رجل لا يعرف ماذا ينبغى عليه أن يعمل، فيقترح عليه تولى وظيفة لا وجود لها. فقال: لا أعرف لك عملاً أولى بك من بَزْبَنْدَات البحر، وصَدَقَات الوَحْش -أى الجسور التى تصد ماء البحر عن الشاطئ وأوقاف الوحوش- فقال له: اكتبه لى، فكتبه، ورَفَعَ طلب الوظيفة إلى الخليفة الذى غضب للسخرية من زعماء أنصاره وشيعته، وأحضر الكاتب، وقال له: يا جاهل. تفرَّغْتَ لأصحابى؟ ولكن الكاتب يرد بأمانة على المأمون، مُفَنِّدًا خطر الاعتماد على «أهل الثقة» -وإهمال «أهل الخبرة» ومقترحًا الحل الذى يُرضى سياسة الدولة، ويحفظُ مصالحها فى نفس الوقت، فقال له: يا أمير المؤمنين، أصحابُنا هؤلاء ثِقَاتٌ يصلحون لحفظ ما يصل إلى أيديهم من الخزائن

والأموال، وأما شروط الخراج، وحُكمه وما يجب تعجيل استخراجه وما يجب تأخيرهُ، وما يجب إطلاقهُ، وما يجب منعُه، وما يجب إنفاقُه، وما يجب الاحْتساب به، فلا يعرفونَه، وتقليدهم يعود بِذَهَاب الارتفاع (أى تضطرب به ميزانية الدولة ولا تصل إلى ما نحصِّله الآن) فإن كنت يا أمير المؤمنين لا تثق بنا، فضمَّ إلى كل واحد منهم رجلاً منّا، فيكون الشيعىُّ يحفظ المال، ونحن نجمعه» (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ١٨).

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه، وأمر بتقليد عُمَّال السواد وكتابه، وأن يضم إلى كل واحد منهم، واحدًا من الشيعة.

إننا لم نرد -فى مستوى الخلفاء- أن نقف عند صُورَ ترَفَهم، وصراع أولياء عهودهم، وخفايا ما يجرى ليلة موت أحدهم (انظر مثلاً ما يروى عن كيفية موت الهادى، وليلة أغمى على الرشيد بسبب التخمة حتى ظن أنه مات، أو ليلة مات فعلاً!) فهذا مما يمكن تحصيله من كتب التاريخ، أما التفاصيل الصغيرة فهى ما نعنى به هنا.

نذكر مثلاً أن الرشيد عرف أن العَتّابى الشاعر يقول بالاعتزال، فتهدده حتى حمله على الهرب، ولكن بعض محبيه وضع شيئًا من خطبه ورسائله فى طريق الرشيد، فأعجب به، وعفا عنه، واستقدمه ليعلم الأمين والمأمون «ويضع لهما خُطبًا».

ونعرف من أخبار أخرى أن كبار أدباء العصر كانوا يضعون الخطب لولى العهد، الذى يحفظها ثم يلقيها من الذاكرة يوم الجمعة، حين تُعْلَن بيعتُه لولاية العهد.

ومن الأمور الطريفة ما يطلعنا عليه أكثر من خبر، أنه حين كان يتم القبض على إحدى الشخصيات العظيمة، ذات الجُرْم العام، كانت هذه الشخصيات تقدَّم للمساءلة فيما جنت فيما يشبه المؤتمر العام، أو المحاكمة العلنية، وكان هذا المجلس يعقد برئاسة شخصية بارزة، الخليفة أو أحد قواده، وكان الحاضرون يشاركون فى توجيه الحكم على المتهم، كما أن شخصًا يُختَصُّ بأمور الدعاية للخليفة كان يقف

خطيبًا عند افـتتاح الجلسة، يُسْهِبُ فى إبراز مـآثر العهد وفضائل الخليـفة ووجوب طاعـته، والخـبران عن هذا التـقليد يرجـعان إلى عـصر المأمـون، ونرجِّح أنه لم يبتدْعـهما وفى أخبار الخلفـاء ما يدل -ولو بصورة مصغـرة- على وجود مثل هذه المحاكمات العلنية، ذات الطابع السياسى، يَحْضُرُها أعضاءُ الأسرة الحاكمة، وكبراءُ الدولة، لقد قـيل إن إبراهيم بنَ المهدى قُـبض عليه وهو يحاول الهـرب فى ثياب امرأة، وأن المأمون طلب مثوله على الحال التى أخذَ عليها «ثم جلس مجلسًا عامّاً، وقام خطيبٌ بحـضرة المأمون يخطب بفـضله، وما رزقه الله، جَلَّتْ عظمـتُه، من الظفر بإبراهيـم بزيِّه.. وحـين قتل الأمـين واضـطربـت أوضـاع الخـلافـة انـتـهـز أبو السَّرايا الفرصـة، وخرج بالطالبيِّين فى البـصرة غير أن الحـسن بنَ سَهْل، قائدَ جـيش المأمون، تمكن من دخـول البـصرة، وهرب الطالبـيـون وقُبض على أحـد زعمائهم: زيد بن موسى بن جعفـر الصادق، فما كان من الحسن بن سهل إلا أن جلس مـجلسًا عـامّاً من أجله، ودعـا به، فـأنَّبَه، وَوَبَّخَـه، وقال: قـتلت الناس وسفكْتَ دمـاءَ المسلمين، وفعلتَ، وفـعلتَ. ثم أقبل على مَنْ حَـضَرَهُ من الناس والهاشميـين وغيرهـم، وقـال: مَا تَروْن فيه؟ فأمسـكوا جـمـيعًا، وانـبرى له قُثَمُ ابن جعفر بن سليـمان، فقال: أرى أيها الأمير أن تضـرب عنقَه، ودمُهُ فى عنقى» وهكذا قُدِّم زيد للقتل، ولكن رجـلاً من أصحاب المناصب فى عهد الرشـيد (قائد البحـرية) يتدخل، ويمنع القـتل، لأن المأمون لم يأمـر به صراحـةً، وهو هاشمى عَلَوىٌّ من أبناء عمومته!!

وهكذا نكتشف أن المحاكـمات السياسيـة، ونظام الادعاء، ونظام الدفاع، وربما الأخذ بنظام المحلفين -أو القـضاة الشعبيـين- كان معروفًا، ويُلْجأ إليـه فى توجيه التهمة للشخصيات ذات المنزلة الاجتماعية والسياسية.

وحيـن نغادر دائرة الخلفـاء إلى دائرة الوزراء سنجد صـور الصراع بين الـعرب والفرس، منذ تأسيس الخلافـة العباسية، وعَبْرَ كل العهـود، وسنجد وسائل تجنيد الأنصار، ودس العـملاء وتجمـيع المعارضين، والوشـاية، واصطناع التهم، وإثارة الظنون وتوجـيهها، وتوزيع مناصب الدولة، وجزءًا من ثروتهـا على الـمُمَـالئين

والأقارب.. كل هذا مما استشرى وكأنه وباء فى الجهاز الإدارى منذ تأسيس الخلافة، وأخذ مداه فى عصور الضعف، فى أعقاب عصر المُتَوكِّل، إلى أن خرج الأمر برُمَّتِه من أيدى الخلفاء.

ليس بمُسْتَغْرَبٍ أن نجد ولى العهد يكوِّنُ لنفسه بطانَةً تناصره حتى على أبيه الخليفة، وتتعجل انتقال السلطة إليه، ويحدث أن يقف وزير الدولة فى صف الخليفة، ومِنْ ثَمَّ ينتظره سوء المصير حين تنتقل السلطة إلى ولى العهد، فهذا الخليفة المهدى يختار إبراهيم الحرانى كاتبًا لابنه موسى الهادى فى منطلقه إلى جُرْجَان، ثم يبلغه عن هذا الكاتب ما لا يُطمئِنْه فيأمر ابنه بإرجاعه إليه، ولكن موسى يتهرب من إنفاذ الأمر حتى «كتب إليه المهدى: إن لم تحمله خلعتُك من العهد، واسقطت منزلتَك» فيُذْعِنُ مضطرًا ويرسل الحرَّانىَّ، ولكن المهدى يموت يوم وصوله فى ظروف غامضة، (قيل: بطعام مسموم، وقيل: سقط من فوق فرسه) ليصبح الحرانىُّ وزيرًا للخليفة الجديد، ويُنَحَّى الربيع عن الوزارة، وفى مرة أخرى لا يُنَحَّى بل يُقتل، فقد كان المُعتضِدُ يعتقد أن الوزير إسماعيلَ بن بُلْبل هو السبب فى سوء رأى أبيه الخليفة المُوَفَّق فيه، وأنه الذى أغراه بحبسه حتى صار يَخْشَى أن يُقتل، ومع أن الوزير أقسم وتَرَضَّى وتنصَّل، وهو لا يزال وزيرًا، فإن ولى العهد لم يمهله حين أفضت إليه الخلافة (القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٦).

وهذا المتوكل يستعدى إسحق المُصْعَبِىَّ -صاحبَ الشُّرطة فى بغداد إبان عهود المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل- ويُسْلِمُه عُبَيْدَ الله بن سُليمان بن وَهْب، ويقول له: هذا عدوى فافصل لحمه عن عظمه، هذا كان يلقانى أيام المعتصم فلا يبدأنى بالسلام، فأبدأه به لحاجتى إليه، فيردُّ علىَّ كما يرد المَوْلَى على عَبْدِهِ، وكل ما دبَّرَ إيتاخ (القائد التركى) فَعَنْ رأيه!!

لا يمكننا الاستطراد فى مثل هذه الحوادث الدامية، ويكفى أن نشير إلى وزير مثل ابن الفرات، الذى أخذَ من الوزارة إلى السجن والعذاب، ومن السجن إلى

الوزارة ثم من الوزارة إلى السجن والعـذاب مرة أخرى، وفـيها قتل (انظر القـصة بهذا العنوان: القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٢).

وقد كانت أقـدارُ الكُتَّاب والعُمَّال من الولاة، وأصحاب الخَـراج مرتبطةً بمصائر الخلفاء والوزراء الذين يستخدمونهم، فلا عجب أن تكثُر نكبـاتُهم ومصادراتُهم، وأن يتفننوا فى اختراع وسـائل الاختفـاء، وأن يتقنوا تهريب الثروات، وأن يستنزفُوا أموال الناس حـين تكون فى أيديهم السُّلطة تَحَسُّبًا ليوم يُـعزلُون فيـه، ويُطَالبون بمبالغ خـيالية يـعرفون أنه مـا من الوفاء بها بُدٌّ، ولا بد أن يبـقى لهم شيءٌ كثـير بعدها. ولأن هذه الفترة من العصر العـباسى -ونعنى القرنين الثالث والرابع- فترةُ اضطراب سـياسى وفسـاد إدارى شنيع، نجد الأخـلاق العامـة تتبـعها: مـضطربةً فاسدةً، يصـدر قرار الخليفة بسـجن وزيره وتعذيبه فـيسجن ويعذب بإشـراف كبار رجال الدولة، لكنهـم يتودَّدون إلى الوزير السجـين سرآ، ويعتـذرون إليه تَحَسُّبًا لاحتمال عودته إلى الوزارة (تأمل دلالة القصـة السابقة، وأيضًا من الفصل الرابع- القصة رقم ٧ والقصة رقم ١٠).

ويقبض الوزير محـمد بن عـبد الملك الزيـات عـلى سلفـه الـوزير عـبيد الله ابن سليمـان بن وهب، ويهينه ويعذبه، وفى خـدمته أخـوه الحسن بن وهب، فلا يجسر على أن يتشفع لأخيه عند الوزير، ولا أن يخفف عنه البلاء.

ويُسلِّم أبو دلف العجلى -القائد البطل العربى- للأفشـين بأمر المعتصم يفعل به ما يشـاء، ويتصـدى القاضى أحـمد بن أبى دؤاد، ويحـتال فى ذلك بطرق غـير مأمونة، فينقذه، ويستهدف لعداوة الأفـشين (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ١٥، واقرأ أيضًا القصة رقم ١٣ من هذا الفصل).

لهذا الخطر الماحق صارت الثـروة هدفًا يسعى إليه العمـال، وأصبح بذل الرشوة أو قبولهـا أمرًا عاديًا للحصـول على الحماية أو إسبـاغها على مَنْ يطلبهـا (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ٦). والمتاجرة بأموال الدولة عملاً مباحًا (القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٩).

ومن أقوى الأخبار دلالة على الفساد الإدارى والمالى ما ذكر من أن بعض العمال تقلد الأهواز وأراد أن يبدأ عهده بتطهير جهاز الحكومة، ومنع الرشوة، وإلزام كل موظف بموقعه لا يتخطاه، فأحس كبراءُ المدينة بالخطر الذى يتهدَّدُ مكاسبهم وتسلُّطهم بمنع الرشوة عن الموظفين، فاختار الكبراء واحدًا منهم يكلم الوالى الجديد. يقول: «فجئتُه، وخلوتُ به، وبذلتُ له مرْفَقًا جليلاً (رشوة ضخمة) فلم يقبله، ودخلتُ عليه بالكلام من غير وجه، فَمَا لاَن، ولا أجاب. فلما يئستُ منه، وكدتُ أن أقومَ عنه، قلت له: يا هذا الرجل، أنت مقيم من هذا الأمر على خطأ شديد، لأنك تظلمنا وتزيل رُسُومَنا من حيث لا يحمَدُك السلطان، ولا تنتفع أنت أيضًا بذلك، ومع هذا فأخبرنى: هل تأمن أن تكون قد صُرِفْتَ (طُردتَ من الوظيفة) وكتاب صَرْفِكَ فى الطريق، يَردُ عليك بعد يومين أو ثلاثة» وما دام هذا الاحتمال واردًا، والوالى لا يطمئن فى موقعه إلا أيامًا، فلماذا تُضيِّع فُرصَةَ تعويض ما يُحتمَلُ حدوثُه؟ وبالفعل اهتز ثبات الوالى، وقبل المِرفْق (الرشوة) ولم تمض أيام حتى جاء خطاب صَرْفِهِ عن الوظيفة، فراح يشكر الوسيط القديم على نصيحته، وهو لا شك فى أن لهذا الوسيط عُيونًا فى بغداد تكاتبه بما سيحدث، وأنه كان عارفًا بما سيكون من إنهاء خدمته بهذه السرعة!!

ثانيًا: صور الحياة الاجتماعية:

لم نرد فى هذه الفقرة أن نقدم وصفًا للحياة الاجتماعية، أو بعض جوانبها، كما أننا لم نحاول فى الفقرة السابقة أن نُحصى أو نعرضَ الأخبار والشخصيات التاريخية التى احتفل بها الكتاب. لقد أردنا أن نشير إلى أهمية هذا المجال، وأن نضع تحت نظر القارئ نماذج مما يمكن أن يعتبر إضافة فى هذا الجانب، لأن كتب التاريخ لم تحفل به، لسبب أو لآخر، وفى صور الحياة الاجتماعية لن نتخلى عن هذا القصد، ولم نتوسع فيه توسعنا هناك، وبشكل عام فإن القاضى التَّنوخِى لم يعمد إلى كتابة أو جمع قصص اجتماعية، بالمعنى الذى يُقصد الآن من استخدام هذا المصطلح، أى تصوير العادات والتقاليد وأنماط السلوك، وتسليط الضوء على بعض المشكلات ذات الطابع العام، والتى تُهمُّ الطبقات الدنيا فى المحل الأول،

فلسنا نظن أن هذا المعنى الاجتماعى، أو ذاك المغزى الطبقى كان واضحًا عند كاتب فى القرن الرابع الهجرى بمثل وضوحه الآن، أو بما يقارب وضوحه الآن. ومع هذا فإن القاضى التَّنُوخى قد جمع قصصًا عن اللصوص، وعن العُشَّاق، يمكن أن تعتبر فى صميم القصة الاجتماعية، غير أن ما أردناه بـ «صور الحياة» يتجاوز إلى ما يصلح اقتناصه فى سياق أية قصة، أو أى خبر.

إن علاقة التفاعل الجدلىّ بين التركيب الاجتماعى فى مفرداته الطبقية لن يسمح بعَزْلِ أوضاعٍ أخرى، إنها لا بد أن تكون سببًا ونتيجة فى الوقت نفسه، وقد رأينا كم كانت أوضاع الخلافة متردية، وكان المنصب أُلْعُوبَةً، وكانت النساء من أمهات الخلفاء وزوجاتهم وجواريهم مُتَحكِّمات، حتى كان بعضُهن يُقِمْنَ فى بيوتهن -ولا بد أنها قِلاعٌ أو تشبه القلاع- سجونًا خاصة، ويمكن لإحداهُن أن تحكمَ على موظف عندها بالقتل، دون أن يمر بأى مرحلة من مراحل التقاضى!! ومن الطبيعى أن يؤثِّر هذا الخللُ الأمنىُّ الاجتماعى فى الطَّبقة المتعاملة مع طبقة القمة، فنجد الولاةَ والعمّالَ يجدُّون فى جمع الثروات ويتفننون فى حماية أنفسهم. كان أبو جعفر بن شيرْزَاد الكاتب يسكن دارًا هى قَلْعَةٌ بالفعل وكان لها أربعةَ عَشَرَ بابًا، يُفضى بعضها إلى جهات وأزّقة لا يَعرف عنها أحدٌ شيئًا. وكان يملك من الغلمان المسلَّحين المستعدين لافتدائه ما استطاع به أن يعطل قرارَ الوزير، ويَرفُضَ مغادرة بيته، ويتحدى السُّلطة الرسمية، حتى تمكن من الاختفاء خارج بيته إلى أن أتاه الفرج!!، كما أنهم كانوا إذا هُدِّدَ أحدُهم فى حياته وقُدِّم للقتل، هَتَفَ: وأين المصادرات؟ أين أنتم عن أموالى أفتدى بها نفسى؟ أما إذا أحيط به من أجل الاستيلاء على ثروته، التى لا بد أن تكون تضخمت بشكل لا يسهُل احتمالُه راح يُنكر ثروتهَ، التى تَفَنَّنَ فى إخفاء معالمها. ويَصْمُد لعمليات التعذيب على عنفها، ويساوم ليُصَالَحَ على بعض المطلوب منه، ويدّعى أنه تسلَّفه من أصدقائه وكرماء عصره لينفذ نفسه، وهذا رجل ذو خبرة، يرشد أحدَهم إلى وسيلة يُقنِع بها الوزيرَ أنه لا يملك المال الذى يُطالَب به. قال: تكتب رُقْعَةً إلى رجل من معاملتك تَعْرِفُ شُحَّهُ وضيقَ نفسه، تلتمس منه لعيالك ألف درهمٌ يُقرضُك إياها وتلتمسُ منه أن

يجيبكَ على ظهر رُقعتِكَ، لترجعَ إليك فإنه لِشُحِّه، يَرُدُّك بعذر، وتحتفظُ بالرقعة، فإذا طالبك الوزير أخرجتَها له على غـيرُ مَوَاطَأة، وقلتَ له: قد أفْضَت حالى إلى هذا. (القسم الثانى -الفصل الأول- قصة رقم ٩).

وجديرٌ بالذكـر هنا أن الخلفاء كانـوا -عادة- على علم بالثروات المخـبَّأة، ولم يكونوا يعـترضـون عليهـا أو يمـدون إليهـا أيديهم، إلا إذا رأوا أنها صـارت من الضخامة بحيث تهدِّد جانبًا من سلطانهم، أو أن يُوَاجِهَ الخليفةُ أزمةً سياسية يحتاج حلُّها إلى المـال بشكل غير عـادى، ولا تسعـفه الخزانة العـامة، وتشح نفـسه عن إخراج المطلوب من ماله الخاص، فـحينئذ يلجأ إلى الـمُصادرة والاسْـتِصْفَاء، وهو سلاح مُشْرَعٌ فى أى وقت، وله مسوِّغـاته الجاهزة. يدل خَبَرٌ عن الرشيد أنه رَضِىَ عن فَرَج الرُّخَّـجِىِّ، وأعاده عامـلاً على الأهواز حين اعـترف أمامـه بمقدار ثروته الحقيـقية، ومصـادر حصوله عليها فـى مرحلة عمله السابقـة، وعرض هذه الثروةَ الضخمةَ على الرشيد ليأخذَها. ودلَّ على مكانها، فقال الرشيد: باركَ الله لك فى مالك، ارجع إلى عملك!! (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ٩).

وخبرٌ آخـر عـن المـأمون، أنـه دعـا يومًا بأبـى عَـبَّاد، وأمـره أن يأتـىَ عَـمْـرًا ابنَ مَسْـعدَةَ، ويدوِّنَ معـه ورقة بكل ما يملك بالتـفصيل، ويوقِّعـان عليها مـعًا، ويحتفظ بهـا أبو عَبَّاد، وتكون المفاجـأة التى لم يفهم سرَّها أبو عبـاد أن عَمْرًا ابنَ مَسْعَـدَةَ لديه أمر من المأمون أن يفعل الشىءَ نفسَـه مع أبى عبّاد. ويوضح ابن مُسعدة اللغز، فيقول: إن صاحبنا -يعنى المأمون- ليس ببخيل، ولكنه يكره أن يُطوى معـروفه، وإنما أراد أن يُعلمَنا أنه قـد عَلِمَ بما صار إلينا، فأمْسَكَ عنه عِلْمِ (القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٣).

وقـد أوضـح المأمـون -فيما بعد- قصَـده، فهو لم يستكثر على رجال دولته ما جمعوا من ثروة، ولكنه أراد أن يُزِيلَ عنهم غمَّ الـمُسَاتَرة، وثِقْلَ الـمُراقبة!! أما هـذه الثـروة التى سـامح فـيها المـأمون رَجُلَيْه فـقد كانت أربعـين ألف ألف درهم لابن مَسْعَدَة، وسبعةً وعشرين ألف ألف لأبى عبّاد!!

هذه صورة الطبقة العليا فى المجتمع، تتحرك بين قطبين متباعدين، يُمثِّل الثراء والسُّلطة جانبًا، والمصادَرَةُ والسَّجْن جانبًا آخر. وبين هذا وذاك حياةٌ متوترة بالترف وانْتِهاب اللذات، وانتهاز الفرص وتوقع المداهمة وزوال السلطان، ولكنها تمارس جَبَرُوتَ التحكّم والعَسْف، لعل هذا يؤخِّرُ فى نزول المحنة القادمة لا ريب. هذا الوضع العام، بما يُشيع من جوٍّ نفسى كان له أثره -لا ريب- على النظام الاجتماعى. لقد عرف هذا العصر انتفاضاتٍ كبرى، كثورة الزِّنج فى منطقة البصرة. وثورة القَرَامَطة وقد بلغ بهم الحال أن نزعوا الحَجَرَ الأسودَ من الكعبة، وطردوا الحُجاج، ووصلوا بجيوشهم إلى بغدادَ العاصمةِ التاريخية، وإن مناقشة هذه الحركات الانفصالية بمعْزِلٍ عن غياب العدْل الاجتماعى، واضطرابِ النظام المالى للدولة الإسلامية، واعتمادِ الخلفاء على الجنود المرتزِقة من تُرْكٍ وَدَيْلَم فى حماية دولتهم، يؤدى إلى نتائجَ قاصرة، وهذه القصص الكثيرة التى تنتشر فى الكتاب. يمكن أن تجدَ فيها ملامح التداخل بين هذه الظاهرات جميعًا، وكيف كان كل منها يرتبط عضوياً بالآخر.

لقد قدَّم القاضى التَّنُوخِيُّ صوراً نادرة لحِيَل اللصوص، ونماذَج لسلوكهم وتقاليد مهنتهم؛ سنجد للصوص نقيبًا، يعرف شخصية السارق من أسلوب سَرِقَته، والمنطقة التى وَقَعتْ بها السرقة، وهو يمارس مهامَّ رئيس الطائفة حتى وهو فى السجن، فيتشفع فى ردّ مال مسروق (القسم الثانى- القصة رقم ٥).

ونجد قاطع طريق يستبيح مال التجار وينهبه معتمداً على فتوى فقهية، مؤداها أن المال الذى لا تُخْرَجُ زكاتُه يفقد حُرمَته، فيأتى بالتجار الذين أخذ تجارتَهم ويسألهم كيف يُؤدون زكاتها؟ بأية نسبة؟ ومتى؟ وهل تُخْرَج زكاةُ الديون، والمدخراتِ الذهبية... إلخ، ويكشف أمامنا عجزَهم وتخبُّطهم بما يدل على أن حق الله فى هذا المال لم يصل إلى مستحقيه، ومِنْ ثَمَّ لا حُرْمة له (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ٤).

ونتعرف على «ابن حمدى» اللص البغدادى المهشور بالفتوة والظُّرف، وكان لا ينهب أصحاب البضائع البضائع القليلة. وسنجد أبلغ بيان عن محركات

اللصوصية يقـولها ابن حمدى هذا، الذى يجد فى قطعه للطريق عـملاً أقلَّ قسوة وضرراً مما يفعل الوزراء والولاة فى الناس، يقول لواحد ممن سلبهم أموالهم: «الله بيننا وبين هذا السلطان الذى أحـوجنا إلى هذا، فإنه قد أسـقط أرزاقنا، وأحْوَجَنا إلى هذا الفعل، ولسـنا فيما نـفعله نرتكب أمراً أعظمَ مما يرتكـبه السلطان. وأنت تعلم أن ابن شِـيرْزَادَ بـبغداد يُصـادر الناس ويُفقِـرهم، حتى إنه يأخـذ الـمُـوسِرَ الـمُكثِر، فلا يخرج من حبسه، إلا وهو لا يهتدى إلى شىء غير الصَّدَقة، وكذلك يفعل البريدّى بواسط والبصرة، والدَيْلَمُ بالأهواز. وقد علمتُ أنهم يأخذون أصولَ الضِّياع، والدور، والعَقار، ويتجاوزون ذلك إلى الحُرُم والأولاد، فاحسَب أننا مثل هؤلاء، وأن واحداً منهم صَادَرَكَ».

«فقلت: أعـزَّك الله، ظُلْمُ الظَّلَمَة لا يكون حُجَّة، والقـبيحُ لا يكون سُنَّة، وإذا وقفتُ أنا وأنت بين يدى الله عَزّ وجَـلَّ، أترضى أن يكون هذا جوابك له؟ فأطرق مليّاً، ولم أشكّ فى أنه يقتلـنى، ثم رفع رأسه، فقال: كم أُخِذَ منك؟ فَصَـدَقْتُهُ. فقال: أحضروه. فأحضِر، فكان كما ذكرتُ، فأعطانى نصفه».

هكذا يبدو قاطعُ الطريق صَـدّى لأخلاقيات العصر وسيـاسته، ويبدو -فى نظر نفسه- أكثـرَ رِفْقًا وأنسانية وأرفعَ خُلُقًا من الوزراء والولاة فيـما يُنزلونه بشعوبهم، فهو لا يستأصل رأسَ المال فى الضِّياع والعقار، ولا يتطلع إلى الحُرُمِ والأولاد، إنه يكتفى بنهب المال المنقول، وقد رضى هذه المرَّة بالقسمة مُناصَفَةً.

وبصفة عامـة.. فإن قُطَّاع الطريق واللصوص كان لهم نفوذ شِبْـه معتَرف به فى المناطق التى يسـيطرون عليهـا، وكان مَنْـسرُ بعـضهم يبلغ مـائةَ نفس، بأسلحتـهم وعُدَّتهم «كالعـسكر العظيم»، ويلفتنا أن القاضى التَّنُوخِىّ يصوِّر الجـوانب الإنسانية والدوافعَ النفـسية لدى هذه الـطائفة الخارجـة على النظام -إن كان ثَمَّـةَ نظام، ولـم يصوِّرهم فى حالة منفِّرة أو قاسية إلا نادراً -وقد كان بعضهم لا يعبأ بسُّلطة الدولة، ويقطع طريق النهر عـلى قافلة بحرية تحـمل رسالةً من الخليفـة، ولكن الغالبَ أنهم كانوا يتـجنبون الصدام مع السُّلطة، التى كـانت تتغافل عنهم فى حدود، وقـد تَقَبَّل

مصالحةَ بعضهم ومـقاسمته مكاسبه، بشرط أن يتوب، كما تُعْـجَبُ بشهامة بعضهم وفروسيَّـتهِ فلا تُسرِعُ إلى معـاقبته. وإذا جاوزنا القصص الـتى عقدت لقطّاع الطريق والمتلصصـة، فإننا سنجد علامـات غياب الأمن، وتعرُّضَ القـوافل والأفراد للسلب تكاد تكون جزءًا من تركيب القصة، وملامح المجتمع فى تلك الفترة المضطربة.

وفى باب: «مَن نالته شدة فى هواه، فكشفـها الله عنه وملَّكه مَنْ يهواه» سنجد بعض قـصص الـمُحـبيِّـن العُذْريِّين فى نَمَطِهـا التـقليدى الذى نجـده فى كتـاب «الأغانى» ولكن الأكثـر أهمية أننا سنجد عـددًا من القصص المحبوكـة فنيّاً، يقوم بدَوْر العاشق والمعشـوق فيها السيدُ وجـاريتُه غالبًا، أو شابٌّ حـرٌّ وجاريةٌ يملكها بعضُ السادة من عِلْية القوم أو الجيران، فى أحيان أخرى، وهذا النوع من القصص يضع أمامنا نوعًا من العَلاقات الاجتماعـية أهملته الدراسات التراثية على تنوعها. هناك بعض الكتب التى اهتمت بأخبار القِيَـان (الجوارى المغنيِّات) أو الجوارى بصفة عامة، ولكنها اهتمت غالبًا بأخـبارهن فى مجال الغناء أو اللهو والعبث، أو النفوذ السياسى على سادتهن، ونادرًا مـا نجد اهتمامًا بالحياة العـاطفية لأولئك الجوارى، وكأننا نَفْتَرِضُ -أو افـترض القدماء- أنها ما دامت مملوكـةً فلا بد أن تكون مُذْعِنَة لسيدِها، خاضعةً لرغباته!! وهذا التصـور سيبدأ من افتراض خاطئ، فأول شرائط الحب أنه يقوم على اعتراف عميق بحريّة الطرف الآخر وحقّه فى أن يَمْنَعَ أو يمْنَحَ عن طواَعيَةٍ ورغبـةٍ حقيقية، وهذا بدوْره اعترافٌ بالمسـاواة بين العاشق والمعشوق، وليس مصادفةً أن أقوى قصص الحب العُذرى اتخذَتْ من البادية مِهادًا لها موطنًا، حيث تستقر أسُسُ المساواة بين أفراد القبيلة، وبين القبائل المتناظرة. تتكرر فى هذه القصص «لازمة» السيد الذى لا يبقى له من الدنيا غيـرُ جاريته المحبوبة، قد تقترح عليه أن يبيعَهـا ليعيشَ بثمنها، وقد تعزِّيه بأنها ستـصادف سادةً أغنياء يتمكنون من إطعامها وكسوتها، وقد يأتى الاقتراح من جانب السيد، لنفس الدوافع، ولكنه فى كل مرة يَضْعُفُ فى اللحظـة الحاسمة، ويرفُض البيع برغم الثـمن الجزيل المعروض فيهـا، ولا يكتفى بالاحتـفاظ بها فى مِلْكه، بل يُعلن أمام الـشهود أنه أعتـقَها، وجعل عِتْقَها صَدَاَقَها، ويطلب منهم أن يزوِّجوها له!!

هذا النوع من القصص يدل على المنزلة الاجتماعية التى حَظِيَتْ بها الجوارى فى العصر العباسى، وهو عصر عَرَف الخلفاءَ من أبناء الجوارى، لم يَشْغَل مكان الخليفة فى هذا العصر على طوله من أبناء الحرائر غيرُ السَّفَّاح -مؤسّس الدولة، والأمين ابن زبيدة. وقد كانت الجارية فارسيةً أو رومية، مثقفة بأرقى ما يحتاج التعامل الحضارى فى ذلك الحين. وبذلك كانت صاحبةَ الحَظْوة الفعلية، حتى على الحرّة العربية، التى تكتفى بمظهر السيادة، ولم يكن السيد الرجل يتردد فى أن يخضع لجاريته، بل يتذلل، ويسترضيَها قائلاً: يا ستى، ويسألها أن تصفحَ عنه، ويرضى بأن تشاركه عيشه الفقير، على أن يبيعَها ويعيش ثرياً محروماً منها، وسنجد عندها الوفاءَ لهذا السيد العاشق، فلم يحدث أن جارية فضّلت أن تُباع للأثرياء، على أن تبقى زوجة لسيدها الفقير، بل إنها تعاونه على اجتياز محنته، بما تُجيد من فن.

لا نريد أن نتوسع أكثر من ذلك، حتى لا يخرج هذا الفصل عن الحجم الذى ارتضيناه، ونكتفى بمجرد الإشارة إلى أوجه أخرى تظهر فيها صور المجتمع العربى فى القرن الرابع بتفاصيل أدق وأصدق مما صوّر المؤرِّخون فى غيبة الرصد الاجتماعى للسلوك العام، وأنماط المعيشة، وألوان التغيُّر.

أ- العادات والتقاليد مثل كتابة الأحْجِبَة بقصد التأثير لاستِجلاب الرضا أو تجنب السُّخْط، وتحصين الأطفال بوضع رغيف تحت وسادة الطفل والتصدق به صباح كل يوم، وتعليق رقع فيها شكاوى ومظالم فى محراب المسجد، أو فى قبور أئمة أهل البيت.

ب- نظام الشُّرْطة، وسنجد للنظام الأمنى مصطلحات وتحركات طريفة: فهناك الشُّرطة والعَسَس، والطَّوَّاف أو الطائف، وقد كانت بغداد مقسّمة إلى أربعة أقسام أمنية، ولكل قسم مسئول، يعاونه جهاز ينتشر على مساحة الربع، ويرفع إليه تقارير، تتجمع فى تقرير واحد، يُقدَّم يومياً إلى صاحب الشُّرطة.

جـ - وهناك السجون وأنواع العقوبات وكانت درجات، تتدرج شدة وإذلالاً، فالمُطْبِق كان كالحفرة، وكانت كل زِنزانة تتّسع لسجين واحد وهو جالس، وفى ديماس الحَجَّاج كان المسجونون جميعًا فى سلسلة واحدة، وإلى جانب السجن الحفرة، وُجِدَ

السجنُ المكشوف للسماء، يحده سـور عال، ولا يقى المساجين أى شىء فى الصيف أو فى الشتاء وكان يحدث أن يُسَلِّم الكبـراءُ إلى نَظَائِرَ لهم يسجنونهم فى بيوتهم، فهذا نوع من تحديد الإقامة، أو السِّجْن السياسى، ولكنه لم يكن يخلو من عذاب.

وتتدرج العقوبات من الصَّفْع، إلى التجريـد والجَلْد، وقد قُتِل الخليفةُ ابنُ المعتز باعْتِصَار خِصْيَتَيْه حتى الموت.

د- الرُّسوم: وتُراعى فيها منزلةُ صـاحِب السلطان، فالخليفة تُقَبَّلَ رِجْلُه، ويده، ويُقَبِّل العُـمَّالُ البسـاطَ بين يديه، وقد يحظى الوزيرُ أو الكاتبُ بشىء يشـبه هذا، وكان للخـليفة كـما للوزير يومٌ عـام يجلس فيـه لاستقـبال العـامة من أصـحاب الحاجات، ويجلس مـن حوله أركانُ دولته: الوزيرُ والكاتبُ وقـاضى القضاة، كلٌّ على درجته. وفى الأيام الأخرى لا يُدخل عليه إلا بإذن سابق.

هـ ـ أسلوب الحفاوة: وتتكرر فى القصص والأخبار طريقة الاحتفاء بعزيز قادم بعد غيـاب، أو إكرام غريب وافد. كان الأمـر عادة يبدأ بإدخاله الحَـمّام، وتقديم الطعام، ومؤانسته، ثم سؤاله عن حـاجته، وكات المدنَ محاطةً بأسوار ذات أبواب تُغلق عقب الغـروب، فإذا وفد إلى المديـنة أحدٌ بعد إغـلاق الأبواب لم يُسمح له بالدخول، ونجـد دائمًا قـريبًا من باب المدينة -خـارج السور- مـسجدًا يـقضِى به الغرباء ليلتهـم حتى يُفتح الباب مع الصبـاح، ومثل هذا المسجد كان يـبنيه الكبراءُ قُربَ بيـوتهم ويؤمون أتباعَـهم فى صلاةِ الجـماعة كل يوم. وكـان من عادة رجل العِلْيَة أن يُنهِى صـلاتَه بوقار، ويتمهلَ قليلاً لِيُـتمَّ دعاءَه وتسبيحـه، ثم ينظر خلفَه يستـعرضُ وجوهَ المصلين، ومِنْ ثَمَّ يكتـشفَ الوجوهَ الغريبةَ، ويعـرف أنهم وفدوا لحاجةٍ فيـصحبُهم -بين رجاله- إلى جناحه الخاص، ليـسألَ كلاًّ منهم عن مَطْلَبِه، ويُحسنَ إلى مَنْ جاء منهم يطلب الإحسان.

ثالثًا - المحاور الأخرى:

وقد تضـمن الكتاب عـددًا كبـيرًا من الحكايات الشَّعْـبِيّـة، لا تستند إلى خـبر تاريخى، ولا تحـرص على الاقـتراب من الـواقع الاجتـمـاعى، إن هدفَ الحكاية

الشعبية هو التَّرْفِيه، تسليةُ المستمع أو القارئ بإثارة دهشته ومخاوفه وإيمانه القدَرى بأن ما يريدُه الله يكون مهما كانت رغبة الإنسان.

فى هذه الحكايات تلعب المفاجآت دوْرًا مهمًا، ولكنه يصنع العِبرة فى النهاية، وهنا تلتقى الحكايةُ الشعبية مع القصة الوعظية التى تهدف إلى غاية أخلاقية، وإن لم تحرص على التسلية فإنها لا تعبأ كثيرًا بالواقع والمنطق، لأنها تُساق أصلاً فى نطاق المُعجزة. ولأن القَصَّ من أجل الوعظ كان بدايةَ طريق القصة الإسلامية التراثية، فإن أخبار بنى إسرائيل والعربِ البائدة، وجوانب من عصر الإسلام، تظهر فى هذا المجال تأتى مطلقة أحيانًا، وأحيانًا منسوبةً إلى نبى، فهذا نبى أو صِدِّيق ذبح عجلاً بين يدى أمه فخَبِلَ، ومسح عن فرخ أمام أمه فثاب عقله (القسم الثانى - الفصل الخامس- القصة رقم ٢١).

أما النبى دانيال فقد ألقى إلى أسود جائعة فذلَّت له حتى وضع رجليه على رؤوسها (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ٨).

وحكاية جحا المشهورة الساخرة، عن حماره الذى قطع ذيله، وامرأته التى أسقط حملها، تروى عن سدوم، وأن الله أهلكهم بها (القسم الثانى -الفصل الخامس- القصة رقم ٢٣).

أما قصص الوعظ القريبة إلى عصر المؤلف فإنها لا تختلف عن الحكاية الشعبية إلا فى غايتها الأخلاقية القدَرية. وأكثرها يقوم على مصادفة، فهذا رجل يُقسم ألا يأكل لحم فيل، فيكون ذلك سبب نجاته وثروته وآخر يحمله الأسد إلى عرينه ليأكله، فيجد هناك الثروة وفرصة النجاة، وهذا أسد يقطع الطريق على دائن ومَدِين، وكان الدائن قاسيًا متشددًا، فأكل الدائن وسلم المدين.

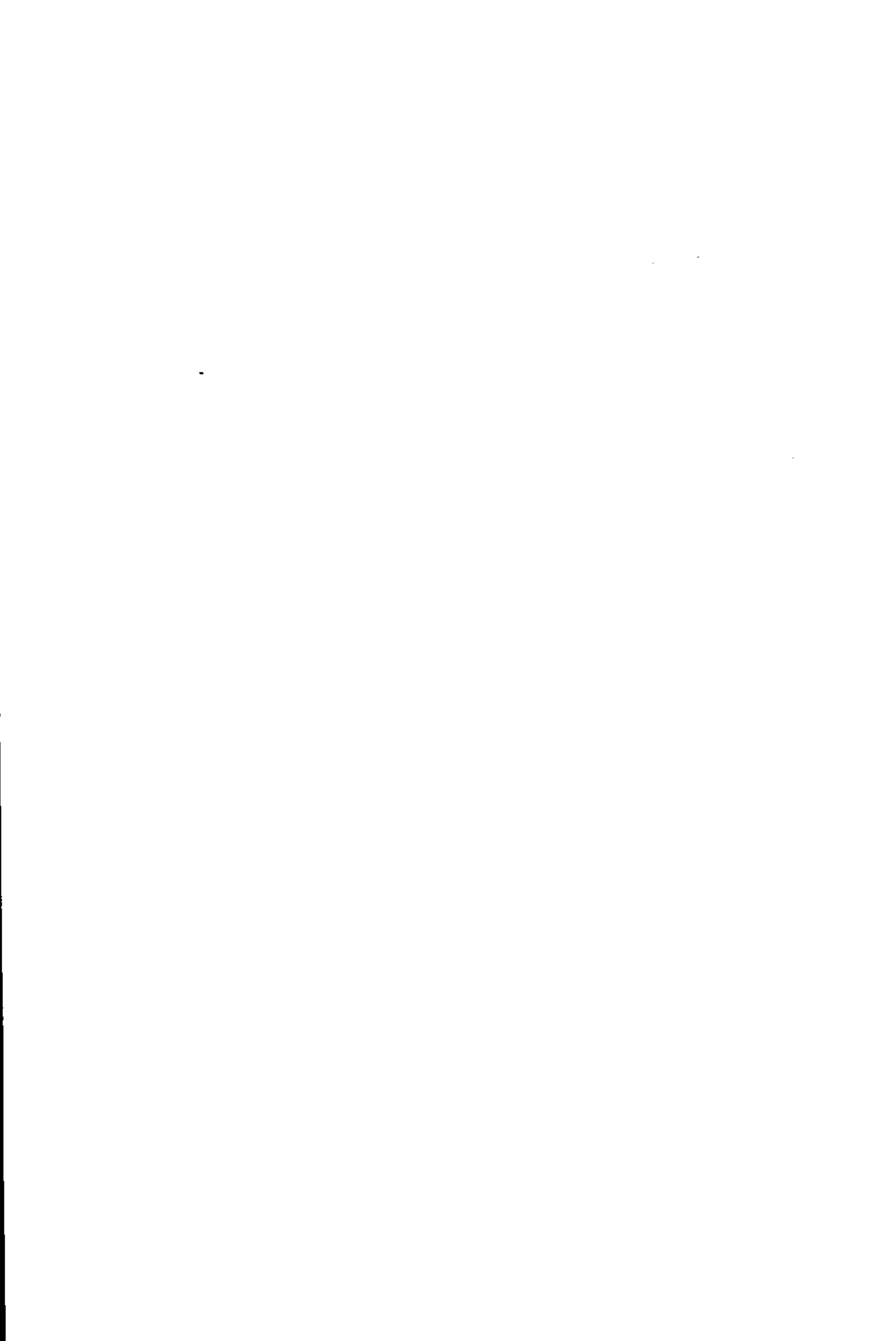
وتشغل قصص وأخبار آل البيت حيِّزًا مهمًا، وتتسلل فى طوايا قصص أخرى كثيرة وقد ترجم صاحب «أعيان الشيعة» لابن القاضى التَّنُوخِى ولأبيه على أنهما من الشيعة. أما القاضى أبو على المحسِّن، كاتبُنا، فقد ذكرت مصادرُ أخرى أنه مُعْتَزِلىٌّ، حَنَفِىُّ المذهب، وليس ما يمنع من تعاطفه وتعلقه بآل البيت مع اعتزاله وحنفيته. وقد أورد قصصًا تدل على هذا التعاطف الواضح مع أبناء عَلىٍّ كرَّم الله

وجهه، فالأسد لا يأكل أبناء عليٍّ وسلالتهم، وشخصية الإمام عليّ تتراءى فى المنام للظالمين والذين يُوشِكون على الوقوع فى الخطأ، فتُظهِرُ لهم وجْهَ الصواب أو تَرْدَعَهم، ولا يقوم معها بهذا العمل غير الرسول عليه السلام، وقد يظهر النبى فى المنام ليوصى بأحد العلويين، بل إن المعتضد لم يعرض فى خلافته للعلويين، وتفسير ذلك أنه حين كان سجينًا رأى علياً فى المنام، فبشَّره بالخلافة، وهو الذى لقَّبه المعتضد، ولا يظهر بعد الرسول وعلىّ فى المنام غير الحسين وفاطمة، وتتراءى عَبْر قصصٍ كثيرة المنزلة السامية التى يشغلها آل عَلِيٍّ فى قلوب جمهور المسلمين، فزيارة الحائرِ (قبر الحسين فى كَربَلاء) لها موسم ينطلق الناس فيه أفواجًا، وجرايتهم فى أموال أتباعهم ثابتة كالفرض، أوْ هِيَ فَرْض، على أن أخلاقَهم ونبلَهم وترفُّعَهم عن شهوة الانتقام من خصومهم وتنزيه ألسنتهم عن هُجْرِ القول، وحرص عامة المسلمين أدلة كثيرة لانتشاره فى أثناء القصص.

أما القصص التعليمية، فإنها تكون عادة واضحة التلفيق، وهى لا تعبأ بغير ما وُضِعَتْ له، وهو تفسير مناسبة أبيات، أو شرح حكمة، أو خطبة... إلخ. وتُضَحِّى القصةُ التعليمية بالجوانب الفنية إلا نادرًا، وسنجد قصصًا لشرح مسائل فقهية، عن زكاة المال، وحُرْمة عروض التجارة، وحق ابن الرقيق فى وراثة أمه الحرة (القسم الثانى -الفصل الأول- رقم ٤).

وقصصًا لشرح أبيات، ومن هذا النوع نجد قصة واحدة طريفة، سنتوقف عندها فى الفقرة التالية وهى قصة «سبع صنايع» (القسم الثانى -الفصل الأول- القصة رقم ١٦).

هذه -باختصار- مجالات الاهتمام الأساسية التى تحرك بين أقطارها القاضى التَّنوخِي، وهناك محاور غيرها، كالقصص التى هدفت إلى تصوير أساليب علاج الأمراض المختلفة، والقصص التى صوَّرت الأثر السيئ لحياة الجنود المرتزِقة -التُرْك بخاصة- فى بغداد وما أنزلوه بأهلها من مظالم واعتداء على الحُرُمات، ولن يكون هذا التعريف مغنيًا عن قراءة مفصَّلة تكون أكثر وفاءً للدَّلالة على آفاق المعرفة، وأنواع الخبرات، التى استمد منها القاضى التَّنوخِي، مادة كتابه «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة».



الفصل الرابع

البِناءُ الفنىُّ للقصَّةِ التُّراثيَّة

باستثناء الأدعيــة، وبعض أمثلة الوعظ، والاقتباسات الشـعرية، تشغل حوادث التاريخ وشخصياته -على اختلاف فى أهميــة الخبر، أو منزلة الشخصية التاريخية- الحيـز الأكبـر من الكتاب، بل تـكاد تكون طابعه العـام، وهذا واضح فى ترتيب المصادر التى اعتمد عليها الكاتب، ونقل عنها، وتلـيها حوادث وشخصيات ليست من التاريخ، أو لا تحتسب عادة على التاريخ، لأنها معاصرة لحياة المؤلف، أو قريبة جداً من عصـره، أو لأنها لم تشغل فى حياتهـا مكانًا مهماً يرقى بها إلى مـستوى الحدث التـاريخى أو الشخصيــة التاريخيــة، ثم تليها أخيـراً حوادث وشخصـيات مختــرعة، واضحة الوضع، وهذا التـقسيم «الموضوعى» ليس هو التـقسيم الفنى، الذى يحتكم عادة إلى الصياغة، ولهذا فإننا استخدمنا من قبل مصطلحات: الخبر، والقصة، والحكاية، وهذا التقســيم الفنى لا يتوكأ على الصلة بالتاريخ، أو الواقع، وإنما يعتمد على التشكيل الفنى للمادة.

نذكر هنا أن القصة تروى خبراً، ولــكن -كما يقول رشاد رشدى- لا يمكن أن نعتبر كل خبر أو مجموعة من الأخبار قصة. فلأجل أن يُصبح الخبرُ قصة يجب أن تتوفـر فيه خـصائص معـينة، أولها أن يكون له أثر كُلِّىٌّ، وأن يكون للخــبر بداية وَوَسَط ونهاية، أى أنه يُصور ما يُسمى بالحَـدَث، ينتهى إلى لحظة كشْف، أو ختام يمنح الحادثـة مغزاها، يســمى: لحظة التنوير[1] كمـا نذكر النمـوذج المبسط الذى أوضح به القاص الناقد «فورستر» أهم خـصائص البناء الفنى، وهو «الحَبْكَةَ» فيرى أن «الحكاية» مجموعة من الحوادث مرتبــةٌ ترتيبًا زمنياً، أما الحَبْكَةَ «فهى سلسلة من الحوادث يقع التأكيد فيهـا على الأسباب والنتائج، فإذا قلنا: «مات الملك ثم ماتت الملكة بعد ذلك» فهــذه حكاية، أما: «مات الملك، بعدئذ ماتت الملكة حـزنًا» فهذه

---

(١) فن القصة القصيرة ص ١٥-٢٠.

حَبْكة وقد احتفظنا بالترتيب الزمنى، ولكن الإحساس بالأسباب والنتائج يفوقه. أما: «ماتت الملكة ولم يعرف أحدٌ سببًا لموتها حتى اكتُشفَ أنها ماتت حزنًا على وفاة الملك» فهذه حَبْكة بها سر غامض[1].

وينبغى أن ننبه هنا إلى الفرق بين استعمالين للحكاية، فهى فى البناء القصصى تعنى التتابع الزمنى للحوادث الجزئية، وكأنها جواب عن سؤال يتكرر: «فما الذى حدث بعد ذلك»؟ ولكن حين توصف بها حادثة بكاملها، فيقال: إنها تنتمى إلى جنس الحكاية، أو الحكاية الشعبية -ولا شك أن الوصف بالشعبية أضيف لنفى وقوع الالتباس- فإنها تعنى الأشكال القصصية حين تبتعد عن الطابع الإنسانى، والسلوكيات الاجتماعية، وتتعلق بالجوانب الخرافية لأهداف وعظية وتعليمية تهذيبية، ولتُرضى نزوعَ الخيال إلى المغامرة والبطولة، وغالبًا ما يكون التماسك بين أجواء الحكاية غير مُتْقَن، لاعتماده على المصادفة، كما أن «الحكاية» لا تحرص على العنصر الإنسانى، إنها تتحرك فى عوالم الحيوان، والجَان، وتُصَوِّرُ فِعْلَ الخوارق والسِّحْر، وما يقترب من هذه الأجواء، بعكس القصة.

لعله قد وَضَحَ الآن كيف يمكن أن يظل الخبر التاريخى مجرد خبر، وكيف يمكن أن يغادرَ التاريخَ إلى الفنّ إذا ما تشكّل وَفْقَ أصول الفنّ القصصى، بل كيف يمكن أن يبارح الخبرُ التاريخىُّ دائرةَ القصة، إلى دائرة الحكاية الشعبية، إذا ما أسرف الخيالُ فى تصويره، وأضفى عليه من المبالغة وخاض به من العوالم، وعلق عليه من الأعمال البطولية، ما يخرج به عن السَّوِيَّة الإنسانية.

وهذا هو المقياس الذى احتكمنا إليه.

لن نَعْرِضَ للخبر التاريخى، فهو خارج دائرة الصناعة الفنية، ولكننا سنتوقف طويلاً عند القصة والحكاية الشعبية ففيهما تظهر موهبة الكاتب.

وقبل أن نحاول اكتشاف مجموعة الأسس الفنية التى آثرها الكاتب فيما أورد من قصص، سنسلم مبدئيّاً بأنه ليس مُؤلفَ هذه القصص. كيف وهو يذكر

(١) أركان القصة ص ١٠٥.

مصدرَها وسلسلةَ رُوَاتِها قبل نَصِّهــا؟ لنقل إذًا: إنه اختار قصصَه وَفق هذه الأسس الفنيــة، أو لنقل: إن هذه الأسس تنتـمى إلى القصــة التـراثية فى الأدب العـربى بعامــة. ومن جانبنا - فإننا وإن كنا لا نسـتطيع أن نطرحَ من معـارفنا المصطلحات النقدية الخـاصة بفن القــصة القصـيرة، وهى شكل مـعاصر -ينبـغى أن نضع فى الاعتبـار استقلال القصة القـديمة بأصولها الخاصــة. إن «الحَبْكة» هى أهم عناصر البناء القصصى، نحن -على أية حـال- نتجاوز بها ما حدَّدها بــه «فورستر»، وهو التركـيز على الأسباب والـنتائج، إلى قضيــة أدق، وهى: كيف تَعَاوَنَتْ جُـزئيَّاتُ العمل، أو مـراحله، لتصنع فى النهـاية شيئًـا واحدًا لا يسهل تحـويلُه إلى أشْلاَء؟ وهنا تختـلف مستـويات القصص التـراثية، كمـا تختلف مـستويـات الكُتَّاب فى خبرتهم، وقُدرتهم على إثارة التشويق دون مغادرة الخط الأساسى فى القصة..

ويمكن أن نرصــدَ ثلاثةَ أنواع من الحَبْكة: التـقليدية، والقــصة داخل القــصة، والقصص المتـحاورة. الحَبْكة التـقليدية وَضَـحَ مـعناها فى التعريف، وهى الأكـثر انتشارًا، وإتقانها يحتاج إلى قوة الملاحظة، والتركيز، ونجد عليها أمثلة كثيرة نكتفى بإشارة إلى واحد منها، وهى من قصص اللصوص (وضعناها تحت عنوان: لصان: تائب وخائب. القــسم الثانى -الفـصل الأول- القصة رقــم ١٢). فقد نفَّــذَ أحد اللصوص عملية سـرقة لمحل بَزَّاز (تاجر أقمشة حريرية) معتـمدًا على ذكائه وثَبات أعصابه، فقد جاء إلى الدكان وقد تَزَيَّا بزى صاحبه، ومعه شمعة ومفتاح، وصاح بالشرطىِّ الذى يحرس الدكاكـين أن يشعلَ الشمعةَ ويحملهَــا حتى يتمكنَ من فتح الدكان، لأن له فـيه شغل، وهكذا تحت سَمْع الحـارس وبصره جلس اللص وسط البضائع يكتب ويحسب، ثم نادى الحــارسَ من جديد أن يطلب له حَمَّالاً، فذهب فأحضــر الحمَّال. الذى حمل أربع رُزَمٍ ثمــينةً، ومضى مع اللص الذى لم يَنْسَ أن يَنْفَحَ الحارسَ بِدرهمين. واستيقظ سوق بغداد، وجاء التاجرُ صاحبُ الدكان ليفتح الأبواب، فـأقبل عليــه الحارس يشكره عــلى ما أكـرمه به ليلة أمس، فـاستَـرابَ الرجل، ثم تأكد حين فتح الباب، ووجد أثــرَ الشمعة، ومكان الرُّزَم المسروقة، وهنا -دون ضجـيج- استدعى الحارسَ وســأله: مَنْ الذى حمل معى الرُّزَمَ البــارحةَ؟

فلما عرف أنه حمّال، طلب منه إحضاره هو بنفسه، فأحضره الحارس، فاعتذر التاجر للحمَّال بأنه كان البارحة مُتَنَبِّذًا (شارِبَ نبيد) ولم يدرك أين ذهب بالرِّزَم. فأخبره الحمّال أنه ذهب معه إلى شاطئ النهر، وأنزل بالرُّزَمِ معه فى زورق مَلاّح معيّن. فذهب التاجر إلى الملاَّح وسأله: أين حملتنى أمس مع أقمشى؟ فحدَّد له المكان، كما حدَّد له الحمَّال الذى ساعده فى مغادرة الزورق ومضى معه. فدعا بالحمَّالَ ولاطَفَهُ، وأعطاه شيئًا، وسأله عن الموضع الذى انتهى إليه، فدلَّه على غرفةٍ خارجَ البلد، مشرفةٍ على الصحراء، على بابها قُفْلٌ، ما لبث أن كسره التاجر، فوجد رُزَمَهُ الأربع كما هى، ووجد قريبا منها مِئْزراً، لفَّها فيه، وحملَها الحمَّال، وانصرفا، حين خرج من الغرفة استقبله اللص، وفَهِم الأمرَ، فاتّبعه إلى الشط، ونزل التاجر والحمال إلى السفينة، فدعا الحمّالُ مَنْ يحط عنه، فتقدَّم اللصُّ يساعدُه كأنه متطوع، وأنزل الرزمَ إلى السفينة، ثم وضع المئزر على كَتِفِه، وقال للتاجر: يا أخى، أستودِعُكَ الله، فقد استرجعتَ رُزَمَكَ، فَدَعْ كِسَائى!!

هذه قصة تبدو عاديّة، من السهل تأليفُ مثلها، ومع هذا فقد روعيت فيها أصول صناعة القصة، وركِّبَتْ تركيبًا جيدًا. فقد كان التاجر «يطلب التلصُّصَ فى حداثته ثم تابَ وصارَ بَزّازًا» وهذا يفسر سيطرتَه على أعصابه حين فوجئ بالسرقة، ويُفَسِّر قُدرتَه على تَصَوُّرِ ما حدث، والطريقةَ المُثْلَى لتتبع الخَيْط، حتى يقودَه إلى مكان المسروقات، وهذا يفسر نداءَ اللص له فى آخر القصة: «يا أخى». فقد أدرك هو أيضًا أن هذا الدهاء ليس دهاءَ التجار، الذين تتجلى مواهبُهم فى إقناع المشترين، وإنما هو دهاء مجرِّب يعتمد على الحيلة، وشخصية اللص مبنيةٌ بناءً سليمًا من الناحية السيكولوجية، فهو يعرف أن من دأْبِ الحارس فى الأسواق أن يسأل المترددَ المتلفِّت، وينصرف عن الوَاثِق التَّلقائى، وقد سَأَلَ الحارسَ، قبل أن يسأله ليشغلَه بالجواب، ولم يكتف بسؤاله، بل صاح به، وطلب معونته فى فَتْح الدكان، وهكذا نَفَى عن خاطره تمامًا أنه ليس صاحبَ الدكان. وبمثل هذه الثقة عَمِلِ الآخَر أيضًا، فلم يَفْجَأ أىَّ واحد ممن عاونوا اللص أنّ سَرِقَةً قد حدثت، وأنه قد ساعدَ اللص فى إتمامها، ولعل هذا لو حدث لأنكر الجميع أنهم شاهدوا أحدًا

أو عرفوا شيئًا، بدءًا من الحـارس، الذى لا بد أن يَدْرَأ تُهمةَ المُواطأة أو الإهمال عن نفسه، وقد استعمل التاجرُ لغةَ الرِّفق والحيلة مع الحارس، والحمَّال، والملاَّح، ولكنه مع الحمّـال الأخير جاوز الملاطَفَـةَ إلى الرِّشوة «أعطاه شيـئًا» فهذا الحـمَّال الأخيرُ هو عُـقْدَةُ الموقف. لقد انتهت كلُّ الخـيوط عنده، وفى استطاعتـه أن يُفسد كلَّ المراحل السابقة لو أنـكر أو ضَلَّل، وأيضًا فإنه إذا كان للسابقـين عُذْرٌ فى عدم معـرفتهم بأن الرجـلَ لِصٌّ، فإن هذا الأخيـر كان ينبغى أن يعـرف، ويغلب على الظن أنه يعرف، فليس من اليسـير إيجاد مبرر مقبـول لوضع رُزَمِ الحرير فى غُرفةٍ خـارج المدينة، قـريبة من الصـحـراء. من هنا كـان المال بمثابة إغـراء و«تطمـين» ومصالحة، على إفشاء سرِّ الخطوة الأخيرة.

أما القصـةُ داخلَ القصة فقد تكرر استـخدامها، وهى تحتـاج إلى مهارة فى الربط بين القصـتين بحيث لا يبدو الانتـقال مُفْتَـعَلاً، أوّ لا مُسَوِّغَ له، فـضلاً عن ضرورة توحيد المعنى العام، والمغزى، لأن القصة الثانية هى بمثابة جواب عن السؤال المطروح فى القصة الأولى، وقد وُفِّقَتْ بعضُ المحاولات، كما أخْفَقَتْ محاولاتُ أخرى.

يمكن أن نجـد نموذجًا مـقـبولاً فى قـصة مـحمـد بن زيد العلوى، صـاحِبَ طَبْرِسْتَـان، وكان من عادته أن يُفرِّق ما يُبقَّى فى بيت المال، آخـرَ كل عام، بحيث يأتى خَـرَاج السنة الجـديدة وليـس فى بيت المال شىء. وكـان يوزِّع على قـبـائل قريش، والأنصار، والفـقهاء، ثم عامةِ الناس. وحدث أنه كـان يُفرِّق المال، فلما انتهى من بنى هاشم، دعـا بِسَائر بنى عبـد مَنَاف فقام شاب وانتـسب، فإذا به من أحفاد يَزيد بـن مُعاوية، وقد قُتِل الحـسينُ رضى الله عنه فى خلافتـه. «فنظر إليه العلويون نَظَرًا شديدًا، فصـاح بهم محمد وقال: كُفُّوا عـافاكم الله، كأنكم تظنون أن فى قَتْلِ هذا دَركًـا أو ثأرًا بالحسين... واللهِ، لا يَعْرِضُ له أحـدٌ إلا أقَدْتُهُ به، واسمعوا حديثًا أحدِّثكم به، يكون قدوةً لكم فيما تستأنفون من أموركم».

وهكذا تبدأ القصة الثـانية، وتستمر فى إطار الأولى، ولتأكيـد الغاية منها، وقد جرت فى زمان آخر، لشخصيات أخـرى، لكنها لم تنفصل عن الجوّ الذى رسمْته

القصةُ الأولى: فقد كان المنصورُ فى مكة، وعَرَفَ أن محمدَ بنَ هشام ابن عبد الملك فيها، فدعا إلى صلاة جامعة فى الحَرَم، ليتمكن الحراس من اكتشافه والقبْضِ عليه، وعرف الفتى الأموى أنه مقتولٌ لا محالة، ولم يُنقذْه بتضليل الحرَّاس إلا محمدٌ بنُ زيد بن علىٍّ بن الحسين، رضى الله عنه، إذ طرح رداءَه على رأسه ووجهه، وأخذ يجرُّه على أنه جَمَّالٌ من الكوفة خدعه فيما حَمَلَ له، حتى أخرجَه من بين الحرس، ولم يقبل منه هديةَ عِرْفَانٍ وقال: «يا ابنَ عمٍّ، إنَّا أهلُ بَيْتٍ، لا نَقْبَل على المعروف مكافأة» -فهذا هو الوجه الآخَر للقصة الأولى-، ولا نتزل عقوبة بغير مستحقها -وهو مغزى مستفاد من القصتين كل على حدة.

إن ضعف الرابطة هو الغالب على هذا النوع من القصص، ونعنى الذى يقوم على الاستطراد من قصة إلى أخرى. وقد يُعاب هذا من منظور عصرى، ولكنه كان طريقة عربية راسخة، يمكن أن نزعم أن هذا الكتاب -وما يشبهه- كان بداية لها توسَّعت فى الحكايات الشعبية، التى بلغت قمتها فى «ألف ليلة وليلة» وهذه الطريقة تقوم على التوازى بين الاستقلال والإدماج، فالقصتان يمكن أن تُقرأ كلٌّ منهما على أنها مستقلة، وتؤدى وظيفتَها الخُلُقية أو التعليمية، أو الترفيهية بنوع من الاكتفاء، ولكنها لا تَنْبَتُّ تمامًا عن القصة التى استُدْرِجْنَا إليها، فالربطُ بين القصتين، واكتشافُ تكامُلِهما، وليس اندماجَهُمَا تمامًا، أمرٌ ممكن، وهذه الطريقة وَجَدَت أقصى امتدادٍ لها فى «ألف ليلة» التى يمكن اعتبارُها حكايةً واحدة ممتدة، واعتبارها حكايات متعددة.

أما القصص المُتَحاوِرَة فهو مصطلح وضعناه لندلَّ به على القصة الواحدة حين تُرْوَى من طُرُق متعددة، وهذا يحدث كثيرًا فى كتاب «الفَرَجُ بعد الشِّدة» وقد يحدث أحيانًا ليست قليلة أن تكون الروايةُ الثانيةُ أكثرَ تَوَسُّعًا فى وصف الحَدَث من الرواية الأولى، وتكون الثالثة أكثرَ تَوَسُّعًا من الثانية، وكأن مؤلِّف الكتاب قد أراد شيئًا من وضْع الروايات الثلاث على هذا الترتيب، فمن المسلَّم أن القصة وصلَتْه بأكثرَ من رِواية، وكان يمكن أن يَضعَهَا بأى ترتيب أو بلا ترتيب، ولكنْ يُلاحَظ أن خَطّاً يَنْمُو، وأن التفاصيلَ تزيد، وأن الغموضَ ينجلى، مع التقدم إلى الرواية

الثانية، فالثالثة، وكأنَّ القاضي التَّنوخيَّ يَضَعُ الروايات المختلفةَ في عَلاقة جَدَلِيَّة، نرى من خلالها «الحادثةَ» وهي تتكوَّن، بمشاركة الرواة وصناعتهم، أو بالكشف عما كان خافيًا من أسرارها، أو بتحديد وُجُهات النظر المختلفة حول حقيقة موضوعية واحدة، على النحو الذي نجده في بعض المحاولات القصصية المعاصرة ومن أشهرها «ميرامار» لنجيب محفوظ، وقد رُوِيَتْ حوادثها من خلال أبطالها جميعًا، يرويها كل شخص كما ترءاَت له، من خلال مشاركته، وفي حدود اطِّلاعِهِ وتفسيره.

نُشير إلى محاولة ناضجة في هذا المجال، تجري القصة بين كاتب ووزير، الكاتب هو سليمان بن وهب، والوزير هو محمد بن عبد الملك الزيات، وتستمر ليكتمل معناها بين ولديهما عُبَيْدِ الله بن سليمان، الذي صار وزيرًا، وعمرَ ابنِ محمد الذي صار من أتباع عبيد الله. تبدأ القصة من نهايتها أو قُرْبَ نهايتها، وقد أقبل عمر يطلب أن يُعينَه عبيدُ الله بِمَنْحِهِ وظيفةً أو معونة، فيفعل، ويصرفه ثم يبدأ في قصٍّ ما كان من صراع بين والديهما: سليمان، ومحمد بن عبد الملك، وقد صور هذا الصراع في ثلاث روايات متعاقبة.

حددت الرواية الأولى زمنَ الصراع، في أيام الواثق، وسَبَبَه بطريقة إجمالية، فقد كان سليمانُ مغضوبًا عليه. فحُمِلَ إلى ابن الزيات ليحاسبَه، ويُشرفَ على حبسه، ولم يترفق ابنُ الزيات بسليمانَ على الرغم من أنه كان يَسْتَخْدِمُ أخاه الحسنَ ابنَ وهب كاتبًا له، وفي لحظة المواجهة يأتي أحد الخدم حاملاً الطفلَ عُمَرَ ومظاهرُ الترف باديةٌ عليه، فلما رآه سلميان بكَى، فَأبى ابنُ الزيات إلاَّ أن يعرفَ سبب بكائه، ولكن سليمان لَزَمَ الصمت، فلما ألح الوزير مصممًا على معرفة سر البكاء، تدخَّل أخو سليمان، الحسنُ، وراح يُرَقِّقُ قلب الوزير قائلاً: إن سليمانَ له وَلَدٌ في مثل سنِّ عمر، وقد تذكَّره حين رأى ولدَك، فبكى. وهنا سَخِرَ الوزيرُ من أن يكون لسليمان ابنٌ مثلُ ابنه، أو أن يتطلع إلى أن يكون ابنُه وزيرًا!! لقد تألم سليمانُ بشدة من قسوة ابن الزيات، وثقتِه المتطرِّفة التي تُصادرُ القَدَرَ، وتَغفَلُ

عن إرادة الله سبحانه. وهنا ضَرَعَ سليمانُ إلى الله أن يصيرَ ابنُه عبيدُ الله وزيرًا وأن يتقدَم إليه عمر متظلِّمًا. وقد كان. وقد أكرمه عبيدُ الله وفاءً لذكرى أبيه، وأمنيته التى تحققت.

تبدأ الرواية الثانية من حيث بدأت الأولى أيضًا، أى أى من النهاية، فعمرُ يتقدم إلى عُبَيْدِ الله وهو وزير، يطلب عونه، فأكرمه، وصرَفَه، ثم راح يقصُّ ما كان بين والديهما من صراع. فى هذه الرواية يصف سليمان أيامَ المواجهة بأنه كان «مَنْكُوبًا» وأنه كان «فى يد محمد بن عبد الملك الزيات»، «وأنه كان يُحضرُه كلَّ يوم»، «بغير سبب ولا مطالبة». «إلا ليكيدَنى» و«أنا فى قيودى» و«وعلىَّ جبَّة صُوفٍ» لا بد أن يَلْفتَنَا هذا التأكيدُ لغطرسة ابن الزيات، وغرامه بالتَّشَفِّى، وإذلال سليمانَ، حتى إن الوزير كان يجعل الحسنَ بنَ وهب، يحضُرُ هذا الموقَف الضَّنْك الذى يلاقى فيه أخوه الهوان. وحدث فى إحدى المواجهات أن حُمِل الطفلُ عمرُ إلى مجلس أبيه، وأخذ الجلساء يدعون له، ويَثِبُون لتقبيله، فيما عدا سليمان، الذى كان فى شُغْلٍ بما ينزل به من عذاب. وأراد ابنُ الزيات أن يَزيدَ فى عذابه النَفسى، فسأله لماذا لا يدعو لولده ويَقبِّلُه مثلَ سائرِ الجالسين، فلما اعتذر بما يعانى، قال ابنُ الزيات: «لا، ولكنك لم تُطِقْ ذلك، عداوةً لأبيه وله، وكأنى بك، وقد ذكَرْتَ عُبَيْدَ الله، وأمَّلْتَ فيه الآمال، والله، لا رأيتَ شيئًا مما تُؤَمِّلُه فيه» وكأن هذا البَغىَ المسرفَ كان بمثابة بشرى أن يُخلفَ الله ظنَّ الظالم. وبالفعل لم تمض مدة، حتى غضب المتوكِّلُ على وزيره ابن الزيات، وأسند محاسبتَه إلى سليمانَ، فدخل دارَ خَصْمِه ليُحصِىَ متاعَه، وهنا رأى الطفل عمرَ فى حال أخرى وقد دَالَتْ دَوْلَةُ أبيه، كان يبكى لأن أشياءه الخاصة قد صُودرَت أيضًا، فَرَقَّ له سليمان، وأعاد إليه ما يملك، وأوصى ابنَه به إذا ما أوْقَفَهُ القَدَرُ بين يديه.

لقد أضافت الرواية الثانية هذه تفصيلاً فى وصف المشاعر، ووسائل التعذيب النفسىِّ، كما أضافت مشهدًا بكَى فيه الطفلُ المدلل، حين اختلف الحال، كما أشارت بإجْمَالٍ إلى أن عبيدَ الله قد استخدمَ عُمَرَ فى بعض أعماله الخاصة.

ثم تأتى الروايةُ الثالثة والأخيرة، فتبدأ من النهاية أيضًا، ولكنها لا تكتفى بأن تقول أن عمر أقبل متظلّما يطلب العونَ من عبيد الله، وإنما تُنكِّرُهُ وتصفُه وصفًا قاسيًا، ويقول الراوى: «كنا بحضرة عُبيْدِ الله بن سليمان، أوّلَ وزَارته للمُعتضد، وقد حضر رجلٌ رَثُّ الهيئة بثيابٍ غلاظٍ، فَعَرضَ عليه رُقْعَةً، وكان جالسًا للمظالِم، فقرأها قراءَةً متأمِّل لها، مفكرًا، متعجبًا، ثم قال نَعَم وكَرَامةً! ثلاث مرات -أفْعَل ما قالَ أبى، لا ما قال أبوك، وكرَّر هذا القولَ ثلاثَ مرات» هذه البدايةُ هى التى تناسب الصياغة القصصية. لاحظْ حالةَ التَّضَادّ بين موقفيْن: وزيرٌ فى أبَّهَةِ السلْطة يجلس للمظالم، ويوصَف مجلسه بأنه «حَضْرة»، وإنسانٌ نَكِرَةٌ، لم نعرف هُوِيَّتَهُ أو طَوِيتَه، يتقدم شاكيًا يلتمسُ الإنصاف، وحالُهُ من البؤس والخُشونة بمكان، وهنا لا يكتفى الوزير بإصدار أوامره بإنصافه، بل يُعَلِّق على الظَّلامة، ويُظهِر أن له موقفًا من هذا المتظلِّم، وهو موقف له جذور ضاربة فى الزمن ترجع إلى عصرِ أبِ كلٍّ منهما. . وهذا الغموض يثير التشويق ويحرّكُهُ، ويجعلُ القارئَ يتلهف إلى اكتشاف الصفحة المطويّة من الصراع بين الأبوين، وعلاقة هذا الصراع بالموقف الحالى، وقد تبادل الوالدان موقيعهما.

وتضيف هذه الرواية الثالثة تفصيلاً تحتاجه القصة أحيانًا، ولا نشعر بأهميته أحيانًا أخرى لكنه يبقى فى صالح إضفاء جَوٍّ الواقعية، وتَوْثِيقِ القصة وكأنها تاريخ، فنعرف أن سليمان كان كاتبًا لإيتَاخ -القائد التركى- وأنه صُودِرَ على أربعمائة ألف دينار، وأنه استطاع أن يُؤدِّىَ أكثرَ من نصفها وعجز عن الباقى، فحُبِس، وأهين بفعل ابن الزيات. ثم تأتى لحظة المواجهة، ويضطر ابنُ الزيات أن يغادر المجلس قليلاً، وهنا يُنْهِى الحسنُ بنُ وَهْب، إلى أخيه همسًا، أنه وُلدَ له غلام، ويطلب منه أن يُسمِّيَه ويُكْنيه، فترتفع معنوياتُ هذا الأبِ السجين المُرْتَهنُ بمال لا يستطيع أداءَه، وحين يعودُ ابن الزيات، ويلاحظُ وجْهَ سليمان وقد ذَهَبَ عنه شعورُ الذل، وارتفعت مقدرته الروحية لهذا الغلام الذى بُشِّرَ به، يلح عليه أن يعرفَ سر هذا التبدل، فيصمُت سليمانُ ويتكلم أخوه الحسن، فيعلن ابنُ الزيات أنه حين قام من المجلس تلقى بُشرَى مولد غلام له أيضًا. وهنا يقوم سليمان،

ويقبل يَدَىْ ابن الزيات ورِجْلَيه، ويتوسل بالغلام الوليد، الذى رأى النور مع ابنه فى نفس اليوم، راجيًا أن يرحمَه الوزير، معلنًا عن أمله أن يكون ابنُه كاتبًا عند ابن الوزير فى المستقبل. ولكنَّ ابنَ الزيات الذى جُبِلَتْ نفسُه على الشكِّ والقسوة، يُخَمِّنُ أن هذه ليست أمنيةً حقيقية يُضمَرها سليمان للطفلين اللذْين وُلِدَا فى يوم واحد، وأنه -فى رأى ابن الزيات- يُضْمِرُ العكس، أن يكون ابنُه وزيرًا، وأن يُقْبِلَ عليه الآخر متظلمًا، ثم يبلغ به أقصى درجات العمى والاطمئنان إلى الزمن، فيقول: أننى أستحلفك بالله، إذا صارَ ابنُك وزيرًا، وجاءه ابنى يطلب إحسانَه، أن توصى ابنَك ألا يُحسِنَ إليه!!

ولكن سليمان أوصى ابنه أن يُحسن إليه، وقد عمل الولد بوصية أبيه حين صار وزيرًا، وهذا سر عبارته: «نعم وكرامة، أفْعلُ ما قال أبى، لا ما قال أبوك». وتضيف هذه الرواية الثالثة أن عبيد الله استخدم عمرَ كاتبًا عنده، وقلَّده ديوان البريد والخرائط، وأن عمرَ كان إذا كتب لعبيد الله يصدِّر رسالتَه بعبارة: عبد الوزير وخادمه، وأن عبيد الله أراد أن يتكرَّم عليه، فمنعه من كتابة ذلك، وعدَّل الصيغة إلى: خادم الوزير.

هذه القصة فى رواياتها الثلاث نموذج للنوع الثالث من أنواع الحَبْكة، نجد لها أشباهًا، مع التفاوت فى درجة التماسك، أو تدرج الأسلوب نحو التفصيل وتصعيد الحوادث وتنمية الخط الأساسى (انظر مثلاً قصة القاضى أحمد ابن أبى دؤاد فى محاولته إنقاذ البطل العربى أبى دُلَف من يد القائد التركى الإفشين -القسم الثانى- الفصل الثانى -القصة رقم ١٥).

وفى نهاية الحديث عن أنواع الحَبْكة، نُذكِّر بأن طريقة التقديم ظلت واحدة فى مظهرها الخارجى، فما دامت القصص جميعًا تبدأ بسلسلة من الرواة، فى أولها مَنْ رأى موضوع القصة أو شارك فيه، أو سمع به، فإن القصص ستظل محكومة بهذه البداية، ومع هذا فإنه لم يكن من الضرورى أن يكون الراوية هو نفسه البطل، إنه مجرد مشارك، أو مشاهد، أو ناقل أحيانًا، ولهذا استعمل ضمير

المتكلم، كما استعمل ضمير الغائب، بل قامت بعض القصص على ما يمكن أن يون حوارياً، لا يقوم فيه الوصف أو السرد بدورٍ ذي بَال.

وما دامت هذه القصص جميعًا -الفنية منها والشعبية- قد انتُخِبَت على أساس فنى، أجْمَلَهُ الكاتب فى عنوان كتابه: شدَّةٌ يعقبها فَرَجٌ، ويُجْمِلُها النقد منذ العصر الكلاسيكى فى أزْمَة يَعْقُبُهَا حَلٌّ، فإن «التَّحَوُّل» يقوم بدورٍ أساسىٍّ فى كل هذه القصص، لأن التحولَ يعنى اختلافَ مصير البطل، إلى الضدِّ تمامًا، فيصير سعيداً بعدَ شقاء، أو شقياً بعد سعادة. . وهذا النوع الأخير تحدَّثَ عنه «أرسطو» بالنسبة للبطل التراجيدى، وربط به نظريته فى الفن الشعرى من حيث الغايةُ والهدفُ، وهو «التَّطْهير»، ولكن كاتبَنا العربىَّ اختار قصصه على أساسِ الانتقال من الشَّقاء إلى السعادة، لأنه لم يفكرْ بالطريقة التى فكَّر بها «أرسطو»، وهى ممارسة الإحساس بالألم، باستثارة مشاعر الخوف والرحمة، بُغْيَةَ التخلص من القدْرِ الزائد الـمُفْسِد للنفس من هاتين العاطفتين، أو تطهير هاتين العاطفتين مما عَلِق بهما من خَبَث، «فإن هذا لا يزال مَثارَ جدل»[1]، وإنما فكَّرَ القاضى التَّنُوخِى من زاوية أخرى هى أقرب إلى الطبيعة الشرقية، والإسلامية، وهى زاوية الإيمان القدرى، وعدالة السماء، وفى هذا يختلف أبطالُه عن طبائع البطل التراجيدى - بالمعنى الكلاسيكى- لأنهم لم يشعروا بالتعارض مع إرادة الله، ولم يَسْعَوْا إلى مقاومتها، وإنما كانوا بعكس ذلك، يقومون بأدوارهم الإنسانية، ويسعَوْنَ فى الدنيا بقوانين هذه الدنيا وأعرافها، التى قد يكون فيها أحيانًا ما يُضَادّ الخيرَ والعدلَ والبراءةَ، ومع هذا فإن هؤلاء الأبطالَ يحتفظون بهذا الإيمان القَدرِىّ فى مكان خَفِىٍّ لا يُؤَثِّرُ فى تصرفاتهم اليومية، أو لا يكاد يؤثر، لكنهم يستخرجونه بحركة بارعة، ويحتمون به إذا ما نزلت بهم محنَة، ولأن الإيمانَ القدرىّ يَعْمُرُ نفوسَ العامة، كما يستقرُّ فى نفوس الخاصة إبَّانَ تعرضهم للمصائب، بعكس التمرّد على القَدَر، الذى لا يُجاهِرُ به إلاّ الأقوياء، فإن أبطالَ قصص القاضى التَّنُوخىّ انتموا إلى جميع الطبقات الاجتماعية، وليسوا من عِلْيَةِ القوم دائمًا، وإن غَلَبَ على بعضهم ذلك،

---

(١) الكوميديا والتراجيديا ص ٢١٣.

وبهذا تحقق الشرط التراجيدى فى مـجابهة المحن، وتخلَّف الشرط الآخر. وهو أن تكون الشخصيةُ بطوليةً مرموقة، تَهْوِى من مقامِها العالى.

لقد تحدَّث «أرسطو» أيضًا عن «التَّعَرُّف» وهو يعنى اكتشاف السر المجهول الذى يَتِمُّ به الفعل الدرامى، ويتحوَّل على أثرِهِ مصيرُ البطل، ولهذا أشاد بالأعمال الفنية التى اقترن فيها التَّحَوُّلُ بالتَّعَرُّفِ، أو يمكن أن تُعَدَّلَ هذه العبارة إلى أن المعرفة هى التى أدَّت إلى تغيير المصائر.

حين نقوم بمراجعة قصص التَّنُوخِيِّ فى ضوء هذه القاعدة (ولسنا نجد حَرَجًا فى ذلك، فالقصة التـراثية أقربُ ما تكون إلى القصة القصيـرة المعاصرة، التى أخذت من المســرحيـة الكلاسيكيـة وَحْدَةَ الحَـدَث، وربما الوحَدَات الثـلاث، فضـلاً عن التركيز، ولحظة التنوير التى تُعتبر بديلاً للتّعرُّف والتّحوُّل) سنجد التحوّل جزءًا من بناء القـصة -للأسـبـاب التى قدّمنا- ولــكـنـه أحيـانًا، بـل ربما غالبًـا لا يقـترن بتعـرّف، أوْ لا يوجد فى القـصة تعرُّفٌ بـالمرّة، ولعل هذا أن يكون تأكيـدًا لعُمق الإيمان القـدرى، وقديمًا عبَّـر شاعرٌ شـعبىٌّ عن هذا المعنى الذى لا يجد أهمـية للأسباب، ما دامت الثمرة قد تحققت:

مَـلِـكُ الـمُـلـوكِ إذا وَهَـبْ   لا تَـسْـألَنَّ عـن الـسَّـبَـبْ

ولا شك أن القفز إلى النتيجة، وتجهـيل الأسباب أو تجاهلها، يقلّل من منطقية العمل الفنى، ومِن ثَمَّ مشابهته لواقع الحـياة، ودرجة إقناعه، هناك قصص جيدة، اقتـرن فيهـا التحوّل، بالتـعرّف، فوصلت إلى ختـامها بتـدرج مريح، مثل قـصة صاحب الشُّـرطة إسحاق المصعـبى (القسم الثانى -الفصل الأول- القـصة رقم ١) وقد عـزم على قتل بنـاته، فَأخَذْن فى الـبكاء دون أن يَمْلكْنَ مراجـعتَـه، ونعرف السبب حين يبعث إلى أحد أصدقائه -هو أقـرب إلى التابع- ليُفصِىَ له برغبته فى قتل نسائه، وسبب هذه الرغبة، أما السبب فـقد كان ماثلاً فى التقارير الأمْنية التى رُفِعتْ إليه فى هذا اليـوم. لقد داهَمتْ شرطةٌ بغداد بعض البيـوت المشبوهة، ذات السمعـة السيئة، فـوجدت بداخلها، نساءً كُنَّ بناتٍ وزوجـاتٍ لكبراءَ فى الدولة،

مضى زمانُهُم، ومن هنا فكر قائد الشرطة فى أن مستقبل بناته وزوجته لن يكون خيرًا من أولئك، وبعد حين يزول سُلْطانه، ويموت، لتُضبَطَ بناتُه فى بيوت مشبوهة، لقد أصبحَ مقتنعًا أن هذا الاحتمال واقعٌ فى المستقبل لا محالة، فإنه -المصعبى- ليس خيرًا ولا أهمّ من آباء وأزواج أولئك النسوة، لقد وصل الفَرَجُ عن طريق هذا الصديق الذى استُدْعِيَ لمجرد الإفضاء بالحزن إليه، ومن حقنا أن نفسِّرَ هذا الاستدعاء ذاتَه بأن المُصْعَبيَّ لم يكن مقتنعًا بأن ذَبْحَ نساء أسرته هو الحلُّ الأمثل لصيانتهن من مَعَرَّةٍ ستحدث فى مستقبل مغيب، ولهذا أراد أن ينفِّسَ عن كَرْبِهِ بالإفضاء إلى صديقٍ مأمونٍ أولاً، وأن يفكرَ معه بصوتٍ عالٍ ثانيًا، علَّهُ يجد تفسيرًا آخر لانحراف نِسْوَةِ كبراء العصر السابق يُبعد عن أسرته شبحَ الموت. وبالفعل، يُعلِّل هذا الصديق ما حدث من انحراف بأن آباء هاته الفتياتِ المنحرفات لم يحفظوهن بالأزواج، كانوا يتكبرون على الناس إبَّانَ سَطْوَتِهم، فتركوا بناتهم دون زواجٍ، والرجل هو الذى يحفظ المرأة، ومِنْ ثَمَّ فإن الخُطوةَ المطلوبة ليست أن يذبح قائدُ الشرطة بناتِه، بل يزوِّجَهُنَّ. وقد كان.

هناك أشباه لهذه القصة المحبوكة، التى لا نتحفظ فى إبداء الإعجاب بها، هدفًا وصياغةً، ولكن حين يتخلف التعرّف، وبخاصة فى القصص الوعظية التى يأتى الفرج فيها، أو التحوّل عَقِبَ دعاءٍ أو دونَ أسبابٍ معروفة، فإن جزءًا من أسباب الإعجاب يظل يعانى من ثغرة، وفى قصة سابقة قامت على تحوّل فى مصائر الأبوين، أنتج تحوّلاً فى مصائر ومواقف الوَلَدَين: عبيد الله وعمرَ لم نعرف إلى الآن، لماذا خرج سليمانُ بنُ وَهْب من سجن الواثق، وكيف صار ابنه وزيرًا فى عصر المعتضدِ، ولماذا سيق ابنُ الزيات إلى السجن وأسندَتْ محاسبتُه -أو مناظرته حسب التعبير القديم -إلى سليمان بالذات؟ وكيف طاح حظ ولده بعد نكبته، مع انتشار النَّكَبَاتِ واسترداد المواقع مرة أخرى بل مرات، فى تلك العصور؟ إن تلك التعليلات كلَّها لا بد أن تكون موجودة فى الموسوعات التاريخية؟ أو فى قصص وأخبار أخرى، لكن هذه القصة، كبناء فنى قائم بذاته تفتقد هذا المبرر الضرورى. ولقد ألهاها عن رعايته، رغبتُها فى إقرار العظة، وهى أن الله غالبٌ على أمره،

وقد شقَّ هذا الهدفُ طريقَه بسرعة خاطفة، مستبعدًا أيَّة تفصيلات، ولم يَرَ راوى القصة أنها ضرورية لإقرار هذه الغاية القَدَرِيَّة.

وإذا كنا نلاحظ أن قصص «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» تميل إلى وَحْدَة الحَدَث دائمًا، ولم تخرج عن ذلك إلا فى حالات نادرة، فإنها لم تهمل عناصر التشويق، التى تحرِّضُ القارئَ على طَلَب المزيد، لمعرفة أية غاية انتهت الأمور، يعتبر بدء القصة من نهايتها عاملاً من عوامل التشويق، وهو أرقى فنياً من صياغتها وَفْقَ التتابع الزمنى، وكذلك خلق أزمات أو صدمات سببها خطأ التوقع، أو سوء التصرف، وقد حدث أكثر من مرة أن يواجهَ شخصٌ مشهور -كان له نفوذ وثروة- الإفلاسَ والتعطل، وقد يصلُ إلى بيع منديله ليحصل على عَلَفٍ للدابة، فيغالبُ كبرياءه ويذهب مستنجدًا بصاحب ثروة وجاه ومنصب، ويبسطُ حاله المتردِّية بين يديه، ولكم الآخر لا يُعَقِّبُ بكلمة واحدة، مما يدفع بالمستنجد إلى الندم والألم، فإنه لم يفعل أكثرَ من أن كَشَفَ سِتْرَهُ، وأشْمَتَ خَصْمَه، وتصاغَر أمام مَنْ لا يُقَدِّر هَمَّهُ، ويعود إلى بيته حزينًا أسفًا، وقد تلومه امرأتُه على ما فعل، وتذكِّره بأنها توقعت هذه النهاية، وأن الصبر كان بهم أجدر، ويحتمل الرجل اللَّوْمَ الذى يستحقه، ولكن لا يمضى طويلُ وقتٍ حتى يجدَ ثروةً هائلة تطرق بابه، فى صورةِ مالٍ نقدى، أو جِمال محمَّلة بكل بشىء، يقودها عبيد هم جزء من المعونة أيضًا، ومع هذا كله كلماتُ اعتذار عن الصمت، وتفسيرٌ له، فقد كان الوضع لا يعالج بالكلام. ولا بد من العمل (انظر مثلاً قصة «خصم شريف» -القسم الثانى- الفصل الرابع- القصة رقم ٥).

وإذا كان إخلاف التوقع، بلجوء الإنسان إلى طلب المعونة من خصمه، ثم نُكُولُ هذا الخصم عن المساعدة، ثم إخلاف التوقع مرة أخرى بأن تكون المعونة سخية جداً، يمثِّل عاملَ تشويق، فإن المصادفة تمثل عنصرًا آخر من عناصر التشويق، وإذا كان الفن القصصى الحديث ينفر من المصادفة فإنه لا يلغيها، وإن كان لا يمنحها الأهمية القصوى فى تنمية الحَبْكَة أو بلوغ الحل، ويمكن أن نقولَ إن المصادفة من العناصر الأساسية فى الحكايات الشعبية، ووجودَها فيما لدينا من

قصص هو بمثابة تسللٍ لملامح الحكـاية الشعبية فى القصـة الغنية، ولا نتردد فى أن نقـررَ أن الطَّابَع العـام للكتـاب شـعـبى، وإن لم يَنْتَم فى جـملتـه إلى الحكايات الشعـبية، هناك مصـادفات اختيرت بـذكاء. وقام عليهـا البناء الفنى بأكمله، ولـم نشعر بأنها مصنوعة أو زائفة، مـثل القصة المحبوكة المثيرة، ذات الألوان والإثارات (وقد اخـترنا لهـا عنوان «منتهى الثقـة: الأميـر والوزير» -القسم الثـانى- الفصل الأول- القصة رقم ٣). لقد كان لجعفَر البرمكيِّ فُتُوَّةٌ وظُرف وأدب، وكان يُحسن الغناء ويَضْرِبُ بالطبل، وهـو يمـارس حـريته فى خِفْيَة، فـى يوم يُغلِق فيـه بيتَه، فلا يجالســه إلا خاصةُ أصحابه، فى هذا اليوم بدأ برنامـجه فلبس الحرير وتعطَّر، وشرِبَ وأكل، وشـاركه جمـيع أصحابه فى كل مـا فعل، وكان قـد أمر حاجـبَه وخدمه بألا يأذنوا لأحد بالدخول، حتى وإن كان رسولَ أمير المؤمنين «فأعْلِمْه أنى مشغـول». غير أنه ترك الإذن مفتـوحًا لواحد من ندمائه تصـادف أنْ تأخر، وكان اسمُه عبدَ الملك، وبينمـا كان جعفر وندماؤه فى لَعِبهم وصَـخَبِهم، إذ رُفِع السِّتْر. فإذا عبدُ الملك بنُ صالح الهاشمىُّ قـد أقبل، وغَلِطَ الحاجب... وكان عبد الملك هذا من جلالة القَدَر والتقشّف، على حالةٍ مـعروفة حتى إنه كان يمتنع من مُنادمة الخليفة، على اجتهاد من الخليفة أن يَشْرَبَ معه قَدَحًا واحدًا، فلم يَفْعَلْ، تَرَفُّعًا».

كيف تطوَّرَ المشهدُ المثير؟

لقد تجمَّـد القومُ وسكنوا كأنما أصيبـوا جميعًا بـسَكْتةٍ قلبيةٍ مفـاجئة، ولم يَدْرِ جعفرُ مـاذا يفعل، وقد انكشفَ هذا القدر الـمُهين من حيـاته الخاصة، أمام رجل متـزمِّت متحـرِّج، وهو من أقارب الخليفـة أيضًا! وطال الصمت، ولكن الحـركة جاءت من حيث لا نتـوقع، لقد تقدَّم عَبدُ الملك الهـاشمى، ونزع قُلُنْسُوتَهَ وجلس بين القوم، وتصرَّف كصديقٍ قائلاً: أطعمُونا شـيئًا، وأمر جعفرُ بالطعام ولا يدرى كيف تكون الخطوةُ التاليـة، ولكن الرجلَ لم يتحرك حتى شَـارَكَ فى كل ما يفعلُ جعفـرُ وندماؤه، شرب رِطْلاً ولبس ثوبًا حريرياً مُعَـداً لهذه المجالس، وتعطَّر «ثم دعا بِرْطلٍ ورِطـل (من النبيذ بـالطبع) حتى شـرِب ثلاثةَ أرطال، ثم اندفع يُغَنِّينَا، فكان -واللهِ- أحسنَنَا غِناءً».

لقد انبهر جعفرُ بحجم المجاملة التى لَـقِيهَا من عبد الملك، وجديرٌ به أن يَنْبَهِر، وكان ردُّ الفـعل عنده عجيـبًا، فقـد صمَّم على أن يعرف سـببَ قدوم الرجل إلى بيتـه، وحاول عـبدُ الملك أن يتـجنب ذلك، ليَـبْقَى اللقـاءُ خالصًـا لوجه المتـعة والطرب، ولكن جعـفرَ ألَحَّ، حتى ذكر الرجلُ أنه مَـدِينٌ بمبالغ هائلة، وأنه يرغب فى أن يَرْضَى عنه أميرُ المؤمنين، وأن يُعْلِيَ من شأن ابنه. وجـعفر لا يَعِدُ بمخاطبة الرشيد فيما يشكو منه عبـدُ الملك، بل يقرر أن الدَّيْنَ قد قُضِيَ، وأن أمير المؤمنين قد رَضِيَ عنه، وأنه -أي الخليفة -قد وَلَّى ابنَه مصر، وزوَّجَه ابنتَه الغالية، ومَهَرَها عنه ألفَيْ ألف درهم، لـقـد ظـن سـائر الندماء أن جـعفر قـد سكِر، وأنه يَهْذِى، ولا شك أن هذه الوعـودَ المبذولةَ فى صورة قـرارات أمْضِـيتْ، يثيـر الخوْفَ على جعفر الذى ضَمنَ الرِّضا، وسداد الدَّيْن، وتولية حاكمٍ جديد، ثم زوَّجَ ابنةَ الخليفة وحدَّدَ مهرها.

لقد واجـه جعفرُ شِـدَّةً، جاء فَرَجُهـا حين شارك عبـدُ الملك فى اللهو وطلب الشراب، وكان عبد الملك فى شدَّة، صَوَّرَتْها مطالِبُـهُ من الخليفة، فجاء فَرَجُها فى وعود جعفر، ولكن: كيف الخروج من هذه الشدة، وحلُّها بيد الرشيد دونَ غيره؟

لقد تولى أحدُ الندماء رواية الجزء الماضى من القصة، أمـا الفَرَجُ الأخيرُ فيتولى روايتَه جعفـرُ بنفسه، وهذه الـمُغَايَرَةُ، وإن تكنْ من وسائل التـشويق، والتَّفَنّنِ فى تشكيل طريقة التقديم، فإنها ضرورية، لأن حل المشكلة لن يكون إلاَّ فى لقاء بين جعفر والـرشيد، على انفراد. وهذا ما حدث. فـقد بكَّر جعفرُ إلى قصـر الخليفة فحكى له ما حدث لم يَنْقُـصْه حرفًا، وقد أعْجِبَ الرشيـد بسلوك عبد الملك حين تخلَّى عن تزمُّـتِه، ورأى أن يُزِيلَ الحَرَج والوَحْـشَةَ عن القـوم. ولا يفسدَ عـليهم خَلْوَتَهم، فـرضِيَ عنه، ثم قضى دينَه، ثم زوّج ابنـه، وولاّه، على نحو مـا قرّر جعفر.

مع أهمية المصـادفة فى القصة السابقـة. لأن كل ما جاء بعدها متـرتب عليها، فإننا لم نشعـر بأنها مُلَفَّقة، ولا أن المشهـدَ مفتعل، ولا أن الخاتمة مـصنوعة، إنها

قصةٌ سلوكيـة محبوكة، ومعبـرةٌ عن قوة اقتناع الرأى العام بِحَمِيمِـيَّة العَلاقة بين جعفر والرشيد، وحجمِ دَالَّتِه عليه.

وأخيراً.. فإنه لا بد أن تستوقفَنا لغةُ هذه القصص، ما دمنا بصدد الحديث عن البناء الفنى، فالقصة، مثل -أى عمل أدبى آخر- هى فى النهاية تركيبٌ لغوى، وقد كانت قضية اللغة من العـوامل التى دفعت الدارسين والرواة قديمًا عن العناية بما أُثِرَ عن أجدادنا من قصص، فـقـد لاحـظــوا - بشكل عام- أن لـغـة بعض القصص لا تُصوِّر العـصر -فى واقعـه اللغوى- كـما ينعكس فى لغة الشـعر المعـاصر لتلك القصص، فالقـصص المنسوبة إلى العصر الجـاهلىِّ، لا نجد فيه لغة العـصر الجاهلى التى نجدها فى شِعر شعرائه من امـرئ القيس إلى الأعشى، أعنى: من أقدم شعرائه الكبار إلـى آخر الجاهليـين ممن لامس الإسلام، ويمكـن أن يُقالَ الشيء نفسُه عن القصص العُذْرِيَّة الـتى حُمِلَتْ إلينا من العصر الأموى، وقـد استنتج هؤلاء أن هذه القصص رُوِيَتْ بالمعنى الإجمـالى، وأن صياغَتَها اللغويةَ من صُـنْعِ راويتها، وليست من صنع الأشخاص الذين تزعم أنها تُصَوِّرُ جانبًا من حياتهم وتفكيرهم، ولغتِهم.

إن ملاحظةَ وجـود فروق -وليس فَرْقًا واحـدًا- بين لغة القصص ولغة الـشِعر المعاصر لتلك القصص ملاحظةٌ صحيحة، ولكن الحُكْمَ بوضع القصص انتحالاً من الأساس، أو أنـها رويت بالمعنى، فـيه تَعَـجُّلٌ ومغـالطة. لن نستند إلى سـلاسل الرواة، ومقارنة أكـثر من رواية للخبر أو الـقصة الواحدة، وما يدل علـيه من دقة وحرص على التوثيـق، فهذا قد ناقشناه من قـبل، ونحن نرى -على أية حال- أن تسجيل أسماء الرُّواة جـيلاً بعد جيل لا يُعتَبَر دليلاً قاطعًـا بِنَفْى التحريف أو التَّزيُّد أو الاختـلاق، وقد لاحظ القدمـاء ذلك وقرروه: إننا سنحيل على واقع نعـايشه، وقد قرأنا قصص المنفلوطى أوائل هذا القرن، وأشعارَ شوقى وحافظ ومطران، فهل نجد تشـابهًا بين لغـة الفريقـين، برغم أنهما يعـيشـان فى بلد واحد، وثقافـتهـما متقاربة، ويخاطبان نفس الجمهور ويلتقيان ويقرأ كل منهما ما كتبَ الآخر؟ أو هل تتشابه لغة أى شاعر مِمَّنْ ذكرْنا مع لغة محمود تيمور أو العقاد -فى كتاباته النثرية؟ وهل نجد أى تشابه بين أشعار صلاح عبـد الصبور وروايات نجيب محفوظ، مع أن

الشاعر والروائى تخرَّج كلاهما من كلية الآداب، ولمع نجمُه أوائل الخمسينيات، وتطلَّع إلى التجديد؟ إن الفَرْق هنا، كما يرجع بين شخص وآخر، لأسباب من الوراثة والقدوة الفنية، والعقيدة الفكرية والدينية. . . إلخ، يرجع إلى فرق أساسىٍّ هو اختلافُ لغة الشِعر عن لغة القصة، وليس لغةَ النثر بشكل عام، وهذا الفرق موجود فى كل العصور، فى كل الآداب، لأن لغةَ الشِعر لغةَ استثنائية، تقوم على التكْثِيف والتركيب والإضمار والتَّخْييل، وتَلجأ من أجل هذا إلى الاستعارة وغيرها من وسائل التصوير المجازىٍّ وغير المجازىٍّ، وتوظِّفُ الإيقاعَ وتقدُّمٌ وتُؤخُرٌ فى نظام الجملة بحيث يتشكَّلُ المعنى فى صورة مُمَوْسَقَة قادرة على النَّفَاذ إلى مكَامِن الشعور فى النفس الإنسانية، وليست هذه وسائلَ الكاتب القصصىٍّ لأنه لا يتوجه إلى هذه الغاية؛ إنه يحاول الاقتراب من الواقع، يُحاكيه، ويصوِّرُ جوانبَه. ويلجأ إلى التبسيط فى جوانب، والتركيب فى أخرى، ويهدف إلى محاورة الخبرة الحياتية للقارئ، ومِنْ ثَمَّ يظل فى حالة من الحضور الذِّهنى، عينُهُ على القصة، وعينه الثانية على الواقع، وليس هكذا الشاعر فى لحظة إبداعه.

وهناك مغالطةٌ أخرى قائمة على تصورٍ مبالَغ فيه، هو أن القدماء كانوا يتكلمون لغةَ الشعر أو فى حدود معجمها، فهذا غير ممكن؛ لأن لغةَ الشعر لا تصلح أن تكون لغةَ حديثٍ يومىٍّ، ولأن مُعْجَمَهَا يظل خاصاً بالمستوى الشِعرى رُؤيَةً وفكرًا وعاطفةً، وإن الاعتزازَ العربىَّ بالشِعر، والقولَ بنقاء العِرْق، وإسباغَ المواهب الفطرية على هذا النقاء وجعلَها صادرةً عنه بالطبيعة، هو الذى سَولَ للقدماء من الباحثين فى اللغة أن يَزْعُموا أن العربى لا يَلْحَنُ، وأنه يتكلم بالتراكيب الفصيحة وحدَها، ولا يَتَرَخَّصُ فيها، وهذا مُنَافِرٌ لطبيعة المجتمعات، وطبيعة اللغات معًا، فهذه مبادئ مقرَّرة، حتى وإن اختلَفتْ درجةُ الافتراق أو ألوان التَرَخُّصِ، تبعًا لطبيعةِ المجتمع فى موقعه ونشاطه العملى، ونظامِ طبقاته، ودرجة ثقافته.

إنَّ لغةَ السرد فى «الفَرَجِ بعد الشِّدَّة» تتفاوت أحيانًا، لكنَّ الفرقَ الحاسمَ بين لغة قصة ولغة قصة أخرى يبدو إذا ما وزَّعْنا القصص على أساسٍ تاريخى، سنجدُ أخبارًا جاهليةً وقصصًا، وكذلك أخبارًا وقصصًا تنتمى إلى العصر الإسلامىٍّ،

أو العباسىّ، على مراحله، وسنجد التماسكَ والإيجازَ، واستخدامَ بعض الكلمات أو التعابير الجَزْلَةِ قليلةِ الانتشار، لكنهـا لا تبلغ حَدَّ النُّدْرَةِ أو الاستغلاق -مما يميِّز القصص القـديمة- ويصل الأمر إلى العـامية واستـعارةِ الألفاظِ من الفارسـية فى قصص العصر العباسى.

لقد قمنا بما يوشك أن يكون حَصْرًا للمفردات العامـيَّةِ أو المستعارة من لغة غير عربية، ودون أن نُثْقِلَ كاهلَ هذه الصفحات بـالقوائم والأرقام، نشير إلى بعضها، مثل: وجـاء بِدَانْيال فـألقاه عليـهما -فـإذا الرسل يطلبونى- إيش تعـمل ها هنا- عيلتى- سـتى (وقد تكررت كـثيرًا ينادى بهـا الخادم سيـدته، وينادى بها السـيد جـاريته المدللَّـة، مع وجود لفظ: سـيـدتى، التى تُخْـتَصُّ بها سـيـدات الطبقـة العليا، مـثل أم الخليفـة أو مَـنْ تقارب منزلتها) -أتذكـر أيامنا الأوَّله؟ وتجيبنى برأسه -فوطة- يُبَـوِّقُون: بمعنى يضربون فى البوق -زِلِّيـه: بمعنى بساط -ها أنذا أجى: أى سأحـضر- هاتم شخصًـا أولّه مصرَ: أى أحـضروا -فَرَّاشَـة: وهى التى تقوم بالخدمة -نِيِّموه- ضَرَب درابْزِين السرير -أَتَصَدَّقُ: وتعنى هنا أطلب الصَّدَقَةَ وليس أبذل الصدقـة - سارى: بمعنى نَخْب، أو نشـرب على شرف فَـلان -فَشَّ القُفْل- مزيِّن: أى حلاَّق -بَطَّلْتُ من الكُتَّاب: أى انقطعت عن الدراسة.

وهناك آثارٌ لِهَـجيَّـةٌ محدودة، نبَّـه القاضى التَّـنُوخِىّ إلى بعضـها، مـثل قول أحدهم: كُنْ على الطَّلامة، يكررها دفعات، ويكسر الميم بلسان أهل الكوفة (قصة «ظالم قصمه الله» - الفصل الثانى- القصة رقم ٣).

كمـا يلجأ إلى المصطلحات المِهْنـيَّة، والكنايات الشائعـة لتجنب ما يُتَـحَرَّجُ من ذِكْره، فيـعبِّرُ أحدُ الـمَغنِّينَ عن ضياعـه وفقره بأنه صار «أفْلَسَ من طنبـورَ مُقَطَّعِ الأوتْار»، أو يسأل أحدهم هل يوجـد نبيذ، فيـقول الآخر: «عندك شىء من ذلك الفن»؟

هذه التعبيرات وأمثالُها أكدت المنزعَ الشعبىَّ لقصص الكتاب بعامة، فهى ليست وقفًا على الحكايات الشـعبية، وبعضـها نطق به خلفاء على قدرٍ عال من الثـقافة،

وعبـارة: «هَاتُمْ شخصًا أولَّه مِصرَ»، قـالـها المأمون فى إحـدى القصص، وليس ما يمنع أن يتكلم المأمـون لغةَ عصره، فيـقول «هَاتُمْ» غير أن الوظيفـة الفنية لهذا اللجوء إلى العـامية تتـجاوز الواقع الحَرْفِىَّ، إلى الواقع الفنى، فلغـة القصص فى هذا الكتاب لغة مـألوفة، قريبة، نادرًا ما تجد فـيها شيئًا من الحُـزُونَة أو الصعوبة، ونعود فنذكـر أن المفردات العامـية التى أحصـينا، ومثَّلْنا لها، تنتـمى جميـعًا إلى قصصٍ تتعلق بالعصر العباسى، وغالبًـا ما تكون شخصياتها من عامة الناس، وإن لم يكن دائمًا.

ويدخل فى البناء اللغوى للقصة استخـدامُ الحِوار، وما من قصة فى الكتاب إلا وقد أخذ الحـوارُ فيها جانبًا، وقـد وُظِّفَ الحِوار توظيفًا فنيًا راقيًـا، لم يكن مجرد عبارات مُتَبَادَلَة تُفْضِى إلى الكشف عن معلومات كان السَّرْدُ يستطيع الوفاءَ بها، إن الحوار يكـشف أصلاً عن طوايا المتـحاورين، وخـفايا نفـوسهم، ويعـبِّر فى لغـته وتركيبه: وعلاقة العبارات المتبادلة بين المتحاورين عن المستوى العقلى وطاقة الذكاء التى يملكها كل منهما. إننا نجد قصصًا أعظم ما فيها هو ما انطوت عليه من حوار حيث تتـجلى الموهبة الحقيـقية للعقل العـربى، فى سرعة استـجابته، وتلقائـيته، وقُدرته على إصابـة المرمى فى كلمات قليلة، وإفْحَامِ الـمكَابِرِ أو الـمُخالف، من خلال الصدمة، أو سَقْطَةِ اللسان، أو الاستدارج إلى حديثٍ بعيد عن الموضوع.

كان أحد الكبراء معجبًا بمقـدرته الحِكائيَّة، ويُسرف فى قوله لمحدِّثه: «أفَهِمْتَ؟» فكان هذا مفتاحَ الفَرَجِ حين طلب بعضَ عمـاله لمحاسبتهم، فقد فَطَنَ أحدُهم إلى هذه «اللاَّزمـة» فى كـلام الوزير، فكان يقـول: لا. لم أفهـم: فيـسـتطرد الوزير ويُفيض ويَزيد إلى أن انتهى وقتُ المحاسَبة، وتم تأجيل القرار إلى وقت آخر!

ويقف عُمَرُ بنُ فَـرَجٍ الرُّخَّجِىُّ أمام المعتـصم، وقد اعتقله ودعـا بالسيف ووجَّه إليه تهمة مُهْلكة، وعمر يرد على الخليفة ويعبَثُ بالبِساط الذى كان تحت المعتصم. وكأنَّه يلمَسُه ليختبرَ مادتَه وصناعتَـه، ويستفزُّ الأمرُ المعتصمَ فينهره. «وقال: يا ابنَ الفاعلِة، مـا شَغَلَكَ ما أنت فيه عن لَـمْسِ البِساط، كأنك غيـرُ مكترث بما أريده

بك؟ فقال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكنَّ العبدَ يُعْنَى من أمر سيده بكلِّ شيء، على جميع الأحوال، فإنى استخشَنْتُ هذا البساط، وليس هو من بُسُطِ الخلافة، فقال له: ويْلُكَ، هذا البساط ذكر محمد بن عبد الملك أنه قام علينا بخمسين ألف درهم. فقال: يا سيدى عندى خير منه قيمتُهُ سبعمائة دينار» (عن سيكولوجية المواجهة: اقرأ القصة رقم ١٩ من الفصل الثانى).

وينتهى الحوار لتظهرَ ثمرتُهُ، قال أحمد بن أبى داود شاهدُ القصة وراويتُها: «فذهب والله عن المعتصم ذلك الفَورُ الذى كان به، وسكَنَ غضبُهُ، وقال: وَجِّه الساعة مَنْ يُحضره. فجاء ببساط قد قام عليه -فيما أظن- بأكثرَ من خمسة آلاف دينار، واستحسنه المعتصم، واسْتَلانَه، وقال: هذا -والله- أحسنُ من بِساطِنا. وأرخصُ، وقد أخذناه منك بما قام عليك.

ووالله ما بَرِحَ ذلك اليوم، حتى نَادَمَهُ، وخلَع عليه».

وهكذا افتدى الرُّخَّجِىُّ حياتَه بثمنٍ بَخْسٍ، واستعاد نفوذَه القديم وزاد عليه، بلمسة الذكاء السيكولوجى التى أجاب بها معلِّلاً- حركةَ يده العابثة ببساط الخليفة.

وفى قصص كثيرة تتجلى قوةُ الشخصية، وبراعةُ التخلص فى الحوار بصفة خاصة، حيث تَتَقَادَحُ الأفكار، وتكون مباراةُ الذكاء مُعْلَنَةً أمام الأشهاد.

من ذلك أن الفضلَ بنَ سهلٍ وزيرَ المأمون، زعم أن عبد الله بن مالك الخُزاعى أذاعَ أن الرشيد كان يدخل بيوت القِيَان، وكَذَّبَ الفضلُ ذلك وألصق بالخُزاعىِّ ما ادّعاه على الخليفة الأسبق، فهو الذى يتردد على بيوت القيان والمواخيرَ أيضًا. كان ذلك فى مجلس عام. وبعد أن انتهى الفَضْلُ من حديثه أقبل على ثُمَامَةَ ابن أشْرَسَ، وقال: «وإن أبا مَعنٍ -أى ثُمامة- لَيَعلَمُ ذلك، ويعرف صِحة ما أقول» وتكررت مهاجمة الفضل وتوجيه التُهم المُخلَّة بالشرف إلى عبد الله ابن مالك الخُزاعى، وفى كل مرة يلتفت إلى ثُمامَةَ ينتظر أن يؤيِّدَ كلامَه لكنه فى كل مرة يلتزم الصمت.

انتهى المجلس العام، وأرسل الفضل عتابًا إلى ثُمامة عن هذا النُّكُولِ عن تأييده أمام الناس، وإعراضه عن موافقته. فقال ثُمامة لـمُعاتبه: «أنا واللهِ بالمَوْجَدَةَ عليه -أعزَّه الله- أحَقُّ؛ لأنه قام فى ذلك الجمْع، وقد حضر كلُّ شريفٍ ومَشْروف، فلم يستشهِدْ بى فى خُطبته، وما أجراه فى كلامه، إلا فى موضع رِيبَة، أو ذِكْرِ نَبْوَةٍ، ودار مُقَيِّنٍ ومُغَنِّيةٌ، وما أقدر أن أشهد إلا أن أكون مع القوم ثالثًا»، فوافق الرسولُ المعاتبُ على هذا التفسير المنطقى، بل وافق عليه الفضْلُ بنُ سَهْل، واعتذر لثُمامة، ولكن الطريفَ حقاً أن دَافِعَ ثُمامة حين لَزِم الصمتَ كان «عَصَبِيَّةً لابنِ مالكَ» فلم يقبل الطعنَ فيه من فَارِسىٍّ، وهذا سبب لا يمكن إعلانُه، فَأسعفه ذكاؤُه بهذا الاحتجاج المقبول (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ١٣).

هناك قضايا أخرى يمكن طرحها فى إطار البناء الفنى، مثل: الشخصية، والصراع، والامتداد الزمانى والمكانى، ولم نهمل هذه العناصر استهانة بقيمتها فى الصناعة الفنية، ولكن لأننا أشرنا -فى فصول سابقة- إلى ما يخصها، وما يمكن على ضوئه تَصَوُّرَ كيف تشكلت المادة الفنية بهذه العناصر المختلفة، فى بناء لا نزعم أنه حقق جَمَالِيَّة القصة القصيرة، بمفهومها الحديث، لكنه ينبع من إدراك بالتكامل، ووعى بوظيفة اللغة الفنية، والأسلوب التصويرى، وهذه إضافة تستحق ما نبذل من جهد فى إبرازها.

●●●

رؤية ختامية

إذا لم يكن كتاب «الفرَجُ بعد الشِّدَّة» رائدًا فى مجاله، وهو تجميع الأخبار والقصص والحكايات الشعبية، تحت عنوان واحد وتبويبُها، فإنه رائد فى الاحتكام إلى الشكل الفنى، ومراحله التقليدية: العرض، الأزمة، الحل، أو لحظة التنوير، لقد سبق الجاحظ فجمع نوادرَ البخلاء وأقاصيصهم وطرائفَ سلوكهم، ولكن الجاحظ جمع مادته فى إطار المضمون أو المعنى المجرَّد، وهو البُخْل، ولم يلتفت إلى الشكل، كما أنه لم يقسِّم مادة كتابه وَفْقَ أى تصور، بل قاده الاستطراد من البداية إلى النهاية وهنا يتفوق القاضى التَّنُوخِىّ.

وإذا كان الكتاب قد وجد دافعه الأول فى ظروف نفسية عاناها المؤلف، فإنه لم يكن صدًى لهذا الظَرْف المؤقَّت، لقد اتسعت المادة جداً، فعبَّرت بحقٍّ عن حرية الثقافة العربية، ومرونتها وقدرتِها على الاتساع لكافة التجارب، والكتاب صورة لثَقَافة القرن الرابع الهجرى، بما فيها من امتزاج بين المادىِّ والروحىِّ، وعمق حضارى يدفع إلى التسامح، والبُعْد عن الجفَاف والتزمُّت، وتفضيل التِّلقائية على التصنع والتنطّع. كما عبَّر الكتاب عن الإيمان العميق بالقَدَر، وهو إيمان ينبع من يقين بأن الحياة ليست عَبَثًا، وأن للكون قوانينَ تُنظمه، وهى قوانينُ عادلةٌ، قد تهتز تحت ظرف طارئ، ولكنها لا تميل ولا تَحيف.

لقد جرى عُرْفُ الدارسين أن يخصصوا فقرة عن الأثر الذى تركه الكتاب المُعْنَى فى دراسات لاحقة. وهذا أمر مشروع بل مطلوب، ولكنه فى مجال الأخبار والقصص سيكون قليلَ الجدوى، ذلك لأن القَصص النثرىَّ لم يُشكِّل قطاعًا مهماً فى تكوين الثقافة العربية، فى نظر التقليديين. إن عملاً مُهماً مثل «رسالة الغفران» لم يلفت أنظارَ القدماء، وحَظِىَ «سَقْطُ الزِّنْد» و«اللزوميات» بالشهرة والشروح، وانتظرت «رسالةُ الغفران» إلى عصرنا الحديث لكى يُرَدَّ لها اعتبارها. وقد لقيت «المقامات» إهمالاً أشد، وكان وقوعُها فى المماحكات

اللفظية، وإغراقُها فى السجع،نتيجة لإهمالها من النقاد، وعدم تسليط الضوء على الجوانب الإيجابية فيها.

إن قصص «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» أسبقُ زمنًا، وأكثرُ نضجًا من المقامات. فقد تُوُفِّى بديعُ الزمان الهَمَـذَانى سنة ٣٩٨هـ، أى بعد التَّنُوخىّ بأربعَةَ عَشَرَ عـامًا، وقصص القاضى التَّنُوخِىّ وإن لم تكن من تأليفه، ولا تُناظَرُ بالمقـامات التى ألّفها الهمذانى -أكثرُ نضجًا فى مراميـها الاجتماعية ووسائل صياغتهـا الفنية، ولغتها. وإذا كانت «المقامات» قـد اهتمت بإنسان الطبقة الدنيـا، فإن هذه الطبقة -بمراتبهـا، وأنشطتها المشروعة وغيرِ المشروعة- موجودةٌ بوضوح فى الكتاب.

نستطيع أن نجـد آثارًا لكتاب «الفَـرَجُ بعد الشِّـدَّة» فى بعض الكتب القديـمة اللاحقة التى تيسر لنا الاطلاع عليها، ومع هذا فإننا لا نستطيع أن نجزم بأنه المصدر الأساسى لهـذا التأثير، حـيث كانت هذه القصص -فى مـجموعـها- مفـرقة فى مصادر أخرى.

وعلى سبـيل المثال، نجد قـصصًا فى «الفَرَجُ بعـد الشِّدَّة» تتعلق بمعـاناة أمراض مزمنة، أو غريبة الأعـراض، يفشل الأطباء فى الاهتداء إلى علاجهـا، ثم يعالجها طبيب بشىء غيـر متوقع، فأحدهم أطعم المريض لحم جروٍ صـغير، والآخر أوجع الميت ضربًا حتى تحـرك من جديد، وظهرت عليه علامات الحـياة، وأسرف مريض مزمن فى وجبة جرادٍ، فكانت سبب شفائه. هذه الأخبار القصصية نجدها كوقائع، وليس فى شكلها القصصى، فى كتاب «طبقات الأطباء» لابن أبى أصيبعة، المتوفى سنة ٦٦٨هـ، لكن: هل نستطيع أن نجزم أن كتاب القاضى التنوخى هو مصدر هذه الأقوال، وليس كتابات أطباء العرب؟

يمكن أن تكون المقارنة طريفة حقّاً، وتؤدى إلى نتائج إيجابية فى اكتشاف جهد الصياغـة الفنية، فاقرأ مـثلاً ما نسب إلى القطيعى الطبـيب، الذى ضرب «الميت» بالمقارع، وهو ما يؤدى إلى الصـدمة العصبيـة التى تستخدم لها دفـعة الكهرباء فى زمانـنا، وضعـه بإزاء ما نسب إلى ثابت بن قـرة الحرانى حـين عالج بالـضرب،

(طبقات الأطباء ص ٢٩٦)، واقـرأ ما ذكره التنوخى عن مريض بالاستسقـاء شفته أكلة جراد، ومـا ذكره صاحب (طبقـات الأطباء ص ٢٤٥)- أما قصص العـشاق فإنهـا موجودة بكل تفـاصيلها فى كـتاب «مصـارع العُشّاق» للسـراج المتوفى سنة ٥٠٠هـ، وكتاب «أخـبار العُشّاق» لداود الأنطاكى المتـوفى سنة ١٠٠٨هـ، ونعود فنذكِّر بأن هذه القصص مـوجودة أيضًا قبل كتاب التَّنّـوخى، وهذا ما يجعلنا ننظر إلى مجمل التأليف فى هذا الحقل من زاوية أنه مجـموعة من النصوص، تحيط بها مجموعة من التقاليد والأعراف، تنتقل من كتاب إلى آخر، ولا يلغى هذا شخصية أى كاتب، أو جهـده الخاص، وذوقه فى الاختيـار والتبويب، والصياغـة أحيانًا. ولعل هذا قد وَضُحَ فى مراحل هذه الدراسة.

●●●

المصادر والمراجع

١- أحمد أمين: ظهر الإسلام -دار الكتاب العربى- لبنان ١٩٦٩.

٢- ابن الأثير (على بن أبى الكرم الشيبانى): الكامل فى التاريخ -دار صادر- بيروت ١٩٧٩.

٣- ابن أبى أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدى): عيون الأنباء فى طبقات الأطباء -تحقيق نزار رضا -مكتبة دار الحياة- بيروت ١٩٦٥.

٤- ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة -مصور عن طبعة دار الكتب المصرية.

٥- التَّنُوخى (القاضى أبو على المحسن بن على): كتاب الفَرَجُ بعد الشِّدَّة- مكتبة الخانجى بالقاهرة، كتاب الفَرَجُ بعد الشِّدَّة- تحقيق عبود الشالجى -دار صادر- بيروت ١٩٧٨.

٦- الثعالبى (عبد الملك بن محمد): يتيمة الدهر -تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد- مكتبة السعادة بمصر ١٣٧٧هـ.

٧- الجهشيارى (محمد بن عبدوس): كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق السقا وآخرين، مصطفى البابى الحلبى -القاهرة ١٩٣٨.

٨- الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد -دار الكتاب العربى- بيروت.

٩- ابن خلكان: وفيات الأعيان -تحقيق إحسان عباس- دار صادر- بيروت.

١٠- داود الأنطاكى: تزيين الأسواق فى أخبار العشاق -دار حمد ومحيو - بيروت ١٩٧٢.

١١- رشاد رشدى: فن القصة القصيرة -دار العودة - بيروت ١٩٧٥.

١٢- الزركلى (خير الدين): الأعلام -دار العلم للملايين- بيروت ١٩٧٩.

١٣- السراج (جعفر بن أحمد القارئ): مصارع العشاق -دار صادر- بيروت.

١٤- طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة -دار الكتب الحديثة- القاهرة ١٩٦٨.

١٥- ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار مَنْ ذهب.

١٦- فاروق خورشيد: فى الرواية العربية -الدار المصرية للطباعة والنشر.

١٧- فورستر (أ.م.): أركان القصة -ترجمة كماد عياد -دار الكرنك- القاهرة ١٩٦٠.

١٨- ليتس .ك.: الكوميديا والتراجيديا -سلسلة عالم المعرفة- الكويت ١٩٧٩م.

١٩- متز (آدم): الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى -تعريب «أبو ريدة» -دار الكتاب العربى- بيروت ١٩٦٧.

٢٠- محسن الأمين (السيد): أعيان الشيعة -مطبعة الإنصاف- بيروت ١٩٥٨.

٢١- محمد حسن عبد الله: الحب فى التراث العربى - سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٠.

٢٢- محمد الخضرى بك (الشيخ): محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية -المكتبة التجارية الكبرى- القاهرة ١٩٥٣.

٢٣- ياقوت (الحموى): معجم الأدباء -دار المستشرق- بيروت (بدون تاريخ).



القسم الثانى

النماذج

«المختار من قصص «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» وأخباره ونوادره، بعد حذف الأسانيد، وشرح ما غمض من ألفاظها، وتقسيمها على أساس الموضوع».

الفصل الأول

القصص الفنية

١- ليلة صعبة

حدثنى عبدُ الله بن محمّد بن دَاسَةَّ البَصرى رحمه الله، قال: حدّثنى أبو يحيى ابن مُكرَم، القاضى البغدادى، قال: حدّثنى أبى، قال:

كان فى جوارى، رجلٌ يُعرَفُ بأبى عبيدة، حَسَنُ الأدب، كثيرُ الرواية للأخبار، وكان قديمًا ينادم إسحاقَ بن إبراهيم المُصْعَبىّ [١]، فحدّثنى: أن إسحاق استدعاه ذاتَ ليلة، فى نصف الليل.

قال: فهالنى ذلك، وأفزَعَنى، لِمَا كنت أعرِفه منه، من زَعَارَةِ الأخلاق، وشدّة الإسراع إلى القتل، وخِفتُ أن يكون قد نَقَم علىّ شيئًا فى العِشْرَة، أو بُلِّغَ عنّى باطلاً، فأحفَظَهُ، فيسرع إلى قتلى، قبل كشْفِ حالى.

فخرجتُ طائرَ العقل، حتى أتيتُ داره، فأدخِلْت إلى بعض دُورِ الحُرُم، فاشتدّ جَزَعى، وذهب عَلَىّ أمرى.

فانتُهِى بى إليه، وهو فى حُجرة لطيفة، فسمعتُ فى دَهْلِيزِها بكاء امرأة ونحيبُها، ودخلْتُ، فإذا هو جالسٌ على كرسى، وبيده سيف مسلول، وهو مُطرِق، فأيقنْتُ بالقتل.

فسلّمتُ، ووقفتُ، فرفع رأسه وقال: اجلس أبا عبيدة، فسكَنَ رَوْعِى، وجلست.

فرمى إلىّ رِقاعًا [٢] كانت بين يديه، وقال: اقرأ هذه.

---

(١) إسحاق المصعبى قائد شرطة بغداد.

(٢) قصاصات ورق، أو هى فى الحقيقة تقارير وبلاغات الشرطة.

فقرأتُ جميعَها، فإذا رِقاعُ أصحاب الشُّرَط فى الأربَاع[1]، يخبره كلٌّ واحد منهم بخبر يومه، وما جرى فى عمله، وفى جميعها ذِكْرُ كَبَسَاتٍ وقعت على نساء وُجِدْنَ على فساد، من بنات الوزراء، والأمراء، والأجلاء، الذين بَادُوا، أو ذَهَبتْ مراتبهم، ويستأذنون فى أمرهن.

فقلت: قد وَقَفتُ على هذه الرِّقاع، فما يأمرنى به الأميرُ أعزَّه الله؟

فقال: ويحُك يا أبا عبيدة، هؤلاء الناس الذين وَرَدَ ذكْرُ حال بناتهم، كلّهم كانوا أجلَّ منّى، أو مثلى، وقد أفضى بهم الدهرُ فى حُرَمِهِم إلى ما قد سمعتَ، وقد وقع لى أن بناتى بعدى، سيبلغْنَ هذا المبلغ، وقد جمعتهنّ -وهنّ خَمْسٌ- فى هذه الحجرة، لأقتلهن الساعة، وأستريح، ثم أدركتنى رِقّةُ البَشرية، والخوفُ من الله تعالى، فأردتُ أن أشاورَك فى إمضاء الرأى، أو شىءٍ تشير به علىّ فيهنَ.

فقلت: أصلحَ اللهُ الأمير، إن آباء هؤلاء النساء اللواتى قرأتُ رِقاعُ أصحابِ الأخبارِ بما جرى عليهنّ، أخطأوا فى تدبيرهِنَ، لأنّهم خَلَّفوا عليهنَّ النِعَم، ولم يحفظوهن بالأزواج، فخلوْنَ بأنفسهنّ، ونعمهن، ففسَدْنَ، ولو كانوا جعلوهن فى أعناق الأكْفَاء، ما جرى منهن هذا.

والذى أرى أن تستدعى فلانًا القائد، فله خمسةُ بنين، كلّهم جميلُ الوجه، حسن اللِّبس والنشوة، فتزوِّجَ كلَّ واحدة من بناتك، واحدًا منهم، فتُكفَى العارَ والنارَ، وتكونُ قد أخذت بأمر الله عَزَّ وجَلَّ، والحزم، ويراك الله تعالى قد أردتَ طاعتَه فى حفظهنّ، فيحفظُكَ فيهنّ.

فقال: امْضِ الساعة إليه، فقرّرْ معه ما يكون لنا فيه المصلحة، وافْرغ لى معه من هذا الأمر.

قال: فمضيتُ إلى الرجل، وقررتُ الأمر معه، وأخذتُ الفتيان، وأباهم، وجئتُ إلى دار إسحاق بن إبراهيم، وعقدتُ النكاحَ لهم، على بنات إسحاق، فى

(١) كانت بغداد مقسمة إلى أربعة أقسام، وفى القاهرة إلى الآن من يعبر عن قسم الشرطة بـ«التمن» لأن القاهرة كانت مقسمة ثمانية أقسام أمنية.

خُطبة واحدة، وجعل إسحاق بين يدى كلٍّ واحـد منهم، خمسة آلاف درهم عَيْنًا، وشيئًا كثيرًا من الطِّيب، والثياب، وحَمَلَ كلاًّ منهم على فرس بمَرْكَبِ ذَهب، وأعطانى كلٌّ واحـد من الأزواج مالاً مما دُفعَ إليه، وأمر لى إسحاق بخمسمائة دينار، وخِلْعةٍ، وطيب.

وأنفَذَ إلىّ أمَـهات البنات هدايا وأموالاً جليلة، وشكرْتَنى على تخليص بناتِهِنّ من القتل، وانقلبت تلك الغُمّةُ فرحًا.

فعدتُ إلى دارى، ومعى ما قيمته ثلاثة آلافِ دينار وأكثر(١).

●●●

(١) كان المصعبى فظّاً دموياً، وهذا واضح فى خوف نديمه منه، ومع هذا لجأ إليه ليجد له حلاً فى المشكلة، والوجه الاجتماعى ظاهر فى موقع المرأة، وضياعها فى غياب الولى، وسلوك أجهزة الأمن تجاه خطايا الكبراء... إلخ.

٢- ليلةٌ يشِيبُ لها الغُرابُ

حكى دَلويه، وكان كاتبًا لِصَافى الحرمى، قال:

كان فى دار الـمُقـتدر بالله، عَرِّيفُ على بعض الفرّاشين، يخدمنى وَصَـافيًا إذا أقمنا فى دار الخليفة، ففقدته فى الدّار، وظننتُه عليلاً، فلمَا كان بعد شهور، رأيته فى بعض الطرق، بزىٍّ التجَار، وقد شاب.

فقلت: فلان؟

قال: نعم، عبدك يا سيدى.

فقلت: مـا هذا الشَّيْب فى هذه الشهـور اليسيـرة، وما هذا الزىّ؟ وأين كنت؟ فَلَجْلَج.

فقلت لِغلمانى: احملوه إلى دارى، وقلت: حدّثنى حديثَك.

فقال: على أن لى الأمان والكِتمان؟!

فقلت: نعم.

فـقال: كـان الرّسمُ الذى تعـرفه على كل عَـرِّيف فى الدّار من الفـرّاشين، أن يدخلَ يومًا من الأيام، هو ومــن معه فى عَرَافـته، إلى دور الحُرُم، لرشِّ الخـيوش التى فيها[١].

فبلغت النَّوْبةُ إلىّ، فى يوم كنت فـيه مخموراً، فـدخلتُ، ومعى رجالى، إلى دار فلانة -وذكر حَظِيَّةً جليلة من حظايا المقتدر بالله- لرشِّ الخَيش.

فَلِعظَمِ مـا كنت فيـه من الـخُـمار، مـا رششْتُ قِـربتى، ولم أخرج بخـروج الرّجـال، وقلت لهم: امضـوا، فـهاتوا قِـربَكم لإتمام الرش، فـإذا رششـتمـوها فأنبهونى، فإنى نائم هنا.

---

(١) دار الحرم: جناح النساء فى قصر الخلافة. ورش الخيوش، أو رش الخيش لتبريد الجو، فكانت تعلق ستائر ترش بالماء كنوع من ترطيب الصيف الحار.

ودخلتُ خلف الخيش، إلى باب بادْهَنْج[1] تخرج منه ريح طيِّبة، فنمت، وغلب عليَّ النَّوم، إلى أن جاء الفرَّاشون، وفرغوا من رشِّ الخيش، وخرجوا، ولم يُنبِّهوني.

وتمادى بي النَّومُ، فما انتبهتُ إلا بحركة في الخيش، فقمتُ، فإذا أنا قد أمسيتُ، وإذا صوتُ نساءٍ في الخيش، فعلمتُ أني مقتولٌ إن أحسَّ بي، وتحيَّرتُ فلم أدرِ ما أعمل، فدخلتُ البادْهَنج، وكان صيفًا، فجعلتُ رجليَّ على حائطي البادهنج وتسلَّقتُ فيه، ووقفتُ معلَّقًا، أترقَّب أن يُفطن لي، فأُقْتل.

وإذا بنسوة فرَّاشاتٍ يكنسْنَ الخيش، فلما فَرَغْنَ من ذلك فرشنه، وعُبِّي فيه مجلسُ الشَّراب.

ولم يكن بأسرع من أن جاء المقتدر بالله، وعِدَّةُ جواري، فجلس وجلسْنَ، وأخذ الجواري في الغناء، وأنا أسمع ذلك كلَّه، وروحي تكاد تخرج، فإذا أعْييتُ، نَزَلْتُ فجلستُ في أرض البادْهَنجُ، فإذا استرحتُ، وخفتُ أن يُفْطَنَ بي، عدتُ فتسلَّقت، إلى أن مضت قطعة من اللَّيلِ، ثم عنَّ للمقتدر أن جَذَبَ إليه حظيَّتَهُ التي هي صاحبةُ تلك الدَّارِ، فانصرف باقي الجواري، وخلا الموضع، فَوَاقَعَ المقتدرُ بالله الجارية، وأنا أسمع حركتَهما وكلامَهما، ثم ناما في مكانهما، ولا سبيل لي إلى النَّوم لحظة واحدة، لما أقاسي من الخوف.

ففكَّرت في أن أخرج وأصعَد إلى بعض السطوح، ثم علمت أني إن فعلتُ ذلك، تعجَّلتُ القتلَ، ولم يَجُزّ أن أنجوَ.

فلم تزل حالي تلك إلى أن انتبه المقتدرُ بالله في السَّحَر، وخرج من الموضع.

فلمَا كان من غد نصفَ النهار، جاء عريفُ آخرُ من الفرَّاشين، ومعه رجاله، فرشُّوا الخيْش، فخرجتُ فاختلطتُ بهم.

فقالوا: أيش تعمل ههنا؟

---

(1) البادهنج- فارسية: الممر الذى يسلكه الهواء بعد ترطيب الخيش، لتلطيف الجو.

فأوَمـأتُ إليهم بالسكوت، وقلت: اللهَ، اللهَ، فى دمى، فـإن حديثى طويلٌ، فتذَمموا أن يفضحونى.

وقال بعضهم: ما بال لحيتِك قد شابَتْ؟

فقلت: لا أعلم، وأخذت مـاءً من قِرْبة بعضهم، فرطَّـبْتُ به قربتى، وخرجتُ بخروجهم.

فلما صـرتُ فى موضعٍ من دار الخليفـة، وقعتُ مَغْشـياً علىَّ، وركبـتنى حُمَّى عظيمـةٌ، وذهب عقلى، فـحملنى الفرَّاشـون إلى منزلى، وأنا لا أعقِل، فـأقمتُ مبرسمًا[1] مدة طويلة.

وقد كنتُ عـاهدتُ الله تعالى، وأنا فى البَادْهَـنج، إن هو خلّصنى أن لا أخدُمَ أحدًا أبدًا، ولا أشربَ النّبيذ، وأقلَعْتُ عن أشياءِ تُبْتُ منها.

فلمّـا تفضَّل اللـه تعالى بالعـافـية، وَفَـيْتُ بالنَذرِ، وبِعتُ أشـياءً كـانت لى، وضممتها إلى دراهمَ كانت عندى، ولزِمتُ دكَانًا لحمِىِّ[2] أتعلَم فيه التَجارة معه، وأتَّجر، وتركـتُ الدَّارَ، فما عدتُ إليها إلى الآن، ولا أعود أبدًا إلى خدمة الناس، ولا أنقض ما تُبتُ منه.

قال: ورأيتُ لحيتَه وقد كثُر فيها الشّيْب.

●●●

---

(١) مبرسم: تحريف لكلمة معناها، مريض.

(٢) الحمىّ: والد الزوجة.

٣- منتهى الثقة.. الأميرُ والوزيرُ

أخبـرنى أبو الفَرَج الأصبهـانىُّ، قال: حدثنى يَحـيى بن علىّ الـمُنَجِّم، قال: حدثنى أبى عن إسـحق بـن إبـراهـيم الـمَوْصلىّ، قال: لـم أر قطُّ مـثـلَ جـعفرَ ابن يحـيى بن خالد الـبرمكى، كـانت له فُـتُوَّة، وظرفٌ، وأدب، وحـسْنُ غناء، وضربٌ بالطبل، وكان يأخذ بأجزل حَظٍّ، من كلّ فنّ.

فحضرتُ بابَ الرشـيد يومًا، وكان الرشيدُ نائمًا، فوافى جـعفرُ، فقلت له: إنّه نائم، فرجع، وقال: سِـرْ بنا إلى المنزل، حتى نخلو جميعًا بقـيَّة يومنا، فأغنيك، وتغنَيَنى، ونأخذ فى شأننا، من وقتنا هذا.

فقلت: نعم.

فَـسِرْنا إلى مـجلسـه، فَطَرَحْنَا ثيابَـنا، ودعا بالطعـام، فـأكلنا، وأمر بإخـراج الجوارى، وقال: لِيَبْرُزْنَ، فليس عندنا من نَحْتَشِمُهُ.

فلما رُفِعَ الطعام، وجىء بالشراب، دعا بقـميصِ حريرٍ فلبسه، ودعا لى بمثله، ودعا بِخَلُوق[١]، فتخلّق، وخلّقَنى، وجعل يُغنينى، وأغنيه.

وكان قد دعا بالحاجب، فتقدم إليه أن لا يأذن لأحدٍ من الناس كلِّهم، وإن جاء رسولُ أمير المؤمنين، فأعلِمْه أنى مشغول، واحتاط فى ذلك، وتقدم فيه إلى جميع الـحُجّاب والخدم.

ثم قال: إن جاء عـبدُ الملك، فأذنوا له، يَعنى رجلاً كـان يَأنَسُ به، ويُمازُحُه، ويُحضرُهُ خِلْواته[٢]، ثم أخذْنا فى شأننا.

فبينما نحن على حالةٍ سارّة، إذ رُفِعَ السِّتْرُ، فإذا عبدُ الملك بن صالح الهاشمىّ قد أقبل، وغَلِطَ الحاجبُ، لم يُفرّق بينه وبين عبد الملك الذى يأنس به جعفر.

---

(١) الخلوق: الطيب والبخور.

(٢) فهذا من تقاليد كبراء القوم، لهم خلوات مع خاصة الأصدقاء فى وقت معلوم.

وكان عبدُ الملك هذا مـن جلالة القدّر والتقشف، على حالةٍ مـعروفة، حتى إنه كان يمتنع من منادمة الخليفة، على اجتهاد من الخليفة أن يشرب معه قَدَحًا واحدًا، فلم يفعل، ترفُّعًا.

فلمَا رأيناه مقبـلاً، أقبل كل واحد منّا ينظر إلى صاحبه، وكـاد جعفر أن تنشقَّ مرارتُهُ غيظًا.

وفهم الرجل حالنا، فأقبل نحـونا، حتى صار إلى الرُّواق الذى نحن فيه، فنزع قَلَنْسُوَتَهُ، فرمى بها مع طَيْلُسانِهِ جانبًا، ثم قال: أطعمونا شيئًا.

فدعـا له جعفـرُ بطعام، وهو مُنتـفخٌ غَيْظًا وغضـبًا، فـأكل، ثم دعا بِرِطلٍ[1] فَشَرِبَهُ.

ثمّ أقبل إلى المجلس الذى كنّا فيـه، فأخذَ بِعُضَادَتى البابِ، ثم قـال: أشْرِكونا فيما أنتم فيه.

فقال جعفر: ادخل، فدخل، فدعا له بقميص حريرٍ وخَلُوق، فلبسَ، وتخلّق، ثم دعا برِطـلٍ، ورِطلٍ حتى شرِبَ ثلاثة أرطـال، ثم اندفع يُغنينا، فكان -والله- أحسنَنَا غناءً.

فلمـا طابت نفسُ جعـفر، وسُرى عـنه ما كان به، الـتفت إليـه، وقال: ارفع حوائجَك.

فقال: ليس هذا موضع حوائج.

فقال: أقسمُ عليك، لتفعلنّ.

ولم يزل يُلحّ عليه حتى قـال له: أمير المؤمنين واجدٌ[2] علىَّ كما قد علمتَ، فأحبُّ أن تترضاه.

قال: فإن أمير المؤمنين قد رَضِى عنك، فهات حوائجك، كما أقول لك.

---

(١) أى: رطل من النبيذ.

(٢) أى فى نفسه شىء منى، متغير علىَّ.

قال: علىّ دَيْنٌ فادِح.

قال: كم مبلغه؟

قال: أربعةُ آلاف ألفِ درهم.

قال: هذه أربعة آلاف ألفِ درهم، فإن أحببت قبضها، قبضتَها الساعة، فإنه لا يمنعنى من إعطائك إلا أن قَدْرَكَ يجل عندى أن يصلك مِثْلى، ولكنى ضامنٌ لها، حتى تُحمل لك فى غد، من مال أمير المؤمنين، فسَلْ أيضًا.

قال: تُكَلّمُ أمير المؤمنين حتى يُنَوه باسم ابنى.

قال: ولاه أميرُ المؤمنين مصر، وزوَّجَه ابنته الغالية، ومَهَرَها عنه ألفى ألف درهم.

قال إسحاق: فقلتُ فى نفسى، قد سكِر الرجلُ -يعنى جعفر-.

فلما أصبَحنا، حضرتُ دارَ الرّشيد، فإذا بجعفر بين يديه، ووجدتُ فى الدار جَلَبة، فإذا بأبى يوسف القاضى ونظرائه، وقد دُعِىَ بهم، ثم دُعِى بعبد الملك وابنه، فدخلا على الرشيد.

فقال الرّشيدُ لعبد الملك: إن أمير المؤمنين كان واجدًا عليك، وقد رَضِىَ عنك، وأمر لك بأربعة آلاف ألف درهم، فخذها من جعفر الساعة.

ثم دعا بابنه، وقال: اشهدوا علىَّ أننى قد زوجتُه ابنتى الغالية، ومَهَرْتُها عنه ألفَى ألف درِهم، ووليته مصر.

فلما خرج جعفر سألتُه عن الخبر، فقال: بكرت إلى دار الرشيد، فحكيْتُ له جميع ما جرى حرفًا حرفًا، ووصفتُ له دخول عبد الملك وما صَنَعَ، فعجب منه، وسُر به.

فقلت له: وقد ضمِنْتُ له عن أمير المؤمنين ضمانًا.

فقال: ما هو؟ فأعلمتُهُ.

فقال: نَفِى له بضمانك، وأمر بإحضاره، فكان ما رأيت.

●●●

٤- ثَمَنُ العِناد

حدّثني شيخٌ من البَصَريين، أثقُ به، قال: عادَلْتُ[1] فلانًا القاضي - إلى الحج.

قال: وتشاجر رجلان، في الرُّقعة التي كنت فيها من القافلة.

قال: وجذبهما ذلك القاضي إليه، ولم يزل يتوسط بينهما ويترفّقُ بهما، وقد استعمل كلٌّ واحد منهما اللَّجاج والمُشاحَنَة، وأقاما عليها، وهو يَصْبرُ عليهما، ويقول: اللَّجَاجُ شُؤمٌ، فلا تَستعملاه. ويكرر هذه اللفظة، إلى أن فَصَل بينهما.

فقال لي: أذْكرْني حديثًا في اللجاج، جرى على يدي، لك فيه، ولكل مَنْ سَمِعَهُ، أدَبٌ.

قال: فأذكرته بعد وقت.

فقال: كنتُ أتولى القضاء، في البلد الفلاني، فتقدم إليّ رجلان، فادعى أحدُهما على الآخر عشرين دينارًا.

فقلت للمدعى عليه: ما تقول؟

فقال: له عليّ ذلك، إلا أني عَبْدُ لآل فلان، مُكَاتبٌ[2] مأذون لي في التَّصرّف، واتّجرْتُ، فَخَسِرْتُ، وليس معي ما أعطيه، وقد عاملني هذا الرجل سنين كثيرةً، وَرَبحَ عليّ أضعاف هذه الدنانير مرارًا، فإن رأى القاضي أن يسأله الرّفق بي، فإني عبدٌ، وضعيفٌ، ولا حِيلة لي.

فسألته أن يَرْفُقَ به، ويُؤَخِّرُ، فامتنع.

فقلتُ: قد سمعت.

فقال: ما لي حِيلة.

---

(١) عادله: أي جلس في مقابله ليوازنه، فوق الجمل.

(٢) العبد المكاتب هو الذي فرض عليه سيده قدرًا من المال، إذا أداه إليه نال حريته، وعُتق.

فقال الرجل: احبسه لى.

فعـاد العبدُ يسألنى، فـسألتهُ أن لا يفـعل، وبكى العبدُ، فَرَقَـقْتُ له، وسألتُ خَصمه أن لا يحبِسَهُ، وأن يُنْظِرهُ [1].

فقال: لا أفعل.

فقـال العبد: إن حَبَـسَنى أهلكنى، ووالله ما أرجعُ إلى شىء وإنه ليـضايقُنى، ويَلِجُّ فى أمرى، وقـد انتفع منى بأضعـاف هذه الدنانير، وورثَ منذ أيام من أخى ألوف دنانير، فأشِير علىّ بمنازعته إلى القاضى فى الميراث، فلم أفعل.

قال: فحين قال ذلك، توجَّه لى وَجْهُ طَمَعٍ فى خلاصه من لجاج ذلك الغريم، وقد كان غاظنى بِلَجاجِهِ ومَحْكِهِ [2].

فقلت: كيف وَرِثَ أخاك، وأردت منازعتَهُ؟

فقال: إن أخى كـان عبدًا له، مأذونًا له فى التـصرُّف، وكان يتجـر ويتصرّفُ، ويؤدى إليه ضريبَـتَه، وجمع مالاً وأمتعة، بأكـثر من ثلاثة آلاف دينار، ثم مات، ولم يُخلّف أحـدًا غيـرى، وأنا رجلٌ ضعـيف، مملوكٌ ولى ابنان طفلان مـن امرأة حُرّة، وهمـا حُران، فأنا أعولهـما، وأعول نفسى، وزوجـتى، وأؤدى إلى مولاى ضريبـته، فطمْعتُ فى أن أنازعـه فى الميراث، وآخذ شـيئًا أعـودُ به على نفسى، وأولادى، وعيالى، فقيل لى: إنك لا ترث، فلـم أحب منازعتَه، صيانةً له، وهو الآنُ يضايقنى.

قال: فقلتُ للرجل: هو كما قـال: إن أخاه كان عبدك، ومات، وخلفَ عليك تَرِكة قيمتُها ثلاثةُ آلاف دينار؟

قال: نعم.

فقلت له: ولهذا العبد طفلان حُرَّان؟

---

(١) ينظره: يؤجله، أى يؤجل سداد الدّين.

(٢) المحك: والمماحكة: المضايقة.

قال: نعم.

فقلت: قُم، فأخره بالدنانير ولا تُطالبه بها.

فقال: ما أبرَحُ إلا بالدنانير، أو بحبسه.

فقلت: اقبَل رأيى، ولا تَلِجَ[1].

فقال: لا أفعلُ.

فقلت: إنك متى لم تفعل، خرج من يدك مال جليل.

فقال: لا أفعل.

قال: فقلتُ للعبد، قد أذِنْتُ لك أن تتكلَّمَ عن ابنيْك الطفلين، وهما -على مذهب عبد الله بن مسعود، وهو مذهبى- أحقُّ بالميراث من مولاه، وإن كنتَ أنت حيّاً، فإنّك بمنزلة الميت للعبودية، فطالِبْهُ عن ابنيك الحُرين الطفلين بالترِكة.

قال: فَطَالَبَهُ بها.

فأحضرَتْ الشهودُ، فأعاد الخصومة، والدعوى، ولم أزل بالمولى، حتى أسمعْتُ الشهودَ إقراره بما كان أقرّ به عندى، ثم حكمتُ للابنين الطفلين بالتركة، وانتزعت جميعَها من يده، وسلّمْتُ إليه منها عشرين ديناراً، لما أقر له العبد به، وجعلتُ ذلك ديْنًا عليه لابنيْه.

وسلمت مقدارَ ثَمَنِ العبد، من مال الطفلين إلى أمينٍ من أمنائى، وقلت: اشتَرِ أباهُما من مولاه بهذه الدنانير، واعتقْهُ عليهما، فَفَعَلَ.

وجعلتُ باقى مال الطفلين فى يد أبيهما، وأمينٍ جعلته عليه مُشرفًا، وأمرتُ الأب أن يتَّجَر لهما بالمال، ويأخذ ثلثَ الربح، بِحَق قيامه، وحكمتُ بالجميع، وأشهدتُ على إنفاذى الحكم له الشهود.

---

(١) لج، يلج: يعاند ويبالغ فى الخصومة

فقام العبْدُ، وهو فرحان، وقد فرَّجَ الله عنه، وآمنه أن يُحْبَس، وعُتِقَتْ رقبتُه، وصار موسرًا.

وقام اللَّجوج خاسرًا حائرًا، وقد أخذ عشرين دينارًا، وأعَطْى ثلاثة آلاف دينار[1].

●●●

(١) ركبت هذه القصة بذكاء ليحصل الطيب على الفرح والفرج، ويعود الفظ بالخسران، وفيها مصادفات وتعسف نسبى، كزواج العبد من امرأة حرة، وأن يأخذ القاضى بقول عبد الله بن مسعود فى ميراث العبد المتوفى.

٥- يحلم لغيره

كان فى جـوار القاضى قديمًا، رجلٌ انتـشرتْ عنه حكاية، وظهـر فى يده مالٌ جليل، بعد فَقْرٍ طويل، وكنتُ أسمع أن أبا عُـمَرَ حَمَاهُ من السلطان، فسألتُ عن الحكاية، فدافعنى طويلاً، ثم حدّثنى، قال:

وَرِثْتُ عن أبى مالاً جليلاً، فـأسرْعتُ فيه(١)، وأتلفتُه، حـتى أفضيْتُ إلى بيْع أبواب دارى وسقوفها، ولم يَبْقَ لى من الدنيـا حيلة، وبقيتُ مدة بلا قُوتٍ إلا من غَزَل أمى، فتمنّيتُ الموت.

فرأيتُ ليلةً فى النوم، كأنّ قائلاً يقول لى: غِنَاك بمصـر، فاخرج إليها، فَبكرْتُ إلى أبى عـمر القـاضى، وتوسلت إليه بالجـوار، وبخدْمـةٍ كانت من أبى لأبـيه، وسألتُه أن يزَوّدنى كتابًا إلى مصر، لأتصرف(٢) بها، ففعل، وخرجتُ.

فلمـا حَصَلْتُ بمصـر، أوصلتُ الكتـاب، وسألتُ التـصـرف، فسـدّ اللهُ علىّ الوُجوه حتى لم أظفرُ بتصرف، ولا لاحَ لى شُغْلٌ.

ونَفَدَتْ نفقتى، فـبقيتُ متحيـرًا، وفكرتُ فى أن أسأل النّاس، وأمدّ يدى على الطريق، فلم تسمح نفسى، فقلت: أخرجُ ليلاً، وأسأل، فخرجتُ بين العشاءَين، فمـا زلتُ أمشى فى الطريق، وتأبى نفـسى المسألة، ويحـملنى الجوعُ عليـها، وأنا مُمتنع، إلى أن مضى صدرٌ من الليل.

فلقينى الطائفُ(٣)، فَقَبَضَ علىَّ، ووجـدنى غريبًا، فأنكر حـالى، فسألنى عن خَبَرى، فقلت: رجلٌ ضعيف، فلم يصدقنى، وبَطَحَنِى، وضربنى مَقَارعَ.

فصحتُ: أنا أصدُقُكَ.

فقال: هات.

---

(١) أسرعت فيه: أسرعت فى إنفاقه، أسرفت.

(٢) أتصرف: أوظف.

(٣) الطائف: الحرس الليلى المتحرك، الذى يطوف بالمدينة.

فقصصتُ عليه قِصّتى من أولها إلى آخرها، وحديثَ المنام.

فقال لى: أنت رجلٌ ما رأيتُ أحمقَ منك، والله لقد رأيتُ منذ كذا وكذا سنة، فى النوم، كأن رجلاً يقـول لى: ببغداد فى الشارع الفلانى فى الـمَـحَلّة الفلانية - فذكر شارعى، ومَـحَلّتى، فسكتُّ، وأصغيْتُ إليه- وأتم الشـرطىُّ الحديث فقال: دارٌ يُقال لها: دارُ فلان -فذكر دارى، واسمى- فيها بُستانٌ، وفيه سِدْرَةٌ[1]، وكان فى بُستان دارى سِدْرة، وتحت السدرة مدفونٌ ثلاثون ألف دينار، فامْض، فَخُذْها، فمـا فكرت فى هذا الحديث، ولا التـفتُّ إليه، وأنت يا أحمـق، فارقت وطنك، وجئت إلى مصر بسبب مَنَام.

قال: فَقوى بذلك قلبى، وأطلقنى الطائفُ، فبِتُّ فى بعض المساجد، وخرجتُ مع السَّحَر من مـصر، فقدمْتُ بغداد، فـقطعتُ السِّدْرَة، وأثَرْتُ تحتهـا، فوجدتُ قُمْقُمًا فيه ثلاثون ألف دينار، فـأخذتُهُ، وأمسكتُ يدى، ودبرت أمرى، فأنا أعيش من تلك الدنانير، من فَضْلِ ما ابتعتُ منها من ضيْعة وعَقار إلى اليوم.

●●●

(١) السدرة: شجرة النبق

٦- تَوْبَةُ فَنَّان

حدثنى عبيدُ الله بن محمّد الصّـرَوى، عن أبيه، قال: كان يجاورنا ببغداد فتى من أولاد الكتَّاب، ورِثَ مالاً جليلاً، فأتلفه فى القِيان[١]، وأكله إسرافًا، حتى لم يَبْقَ منه شىءٌ، واحتاج إلى نَقْضِ داره، فلم يبق منها غيرُ بيت[٢] يُكنّه.

فحدثنى بعضُ من كان يعاشره وانقطع عنه لما افتقر، قال:

قصدتُه يومًا بعد انقطاعى عنه نحو سنة، لأعرفَ خبره، فدخلتُ إليه، فوجدتُه نائمًا فى ذلك البيت، فى يـومٍ بارد، على حصير خَلَقٍ، قد توطأ قُطنًا كـأنه حشو فِراش، وتغطى بقُطن كان فى لِحاف، فهو بين ذلك القطن كأنه السَّفَرجلُ.

فقلت له: ويحك، بَلغْتَ إلى هذا الحد.

فقال: هو ما ترى.

فقلت: فهل لك حاجةٌ ؟

قال: أو تقضيها؟

فظننتُ أنه يطلب منى شيئًا أسْعِفُهُ به، فقلت: إى والله.

فقال: أشـتهى أن تحملنى إلى بيت فلانة الـمُغنِّيـة، حتى أراها، وهى التى كان يتعشَّقها، وأتلف ماله عليها.

وبكى، فَرَحِـمتُهُ، فـمضيتُ إلى منزلى، فـأتيتُه مـن ثيابى بما لبِسَـهُ، وأدخلتُهُ الحمَّام، وحملته إلى بيتى، فأطعمتُه، وبخَّرتُه، وذهبنا إلى دار المغنية.

فلمـا رأتنا، لم تشك أن حالهُ قـد صَلُحَتْ، وأنه قد جـاءها بدراهم، فَبَـشتْ فى وجهه، وسألته عن حاله، فَصَدَقَهَا عن حاله، حتى انتهى إلى ذِكْر الثياب، وأنّها لى.

---

(١) القيان: جمع قينة، وهى الجارية المغنية.

(٢) بيت هنا بمعنى: حجرة.

فقالت له فى الحال، قُم، قُم.

فقال: لِمَ؟

فقالت: لئلا تجىء ستى، فتراك، وليس معك شىءٌ، فتَحْرَدَ [1] علىَّ، لِمَ أدخلتُكَ، فاخرج برّاً، حتى أصعدَ فأكلمَكَ من فوق، فَخرج، وجلس ينتظر أن تخاطبه من رَوزَنَة[2] فى الدار، إلى الطريق، فأقلبت عليه مَرَقة سِكْبَاج[3]، فصيرته آية ونكالاً.

فبكى، وقال لى: بَلَغَ أمرى إلى هذا؟ أشهِدُ الله، وأشهِدُكَ، أنى تائب.

فضحكتُ منه، وقلت: أى شىء تنفعُكَ التوبةُ الآن وقد افتقرتَ؟

فرددتُه إلى بيته، ونزعْتُ ثيابى عنه، وتركتُه بين القطن، كما كان أولا، وحملتُ ثيابى فغسلتُها وانقطعت عنه، فما عَرَفْتُ له خبراً.

وبعد نحو ثلاثِ سنين، بينما أنا ذات يوم بباب الطاقِ، إذا أنا بغلام يُطرِّق[4] لرجلٍ راكب، فرفعت رأسى، فإذا به على بِرذَوْن فَارِهٍ[5]، بمركب فِضة، خفيفٍ، مليحٍ، وثيابٍ حسنة، وكان أولاً يركب من الدواب أفخرَها، ومن المراكب أثقلها.

فلما رآنى، قال لى: يا فلان، فعلمتُ أن حَالهُ قد صَلَحَتْ، فقبلتُ فَخِذَهُ.

وقلت: سيدى أبو فلان.

قال: نعم، قد صَنَعَ اللهُ تعالى، وله الحمد، البيت، البيتَ، فتبْعتُهُ إلى منزله، فإذا بالدار الأولة، قد رمَّها، وجصّصَها، من غير بياض، وطبّقها[6]، وبنى فيها

---

(١) تحرد: تغضب وتعاند.

(٢) الروزنة: فتحة فى الجدار، وفى ريف مصر: النارورة.

(٣) السكباج: اللحم إذا طبخ فى الخل.

(٤) يطرق (بتشديد الراء): يفسح الطريق، وكان هذا شأن الكبراء والأعيان.

(٥) البرذون: نوع من الحمير، وفاره: مرتفع.

(٦) جصصها: دهنها بالجص وهو الجبس، وطبقها: فرش أرضها بالطابوق، وهو الحجر العريض.

مجلسين متقابلين، وخـزائن، ومستراح، وجعل باقى ما كان فيهـا، صَحْنًا كبيرًا، وقد صارت حسنة، غير أنها ليست بذلك الأمر الأول.

فأدخلنى إلى حجرة منها، كان يخلو فيهـا قديمًا، قد أعادَها كأحسن ما كانت، وفيها فُرُشٌ حسنة، وفى داره ثلاثةُ غلمان، قد جعل كل خِدْمتين إلى واحد منهم، وقد أقام على حَـرَمِه خادمًا كان لأبيه، وله سـائِسٌ هو شاكِرِيُّهُ [1]، وشيخٌ بوابٌ كان يَصحبُه قديمًا، ووكيلٌ يتسوَّق له.

فجلس، وأجلسنى، وأحـضر فاكـهة قليلة، فى آلةٍ مقـتصدة مليحـة، وجاءوا بعدها بطعـامٍ نظيف، كافٍ، غير مُـسرِفٍ ولا مقصّـر، فأكلنا، ثم نام، ولم تكن تلك عادتُـهُ، ومُدَّتْ ستـارة، وأحَضـرت مَشامٌ ورياحين، فى صَـوَانى وزِبدِيَات، والجميع متوسطٌ ملـيح، غيرُ مُسرف، فانْتبه، فصلى، وتبـخّرَ بقطعة نَدّ، وبخّرنى بقطعة عُـودِ مطرى، وقدم بين يديه صِـينية فيـها من مطبوخ الـعِنب شىءٌ حسن، وقدم بين يدى صينية فيها نبيذ التمر، جيد.

فقلت: يا سيدى، ما هذه الترتيبات التى لست أعرفُها.

فـقال: دَعْ مـا مضى، فـإن الحال لا تحـتـملُ الإسراف، فـأقبَلَ يشـرب، وأنا أساعدُه، فتغنى من وراء الستارة، ثلاثُ جوارى فى نهاية طيب الغِناء، كلٌّ واحدة منهن أطيبُ من التى أنفَقَ عليها ماله.

فلما طابت أنفسُنا، قال لى: تَذْكُرُ أيَامَنا الأولة؟

قلت: نعم

قال: أنا الآن فى نعمـة متوسِّطة، وما قد أفدته من العـقل، والعلم بأمر الدنيا وأهلها، يُسلينى عـما ذهب منى، وهو ذا ترى فُرُشى، وآلتى ومَـرْكوبى، وإن لم يكن ذلك بالعظيم الـمُفْرِط، ففيـه جمال، وبلاغ، وتنعّمٌ، وكفاية، وهو مُغْنٍ عن

---

(١) الشاكرى: الذى يقوم على رعاية حيوانات الركوب.

الإسراف، والتخرق، والتبذير، وقد تخلّصْتُ من تلك الشدة، تذكر يوم عاملتْنى فلانةُ المغنية، بما عاملتْنى؟

قلت: نعم والحمد لله الذى كشف ذلك عنك، فمن أين هذه النعمة؟

قال: مات مَوْلى[1] لأبى، وابنُ عم لى، فى يومٍ واحد بمصر، فحصل لى من تركتِهما أربعون ألفَ دينار، فوصل أكثرُها إلىّ، وأنا بين القُطن كما رأيتنى، فَحَمَدْتُ الله، واعتقدتُ التوبة من التبذير، وأن أدبر ما رُزِقْتُهُ، فعَمّرْتُ هذه الدار بألفِ دينار، واشتريت الفُرُش، والآلة، والجوارى بتسعة آلاف دينار، وسلمت إلى بعض التجار الثّقات، ألفى دينار، يتجرُ لى بها، وأودعْتُ بطن الأرض عشْرة آلاف دينار، للحوادث، وابتعْتُ بالباقى ضيْعة تُغلُّ لى فى كل سنة نفقتى هذه التى شاهدتها، فما أحتاج إلى قرض، ولا استزادة، ولا تُقبل غلة، إلا وعندى بقية من الغلة الأولة، فأنا أتقلب فى نعمة الله، عزّ وجَلّ، كما ترى، ومن تمام النعمة، أنى لا أعاشِرُكَ، ولا أحدًا ممن كان يُحَسّن لى السَّرَفَ، يا غِلمان، أخْرجوه.

قال: فأخرجْتُ، فوالله ما أذِنَ لى بعدَها فى الدخول عليه.

●●●

---

(1) المولى: العبد.

٧- حظ أو تدبير؟

حدثْنى أبو علىٍّ بن أبى عـبد الله الحسين بن عبد الله المعـروف بابن الجَصّاص الجوهرى، قال: سمعتُ أبى يحدث، قال:

لما نكبنى الـمُقتدر، وأخذ منى تلك الأموال العظيمة، أصبحتُ يومًا فى الحبس آيَسَ ما كنتُ من الفَرَج.

فأتانى خادم، فقال: البُشْرَى.

فقلت: ما الخبر؟

قال: قم، فقد أطْلِقْتَ.

فقمتُ معه، فاجتاز بى فى بعض الطُرق فى دار الخلافة، يريد إخراجى إلى دار السيدة[1]، لتكون هى التى تطلقنى، لأنها هى التى شفعت فىّ، فوقعت عينى فى جوَارى على أعْدَال[2] خيش لى أعرفها، وكان مبلغها مائة عِدل.

فقلت للخادم: أليس هذا من الخيْش الذى حُمِلَ من دارى؟

قال: بلى.

فتـأمَلتُه، فـإذا هو بِشَدّه وعـلاماته، وكـانت هذه الأعْدَال قد حُـملت إلىّ من مصـر، وفى كل عِدل منهـا ألفُ دينار، من مال كان لى بمصـر، كتَـبتُ بحَمْله، فخـافوا عليـه من الطريق، فجـعلوه فى أعدال الخَـيْش، لأنها مما لا يكاد يحـمله اللصوص، لو وقعـوا عليه، فلا يفطنون لما فيه، فوصلَتْ سـالمة، ولاستغنائى عن المال، لم أخرجْهُ من الأعْـدَال، وتركتُهُ بحاله فى بيت من دارى، وأقـفلتُ عليه، وتَوَخَّيتُ أيضًا بذلك سَتْـر حديثه، فتركته شـهورًا على حاله لأنقله فى وقتٍ آخر كما أريد.

---

(١) السيدة: يعنى أم الخليفة.

(٢) العدل: حمل البعير.

وكُبِسْتُ[1]، فأخذ الخيشُ فى جملة ما أخِذَ من دارى، ولخِسّتِهِ عندهم تهاوَنُوا به، ولم يعرف أحد ما فيه، فطُرِحَ فى تلك الدار.

فلما رأيته بشده، طَمِعْتُ فى خلاصه، والحيلة فى ارتجاعه فسكتُّ.

فلما كان بعد أيام من خروجى، راسلتُ السيدة، ورقّقتُها، وشكَوْتُ حالى إليها، وسألتُها أن تدفع إلىَّ ذلك الخيْش، لأنه لا قدْرَ له عندهم، وأنا أنتفع بثمنه.

قال: فاستَحْمَقَتْنى، وقالت: أىُّ شىء قَدْرُ الخيش؟ ردوه عليه، فسُلم إلىّ بأسْرِهِ.

ففتحُته، وأخذتُ منه المائة ألف دينار، ما ضاع لى منها دينارٌ واحد، وأخذتُ من الخيْش ما أحتاج إليه، وبِعتُ باقيه بجُمْلةٍ وافرة.

فقلت فى نفسى: قد بَقِيَتْ لى بقَية إقبال جيدة.

●●●

---

(١) الكبس: المصادرة والحبس، وكان السبب هو مساعدة الجصاص لابن المعتز فى ثورته.

٨- لُعبةُ المُصادَفَة

ويلغنى عن رجل من أهل كَوْثى[١]، قال:

كان يتقلد بلدنا رجلٌ عامل من قِبَل أبى الحسن بن الفُرات، فى بعض وزاراته، فافتتح الخَراج واشتدّ فى المُطالبة.

وكان فى أطراف البلد قومٌ من العرب قد زرعوا من الأرض ما لا يتجاسر الأكَرَةُ[٢] على زراعته، وكان العمَّالُ يُسامحونهم ببعض ما يجب عليهم من الخَراج.

فطالبهم هذا العاملُ بالخَراج على التمام أسْوةً بالأكَرَة، وأحْضَرَ أحدهم فحقّق عليه المطالبة، وهو مُمتنع، فأمر بصفْعه، فصُفِعَ حتى أدى الخراج، وانصرف، فشكا إلى بنى عمه، فتوافقوا على كبس العامل ليلاً، وقتله، وراسلوا فى ذلك غيرَهم من العرب، واتّعدُوا لليلةٍ بعينها.

فلما كان اليومُ الذى تليه تلك اللّيلة، وَرَدَ إلى النَاحية عاملٌ آخر، صارفًا للأول، فَقَبَض عليه، وصفَعَه، وضربه بالمقارع، وأخذ خطه بمال، وقيده، وأمر بأن يُحمَل إلى قرية أخرى على فراسخ من البلد، فحُبس فيها، ووُكِّلَ به عَشَرَةٌ من الرَّجَالة، وسيّرَهُ مرةً ماشيا، ومرة على حمار من حمير الشّوْك، فكاد مما لحقه أن يَتْلف، وحَصَلَ فى تلك القرية[٣].

وكان له غلام قد ربّاه، وهو خَصِيصٌ به، عارفٌ بجميع أموره، فهرب عند ورود الصَّارف، فلما كان من الغد، لم يشعر المصروف المحبوسُ إلا بغلامه الذى ربّاه قد دخل عليه، وكان مجيئُهُ إليه أشد عليه من جميع ما لحقه إشفاقًا على الغلام، وعلى نفسه مما يعرفُهُ الغلامُ، أن يكون قد دل عليه.

---

(١) منطقة بجنوب العراق.

(٢) الأكرة: الزرّاع المستأجرون، والعرب هنا يقصد بهم البدو (الأعراب) يزرعون ولا يدفعون.

(٣) العامل الجديد أسرف فى معاقبة العامل المعزول، فكانت فى انتظاره مفاجأة.

فقال له: ويحك، وقعت فى أيديهم؟

فقال له الغلام: مَنْ هُم؟ هاتِ رجلك حتى أكسر قيودك، وتقوم فتدخل بغداد.

فقال له: وأين الرَّجَّالةُ الموكلون بى؟

فقال: يا مولاى قد فرج الله عزَّ وجَلَّ عنك، وهربت الرجالة.

قال: فما السّبب؟

قال: إن الأعراب الذين كنت صفعت منهم واحدًا، وطالبتهم بالخراج، كبسوا البارحة دار العَمَالة، وعندهم أنك أنت العامل، وكانوا قد عملوا على قتلك، ولم يكن عندهم خبرُ صَرْفك، ولا خبر ورود هذا العامل، فقتلوه على أنه أنت، وقد هرب أصحابُه، وأهلُ البلد كافة، فقم حتى نمشى إلى بغداد، لا يبلغهم خبرُ كونك هنا، فيقصدوك، ويقتلوك.

فكسر القيد، وقام هو وغلامه، يمشيان على غير جَادَّة[1]، إلى أن بَعُدا، ودخلا قرية، واستأجرا منها ما ركبا إلى بغداد.

ولقى المصروفُ الوزير، وشنَّعَ على المقتول، وقال: قد أفسد الناحية، وأثار فتنةً مع العرب، فأقره الوزير على الناحية، وضم إليه جيشًا.

فعاد إلى كوثى، وتحصن بالجيش، وساس أمره مع العرب، إلى أن صالحهم، وحط لهم من الخَراج عما كان طالبَهم به، وأجرى أمرهم على رُسُومهم، وسكنوا إليه وسكَنَ إليهم، وزال خوفُه واستقام له أمرُ عمله.

●●●

(١) الجادة: الطريق، أى يتجنبان الطرق حتى لا يراهما أحد.

٩- الفأر والأسد

حدّثنى علىّ بنُ هشـام، قال: سمعتُ حامـد بن العبّاس[١]، يقول: رُبما انتفع الإنسان فى نكْـبته بالرجلِ الصـغيـر، أكثر من منفـعتـه بالكبيـر، فمن ذلك: أن إسماعيل بنَ بُليل، لما حَبَسنى، جعلنى فى يد بواب كان يَخدِمُه قديمًا.

قال: وكـان رجـلاً حـراً، فأحسنْتُ إليه، وبَرَرْتُهُ، وكـنـت أعـتـمد عـلـى عناية أبى العباس بن الفُرات[٢] بى، وكان ذلك البواب، لقديم خِدمـته لإسماعيل، يدخل إلى مجالسه الخاصة، ويقفُ بين يديه، ولا يُنْكِرُ عليه ذلك، لِسالِف خدمته.

فصار إلىّ فى بعض الليـالى، فقال: قد حَرَدَ الوزيرُ على ابن الفـرات بسببك، وقال لـه: ما يكسـرُ المال على حامـدٍ غيـرُك، ولابد من الجد فى مطالبـته ببـاقى مُصادرته، وسيدعوك الوزير فى غدٍ إلى حضرته ويهدّدُك.

فَشَغَلَ ذلك قلبى، فقلت له: هل عندك من رأى؟

قال: نعم، تكتب رُقْـعَةً إلى رجل من مـعامليك تعرف شُـحَّه وضيقَ نَفْـسه، تلتمسُ منه لعيالك ألفَ درهم، يُقرِضُك إيـاها، وتلتمسُ منه أن يجيبك على ظَهْر رُقعـتك، لترجع إليك، فإنه لشُـحِّه، يردُّك بعُذر، وتحـتفظ بالرُّقعـة، فإذا طالبك الوزير أخرجـتَها له على غيـر مُوَاطأة[٣]، وقلت له: قد أفْـضَتْ حالى إلى هذا، فلعل ذلك ينفعُك.

قال: ففعلتُ ما قاله، وجاءنى الجوابُ بالرد كما خَمّنا، فشدَدْتُ الرقعة معى. فلما كان من الغد، أخرجنى الوزير، وطالبنى، فأخرجْتُ الرُّقـعة، وأقرأتُهُ إياها، ورَقَّقْتُهُ، وتكلمتُ بما أمكن، فاستحيا، وكان ذلك سبب خِفّة أمرى، وزوال محنتى.

فلما تقلّدتُ فى أيّام عبيد الله بن سُليمان ما تقلّدت، سألتُ عن البواب، فاجتذبْتُه إلى خدمتى، وكنت أجْرى عليه خمسين ديناراً فى كل شهر وهو باقٍ إلى الآن.

---

(١) حامد بن العباس بلغ منصب الوزارة، وابن بليل وزير أيضًا.

(٢) هنا تظهر محاور السُّلطة أو مراكز القوى، وكيف يتالفون، وأيضًا يؤلف قلب خادم عند خصمه العنيد.

(٣) وكأن الأمر حدث بالمصادفة لا المواطأة (التواطؤ).

١٠- سَيْكُولُوچِيَةُ المُواجَهَة

أخبرني محمّدُ بنُ الحسن بن المظفّر، قال: أنبأنا أبو عمر محمد ابن عبد الواحد، قال: أخبرني النوريُّ الصوفي[١]، قال:

لما كانت المحنة، ورُميتُ أنا وجماعةٌ من الصوفية بالكفر، أخِذْنا، فأودعْنا المُطبقَ أيّامًا، ثم عُرضْنا على ابن الشّاه[٢]، وكان الوالي، وأغرى بسفْكَ دمائنا، فعمل على ذلك، وأخرجنا للمسائلة، وترديد العذاب، وإمراره علينا قبْل القتل، وكنا تعاقدْنا أن لا نتكلم حتى يكفينا صاحبُ الأمر.

فقال للرقام: أنت القائل: إن قولي بِسْم الله، لُجَّةٌ من نور؟

قال: فسكَتَ، على العَقْد.

وحضر من ذوى الأقدار والمنزلة من استعطف ابن الشاه علينا، وأشار عليه بالتوقف في أمرنا، والزيادة في استيضاح ما قُرِفْنا به.

فقال ابنُ الشاه للرقام: أنت صوفيّ، ولعلك تأولت قولك «بسم اللهِ» نورًا، وقولك «الحمد للهِ»، بعد فراغك، نورًا.

فصاح الرّقام صيحة عظيمة، لحَنَتَ[٣] أيها الأمير.

قال النّورى: فوالله لقد أضْحكَنى على ما بى.

فقال له الأمير: قد صِرْتَ تنظرُ في النحو بعدى، حتى صرتَ تعرف اللّحْنَ من الصواب؟

---

(١) سمى النورى لما في وجهه من إشراق ونور.

(٢) ابن الشاه قائد قطاع من شرطة بغداد.

(٣) اللحن في اللغة هو الخطأ، وهكذا فهمها أمير الشرطة، ولكن الرقام الصوفي عبث به حين ادعى أن لها معنى آخر عند الصوفية.

فقــال له: حاشــاك أيّها الأمــير من اللّحْن الذى هو الخطأ، وإنما عَنَيْتُ بــقولى «لحَنْتَ»، أى فَطِنْت، بمعنى الصوفية.

فقال ابن الشّاه: فى الدنيا أحدٌ يَرْمى مثل هذا وأضرابه بالزندقة؟

وأمر بِتَخْلية سبيلنا.

فتخلصْنا مما كنا فيه، ومما نُحاذره، وكُفِينا بأضعف الأسباب وأيسرها.

●●●

١١- الوَهْمُ والحقيقةُ

حدثنى أبو محمد: عبد الله بن حَمْدون النديم، قال:

كان المعتمدُ مع سماحة أخلاقه، وكثرة جوده، وسخائه، شديد العرْبدَة على نُدمائه إذا سكِر، لا يكاد يسلم له من العربَدة مجلسٌ إلا فى الأقل، فاشتهى يومًا أن يصطبح على أترُج، فاتُّخذ له منه شىء كثير، مُفْرطُ العدد، وعُبى، وحُزم بعضُه، فاصطبح عليه، ولم يَدَعْ شيئًا من الخلع والصَلاتِ والحِمَلان[1]، إلا وعمِله مع ندمائه فى ذلك اليوم، وخصنى منه بالكثير، وكان كثير الشرب، وكانت علامته إذا أراد أن ينهض جلساؤُه، أن يلتفت إلى سرير لطيف، كان إذا جلس يستند إليه، ويَشيل رجليه، كأنه يريد أن يصعَدَ، فيقومُ جلساؤه، فإذا كان يريد النوم صَعِدَه، فنام، وإن لم يُرد النوم، رد رِجْله، إذا قمنا، وأتم شُربه مع بعض خدمه، أو حَرَمه.

فلما كان ذلك اليوم، جلسنا بحضرته نهارًنا أجمع، وقطعةً من الليل، ثم ردَّ رجله إلى السرير فى أول الليل، فقمنا، وانصرف الجلساءُ إلى حجرة مرسومةٍ بهم، وانصرفْتُ إلى حجرة مرسومةٍ بى من بينهم.

فلما انتصف الليل، إذا بالخدم يدقون باب حجرتى، فانتبهْتُ مرعوبًا، فقالوا: أجب أمير المؤمنين.

فقمتُ: وقلتُ: إنا لله وإنّا إليه راجعون، مضى يومُنا وبعضُ ليلتنا، أحسنَ مُضِىّ، وقدّرْتُ أنى أفلتُّ من عَرْبَدَتِه، فقد عَنَّ له أن يُعَربد علىّ، فاستدعانى فى هذا الوقت.

فأتيتُه وأنا فى نهاية الجَزَع، أفكّرُ كيف أشاغلُهُ عن العربدة، إلى أن صِرْتُ بحضرته.

---

(١) الحملان: الدواب ومنها الخيل، وكل ما يحمل.

فلما رآنى قائمًا لم يَستَجْلِسْنى، وقال لخادمه: علىّ بصاحب الشُّرطة السّاعة.

فمتُّ جزَعًا، وقلتُ فى نفسى وأنا واقفٌ بين يديه: لم تَجْر عادتُه فى العربدة باستدعاء صاحِب الشُّرطة، وما هذا إلا لِبَلِية قد احتيل بها علىَّ عنده.

فأقبلتُ أنظرُ إليه طمعًا فى أن يفاتَحنى بكلمة، فأداريه فى الجواب، وهو لا يرفع رأسَه عن الأرض، إلى أن جاء صاحبُ الشُّرطة، فرفع رأسه إليه، وقال له: فى حَبْسك رجلٌ يُعرف بفلان ابن فلان الجمّال؟ (وفى رواية: يُعرف بمنصور الجمّال)؟

قال: نعم.

قال: أحْضِرْنيه الساعة.

فمضى ليُحضره، فسَهُلَ علىّ الأمرُ قليلاً، ووقفتُ، وهو لا يخاطبنى بشىء، إلى أن أحضرَ الرجل.

فقال له المعتمد: من أنت؟

قال: أنا منصور ابن فلان الجمّال.

قال: وما قصتُّك؟

قال: أنا مظلوم، حُبِسْتُ منذ كذا وكذا سنة، وأنا رجل من أهل الجبال، وكان لى جمال أعيش من فَضْل أُجرتها.

وكان يتقلد بلدَنا فلان العاملُ، فاستدْعى إلى الحضْرة، فأخذ جمالى غصبًا يستعين بها فى حَمْل متاعه.

فتظلمت إليه وصحتُ، فلم ينفعنى ذلك، وقال: إذا صرتُ بالحضرة رَدَدْتُها عليك.

فخرجتُ معه لئلا تذهب الجمال أصلاً، فكنت مع جمالى أخدُمُها فى الطريق.

فلما قـربْنا من حلوان[1] سل الأكـرادُ منها جـملاً مـحمّـلاً، فبلغـه الخبـر، فأحـضرنى، وقـال: أنت سرقتَ الجـمل بما عليه، فـقلتُ: غلمانُك يعـلمون أن الأكرادَ سَلُّوهُ.

فقال: الأكراد إنّـما جاءوا بِمُوَاطأةٍ منك، ثم أمر بضربى، وتقـييدى، وطَرْحى على بعض جمالى.

فلما وَرَدْنا الحضرة، أنفذْتُ إلى الحـبس، وأُخَذَ الجمال، ولم يكن لى متظلّم، ولا مذكّر ولا متكلّم، فطال حبسى، وطالت بى المحنة إلى الآن.

فقال لبـعض الـخـدم: امْضِ الساعة إلـى فلان العامـل، واقـعـد على دماغه، ولا تَبْرَحْ، أو يَرُدُّ عليه جمـاله أو قيمتها على ما يريد، فـإذا قبض ذلك، فاحمله إلى الخزانة، واكْسُهُ كُسْوَةً حسنةً، وادفع إليه كذا وكذا ديناراً واصرفه مصاحَبًا.

ثم قال لصاحب الشُّرطة: فى حبسك رجل يُعرف بفلان ابن فلان الحدّاد؟ قال: نعم، قال: أحضرنيه الساعة، فأحْضَرَه.

فقال له: ما قصتُك؟

قـال: أنا رجل حُـبِسْتُ بظلـم، أنا رجل من أهل الشـام، وكانت لى نـعـمـة فـزالت، فـهـربتُ من بلدى، واتّصـلتْ مـحنتى إلى أن وافـيْتُ الحـضـرة طلبًـا للتصرّف[2]، فتعذّر علىّ حتى كدت أتلفُ جوعًا.

فسألتُ عن عملٍ أعمله ليلاً لأتوفر نهارًا على طلب التصرف، وأنفق فى النّهار ما أكسبه ليـلاً، فأرْشِدْتُ إلى حدّاد يعمل ليلاً، فقصدتُـه، فاستأجرنى بِدِرْهَمٍ فى كل ليلة، وكنت أعمل مـعه، وكان معه غـلامٌ آخر يضرب بالمطرقة، فـأفسد ذلك الغلام على الحـدّاد نعلاً كان يَضْـربُها، فاغـتـاظ عليه، ورماه بـالنعل الحديد على قُلّته[3]، فَتَلِفَ للوقت، فهرب الحدّاد، وبقـيتُ أنا فى الموضع متحيّرًا لا أدرى إلى

(١) حلوان فى بلاد فارس.

(٢) طلبًا للتصرف: بحثًا عن عمل.

(٣) القلة: القمة، وهنا: ضربه على قمة رأسه.

أين أمضى، وأحسّ الحارسُ فى الحال بما رَآبَهُ فى الدُّكان، فهجم علىَّ فوجدنى قائمًا، والغلام ميتًا فلم يشك أنى القاتل، فقبض علىّ ورفعنى، فحُبِسْتُ إلى الآن، فقال لصاحب الشرطة، خل عنه.

وقال لخادم آخر: خُذْهُ فغيّر حاله، وادفع إليه خمسمائة دينار، ودَعْهُ ينصرف مصاحَبًا.

ثم رفع رأسه إلىّ، وقال: يا ابن حَمْدون، الحمدُ لله الذى وفَقنى لهذا الفعل.

ففرّج عنى، فقلت: كيف تكلَّف أميرُ المؤمنين النّظر فى هذا بنفسه، فى مثل هذا الوقت؟

فقال: ويحُك إنى رأيت فى منامى رجلاً يقول لى: فى حبسك رجلان مظلومان، يقال لأحدهما: منصور الجمال، والآخر: فلان ابن فلان الحدّاد، فأطلقْهما السّاعة وأحسنْ إليهما وأنصفْهما، فانتبهتُ مذعورًا، ثم نِمْت.

فما استثقلتُ حتى رأيتُ الشّخص بعينه، يقول لى: ويلُك، آمرك أن تُطلقَ رجلين مظلومين فى حبسك، قد طال مُكْثُهُما، وأن تنصفهما وتحسن إليهما، فلا تفعل، وترجع تنام؟ لقد هممتُ أن أوجِعَكَ، فكاد يمد يده إلىّ.

فقلت له: يا هذا من أنت؟

فقال: أنا محمّدٌ رسولُ الله، فكأنى قبّلتُ يده، وقلت: يا رسول الله، ما عرفتك، ولو عرفتك ما تجاسرتُ على تأخير أمرك.

قال: قم: فاعمل فى أمرهما السّاعة، بما أمرتُك به، فانتبهتُ مذعورًا، فاستدعيتُك لتشاهد ما يجرى.

فقلت: هذه عنايةٌ من رسول الله ﷺ بأمير المؤمنين، واهتمام بما يُصْلِحُ دينَه، ويثبتُ مُلكه، ومِنّةَ عظيمة عليه، لله عزّ وجَلّ ولرسوله ﷺ.

فقال: امض فقد أزعجناك، فعدتُ إلى حجرتى[1].

---

(١) ولم يتعجب النديم من أمر خليفته الذى نام سكران، كيف رأى رسول الله فى المنام؟!

فلما كان من الغد عشياً، دخلتُ إليه وهو جالس للشرب على الرسم، فأحببْتُ أن أعرِّفَ الجلساء ما جرى البارحة، ليُسَرَّ هو بذلك، وكنتُ أعرف من طبعه أنه يحب الإطراء والمدح، ونَشْرَ ما هذا سبيله، فإنّه إذا عمل جميلاً أكثر من ذِكْره، وتبجَح به، وإن كان صغيراً.

فقلت له: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يخبر خَدَمَهُ، بما كان من الـمُعجزة البارحة، وعناية رسول الله ﷺ بخلافته.

فقال: وما ذاك؟

فقلت: إحضارى البارحة، وإحضار صاحب الشُّرطة، والجمال، والحدّاد، ورؤياه النَّبى ﷺ، وما أمره به فيهما، وما تقدم به إلى أمير المؤمنين من إنصافهما.

فقال: والله ما أذكر من هذا شيئًا، وما كنتُ إلا سكران، نائمًا طول ليلتى، وما انتبهتُ.

فقلت: بلى يا سيدى.

فتنكّر، وقال: يا ابن حَمْدون قد صرت تغالطنى وتخادُعنى بالكَذب؟

فقلت: أعيذُ أمير المؤمنين بالله، هذا أمر مشهور فى الدار عند الخدم الخاصة وصاحب الشُّرطة نفسه، وقصصتُ عليه القصّة، وشرحتها.

فاستدعى الخدم، فتحدثوا بمثل ما ذكرتُه، فأظهر تعجبًا شديدًا، وحلف بالله العظيم، وبالبراءة من رسول الله ﷺ، وبالنفى من العبّاس، أنه لا يذكر شيئًا من ذلك، ولا يعلم إلا أنه كان نائمًا، ولا رأى منامًا، ولا انتبه، ولا جلس، ولا استدعى أحدًا، ولا أمر بأمْرٍ.

فما رأيت أعجبَ من هذا المنام والحال، ولا أطرف من هذا الاتفاق فى نسيانه بعد ذلك[1].

●●●

(١) وهنا لا نعرف يقينًا من الذى كان يحلم، الخليفة، أم النديم؟! وما حدود الوهم مع الحقيقة؟!

١٢- لصَّان: تائِبٌ.. وخائِبٌ

حدّثني عُبَيْدُ الله بن محمد الصَّرَوى، قال: حدّثني بعض إخوانى:

أنّه كان ببغداد رجلٌ يطلب التلصّصَ فى حَدَاثَته، ثم تاب وصار بَزَازًا(١).

قال: فانصرف ليلةً من دكانه، وقد أغلقه، فجاء لصٌّ متزى بزى صاحب الدكان، فى كُمِّه شمعة صغيرة، ومفتاحٌ، فصاح بالحارس، وأعطاه الشمعة فى الظُّلمَة، وقال: اشعلها وجئنى بها، فإن لى فى هذه الليلة فى دكانى شُغْلاً.

فحضر الحارسُ وأشعلَ الشمعة، وركَب اللصُّ المفاتيح على الأقفال ففتحها، ودخل الدكان.

فجاء الحارس بالشمعة مشعلة، فأخذها منه وهو لا يتبين وجهه، وجعلها بين يديه، وفتح سَفَطَ (٢) الحساب، وأخرج ما فيه، وجعل ينظر فى الدفاتر، ويورى بيده أنه يحسب، والحارِس يطالعه فى تردده، ولا يشك فى أنه صاحبُ الدكّان.

إلى أن قارب السَحَر، فاستدعى اللصُّ الحارس، وكلمه من بعيد وقال له: اطلب لى حمالاً.

فجاء بحمال، فحمل عليه من مَتَاع الدكّان أربَع رُزَم مُثَمّنَة(٣)، وأقفل الدكّان، وانصرف ومعه الحمَّال، وأعطى الحارس دِرهمين، فلمَّا أصبح الناس، جاء صاحب الدكّان ليفتحَه، فقام إليه الحارس يدعو له، ويقول: فَعَلَ اللهُ بك وصَنَعَ، كما أعطيتنى البارحة الدرهمين.

فأنكر الرجل ما سمعه، ولم يَرُدّ جوابًا، وفتح دكانه، فوجد سَيَلان الشمعة، وحسابه مطروحًا، وفقد الرُّزَمَ الأربع، فاستدعى الحارسَ وقال له: من كان الذى حمل معى الرزم البارحة من دكّانى؟

فقال له الحارس: أليس استدعيْتَ منى حمَالاً. فجئتك به، فحملها معك؟

قال: بلى، ولكنى كنت ناعسًا مُتَنَبِّذًا(٤)، وأريد الحمّال، فجئنى به.

---

(١) البزاز: تاجر الحرير.

(٢) السفط: الوعاء أو الكيس أو «الدرج».

(٣) مثمنة: غالية الثمن، قيّمة.

(٤) متنبذًا: شارب نبيذ.

فمـضى الحارسُ فجـاءه بالحمّـال، اغلق الرجلُ الدكان، وأخـذ الحمّال مـعه، ومشى، وقال: إلى أين حملت الرُّزم البارحة، فإنى كنتُ متنبذًا.

قال: إلى المشْرَعَة الفلانية، واستدعيت فلانًا الملاح، فركبت معه.

فصَـعَدَ الرجلُ المشرعـة، فسأل عن الملاح فَـدُل عليه وركب معـه. وقال: أين أوصلت اليوم أخى الذى كان معه الأربعُ رُزَمٍ؟

قال: إلى المشْرعة الفلانية.

قال: أطرحنى إليها، فطرحه.

قال: ومن حَمَلها معه؟

قال: فلان الحَمّال.

فدعـا به، ولطَّفـه، وقال: أين حـملتَ الرزم الأربع البارحـة؟ واستـدله برفق وأعطاه شيـئًا، فـجاء به إلى باب غـرفة، فى موضـعٍ بعيدٍ عن البلـد، قريبٍ من الصحراء، فوجد الباب مُقفلاً.

واستوقف الحمّالَ إلى أن فَشَّ القُفْل وفَتَحَ الباب، ودخل، فوجد الأربع رُزَمٍ بحالها، وإذا فى البيت بَرْكَان[1] مُعلَّق على حبْل، فلفّ الرُّزَمَ فيه. ودعا الحمّال فحملها.

فحين خرج من الغرفة، استقـبله اللصّ، وفهم الأمر، فاتبعه إلى الشط، فجاء إلى المشْرعة، ودعا الملاح ليعْبر.

فدعـا الحمّالُ من يَحُطّ عنه، فـجاء اللصُّ، فحطّ عنه، كـأنه مجتـازُ متطوع، فأدْخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها، ثم جعل البَرْكان على كتفه، وقال للتاجر، يا أخى، أستودعُكَ الله، فقد استرجعت رُزَمَكَ، فدع كِسائى.

فضحِك منه وقال: انزل ولا خوف عليك.

فنزل معه، فاستتابه، ووَهَبَ له شيئًا، وصَرَفَهُ.

●●●

---

(١) البركان: رداء يشبه العباءة أو المعطف.

١٣- فَرَجٌ أمْ جَرِيمة؟!

حدّثنى عبيدُ الله بن محمد الصرَّوى، قال: حدّثنى أبى، قال:

كان فى جوارنا بواَسطَ، شـابٌ أتلف ماله فى اللّعب. فافتقر فـقرًا شديدًا، ثم رأيتُه بعد ذلك بمدة، وقد أثْرى، وصَلْحَت حاله، وأقبل على شأنه.

فقلت له: ما سبب هذا؟

فدافعنى، ثم قال: أحدِّثك، وتكتُمُ علىّ!

فقلت: نعم.

فقال: إن الفقر بلغ بى إلى حـالٍ تمنّيْتُ معها الموت، وولدت امرأتى ذات ليلة، وكانت ليلة العيد، فلم يكن مـعى ما أشترى لها ما يُمسك رَمَقَـهَا، فخرجتُ على وجهى، أطلب من أتصدّقُ منه شيئًا أعودُ به إلى امرأتى.

فأمضيــتُ إلى زُقاقٍ طويل لا أعرفه، فدخلتُ، فإذا هو لا يَنفُـذ، وإذا فيه بابُ دارٍ مفتوحٌ، ومستراح.

فدخلتُ الدار بغير إذن، فإذا برجلٍ يطبُخ قِدْرًا، فصاح علىّ، وقال: من أنت، ويلك؟ فقصصتُ عليه خَبَرى.

فقال: إمض إلى ذلك البيت[1]، واجلس إلى أن أفْرُغَ من القِدْر، فأعطيك منها مع الخبز شيئًا تحمله إلى امرأتك، ونفقة تكفيك أيامًا.

فدخلتُ البيت، فرمى إلىّ كِساءُ، وقال: تغط به، ونَم ساعة.

وكانت ليلةً باردة، وكنتُ بقميص واحد، فـتغطيتُ بالكِساء، وانضَجَعْتُ، ولـم يدخل عينى النومُ، لما بى من الجوع والغم.

فمـا لبثت أن جـاء رجل عُريان، فدخل وعلى رأســه شىءٌ ثقيل، فـقام الذى يطبخ، فأغلق الباب، وأنزل ما كان على رأسه.

---

(١) البيت هنا بمعنى الحجرة، أما مجموع الحجرات فهى الدار.

وقال له: ويلك، غبتَ، حتى أيِسْتُ منك.

فقال: كنت يومى وليلتى، مختبئًا خلفَ حَطَبٍ لهم، حتى تمكّنتُ من أخذ هذه البدرة[1]، وما أدرى أدنانيرُ هى أم دراهم؟ وأنا ميتٌ جوعًا. فأطعمْنى شيئًا.

قال: فأخذ الرجل يغرف من القدر، ومضى العُريان فلبس شيئًا، وجاء إلى الآخر، وقد غَرَف، فجعلا يأكلان، وقد خرجتْ نفسى فزعًا.

فلما أكلا، أخرجا شرابًا، وجعلا يشربان، وأنا مُتَحَيِّرٌ لا أدرى ما أصنع، ولست أجترئ أطلبُ من الرجل شيئًا.

وأقبل العُريان يشرب أكثرَ من الآخرَ الذى كان يطبُخ، وجعل الذى كان يطبخ، يقول له: استكْثِرْ من الشرب لتدفأ، إلى أن سكِر العُريانُ، ونام.

فقام الأوّل، فطاف فى الدّار، ثم جاءنى فكلّمنى، فسكتُّ، خوفًا من أن يعلمَ أنّى قد علِمْتُ بقصّتهما، فيقتَلنى، فظنّ أنّنى قد نِمْتُ.

فمضى إلى النّائم، فذبحه، ثمّ أمسكه حتّى مات، ثمّ لفّه فى كِساءٍ، وحمله على عاتقِهِ، وخرج من الدار.

فقلتُ لنفسى: لأىّ شىءٍ قُعُودى؟

فقمتُ، فجئتُ إلى البدرة، فجعلتها فى الكِساء الّذى كان علىَّ، وخرجتُ أسعى سعْيًا شديدًا.

فلم أزل كذلك، حتّى رأيتُ مسجدًا قد فتحه إنسان، وخرج منه، وجلس يبول، فدخلته، وجاء الرّجل الّذى كان يبول، فَدَخَلَهُ، وأغلق بابه.

وقال لى: أىُّ شىء أنت؟

فقلت: غريبٌ: جئتُ الساعةَ من السواد[2]، ولم أجسر أن أتجاوزَ هذا الموضعِ، فأجِرْنى، أجارَك الله.

---

(1) البدرة: الصرة الصغيرة، أو القبضة من المال.

(2) سواد العراق: الريف.

فقال: ثم مكانَك، فتركْتُ البِدرةَ تحت جنبى واتكأتُ عليها.

فلم ألبث حتّى سمعتُ فى الطريق صوتَ رجلٍ يسعى سعيًا شديدًا، وإذا كلام صاحبى بعينه، وهو يقول: عمِلها ابنُ الزانية، ويْلى على دمه.

فأبصرتُه من شُبّاك المسجد، وإذا فى يده خِنْجر مُجرَّد، وهو يتردّد ذاهبًا وجائيًا، وأعماه الله عن دخول المسجد، إلى أن مضى.

ولم أزل ساهرًا لا يحملنى النوم، خوفًا منه، وإشفاقًا على ما معى، إلى أن أضاء الصّبح، وأُذِّن فى المسجد.

وخرجتُ كأنّى أتوضّأ، وحملْتُ ما معى، ومشيتُ، والنّاس قد كَثُرُوا فى الطريق، حتّى انتهيتُ إلى بيتى، فأخفيْتُ ما جئتُ به، وأصلحت حالى، وحالَ زوجتى.

ثمّ خرجتُ إلى ضَيْعَة -كانت لأبى- خرابٍ، فأقمتُ بها مدّة، حتّى عمّرتها بأكثرَ ذلك المال، وعلمتُ أنّه لا يتّفق مثلُ هذا الاتفاق أبدًا، ولَزِمْتُ شأنى، وصَلُحَتْ حالى.

●●●

١٤- التَّطهيرُ بالفَنّ

أخبرني أبو الفرج الأصبهانِّى، قال: أخبرني الحَرَمِىُّ بن أبى العلاء، قال: حدّثنا الزُّبير بنُ بكّار، قال: حدّثنى عمّى مُصْعَبَ، عن عبد الرّحمن بن المُغيرة الحزامى الأكبر، قال:

لما قَدِمَ عثمانُ بنُ حيّان المُرِىُّ[١] المدينة واليًا عليها، قال له قوم من وُجوه النّاس: قد وُلّيتَ المدينةَ على كَثْرَة من الفساد، فإن كنتَ تريد أن تُصْلِحَ، فطهّرها من الغِناء والزناء.

فصاح فى ذلك[٢]، وأجَّل أهلَه ثلاثًا، يُخرجَون فيها من المدينة.

وكان ابنُ أبى عَتيق[٣] غائبًا، وكان من أهل الفضْلِ والعفافِ والصلاحِ، فلمّا كان فى آخر ليلة من الأجل، قَدِمَ.

فقال: لا أدخل منزلى حتّى أدخلَ على سلاَّمَةَ القَسِّ[٤].

فقال لها، وقد دخل عليها: ما دخلتُ منزلى، حتّى جئتكم أسلّم عليكم.

قالوا: ما أغفَلكَ عن أمورنا، فأخبروه الخبر.

فقال: اصبروا لى اللّيلة.

فقالوا: نخاف أنّ لا يُمكنك شيء، ونُؤْذَى.

فقال: إن خِفْتُم شيئًا، فاخرجوا فى السَّحَر.

ثمّ خرج، واستأذن على عثمانَ بنِ حيّان، فأذنَ له، فسلّم عليه، وذكر غَيْبَتَه، وأنّه جاء ليقضِيَ حقه، ثمّ جزاه خيرًا على ما فعل من إخراج أهل الغِناء والزّناء.

وقال: أرجو أن لا تكون عَمِلْتَ عملاً، هو خيرٌ لك من ذلك.

---

(١) فى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان.

(٢) أرسل المنادين يعلنون قراره بإخراج أهل الغناء عن المدينة.

(٣) حفيد أبى بكر الصدِّيق، ناقد محب للشعر، وصديق لعمر بن أبى ربيعة.

(٤) سلاّمة أشهر المغنيات، ونُسِبت إلى رجل صالح أحبها حبّاً عفيفًا، سمى «القَس» لصلاحه.

قال عثمان: قد فعلتُ ما بَلَغَكَ، وأشار علىّ به أصحابُك.

قال: قد وُفقتَ، ولكن ما تقول يرحمُكَ الله فى امرأة كانت هذه صناعتَها، ثمّ تركتْها، وأقبلت على الصيام والصدقة والخير، وإنّى رسولُها إليك تقول: أتوجّه إليك، وأعوذُ بك أن تُخرجنى من جوار رسول الله ﷺ، ومن مسجده.

فقال: إنّى أدعُها لك ولكلامك.

فقال ابنُ أبى عَتِيق: لا يَدَعُكَ النَاسُ، ولكن تأتيك، وتسمعُ كلامَها، وتنظرُ إليها، فإن رأتَ أنّ مثلها يسع أن تُترك، تركتَها.

قال: نعم.

فجاءه بها، وقال لها: احملى معك سُبحة، وتخشى، ففعلَتْ.

فلمّا دخلتْ على عثمانَ، حدّثْته، فإذا هى من أعلم النّاس بأمور النّاس، فأعجِب بها، وحدّثْته عن آبائه وأمورهم فَفَكِهَ لذلك.

فقال لها ابنُ أبى عَتِيق: اقرئى للأمير، فقرأتْ.

فقال لها: احدِى له، فَفَعلَتْ، فكثُر عَجَبُهُ بها.

فقال: كيف لو سمعتَها فى صناعتها، فلم يزلْ يُنْزِلُهُ شيئًا شيئًا، حتّى أمرها بالغناء، فقال لها ابنُ أبى عَتِيق: غنّى:

سَدَدْنَ خَصَاصَ البَيْتِ لما دَخَلْنَهُ بكلِّ لَبَانٍ واضحٍ وجبين

فغنّته، فقام عُثمانُ بنُ حيّان، فقعدَ بين يديها، ثمّ قال: لا واللهِ، ما مثلُ هذه تُخرج.

فقال ابنُ أبى عَتِيق: لا يَدَعُكَ النّاس، يقولون أقرَّ سلاّمةَ، وأخرج غيرَها.

فقال: دعوهم جميعًا، فتركوهم.

وأصبح النّاسُ يتحدّثون بذلك، يقولون: كلَّمَ ابنُ أبى عَتِيقِ الأميرَ فى سلاّمةَ القسِّ، فتُرِكُوا جميعًا.

---

(١) تأمل ذكاء ابن أبى عتيق فى ترتيب هيئة هذه المغنية، والتدرج فيما تعرضه من فنون، كيف بدأت بالثقافة العامة، ثم تطرقت منها إلى أخبار آبائه، مما ينتفخ به غرورًا واعتزازًا، ثم قرأت القرآن، ثم جاء الحداء، وهو شعر بدوى يمس القلوب الجافية كقلب هذا المرى، ثم كان شِعر الغزل.. يشق طريقه بلا اعتراض.

١٥- ضَمَائِرُ قَلِقَة

ذكر محمّدُ بنُ إسحاقَ بنِ أبى العشير، عن إسحاقَ بنِ يَحيى بن مُعاذ، وقال: حدّثنى سَوّار، صاحبُ رَحْبَةِ سوّار، قال:

انصرفتُ من دار المهدىّ، فلمّا دخلتُ منزلى، دَعَوْتُ بالغداء، فحاشَتْ نفسى، فأمَرْتُ بِهِ فَرُدَّ.

ثمَ دعوتُ بالنَّرْدِ، ودعوتُ جاريةً لى ألاعبها، فلم تَطِبْ نفسى بذلك، ودخلَتْ القائلَةُ، فلم يأخذنى النّوم.

فنهضتُ، وأمرتُ ببغلة لى شهباءَ، فأسْرِجَتْ، فركبتها، فلمّا خرجت استقبلنى وكيلٌ لى ومعه ألفا دِرهم.

فقلت له: ما هذا؟

فقال: ألفا دِرهم، جَبَيْتُها من مستغلّك الجديد.

قال: قلت: أمسِكْها معك، واتبعنى.

قال: ومضيتُ، وخلّيتُ رأسَ البغلة، حتّى عبرتُ الجِسر، ثمّ مضت بى فى شارع دار الرّقيق، حتّى انتهيتُ إلى الصحراء، ثمّ رجعتُ إلى باب الأنْبار، فطوَّفْتُ، فلما صرتُ فى شارع باب الأنبار، انتهيتُ إلى باب دارٍ لطيف عنده شجرةٌ، وعلى الباب خادمٌ، فوقفتُ، وقد عَطِشْتُ.

فقلت للخادم: أعندك ما تَسْقِينيه؟

قال: نعم، فأخرج قُلَّة نظيفة طيّبةَ الرّيح، عليها مِنْديل، فناولنيها، فشربْت.

وحضر وقتُ العصر، فدخلتُ مسجداً، فصليتُ فيه، فلمّا قضيتُ صلاتى، إذا أنا بأعمى يتلمّس.

قلت: ما تريد يا هذا؟

قال: إيّاك أُريد.

قلت: وما حاجَتُك؟

فجاء حتّى قعدَ إليّ، فقال: شَمَمْتُ منك رائحةَ الطيب، فتخيّلتُ أنّك من أهل النعمة، فأردتُ أن ألقِيَ إليكَ شيئًا.

فقلت قُلْ.

قال: أترى هذا القصر؟

قلت: نعم.

قال: هذا قصرٌ كان لأبى فباعه، وخرج إلى خُراسان، وخرجتُ معه، فزالت عنّا النّعمةُ الّتى كنا فيها، فأتيتُ صاحبَ الدّار، لأسأله شيئًا يَصِلُنى به، فإنّى فى ضَنْك شديد، وَضُغْطةٍ عظيمة، ورزُوحِ حالٍ قبيح، وأصير إلى سوّار، فإنّه كان صديقًا لأبى.

قلت: ومَنْ أبوك؟

قال: فلانٌ ابنُ فلان فإذا أصدق النّاس -كان- لى.

فقلت: يا هذا، إنّ الله قد أتاك بِسَوَّار، مَنَعَهُ الطعامَ والشرابَ والنّومَ، حتّى جاء به فأقعدَه بين يديك.

ثمّ دعوتُ الوكيل، وأخذتُ منه الألفى دِرهم، فدفعتُها إليه، وقلت له: إذا كان غدًا، فَصِرْ إلىّ، إلى المنزل.

ثمّ مضيتُ، فقلت: ما أحدّث المهْدى، بشىء أطرفَ من هذا، فأتيتُه، فاستأذنتُ عليه، فأذنَ لى، فحدّثته بالحديث، فأعُجب به، وأمر لى بألفى دينار، فأحضِرَتْ.

فقال لى: ادفعها إليه.

قال: فنهضتُ، فقال لى: اجلس، أعليك دَيْن؟

قلت: نعم.

قال: كم مبلغه؟

قلت: خمسون ألفَ دينار.

فقال: تُحمَل إليك، فاقضِ بها دَيْنَك، فقبضتُها.

فلما كان من الغد، أبطأ عليّ المكفوف، وأتاني رسولُ المهدى، يدعونى، فجئته.

فقال: فكْرتُ فى أمرك، فقلت: يقضى دَيْنَه، ثم يحتاج إلى الحيلة والقرض، وقد أمرتُ لك بخمسين ألفَ دينارٍ أخرى.

قال: فقبضتُها، وانصرفت.

فجاءنى المكفوف، فدفعت إليه الألفى دينار، وقلت له: قد رَزَقَ الله خيراً كثيراً، وأعطيته من مالى ألفىْ دينار أخرى، فقبض أربعة آلاف دينار، ودعا لى، وقال: والله، ما ظننت أنى أصلُ منك، ولا من أحدٍ من أهل هذه البلاد، إلى عُشْر هذا المال، فجزاك اللهُ خيراً.

●●●

١٦- سَبَعْ صَنَايع!!

وذكر أبو الحسيْن القـاضى، فى كتابه، قال: بلغنى عن عمـرو بن مَسْعدَة، أنه قال:

كنتُ مـع المأمون عـند قدومـه من بلاد الروم، حتى إذا نزل الرَّقَّة، قـال لـى: يا عمرو، أمـا ترى الرُّخَّجِى، قد احتوى على الأهْوَاز، وهى سَلّةُ الخُبـز، وجميعُ الأموال قِبَله، وقد طمعَ فيها، وكُتُبى متّصِلة فى حَمْلِها، وهو يتعلل، ويتربّصُ بنا الدوائر.

فقلت: أنا أكفى أمير المؤمنين هذا، وأنِفذُ مَنْ يضطره إلى حَمْل ما عليه.

فقال: ما يُقنعنى هذا.

قلت: فيأمرُ أميرُ المؤمنين بأمره.

قال: تخـرجُ إليه بنفسك، حتى تُصَـفِّدَه بالحديد، وتحمله إلىّ، بعـد أن تقبضَ جميع ما فى يده من أموالنا، وتنظر فى ذلك، وترتّبَ فيه عمالاً.

فقلت: السمعُ والطاعة، فلما كان من غد، دخلتُ إليه.

فقال: ما فعلت فيما أمرتُك به؟

قلت: أنا على ذاك.

قال: أريد أن تجيئَنى فى غدٍ مودّعًا.

قلت: السمع والطاعة، فلما كان من غدٍ، جئتُ مودّعًا.

فقال: أريد أن تحلفَ لى، أنك لا تقيم ببـغداد إلا يومًا واحدًا، فاضطربتُ من ذلك، إلى أن حَظر علـىّ واستـحلفنـى أن لا أقيم فـيـهـا أكـثـر من ثلاثة أيّام، فخرجتُ، وأنا مضطربُ مغمومٌ.

وقلت فى نفسى: أنا فى موضع الـوَزارة، وقد جعلنى مُسْتَحِثاً إلى عامل[١]، ومستخرجًا، ولكنّ أمْرَ الخليفة لابد من سماعه، وامتثال مرسومه.

وسرتُ حـتى قَدمْـتُ بغداد، ولم أُقِمْ بهـا إلا ثلاثة أيّام، وانحدرتُ منهـا فى زَلال[٢]، أريد البصرة، وجُعِل لى فيه خَيْشٌ، واستكثرت من الثلج لشدة الحرّ.

فلما صرتُ بين جَرْجَرَايا، وجـبّل، سمعتُ صـائحًا من الشاطئْ، يصـيح: يا ملاح، فرفعتُ سَـجْفَ الزَّلال، فإذا بشيخ كبير السـن حاسر الرأس، حافى القدمين، خَلَقِ القميص.

فقلت للغلام: أجِبْه، فأجابه.

فـقال: أنا شـيخٌ كـبيـرُ السنّ، على هذه الصـورة التى ترى، وقـد أحرقـتْنى الشمسُ، وكادت تُتلـفُنى، وأنا أريد جبّل، فاحملونى معـكم، فإن الله عَزَّ وجَلّ يُحسنُ أجر صاحِبكم.

قال: فشتمه الملاح، وانتهره.

فأدركتنى عليـه رِقّة، وقلتُ للغلام، خذه معنا، فـقدّم إلى الشط، وصِحْنا به، وحملناه.

فلما صار مـعنا فى الزلال، وانحدرْنا، تقدّمت، فدُفعَ إليـه قميصٌ، ومنديل، وغَسَل وجهه، واستراح، فكأنه كان ميتًا عاد إلى الدنيا.

وحضر وقتُ الغَدَاء، فتذمَّمْتُ[٣] وقلت للغلام: هاتِه يأكل معنا.

فجاء وقعد على الطعام، فأكل أكْلَ أديب، نظيف، غير أن الجوع قد أثر فيه.

فلما رُفِـعَتْ المائدة، أردتُ أن يقوم ويغسل يده ناحيـة، كما يفعل العـامة، فى مجالس الخاصة، فلم يفعل، فغسلتُ يدى.

---

(١) عمـرو بن مـسعدة، وهو وزير، يأنف أن الخـليفة كلفه بعـمل لا يقوم به الوزير، وإنما المسـتحث (رجال المتابعة من الكتّاب) لكنه لا يملك غير الطاعة، وهذه مقدمة «نفسية» مهمة بالنسبة للقصة، كما ستتطور.

(٢) الزلال: زورق خفيف من سفن السـفر الصغيرة.

(٣) تذممت: شعرتُ بالحرج والحياء.

وتذممتُ أن آمر بقيامه، فقلت: قدّموا له الطّسْتَ. فغسل يده. وأردتُ بعدها أن يقوم لأنام، فلم يفعل.

فقلت: يا شيخ، أيش صناعتُك؟

قال: حائِك، أصلحَك الله.

فقلت فى نفسى: هذه الحياكة علّمَتْهُ سوء الأدب، فتناومْتُ عليه، ومددتُ رجلىَّ.

فقال: قد سألتنى عن صناعتى، فأجبتُكَ، فأنت -أعزّكَ الله- ما صناعتُك؟

فأكْبرتُ ذلك، وقلت: أنا جَنَيْتُ على نفسى هذه الجِناية، ولابد من احتماله، أتراه -الأحمق- لا يرى زَلالى، وغِلمانى، ونِعمتى، وأن مثلى لا يُقال له مثلُ هذا؟

ثم قلت: أنا كاتب.

فقال: كاتبٌ كامل، أم كاتب ناقص؟ فإن الكتّاب خمسة، فمن أيهم أنت؟

فَوَرَدَ علىّ من قول الحائك، مَوْرِدٌ عظيم، وسمعتُ كلامًا أكبرتُهُ، وكنت متكئًا، فجلست.

ثم قلت له: فَصّل الخمسة.

قال: نعم، كاتبُ خَراج، يقتضى أن يكون عالمًا بالشُّروط، والطُّسوق، والحساب، والمساحة، والبُثوق، والفُتوق، والرُّتوق.

وكاتبُ أحكام، يحتاج أن يكون عالمًا بالحلال، والحرام، والاختلاف، والاحتِجاج، والإجماع، والأصول، والفروع.

وكاتبُ معونة، يحتاج أن يكون عالمًا بالقصاص، والحدود، والجراحات، والمراتبات، والسياسات.

وكاتبُ جيش، يحتاج أن يكون عالمًا بِحُلى الرجال، وشِيَات الدواب، ومداراة الأولياء، وشىءٍ من العلم بالنَّسب والحساب.

وكاتبُ رسائل، يحتاج إلى أن يكون عالـمًا بالصدور، والفصول، والإطالة، والإيجاز، وحُسْنِ البلاغة، والخط.

قال: فقلت: أنا كاتبُ رسائل.

قال: فأسألُك عن بعضها؟

قلت: سَلْ.

قال: أصلحك الله، لو أن رجلاً من إخوانك تزوّجت أمه، فأردت أن تكاتبه مهنئًا، فماذا كنت تكتب إليه؟

ففكّرتُ في الحال، فلم يخطر ببالي شيء، فقلت: اعفْني.

قال: قد فَعَلْتُ، ولكنك، لست بكاتب رسائل.

قلت: أنا كاتب خراج.

قال: لا بأس، لو أن أمير المؤمنين ولاك ناحية، وأمرك فيها بالعدل والإنصاف، وتقصى حق السلطان، فتظلم إليك بعضهم من مَسَّاحِكَ، وأحضرتَهم للنظر بينهم وبين رعيتك، فحلف المسَّاحُ بالله العظيم، لقد أنصفوا، وما ظُلموا، وحلف الرعية بالله العظيم، أنهم قد جاروا وظَلَموا، وقالوا لك: قف معنا على ما مسحوه، وانظر من الصادق من الكاذب، فخرجت لتقفَ عليه، فوقفوا على قُرَاحٍ شكْلُهُ: قاتِلُ قَثًّا[1]. كيف كنتَ تمسحه؟

فقلت: كنت آخذ طوله على انعواجه، وآخذ عرضه، ثم أضربه في مثله.

قال: إن شكْل قاتِلَ قثًّا، يكون رأساه محددان، وفي تحديده تقويس.

قلت: فآخذ الوسط فأضربه بالعمود.

قال: إذًا ينثني عليك العمود، فأسكتني.

فقلت: أنا لستُ كاتبَ خَراج.

---

(١) بمعنى أن الخلاف على مساحة قطعة أرض على شكل ثمرة القثاء.

قال: فإذًا ماذا؟

قلت: أنا كاتبُ قاضٍ.

قال: لا تُبَال، أفرأيت لو أن رجلاً تُوُفّى، وخلَّف امرأتين حاملتين، إحداهما حرّة، والأخرى سُرِّيَة، وولدت السُّريةُ غُلامًا، والحرُّة جارية، فَعَمَدت الحرّةُ إلى ولد السُّرية فأخذته، وتركت بدله الجارية، فاختصمتا فى ذلك، كيف الحكم بينهما؟

قلت: لا أدرى.

قال: فلست كاتب قاضٍ.

قلت: أنا كاتبُ جيش.

قال: لا بأس، أرأيت، لو أن رجلين جاءا إليك لتحليهما[1]، وكل واحد منهما، اسمه، واسم أبيه، كاسم الآخر، واسم أبيه، إلا أن أحدهما مشقوقُ الشفة العليا، والآخر مشقوقُ الشفّة السفلى، كيف كنت تحليهما؟

قلت: أقول فلان الأعلم، وفلان الأعلم.

قال: إنّ رزقيهما مختلفان، وكل واحد منهما يجىء فى دَعْوَة الآخر.

قلت: لا أدرى.

قال: فلستَ بكاتبِ جيش.

قلت: أنا كاتبُ مَعونة.

قال: لا تُبَال، لو أنّ رجلين رُفعا إليك شُجَّ أحدُهما شجّة موضّحة[2]، وشَجَّ الآخرُ صاحبة شجة مأمومة[3]، كيف تفصل بينهما؟

قلت: لا أدرى.

(١) تسجل اسمهما مع تمييز كل منهما عن الآخر.

(٢) الشجة الموضحة أو الواضحة: التى بلغت العظم وكشفت عنه.

(٣) الشجة المأمومة- نسبة إلى أم الدماغ- فهى فى قمة الرأس.

قال: إذن، لستَ كاتبَ معونة، فاطلب لنفسك -أيها الرجل- شُغْلاً غير هذا.

قال: فَقَصُرت إلىَّ نفسى، وغـاظنى، فقلت: قد سألت عن هذه الأمور، ويجوز أن لا يكون عندَك جوابُها، كما لم يكن عندى، فإن كنتَ عالـمًا بالجواب، فَقُلْ.

فقال: نعم، أما الذى تزوّجَتْ أمّه، فتكتب إليـه: أمّا بعد، فإنّ الأمور، تجرى من عند الله، بغير محبّة عباده، ولا اختيارهم، بل هو تعالى، يختار لهم ما أحبّ، وقد بلغنى تزويجُ الوالدة، خَارَ اللهُ لك فى قبضها، فإن القبرَ أكرمُ الأزواج، وأستر للعيوب، والسلام.

وأمّا قُراح قاتل قَتًّا، فيُمسح[1] العمود، حتى إذا صار عددًا فى يدك ضربتَه فى مثله، ومثل ثلثه، فما خرج فهو مساحته.

وأمّا الجاريةُ والغلام، فيوزَن اللبنان، فأيّهما أخفّ، فالجارية له.

وأمّا المرتزقان المتوافقان فى الاسمين فإن كان الشّقّ فى الشفة العليا، كتبتَ فلان الأعلم، وإذا كان فى الشفة السفلى، كتبت فلان الأفلح.

وأما أصحاب الشجّتين، فلصاحب الموضّحة ثلثُ الدّية، ولصاحب المأمومة نصفُ الدية.

قال: فلمّا أجاب فى هذه المسائل، تعجّبت منه، وامتحنته فى أشياء غيرها كثيرة، فوجدتُه ماهرًا فى جميعها، حاذقًا، بليغًا.

فقلت: ألسْتَ زعمتَ أنك حائك؟

فقال: أنا -أصلحك اللهُ- حائكُ كلام، ولستُ بحائكِ نِسَاجَة، ثم أنشأ يقول:

ما مرَّ بؤسٌ ولا نعيم ... إلا ولى فيهما نصيبُ

نوائبُ الدهر أدبتنى ... وإنّما يوعَظ الأديبُ

قد ذقتُ حُلواً وذقتُ مرّاً ... كذاك عيش الفتى ضُروبُ

---

(١) المسح: القياس أو المساحة.

قال: فما سبب الذى بك من سوء الحال؟

قـال: أنا راجل كاتب، دامت عُطلتى، وكـثرت عَـيْلتى، وتواصلت مـحنتى، وقلت حيلتى، فخرجتُ أطلب تصرّفًا[1]، فقُطعَ علىَّ الطريق، فتُركت كما ترى، فمشيْتُ على وجهى، فلما لاح لى الزلال، استغثتُ بك.

قلت: فإنى قد خرجتُ إلى تصرّف جليل، أحتاجُ فـيه إلى جماعة مثلك، وقد أمَرْتُ لك بخلعة حـسنة، تصلح لمثلك، وخمسة آلاف دِرهـم، تُصلح بها أمرَك، وتنفذ منها إلى عيـالك، وتتقوّى نفسُك بباقيها، وتصيـر معى إلى عملى، فأوليك أجلّه، إن شاء الله تعالى.

فقال: أحسن الـلهُ جزاءك، إذن تجدنى بحيث يسرّك، ولا أقومُ مـقام معذّر إن شاء الله.

فأمرتُ بتـقبيضـه ما رسمتُ له، فقبـضه، وانحدر إلى الأهواز معى، فـجعلته الـمُـنَاظِرَ للرُّخـجى، والمحاسب له بحضـرتى، والمستخـرج لما عليه، فـقام بذلك أحسن قيام وأوفاه.

وعَظُمَتْ حاله معى، وعادت نعمتُه إلى أحسن ما كانت عليه.

●●●

---

(١) التصرف: الوظيفة.

١٧- ثِقَة!!

وحكى محمد بن الحسن بن المظفّر، قال:

حضرتُ العرْضَ في مجلس الجانب الشرقي ببغداد[١]، أيام نَازُوك، فأخرج خليفةُ نازوك[٢] على المجلس جماعة، فَقَتَلَ بعضهم.

ثم أخرج غلامًا حَدَث السن، مليح المنظر، فرأيته لما وقف بين يدى خليفة نازوك، تبسم.

فقلت: يا هذا، أحسَبُكَ رابطَ الجأش، لأنى أراك تضحك فى مقامٍ يوجب البكاء، فهل فى نفسك شىء تشتهيه؟

فقال: نعم، أريد رأسًا حارًا[٣] ورقاقًا.

فسألتُ صاحب المجلس أن يؤخّر قتله إلى أن أطعمه ذلك، ولم أزل ألْطفُ به، إلى أن أجاب، وهو يضحك منى، ويقول: أىُّ شىء ينفع هذا، وهو يُقتل؟

قال: وأنفَذْتُ من أحضر الجميع بسرعة، واستَدْعَيْتُ الفتى، فجلس يأكل غير مُكترث بالحال، والسيّافُ قائم، والقوم يُقدَّمون، فتُضرب أعناقُهم.

فقلت: يا فتى، أراك تأكل بسكون، وقلّة فكر.

فأخذ قشّة من الأرض، فرمى بها، رافعًا يده، وقال وهو يضحك: يا هذا، إلى أن تسقط هذه إلى الأرض مائةُ فَرَجٍ.

قال: فوالله، ما استتمّ كلام، حتى وقعت صَيْحَةٌ عظيمة، وقيل: قد قُتل نازوك.

---

(١) يقصد عرض المسجونين، لإنزال العقوبات المقررة بهم، فى مقر الشُّرطة.

(٢) نازوك قائد تركى، وخليفته أو نائبه على شُرطة بغداد غلام تركى أيضًا.

(٣) اشتهى الغلام لحم رأس ساخنًا، مع رقاق!!

وأغارت العامة على الموضع، فوثبوا بصاحب المجلس، وكسروا باب الحبس، وخرج جميع مَنْ كان فيه.

فاشتغلتُ أنا عن الفتى، وجميع الأشياء، بنفسى، حتى ركبْتُ دابتى مُهَرْولاً، وصرتُ إلى الجسر، أريد منزلى.

فوالله، ما توسّطت الطريق، حتى أحسستُ بإنسان قد قبض على إصبعى برفق، وقال: يا هذا، ظنُّنا بالله -عزّ وجَلّ- أجملُ من ظنك فكيف رأيتَ لطيفَ صُنعه.

فالتفتُ، فإذا الفتى بعينه، فهنأته بالسلامة، فأخذ يشكرنى على ما فعلته، وحال الناس والزحام بيننا، وكان آخر عهدى به.

●●●

١٨- أعرابيٌّ شَيْخٌ

وحدّثني إبراهيم بن علي النّصيبي هذا، قال: حدّثني أبو القاسم إبراهيم ابن علي الصفّار، شيخٌ كان جارًا لنا بنصيبين، قال:

خرجتُ من نَصِيبين بسيفٍ نفيسٍ، كنتُ ورّثته من أبي، اقصد به العبّاس ابن عمرو السلمي، أمير ديار ربيعة، وهو برأس عَيْن لأهديه إليه، وأستَجْديه بذلك.

فصحبني في الطريق شيخٌ من الأعراب، فسألني عن أمري، فأنِسْتُ به، وحدثته الحديث، وكمنا قريبا من رأس عَيْن، ودخلناها، وافترقنا.

وصار يجيئني، ويراعيني، ويُظهر لي أنه يسلّم عليّ، وأنه يَبَرّني بالقصد، ويسألني عن حالي.

فأخبرته أن الأمير قَبِلَ هديتي، وأجازني بألفِ دِرهم، وثياب، وأني أريد الخروج في يوم كذا وكذا.

فلما كان ذلك اليوم خرجتُ عن البلد، راكبًا حمارًا، فلما أصْحَرْتُ [1]، إذا بالشيخ على دُوَيْبَة له ضعيفة، متقلدًا سيفًا.

فلما رأيته استربْتُ به، وأنكرته، ورأيتُ الشر في عينيه.

فقلت: ما تصنع ههنا؟

فقال: قد قَضَيْتُ حوائجي، وأريد الرجوع، وصُحْبَتُك عندي آثرُ من صحبة غيرك.

فقلت: على اسم الله.

وما زلتُ متحرّزًا منه، وهو يجتهد أن أدنو منه، وأوانسه، فلا أفعل، وكلّما دنا مني، بعدتُ عنه، إلى أن سرنا شيئًا كثيرًا، وليس معنا ثالث.

---

(١) أصحر: صار في الصحراء.

فقصّر عنى، فحَثَت الحمار، لأفوتَه، فـما أحسستُ إلا بركْضه، فالتفتُّ، فإذا هو قد جرد سيفه، وقصدنى، فرميتُ بنفسى عن الحمار، وعَدَوْتُ.

فلمـا خاف أن أفوته، صـاح: يا أبا القاسم، إنما مَـزَحْتُ معك، فـقف، فلم ألتفت إليه، وزاد فى التحريك.

وظهر لى ناووس[1] فطلبته، وقد كـاد الأعرابى يلحق بى، فدخلتُ الناووس، ووقفتُ وراء بابه.

قال: ومن صفات تلك النواويس أنها مـبنية بالحجارة، وباب كل ناووس حَجَرٌ واحد عظيم، قـد نُقِر، وحُفِّف، ومُلِّس، فلا تَـستَمْكن اليدُ منه، وله فى وجـهه حلقـة، وليس للباب مـن داخل شىء تتعلق اليـد به، وإنّمـا يُدفع من خارجـه، فيُفتح، فيُدخل إليه وإذا خُرج منه، وجُذبت الحلقة، انغلق الباب، وتمكن هذا من ورائه، فلم يمكن فتحه من داخلٍ أصلاً.

قال: فحـين دخلتُ الناووس، وقفتُ خلف بابه، وجاء الأعرابى، فـشد الدابّة فى حَلْقة البـاب، ودخل يريدنى، مُختـرطًا سيفـه، والناووس مُظلم، فلم يرنى، ومـشى إلى صدر الناووس، فـخرجتُ أنا مـن خلف الباب، وجـذبته، ونَفَّـرْتُ الدابّة، فجذبَتْهُ مـعى، حتى صار الباب مردومًا محكـمًا، وحَصَّلْتُ الحلقة فى رَزَّة هناك، وحَلَلتُ الدابة، وركبتُها.

فجاء الأعـرابى، إلى باب الناووس، فرأى الموت عِيانًا، فـقال: يا أبا القاسم، أتق الله فى أمرى، فإننى أتلف.

فقلت: تتلف أنت، أهوَن علىَّ من أن أتلف أنا.

قال: فأخْرجنى، وأنا أعطيك أمـانًا، واستَوثق منى بالأيمان، أن لا أعرضَ لك بسوءٍ أبدًا، واذكر الحُرْمة التى بيننا.

فقلت: لم تَرْعَها أنت، وأيْمانك فاجرة، لا أثق بها فى تلف نفسى.

---

(١) النواويس: القبر المبنى ظاهرًا مثل «مقامات الأولياء» فى بلادنا.

فأخـذ يكرر الكلام، فقلتُ له: لا تَهْذِ، دَعْ عنك هذا الكلام واقـعد مكانَك، هُو ذا أنا أركب دابتك، وأجنِّب حـماري، والوعـد بعـد أيّام بيننا هنا، فلا تبـرح عليّ حتى أجيء، وإذا احـتجت إلى طعام، فعليك بجِـيف العُلوج، فنِعْمَ الطعامُ لك.

وأخذتُ ألهو به في مثل هذا القول، وأخذ يبكي، ويستغيث، ويقول: قتلتني، والله.

فقلت: إلى لعنة الله، وركبت دابته، وجنّبْتُ حماري.

ووجدتُ على دابته خُرْجًا فيه ثياب يسـيرة، وجئتُ إلى نَصيبين، فبعتُ الثياب، وكانت دابتـه شهباء، فـصبغتـها دهماء، وبعـتها، لئلا يُعـرفَ صاحبُهـا فأطالَبُ بالرجل، واتفق أنه اشتراها رجل من المجتازين، وكُفيتُ أمره، وانكتمت القصة.

فلما كان بعـد أكثر من سنة، عرض لي الخروج إلى رأس عَـيْن، فخرجتُ في تلك الطريق، فلما لاح لي الناووس، ذكرتُ الشيخ.

فقلت: أعـدل إلى الناووس، وأنظرُ ما صار إليـه أمره، فجئتُ إليـه، فإذا بابه كما تركتُه.

ففـتحتـه، ودخلت، فإذا بالأعرابي قـد صار رِمة، فـحمَدتُ اللـه تعالى على السلامة.

ثم حركته برجلي، وقلت له على سبيل العبث: ما خبرُك يا فلان؟ فإذا بصوت شيء يتخَـشْخَش، ففتّـشته، فإذا هِـمْيانٌ، فأخـذته، وأخذت سيفـه، وخرجت، وفتحتُ الهِميان، فإذا فيه خمسمائة درهم، وبِعْتُ السيف بعد ذلك بجُملة دراهم.

●●●

١٩- أيضًا.. سَيْكُولُوچيَّةُ المُوَاجَهة

قال محمَّـد بن عَبْدوس فى كتاب «الوزراء»: حكى عن أبى عـبد الله أحمد ابن أبى دُؤاد، أنّه قال:

ما صَحِبَ السلطانَ أرجلُ، ولا أخبثُ من عُمرَ بنِ فرجٍ الرخَّجِيِّ، غضب عليه المعتصم يومًا وهمّ بقتله، وأمر بإحضاره، فجاءوا به وقد نَزَفَ دمُه.

فقال المعتصم: السيفَ، يا غلام، فجَعَلَتْ رُكْبَتَا عُمرَ تصطكَّان.

فقلت: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يسألَه عن ذنبه، فلعلّه أن يخرج منه بعذر.

فقال له: يا ابنَ الفاعلة، أمرتُك فى ولد أبى طالب أن تتعرّفَ خبرَ منازلهم؟

قال: لا [١].

قال: فَلِمَ فَعلتَ ذلك؟

قـال عـمـر: إنّمـا فـعلتُ ذلك لأنّه بلغنـى عن واحـد منهم أنّ أهل «قُمْ»[٢] يُكاتبونه، فأردتُ أن أعلمَ ما فى الكتب الواردةِ عليه.

وجعل عمر فى خلال ذلك يَلْمَس البِسـاط الذى كان تحت المعتصم، فزاد ذلك فى غضبه.

وقال: يا ابنَ الفـاعلة، ما شَغَلَكَ ما أنتَ فـيه عن لَـمْس البِساط، كـأنّك غيرُ مُكترث بما أريد بك؟

فقال: لا والله -يا أمير المؤمنين- ولكنهّ العبد يُعْنَى من أمر سيّده، بكلّ شىء، على جميع الأحوال، فإنّى استَخشَنْتُ هذا البِساط، وليس هو من بُسُط الخلافة.

فقال له: ويلُك، هذا البِسـاط ذَكَرَ محمّدُ بنُ عبد الملك أنّه قـام علينا بخمسين ألفَ درِهم.

(١) فقد «تطوّع» بالتجسس على الطالبيين (آل أبى طالب).

(٢) مدينة «قم» مركز الشيعة المقدس فى إيران.

فقال يا سيّدى عندى خيرٌ منه قيمتُه سبعمائة دينار.

قال: فـذهب عن المعتصم -واللهِ- ذلك الفَـورُ الذى كان به، وسكن غَضَـبُهُ.
وقال: وَجِّه الساعةَ مَنْ يُحضره.

فجاء بِبساط قد قام عليه -فيمـا أظنّ- بأكثرَ من خمسة آلاف دينار، واستحسنه المعتصم، واستلانه.

وقال: هذا - واللهِ - أحـسنُ من بِساطنا، وأرخص، وقد أخـذناه منك بما قام عليك.

وواللهِ ما بَرِحَ ذلك اليوم، حتى نادمه، وخَلَعَ عليه.



٢٠- أجْوَد من ابن زائدة

حدّثنى مَرْوان بن أبى حفصة، وكان لى صديقًا، قال:

كان المنصور قد طلب مَعْنَ بنَ زائدة الشْيبانى طلبًا شديدًا[١]، وجعل فيه مالاً.

فحدّثنى مَعْنٌ باليمن، أنّه اضطُر لشدّة الطلب أن قام فى الشمس، حتى لوَّحتْ وجهَه، وخفّف من عارضيه ولحيته، ولبس جُبّة صوف غليظة، وركب جملاً من جمال النقّالة، وخرج عليه ليمضىَ إلى البادية، وقد كان أبْلَى فى الحرب ين يَدَىْ ابنِ هُبَيْرَةَ بلاءً حسنًا، فغاظ المنصور، وجَدَّ فى طلبه.

قال مَعْنٌ: فلمّا خرجْتُ من باب حَرْب، تَبِعَنى أسودٌ، متقلدًا سيفًا، حتى إذا غِبتُ عن الحرس، قبض على خِطام الجمل، فأناخه، وقبض علىّ.

فقلت: مالك؟

فقال: أنت طِلْبَةُ أمير المؤمنين.

فقلت: ومَنْ أنا حتى يطلبَنى أمير المؤمنين.

قال: أنت مَعْنُ بنُ زائدة.

فقلت: يا هذا اتّق الله، وأين أنا من مَعْنِ بنِ زائدة.

فقال: دع عنك هذا، فأنا والله أعرَفُ بِكَ منك.

فقلت له: فإن كانت القصّةُ كما تقول، فهذا جَوْهَرٌ حملتُه معى بأضعافِ ما بذل المنصورُ لمن جاء بى، فخذه، ولا تَسْفِك دمى.

فقال: هاتِه، فأخرجْتُه إليه.

---

(١) الطلب هنا يعنى المطاردة والتفتيش، والسبب أنه كان يقاتل فى صفوف جيش الأمويين حين حدث الصدام العسكرى مع بنى العباس.

فنظر إليه ساعةً، وقال: صدقْتَ فى قيمته، ولستُ قابلَهُ حتى أسألَك عن شىء، فإن صَدَقْتَنى أطلقتُك.

فقلت: قُلْ.

قال: إنّ الناس قد وصفوك بالجودِ، فأخبرنى هل وَهَبْتَ قطُّ مالَكَ كلَّه؟

قلت: لا.

قال: فنصفَه؟

قلت: لا.

قال: فثلثَه؟

قلت: لا، حتى بلغ العُشْر.

فاستحييتُ، فقلت: أظنّ أنّى قد فعلتُ ذلك.

قال: ما أراك فعلتَه، وأنا واللهِ رَاجِلٌ[1]، ورِزْقى مع أبى جعفر عشرون درهمًا، وهذا الجوهر قيمته آلافُ دنانير، وقد وهَبْتُهُ لك، ووهبتُكَ لنفسك، ولجودِك المأثورِ بين الناس، ولتعلَمَ أنّ فى الدنيا أجودَ منك، فلا تعجبُك نفسُكَ، ولِتَحْقِرَ بعدَها كلَّ شَىء تعمله، ولا تتوقّفَ عن مكْرُمة، ثم رمى العِقد فى حجرى، وخلَّى خِطام البعير، وانصرف.

فقلت له: يا هذا، قد والله فَضَحْتَنِى، ولَسَفْكُ دمى أهْونُ علىَّ مما فعلتَه، فخذ ما دفعتُه إليك، فإنّى عنه غَنِىٌّ.

فضحك، وقال: أردتَ أن تكذِّبنى فى مقالى هذا، واللهِ لا أخذتهُ، ولا آخذ لمعروفٍ ثمنًا أبدًا، وتركنى ومضى.

فواللهِ لقد طلبتُه بعد أن أمِنتُ، وضَمِنْتُ لمن جاءنى به ما شاء، فما عَرَفْتُ له خبرًا، وكأنّ الأرض ابتلعته.

---

(١) راجل: أسير على قدمىّ.

٢١- حَدْس!!

حدّثنى محـمد بن عمر بن شُجاع المتكلّم، ويلقّب بجُنَيْـد، قال: حدّثنى رجل من الدقّاقين، فى دار الزُبَيْر بالبَصرة، قال:

أورد علىّ رجل غريب، سَفْتجَةَ بأجَلٍ[١]، فكان يتردّد علىَّ، إلى أن حلّ ميعاد السَّفْتَجةَ.

ثم قال لى: دَعْها عنـدَك حتى آخذَها متفرّقة، فكان يجـىء فى كلّ يوم فيأخذ بقدر نفقـته إلى أن نَفِدَتْ، وصار بيننا معـرفة، وألف الجلوس عندى، وكان يرانى أخرِج من كيسى من صندوقٍ لى، فأعطيه منه.

فقال لى يومًا: إنّ قُفْلَ الرجل، صاحبُه فى سَفَرِه، وأمينُه فى حضره، وخليفتُه على حفْظ مالــه، والذى ينفى الظِّنَّة عن أهله وعياله، فإن لم يكن وثيـقًا تطرّقت الحِيَلُ عليه، وأرى قُفْلَكَ هذا وثيقًا، فقل لى ممن ابتعتَه، لأبتاع مثلَه.

فقلت: من فلان ابن فلان الإقفالىّ، فى جوار باب الصفّارين[٢].

قال: فمـا شعرتُ يومًا، وقد جئتُ إلى دكّـانى، فطلبتُ صندوقى لأخرج منه شيئًا من الدراهم، فحمله الغلام الىّ، ففتحتُه، فإذا ليس فيه شىء من الدراهم.

فقلتُ لغلامى -وكان غير متّهم عندى-: هل أنكرت من الدَّرَّابات شيئًا؟

قال: لا.

فقلت: فتّشْ، هل ترى فى الدكان نَقْبًا؟

قال: لا.

فقلت: فمن السقف حِيلة؟

(١) السفتجة: إيصال تسليم مال، يقابله «الشيك» وكان هذا النظام معمولاً به، بين الأمصار والمدن الإسلامية فى العصر العباسى، ويختص به وكلاء، منهم صاحب القصة، يقومون بعمل «البنوك».

(٢) الصفارين: مَن يُطلق عليهم فى مصر «النحاسين».

قال: لا.

قلت: فاعلم أنّ الدراهم قد ذَهَبتْ.

فقلق الغـلامُ، فسكّنْتُهُ، وقـمتُ لا أدرى ما أصنع، وتأخّر الـرجل عنّى، فلمّا غاب اتّهمتُه، وذكرتُ مسألته عن القُفل.

فقلت للغلام: أخبرنى كيف تفتح دكّانى وتُغْلقُه؟

قال: رسمى أن أدرّب دَرابتْين دَرَّابتين، والدَّرَّابات[1] فى المسجد، فأحملها فى دفعات، اثنتين أو ثلاثًا، فأشرجها، ثم أقفل، وكذلك عندما أفتحها.

فقلت: البارحة، واليوم، فعلتَ ذلك؟

قال: نعم.

فقلت: فإذا مضيْتَ لتردَّ الدَّرَّابات، أو تحضَرها، على مَنْ تَدَعُ الدكان؟

قال: خاليًا.

قلت: فمن هنا دُهِيتُ.

ومضـيتُ إلى الصانع الذى ابتعتُ منـه القُفل، فقلت: جـاءك إنسانٌ منذ أيام، واشترى منك مثلَ هذا القُفل؟

قال: نعم، رجل من صفته كيت وكيت، فأعطانى صفةَ صاحبى.

فعلـمتُ أنّه احتال علـى الغلام وقت المساء، لـمـا انصرفتُ أنا، ومضـى الغلام يحمل الدَّرَّابات، فـدخل هو إلى الدكان فاختـبأ فـيه، ومعـه مِفتـاح القُفل الذى اشـتراه، والذى يقع على قُـفلى، وأنّه أخـذ الدراهم، وجلس طول ليلتـه خلف الدَّرَّابات. فلما جاء الغلام، وفتح دَرَّابَتين، وحملهـا ليرفعَها، خرج، وأنّه ما فعل ذلك، إلاّ وقد خرج إلى بغداد.

فسلّمتُ دكانى إلى الغلام، وقلتُ له: مَنْ سأل عنّى فعرّفه أنّى خرجتُ إلى ضيْعتى.

---

(١) البوابات..

قال: فخرجتُ، ومعى قُفْلى ومفتاحهُ وقلت: أبتدئ بطلب الرجل بِواَسِطَ.

فلمّا صعدت من السَّميريّة(١)، طلبتُ خانًا فى الكتبيّين بواسط، لأنزلَه، فأرِشدْت إليه، فصعِدتُ، فإذا بقُفْلٍ مثل قُفلى سواءً على بيت(٢).

فقلت لقيّم الخان: هذا البيت مَن ينزله؟

فقال: رجلٌ قَدِم من البَصرة أمس.

فقلت: أىُّ شىء صفته؟

فوصف لى صفةَ صاحبى، فلم أشكّ أنّه هو، وأنّ الدراهم فى بيته.

فاكْتَرَيْتُ بيتًا إلى جانبه، ورصدتُ البيت، حتى انصرف قيّمُ الخان، وقمتُ ففتحتُ القُفل بمفتاحى، فحين دخلتُ البيتُ وجدْتُ كِيسى بعينه، فأخذتُه، وخرجتُ وأقفلتُ الباب، ونزلتُ فى الوقت إلى السفينة التى جئتُ فيها، وأرغَبْتُ الملاّحَ، وانحدرتُ إلى البَصرة.

فما أقمتُ بِواسطَ إلاّ ساعتين من نهار، ورجعتُ إلى منزلى بمالى بعينِه.

●●●

(١) السميرية: نوع من سفن السفر تصلح للمسافات القصيرة.

(٢) البيت هنا: الغرفة.

الفصل الثانى

القصص الاجتماعية

١- دَيْنٌ قديمٌ

بلغنى أنّه كـان بالكوفة رجلٌ من أهل الأدب والظُّرف، يعـاشر النّاس، وتـأتيه ألطافهم[١]، فيعيشُ بها.

ثمّ انقلب الدّهر عليه، فأمسك النّاس عنه، وجَفَوْهُ حتّى قعد فى بيته، والتجأ إلى عياله، فشـاركهنّ فى فضل مغازلهنّ، واستمرّ ذلك عليـه، حتّى نسيَهُ النّاس، ولَزِمَهُ الفقر.

قال الرجل: فـبينما أنا ذاتَ ليلـة فى منزلى، على أسْوأِ حالٍ، إذا وَقْعُ حـافر دابّة، ورجل يدقّ بابى، فكلّمته من وراء الباب.

فقلت: ما حاجتُك؟

فقال: إنّ أخًا لك لا أسمّيه، يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إنّى رجل مُستتر، ولستُ آنسُ بكل أحد، فإن رأيتَ أن تصيرَ إلىّ، لنتـحدّثَ ليلتنا. فقلتُ فى نفسى: لعلّ جَدّى[٢] أن يكون قـد تحـرّك؟ ثمّ لم أجد لى مـا ألبسـه، فاشـتـمْلتُ بإزار امرأتى[٣]، وخرجتُ فقدّم إلىّ فرسًا مجنوبًا كـان معه، فركبته. إلى أن أدخلنى إلى فتًى من أجلِّ النّـاس وأجملهم وجهًـا، فقام إلىّ، وعـانقنى، ودعا بطعـام فأكلنا، وبشراب فشربْنا، وأخذنا فى الحديث، فما خُضْتُ فى شىء إلاّ سبقنى إليه.

حتّـى إذا صار وقت السَّـحَر، قـال: إن رأيتَ أن لا تسألنى عن شىء من أمـرى، وتجعلَ هذه الزيارة بيـنى وبينك، إذا أرسلتُ إليك فعلتَ، وههنا دراهم تقـبلُها، ولا تردّها، ولا يضيقُ بعدَها عنك شىء، فنهضْتُ، فأخرج إلىَّ جِرابًا مملوءًا دراهم.

---

(١) الألطاف: الهدايا.

(٢) جدّى: حظى.

(٣) اشتمل: تلفّع.

فداخلَتْنى أريَحيَّةُ الشراب، فقلت: اخترتنى على النّاس للمُنادمة، ولِسِرّك، وآخذُ على ذلك أجرًا؟ لا حاجةَ لى فى المال.

فجهَدَ بى، فلم آخذْه، وقدّمَ إلىّ الفرَس، فركبتُه، وعدتُ إلى منزلى، وعيالى متطلّعون لما أجىء به، فأخبرتهم بخبرى.

وأصبحتُ نادمًا على فِعلى، وقد ورد علىّ وعلى عيالى، ما لم يكن فى حسابنا.

فمكثتُ حينًا، لا يأتى إلىّ رسول الرّجل، إلى أن جاءنى بعد مدّة، فصرتُ إليه، فَعَاوَدنِى بمثل ذلك الفعل، فعادوته بالامتناع، وانصرفتُ مخفِقًا، فأقبلَتْ امرأتى علىّ باللوم والتوبيخ.

فقلت لها: أنتِ طالقٌ ثلاثًا إن عاوَدَنى ولم آخذْ ما يعطينى.

فمكثتُ مدّة أطول من الأوْلة[1]، ثمّ جاءنى رسوله، فلمّا أردتُ الركوب، قالت لى امرأتى: يا مَيْشوم اذكرْ يمينَك، وبكاءَ بناتك، وسوءَ حالك.

فصرتُ إلى الرّجل، فلمّا أفضينا إلى الشُّرْب، قلتُ له: إنّى أجد عِلّة تمنعنى منه، وإنّما أردتُ أن يكون رأيى معى.

فأقبل الرّجل يشرب وأنا أحادثه، إلى أن انبَلَجَ الفجر، فأخرَجَ الجراب وعاودنى، فأخذتُه، فقبّل رأسى، وشكرنى على قَبولِ بِرِّه، وقدّم إلىّ الفرسَ، فانصرفتُ عليه، حتّى انتهيتُ إلى منزلى، فألقيتُ الجراب.

فلمّا رآه عيالى، سَجَدْنَ للّهِ شكرًا، وفتحناه، فإذا هو مملوءٌ دنانيرَ.

فأصلحتُ منه حالى، واشتريتُ مركوبًا[2]، وثيابًا حسنة، وأثاثًا، وضيْعةً قدّرت أنّ غلّتها تفِى بى، وبعيالى بعدى، واستَظْهَرتُ على زمانى ببقية الدنانير.

---

(١) الأولة: الأولى -بلهجة العراق والخليج، وفى مصر: الأولانية.

(٢) المركوب هنا: ما يركب من الدواب.

وانثـال النّاسُ عليّ، يُظهرون السـرور بما تجـدّد لى، وظنّوا أنّى كنتُ غائبًـا فى انتجاع مَلِك[١]، فقدِمتُ مثْرِيًا، وانقطع رُسُلُ الرّجل عنّى.

فبينما أنا أسيرُ يومًا بالقرب من منزلى، فإذا ضوضاءُ عظيمة وجماعة مجتمعة.

فقلت: ما هذا؟

قالوا: رجلٌ من بنى فـلان، كان يقطع الطريقَ، فَطَلَبَـهُ السلطان، إلى أن عُرِفَ خبرُه ههنا، فهُجِمَ عليه، وقد خرج على النّاس بالسّيف، يمنع[٢] نفسه.

فَقَرُبْتُ من الجمع، وتأمّلتُ الرّجلَ، فإذا هو صاحبى بعينه، وهو يقاتل العامة، والشُّرَط، ويكشِفُ النّاس، فيبعُدون عنه، ثمّ يتكاثرون عليه ويضايقونه.

فنزلتُ عن فرسى، وأقبلتُ أقودُه، حتّى دَنَوْتُ منه، وقد انكشف الناسُ عنه.

فقلت: بأبى أنتَ وأمّى، شـأنَك والفرسَ، والنجاةَ، فاستـوى على ظهره، فلم يُلْحَق.

فقبض علىّ الشُّـرَط، وأقبلوا علىّ، يلهزونى[٣]، ويشتمـونى، حتّى جاءوا بى إلى عيسى بن موسى، وهو والى الكوفة، وكان بى عارفًا.

فقالوا: أيّها الأمير، كدنا أن نأخذَ الرّجل، فجاء هذا، فأعطاه فرسًا نجا عليه.

فاشتدّ غضب عيسى بن موسى، وكاد أن يُوقِعَ بى، وأنا مُنْكِرٌ لذلك.

فلمّا رأيتُ الـمَصْدُوقة[٤]، قلت: أيّها الأمير، أدننى إليك، أصدقْكْ.

فاستدنانى، فشرحتُ له ما كـان أفضَتْ بى الحال إليه، وما عاملنى به الرّجل، وأنّى كافأته بجميلِ فعله.

فقال لى سرآ: أحسنت، لا بأس عليك.

---

(١) الانتجاع: الرعى، والمعنى المقصود هنا: قصدت أميرًا فأعطانى.

(٢) يمنع نفسه: يدافع عن نفسه.

(٣) اللهز: الضرب بالكف على الرقبة.

(٤) المصدوقة: العصا التى يؤدَّب بها الأمير مَن يعاقبه، أطلق عليها هذا الاسم.

ثمّ التفت إلى النّاس فقال: يا حمقى، هذا يُتَّهم؟ إنّما لَفِظَ حافرُ فرسه حصاة، فقاده ليريحَه، فغشيه رجل مستقتل، بسيفٍ ماض، قد نكَلتم[1] عنه. بأجمعكم، فكيف كان هو يدفعه عن فرسه؟ انصرفوا، ثمّ خلّى سبيلى.

فانصرفتُ إلى منزلى، وقد قضيْتُ ذِمام الفتى، وحَصَلتْ النعمة بعد الشدّة، وأمِنْتُ عواقبَ الحال، وكان آخرَ عهدى به.

●●●

(١) نكَل: تراجع وامتنع.

٢- ضَياع!!

كان يصحُبنا على القرآن، رجلٌ مستور صالح، يُكْنَى أبا أحمد، وكان يكتب كتب العَطف[١] للناس، فحدّثنى يومًا قال:

بقيتُ يومًا بلا شيء، وأنا جالس فى دكّانى، وقد دعوتُ الله أن يسهّل قُوتِى، فما استتممت الدعاء، حتى فَتَحَ باب دكّانى غلامٌ أمرد، حسنُ الوجه جداً، فسلّم علىّ وجلس.

فقلتُ له: ما حاجتُك؟

فقال: أنا عبدٌ مملوك، وقد طردنى مولاى، وغَضِبَ علىّ، وقال: انصرف عنّى إلى حيثُ شئتَ، وما أعددتُ لنفسى مَن أطرحُها عليه فى مثل هذل الوقت، ولا أعرفُ مَن أقصده، وقد بقيتُ مُتحيّرًا فى أمرى، وقيل لى إنّك تكتب كتب العطف، فاكتب لى كتابًا.

فكتبت له الكتابَ الذى كنت أكتبه، وهو ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١، ٢]. . . إل آخر السورة والمعوّذتين، وسورة الإخلاص، وآية الكرسى، و﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. . . إلى آخر السورة، وكتبتُ آيات العطف وهى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. . . إلى آخر الآية.

وقلتُ له: خذ هذه الرُّقعة، فَشدَّها على عَضُدِكَ الأيمن، ولا تُعلّقْها عليك إلا وأنت طاهر.

---

(١) كتب العطف: أحجبة لجلب المحبة أو استدامتها.

فأخـذها وقام وهو يبكى، وطرح بين يدىَّ ديناراً عَـيْنًا، فداخلتنى له رحـمةٌ، فصلّيْتُ ركعتين، ودعوْتُ له أن ينفعَه الله بالكتاب، ويردّ قلب مولاه، وجلست.

فما مَـضَتْ إلاّ ساعتان، وإذا بأبى الجُـود، (خليفةِ عجـيب)، غلامِ نَازُوك[1]، وكان خليفتَه على الشُّرطة، قد جاءنى، فقال لى: أجبِ الأمير نَازُوك، فَارْتَعْتُ.

فقـال: لابأسَ عليك، وأرْكَـبَنى بغلاً، وجـاء بى إلى دار نَازُوك، فتـركنى فى الدهاليز ودخل.

فلم كان بعـد ساعة، أُدخِلْتُ، فإذا نازوك جـالسٌ فى دِسْتٍ عظيم، وبين يديه الغِلمان قيامًا سِمَاطَيْن، نحو ثلثمائة غلام وأكثر، وكاتبه الحسين بين يديه، ورجل آخر لا أعرفه.

فارتَعْتُ، وأهْوَيْت لأقـبِّلَ الأرض، فقال: مَهْ، عافـاكَ الله، لا تفعل، هذا من سُنَن الجبّارين، وما نريد نحن هذا، اجلس يا شيخ، ولا تَخَفْ، فجلست.

فقال لى: جاءك اليوم غلامٌ أمرْدُ، فكتبتَ له كتابًا للعطف؟

قلت: نعم.

قال: اصدُقْنِى عمّا جرى بينكما، حرفًا، حرفًا.

فأعدته عليه، حتّى لم أدَعْ كلمة، وتلوْتُ عليه الآياتِ الّتى كتبتها.

فلمّا بلغتُ إلى قول الغلام: أنا عبدٌ مملوك، وما أعددتُ لنفسى مَن أقصدُه فى هذه الحال، ولا أعرفُ أحـدًا ألجأ إليه، وقد طردنى مولاى، بكيْتُ لـما تداخلنى من رحمة له، وأريْتُه الدينارَ الذى أعطانيه، فَدَمَعَتْ عينا نازوك وتجلَّد، واستَوْفى الحديث.

وقال: قُمْ يا شيخ، بارك اللـه عليك، ومهما عَرَضَتْ لك من حـاجةٍ، أو لجارٍ لك، أو صديق، فسلْنا إيّاها، فـإنّا نقضيها، وأكـثِرْ عندنا وانبَسْطِ فى هذه الدار، فإنّك غيرُ محجوب عنها، فدعوتُ له وخرجت.

---

(١) نازوك: قائد تركى وصاحب شُـرطة بغداد، وعجيب غلام نازوك، من أتباعـه، ويدير الشُّرطة نيابة عنه، اما أبو الجود (الثالث فى سلسلة قيادات الشرطة) فهو تابع لعجيب.

فلما صـرت خارج باب المجلس، إذا بغـلام قد أعطانى قـرطاسا فـيه ثلثـمائة درهم، فأخذته وخرجت.

فلمّا صرتُ فى الدهليز، إذا بالفتى، فعدل بى إلى موضعٍ وأجلسنى.

فقلت: ما خَبرُكَ؟

فقـال: أنا غلامُ الأميـر، وكان قد طردنى، وغَـضِبَ علىّ، فلمّا أن جِـئتُك، واحتُبِسْتُ عندَك، طلبنى، فرجعتُ مع رُسُلِهِ.

فقال لى: أين كنتَ؟

فصَـدَقْتُه الحديـث، فلم يُصَدِّقْنى، وأمر بإحـضارك، فلمّا اتّفـقنا فى الحديث. وخرجتَ الساعة، أحضرنـى، وقال: يا بنىّ أنت الساعة من أجلِّ غِلمانى عندى، وأمكَنِهم من قلبى، وأخصِّهم بى، إذ كنتَ لـمّا غـضبتُ عليك ما غيّرك ذلك عن محبّتى، والرغبة فى خدمتى، وطلبِ الحِيَلِ فى الرجوع إلىَّ، وانكشف لى أنّك ما أعـددتَ لنفسك - بعد الله - سِـوَاىَ، ولا عرفتَ وجـهًا تلجأ إليـه فى الدّنيا غيـرى، فمـا ترى بعد هذا إلاّ كـل ما تحبّ، وسأعْـلِى منزلتَك، وأبلغُ بك أعلى مراتب نُـظَرائِكِ، ولعلّ الله سبـحانه استـجابَ فـيك دعاء هذا الرجل الـصالح، ونفعك بالآيات، فبأىّ شىء كافأتَ الرجل؟

فقلت: ما أعطيته غيرَ ذلك الدينار.

فقال: سبحان الله، قم إلى الخزانة، فخذ منها ما تريد، وأعْطِهِ.

فأخـذتُ منها هذا القرطاس، وجـئتُكَ به، فخذه، وأعطـانى أيضًا خمسـمائة درهم، وقال لى: الزَمْنى، فإنّى أحسنُ إليك.

فـجئـته بعـد مُدَيْـدَة، فإذا هو قـائدٌ جليل، وقد بـلغ به نَازُركَ تلك المنزلة، فوصلنى بِصِلَةٍ جليلة، وصار لى عُدّةً على الدهر وذخيرة.

●●●

٣- ظالمٌ قصَمَهُ الله

حدّثنى محمّـد بن محمّد المُهندس، قال: حدّثنى أبو مَـرْوانَ الجامدى، قال: ظلمنى أحمدُ بن على بن سعيد الكوفى، وهو يتقلّد واَسِطَ لناصرِ الدولة[1]، وقد تقلّد إمْـرَةَ الأمراء ببـغداد، وكنتُ أحـدَ من ظَلَم، فظلمنى، وأخذَ مـن ضيعـتى بالجامدة نيّفًـا وأربعين كُراً أرزا، بالنصف من حقّ الرَّقَبة، بغيـر تأويل ولا شُبهة، سوى مـا أخذه بحقّ بيت المال، وظَـلَم فيه أيضًـا، فتظلّمـتُ إليه، وكلّمتُـه فلم ينفعْنى معه شىء، وكان الكُرّ الأرزُ بالنصف -إذ ذاك- بثلاثين ديناراً.

فقلت له: قد أخَذَ منى سيّدى مـا أخذ، والله، ما أهتدى أنا وعيالى، إلى ما سوى ذلك، ومـا لى ما أقوتُهُم به باقى سنتى، ولا مـا أعَمِّرُ به ضيْـعَتى، وقد طابت نفسى أن تُطلِقَ لى من جملته عشرة أكرار، وجعلتُك من الباقى فى حِلّ.

فقال: ما إلى هذا سبيل.

فقلت: فخمسة أكْرار.

فقال: لا أفعل.

فبكيْتُ، وقبّلتُ يدَه، ورقّقتُه، وقلت: هَبْ لى ثلاثة أكرار، وتصدّقْ علىَّ بها، وأنت من الجميع فى حِلٍّ.

فقال: لا والله، ولا أرزة واحدة.

فتحيّرت، وقلت: فإنى أتظلم منك إلى الله تعالى.

فقال لى: كُنْ على الظلامة، (يكررها دفعات، ويكسر الميم، بلسان أهل الكوفة).

فانصرفت منكسرَ القلب، مُنقطع الرجاء. فجمعتُ عيالى، وما زلنا ندعو عليه ليالى كثيرة، فهرب من واسط فى الليلة الحادية عشرة من أخذه الأرز، فجئتُ إلى البَيْدر، والأرز مطروح، فأخذتهُ، وحملتُه إلى منزلى، وما عاد الكوفى بعدها إلى واسط، ولا أفلح.

---

(١) ناصر الدولة البُويهى، سيطر على منطقة واسط العراقية، وهى فوق البصرة فى الاتجاه شمالاً نحو بغداد.

٤- قاطعُ طريقٍ مُثَقَّف

وحدّثنى عبدُ الله بن عمر بن الحارث الواسطى السَّرَّاج، المعروف بأبى أحمد الحارثىّ، قال:

كنتُ مسافرًا فى بعض الجبال، فخرج علينا ابنُ سَباب الكُردىّ، فقطع علينا، وكان بِزِىِّ الأمراء، لا بِزِىّ القُطّاع.

فقرُبْتُ منه لأنظرَ إليه وأسمعَ كلامَه، فوجدته يدلُّ على فهْمٍ وأدب، فداخَلْتُه فإذا برجلٍ فاضل، يروى الشِعر، ويفهم النحو، فطمِعْتُ فيه، وعمِلْتُ فى الحال أبياتًا مدحتُه بها.

فقال لى: لستُ أعلم إن كان هذا من شعرك، ولكن اعمل لى على قافية هذا البيت ووزنه شِعرًا الساعة، لأعلم أنّك قلتَه، وأنْشَدَنى بيتًا.

قال: فعمِلتُ فى الحال إجازة له ثلاثة أبيات.

فقال لى: أىُّ شىء أُخِذَ منك؟ لأردَّ إليك.

قال: فذكرتُ له ما أُخِذَ منّى، وأضفتُ إليه قماشَ رفيقين كانا لى

فردَّ جميع ذلك، ثم أخذ من أكياس التجّار التى نهبها، كيسًا فيه ألفُ درهم، فوهبه لى.

قال: فَجَزَيْتُهُ خيرًا، ورددتُه عليه.

فقال لى: لِمَ لا تأخذه؟ فَوَرَّيْت[1] عن ذلك:

فقال: أحبّ أن تَصْدُقَنى.

فقلت: وأنا آمن؟

فقال: أنت آمن.

---

(١) التورية: الإشارة إلى المقصود بطريق غير مباشر.

فقلت: لأنّك لا تملكُه، وهو من أموال الناس الذين أخذتَها منهم الساعة ظُلمًا، فكيف يحلّ لى أن آخذَه؟

فقال لى: أما قرأتَ ما ذكره الجاحظُ فى كتاب اللصوص، عن بعضهم، قال: إنّ هؤلاء التجّار خانوا أماناتهم، ومنعوا زكاةَ أموالهم، فصارت أموالُهم مُستهلكةً[1] بها، واللصوص فقراءُ إليها، فإذا أخذوا أموالهم - وإن كرهوا أخذها - كان ذلك مباحًا لهم، لأنّ عَيْنَ المالِ مستهلكةٌ بالزكاة، وهؤلاء يستحقون أخذ الزكاة، بالفقر، شاءَ أربابُ الأموال أم كَرِهُوا.

قلت: بلى، قد ذكر الجاحظ هذا، ولكن من أين يعلم أنّ هؤلاء ممن استَهْلَكَتْ أموالَهُم الزكاة؟

فقال: لا عليك، أنا أحضر هؤلاء التجّار الساعة، وأرِيكَ بالدليل الصحيح أنّ أموالَهم لنا حلالٌ[2].

ثم قال لأصحابه: هاتوا التجّار، فجاءوا.

فقال لأحدهم: منذ كم أنت تتّاجر فى هذا المال الذى قَطَعْنا عليه؟

قال: منذ كذا وكذا سنة.

قال: فكيف كنتَ تُخرج زكاتَه؟ فَتَلَجْلجَ، وتكلّم بكلام مَنْ لا يَعرف الزكاة على حقيقتها فضلاً عن أن يُخْرِجَها.

ثم دعا آخرَ، فقال له: إذا كان معك ثلثمائةُ درهم، وعشرةُ دنانير، وحَالَتْ عليك السنة، فكم تُخرِج منها للزكاة؟ فما أَحسنَ أن يُجيب.

ثم قال لآخر: إذا كان معك متاعٌ للتجارة، ولك دَيْنٌ على نفسيْن، أحدهما مَلِىءٌ، والآخر مُعْسِر، ومعك دراهم، وقد حال الحَوْل على الجميع، كيف تُخرِج زكاة ذلك؟

---

(١) هذا الرأى يقوم على أساس أن الزكاة مستحقة فى المال الذى يبلغ النصاب على رأس كل سنة. فإذا أهمل المالك إخراج زكاة ماله عددًا من السنين، أدى هذا - على الرأى السابق - إلى اعتبار المال كله مستحقاً للزكاة.

(٢) هنا مغالطة واضحة، وحتى لو كان المال الذى لم تُخرج زكاته يُقاس إلى المال المسروق، فإن سرقة المسروق ليست مباحة

قال: فما فَهِمَ السؤال، فضلاً عن أن يتعاطى الجواب.

فَصَرَفَهُم، ثم قال لى: بَانَ لك صِدْقُ حكاية أبى عثمان الجاحظ؟ وأنّ هؤلاء التجار ما زكّوا قَط؟ خذ الآن الكيس.

قال: فأخذتُه، وساق القافلةَ لينصرفَ بها.

فقلت: إن رأيتَ أيها الأمير أن تُنفِذَ معنا من يُبلغُنا المأمن، كان لك الفضلُ.

ففعل ذلك.

***

٥- نِقابَةُ اللّصوص

غلام لى قال:

كنتُ ناقدًا بالأُبُلّة[١]، لرجل تاجر، فـاقتَضْيتُ له فى البـصرة نحو خمـسمائة دينار عَيْنًا ووَرِقًا[٢]، ولففتها فى فُوطَةٍ، وأشفيتُ على المصير إلى الأبلّة.

فما زالتُ أطلب ملاحًا، حتى رأيتُ ملاحًا مجتازًا فى خَيْطَيّة[٣] خفيفة فارغة، فسألتُه أن يحملنى، فسهّل علىَّ الأجرة، وقال: أنا راجع إلى منزلى بالأبلّة، فانزل معى، فنزلتُ، وجعلتُ الفوطةَ بين يدىَّ.

وسرنا إلى أن تجاوزنا مِـسماران[٤]، فإذا رجلٌ ضريرٌ على الـشطِّ، يقرأ أحسنَ قراءةٍ تكون.

فلمّا رآه الملاح كـبَّر، فصـاح هو بالملاّح: احمِلْنى، فقـد جنَّنى الليلُ، وأخاف على نفسى، فشتمه الملاّح.

فـقلت له: احملْـه، فدخل إلى الشطِّ فـحـمله، فلمّا حَـصَلَ مـعنا رجع إلى قراءته، فخلَبَ عقلى بِطِيبها.

فلما قرُبـنا من الأبلّة، قطع القراءة، وقام ليخـرجَ فى بعض المشَارع فى الأُبُلَّة، فلم أرَ الفوطة، فقمتُ واقفًا، واضطربْتُ، وصِحْتُ.

فاستـغاث الملاح، وقال: الساعةَ تَقْلِبُ الخَيْطِيّـة، وخاطبنى خطابَ مَنْ لا يعلم حالى.

فقلتُ له: يا هذا، كانت بين يدىَّ فوطةٌ فيها خَمسمائة دينار

---

(١) الأبلّة: بلد قرب البصرة على شاطئ دجلة، والناقد هو الجابى أو محصِّل الأموال.

(٢) العَيْن: الذهب، والورِق (بكسر الراء): الفضة.. ويعنى الدنانير والدراهم.

(٣) الخيطية: نوع من الزوارق الخفيفة.

(٤) اسم ضاحية قريبة من البصرة.

فلمـا سمِع الملاّح ذلك، بكى، ولطم، وتعـرَّى من ثيابه، وقـال: أدْخُلُ الشطَّ ففتّش، ولا لى موضعٌ أخبِّئ فيه شيئًا فتتّهمنى بسرقته، ولى أطفال، وأنا ضعيف، فاللهَ، اللهَ فى أمرى، وفَعَلَ الضريرُ مثلَ ذلك.

وفتّشتُ الخَيْطيّـة فلم أجدُ شيئًا، فرحمتُهُـما، وقلت: هذه محنة لا أدرى كيف التخلّص منها، وخرجْنا، فعـمِلتُ على الهرب. وأخذ كلّ واحد منّا طريقًا، وبِتُّ فى بيتى، ولم أمْضِ إلى صاحبى، وأنا بليلةٍ عظمية.

فلما أصـبحتُ، عمِلتُ عـلى الهرب إلى البَصـرة، لأستخـفِى فيهـا أيّامًا، ثم أخرجَ إلى بلد شاسع.

فانحدرتُ، فخـرجتُ فى مُشْرَعة بالبصرة، وأنا أمشى وأتعـثر وأبكى قلقًا على فِراق أهلى وولدى، وذَهاب معيشتى وجاهى، إذ اعترضَنى رجلٌ، فقال: يا هذا، ما بِكَ؟

فقلت: أنا فى شُغْل عنك، فاستحَلفنى، فأخبرتُهُ.

فقال: امْضِ إلى الســجن ببنى نُمَيْر، واشترِ مـعك خبزًا كثيرًا، وشِـواءً جيّدًا، وحلوى، وسل الســجّـانَ أن يوصِلــك إلى رجل مـحـبـوس، يقـال له: أبو بكر النقّاش، وقل له: أنا زائره. فإنّك لا تُمنع، ،وإن مُنِعتَ فهبْ للسجّـان شيئًا يسيرًا فإنّه يُدخلك إليه، فإذا رأيته فسلّم عليه ولا تخاطبْه حتى تجعلَ بين يديه ما معك، فإن أكل وغسل يديه، فإنه يسألك عن حاجتك، فأخبرْه خَبَرك، فإنّه سيدّلك على مَنْ أخذ مالك، ويرتجِعهُ لك.

ففعلتُ ذلك، ووصلتُ إلى الرجل، فإذا هو شيخٌ مثقَل بالحديد.

فسلّمتُ عليـه، وطرحْتُ ما معى بين يديه، فـدعا رفقـاءَ كانوا معه، فـأقبلوا يأكلون معه، فلمّا استوفى وغسل يديه، قال: مَن أنت، وما جاء بك؟ فشرحتُ له قِصتى.

فقال: امْضِ الساعةَ لوقتك - ولا تتأخر - إلى بنى هلال، فاقصد الدربَ الفلانىَّ حتى تنتهىَ إلى آخره، فإنّك تشاهد بابًا شَعِثًا[1]، فافتحه وادخل بلا استئذان، فستجد دهليزًا طويلاً يؤدّى إلى بابين، فادخل الأيمن منهما، فسيدخلك إلى دارٍ فيها بيت فيه أوتاد وبَوَارِى، وعلى كلّ وَتَد إزار ومئزر، فانزع ثيابك، وعلّقها على الوَتَدِ، واتزر بالمئزر واتّشح بالإزار، واجلس، فسيجىء قوم يفعلون كما فعلتَ، إلى أن يتكاملوا، ثم يؤتون بطعام فكُلْ معهم، وتعمّد أن تفعل كما يفعلون فى كلّ شىء.

فإذا أتوا بالنبيذ فاشرب معهم أقداحًا يسيرة، ثم خذ قدحًا كبيرًا، فاملأه، وقم، وقل: هذا سَارِى[2] لخالى أبى بكر النقّاش، فسيضحكون ويفرحون، ويقولون: هو خالُك؟ فقل: نعم، فسيقومون ويشربون لى، فإذا تكامل شربهم لى، وجلسوا، فقل لهم: خالى يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم: بحياتى يا فتيان، رُدُّوا على ابن أختى المِئْزَرَ الذى أخذتموه أمس من السفينة بنهر الأُبُلّة، فإنّهم يردّونه عليك.

فخرجتُ من عنده، ففعلتُ ما قال لى: وجرت الصورة، على ما ذكر، سَوَاءً بسواءٍ، ورُدَّت الفوطة علىَّ بيعنها، وما حُلَّ شدّها[3].

فلما حصلّتْ لى، قلتُ لهم: يا فتيان، هذا الذى فعلتموه هو قضاءٌ لحق خالى، وأنا لى حاجة تخصّنى.

فقالوا: مقضيّة.

فقلت: عرّفونى كيف أخذتم الفوطة؟ فامتنعوا، فأقسمتُ عليهم بحياة أبى بكر النقّاش.

---

(١) الشعث: غير المنسّق أو المنتظم.

(٢) هذا كما يقال الآن: هذا نخب فلان، أو نشرب على شرب فلان!! وقرأتُ فى بعض المصادر أن هذه العبارة تحريف والأصل: «سرورى».

(٣) أى أن صرة النقود كانت لا تزال مربوطة على حالها، وهذا يعنى أن اللص لا يفتح ما جمع إلا فى هذا المجلس العام.

فقال لى واحد منهم: تعرفُنى؟ فتأمّـلتُه، فإذا هو الضرير الذى كان يقرأ. وإنّما كان يَتَعَامَى حيلةً ومكرًا.

وأومأ إلى آخر، وقال: أتعرف هذا؟ فتأملته، فإذا هو الملاّح بعينه.

فقلت: أخبرانى كيف فعلكما؟

فقال الملاّح: أنا أدور فى المشارع[1] فى أوّل أوقات المساء، وقد سبَّقْتُ المتعامى فأجلستُهُ حيث رأيت، فإذا رأيتُ مَن معه شىء له قدر، ناديته وأرخصتُ عليه الأجرةَ وحملته، فإذا بلغ إلى القارئ، وصاح بى، شتمته، حتى لا يشكَّ الراكب فى براءة الساحة، فإن حمله الراكب فذاك، وإن لم يحمله رقّقته حتى يحمله، فإذا حمله، وجلس هذا يقرأ قراءتَه الطيّبةَ، ذَهِلَ الرجل كما ذَهِلْتَ أنت، فإذا بلغنا إلى موضع نكون قد خلّينا فيه رجلاً متوقّعًا لنا، يسبح حتى يلاصقَ السفينة، وعلى رأسه قوْصَرة[2]، فلا يفطن الراكب، فيستلب هذا الرجل المتعامى - بخفّة - الشىء الذى قد عينّا عليه، فيلقيه إلى الرجل الذى عليه القَوْصَرة، فيأخذها ويسبح إلى الشطّ، فإذا أراد الراكبُ النزول، وافتقد ما معه، عملنا كما رأيت، فلا يتّهمنا، ونتفرّق، فإذا كان الغد، اجتمعنا واقتسمنا ما أخذناه، واليوم كان يوم القسمة، فلما جئتَ برسالة خالك أستاذنا، سلّمنا إليك الفوطة.

قال: فأخذتُها، وانصرفت.

●●●

---

(١) المشرعة: ما نطلق عليه الموردة.

(٢) القوصرة: ما يشبه الزنبيل أو المقطف.

٦- سَيْكُولُوچيَّة الرِّشْوَة

ورد علينا فى وقت من الأوقات، بعض العـمّال[١] متلقـدًا للأهواز، من قِبَلِ السلطان، فتتّبع رسومَنا[٢]، ورَامَ نقضَ شىء منها.

فكنتُ أنا وجمـاعة من التُّنَّاء[٣] فى المطالبة، وكان فيـها ذَهاب غلاّتنا فى تلك السنة، لو تمّ علينا، وذَهاب أكثر قيمة ضياعنا.

فقال لى الجماعة: ليس لنا غيرُك، تخلو به، وتبذل له مِرْفَقاً[٤]، وتكفيناه.

فجئتُه، وخلوتُ به، وبذلتُ مِرْفقًا جليلاً، فلم يقبْله، ودخلتُ عليه بالكلام من غير وجه[٥]، فما لاَنَ، ولا أجابَ.

فلمّا يئستُ منه، وكدتُ أن أقـوم، قلتُ له: يا هذا الرّجل، أنت مقيمٌ من هذا الأمـر، على خطأ شديد، لأنّك تظلمـنا، وتُزيل رسومَنا، من حـيث لا يَحْمَـدُكُ السلطان، ولا تنتفع أنت أيضًا بذلك.

ومع هذا فأخـبرنى، هل تأمن أن تكون قـد صُرِفْتَ[٦]، وكتـاب صَرْفِكَ فى الطريق، يَرِدُ عليك بعد يـومين أو ثلاثة، فتكون قد أهـلكتنا، وأثِمْتَ فى أمورنا، وفاتك هذا المرفـق الجليل، ولعلـنا نحن نُكـفى، ويجـىء غـيرك، فلا يـطـالبـنا، أو يطالبنا فنبذل له نحن هذا المرفْق، فيقبله، ويكون الضرر يدخلُ عليك؟

فحين سمع هذا وافـق، وكأنّه قد علم من أمره ضعفًا ببـغداد، وتلونًا وأنّى قد أحسستُ بانحلال أمره، وأنّ لى ببغداد مَن يكاتبنى بالأخبار.

---

(١) العمّال: كبار الموظفين (عكس الآن) من الحكام والمديرين.

(٢) الرسوم: الأمور المتفق عليها، والحقوق المكتسبة.

(٣) التنّاء: الملاك والأثرياء. وهذا يعنى أنه حـين تشدد العامل فى نقض بعض الإعـفاءات، قرر كـبار الملاك رشوته ليبقى الأمر على ما هو عليه، وفى ذلك دلالة على ارتشاء من سبقوه إلى شغل الوظيفة.

(٤) المرفق: الرشوة، ويجمع على: مرافق.

(٥) اى: أغريته بأكثر من طريقة.

(٦) صرفت: فصلت عن عملك!!

فأخذ يخاطبنى مـخاطبةَ من أين وقع إلىّ هذا، فقوّيتُهُ فى نفـسه، فأجاب إلى أخذ المِرْفَق، وإزالة المطالبة.

فسلّمتُ إليه رِقـاعًا إلى الصيارف بالمال، وأخذتُ منهُ حُـجّةً بزوال المطالبة[1]، فانصرفتُ وقد بلغتُ ما أردت.

فلمّا كـان بعد خمـسة أيّام، ورد عليـه كتاب الصَّـرْف، فدخلتُ إليه، فـأخذ يشكرنى ويخـبرنى بما ورد عليه، فـأوهمتُـه أنّى كنتُ قلتُ له ذلك عن أصل[2]، وكُفِينَاه.

●●●

(١) حجة بزوال المطالبة: ما نطلق عليه: خُلُو طَرَف.

(٢) أى أننى كنت أعرف مقدمًا بأنه سيفصل عن عمله حقيقة.

٧- ثراء العلماء

وجدتُ فى بعض الكتب عن الأصْمَعِىِّ، قال:

كنتُ بالبـصرة، أطلب العلم، وأنا مُـقِلّ [١]، وكان على بابُ زقـاقنا بقّال إذا خرجتُ باكرًا يقول لى: إلى أين؟ فأقول: إلى فلان الـمُحدِّث، وإذا عدتُ مساءً، يقول لى: من أين؟ فأقول: من عند فلان الأخبارىّ، أو اللّغوى.

فيقول: يا هذا، اقـبل وصيّتى، أنت شابّ، فلا تضيّع نفـسَك، واطلب معاشًا يعود عليك نفعُه، وأعطنى جميعَ ما عندَك من الكتب، حتّى أطرحَها فى الدَّن[٢]، وأصبَّ عليـها من الماء للـعشـرة أربعة، وأنبّـذة، وأنظر مـا يكون منه، واللهِ، لو طلبتَ منّى، بجميع كتبك، جَزْرَةَ بَقْل[٣] ما أعطيتك.

فيضـيق صدرى بمداومته هذا الكلام، حتّى كنت أخـرج من بيتى ليلاً، وأدخله ليلاً، وحـالى - فى خلال ذلـك - تزداد ضيقًـا، حتّى أفـضيتُ إلى بيـع آجر[٤] أساسات دارى، وبقـيتُ لا أهتدى إلى نفقة يومى، وطال شَـعرى، وأخلَقَ ثوبى، واتّسخ بدنى.

فأنا كـذلك، مُتحـيّرًا فى أمـرى، إذ جاءنى خادمٌ للأمـير محـمّدِ بنِ سليـمان الهاشمىِّ، فقال: أجِبْ الأمير.

فقلت: ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى؟

فلمّا رأى سوء حالى، وقُـبْحَ منظرى، رجع فأخبر محمّد بن سليـمان بخبرى، وعاد إلىّ، ومعه تُخُوتُ ثياب، ودُرْج فيه بَخور، وكيس فيه ألف دينار.

وقال: قـد أمرنى الأمـير، أن أدخلك الحمّـام وألبسك من هذه الثـياب، وأدَعَ باقيهـا عندك، وأطعمك من هذا الطعام، وإذا بخُوان كـبير فيـه صنوف الأطعمة،

---

(١) مقلّ: قليل المال فقير.

(٢) الدنّ: الوعاء يشبه البرميل، والعبارة تعنى السخرية من الكتب.

(٣) الجزرة: الحزمة. (٤) الأجر: الحجارة.

وأبخرك، لترجعَ إليك نفسُك، ثمّ أحملك إليه. فسررتُ سرورًا شديدًا، ودعوتُ له، وعملتُ ما قال، ومضيْتُ معه، حتّى دخلتُ على محمّد بن سليمان، فسلّمتُ عليه، فقرّبنى، ورفعنى.

ثم قال: يا عبدَ الملك، قد اخترتُك لتأديب ابن أمير المؤمنين، فاعمَل على الخروج إلى بابه، وانظر كيف تكون؟

فشكرته، ودعوتُ له، قلت: سمعًا وطاعة، سأخرِجُ شيئًا من كتبى وأتَوَجَّه.

فقال: ودِّعنى، وكن على الطريق غدًا.

فقبّلتُ يده، وقمتُ، فأخذتُ ما احتجتُ إليه من كتبى، وجعلتُ باقيها فى بيت، وسددتُ بابَه، وأقعدت فى الدار عجوزًا من أهلنا، تحفظها.

وبَاكَرَنِى رسولُ الأمير محمّد بن سليمان، وأخذنى، وجاء بى إلى زَلاَّل[1] قد اتُّخِذ لى، وفيه جميع ما أحتاجُ إليه، وجلس معى يُنفق على[2]، حتى وصلتُ إلى بغداد.

ودخلتُ على أمير المؤمنين الرّشيد، فسلّمتُ عليه، فردّ علىّ السلام.

وقال: أنت عبدُ الملك بن قَرِيب الأصمعىُّ.

قلت: نعم، أنا عبد أمير المؤمنين ابن قريب الأصمعى.

قال: اعلم، أنْ وَلَدَ الرجل مُهجةُ قلبه، وثَمَرةُ فؤاده، وهو ذا أسْلم إليك ابنى محمّدًا[3] بأمانة الله، فلا تعلّمه ما يُفسد عليه دينَه، فلعلّه أن يكون للمسلمين إمامًا.

قلت: السمع والطاعة.

فأخرجه إلىّ، وحُوِّلتُ معه إلى دار، قد أخْلِيَتْ لتأديبه، وأخْدَمُ فيها من أصناف الخدم، والفُرُش وأجرىَ علىّ فى كلّ شهر عشرةُ آلاف درهم، وأمر أن تُخْرَج إلىّ فى كلّ يوم مائدة، فَلَزِمتُهُ.

---

(١) الزلال: نوع من سفن السفر للطبقة الثرية.

(٢) هنا بمعنى: يقوم على خدمتى.

(٣) محمد: هو الأمين، ولى عهد الرشيد.

وكنتُ مع ذلك: أقضى حوائج النّاس، وآخذ عليها الرغائب[1]، وأنفذُ جميعَ ما يجتمع لى، أوّلاً، فأوّلاً، إلى البصرة، فأبنى دارى، وأشترى عَقارًا، وضياعًا.

فأقمتُ معه، حتّى قرأ القرآن، وتفقّه فى الدّين، وروى الشِعر واللّغة، وعَلِمَ أيّامَ النّاس وأخبارَهم.

واستعرضه الرّشيد، فأعجب به، وقال: يا عبد الملك، أريد أن يُصَلّىَ بالنّاس، فى يوم الجمعة، فاختر له خُطبة، فحفّظه إيّاها.

فحفّظته عشرًا، وخرج، فصلّى بالنّاس، وأنا معه، فأعجِبَ الرّشيد به، وأخذه نثار الدنانير والدراهم من الخاصّة والعامّة، وأتتنى الجوائزُ والصِّلات من كلّ ناحية، فجمعتُ مالاً عظيمًا.

ثمّ استدعانى الرّشيد، فقال: يا عبد الملك: قد أحسنتَ الخِدْمة، فَتَمَنَّ.

قلت: ما عيسى أن أتمنّى، وقد حزتُ أمانىّ.

فأمر لى بمال عظيم، وكُسوة كثيرة، وطِيب فاخر، وعبيد، وإماء، وظَهْر[2]، وفُرش، وآلة.

فقلت: إن رأى أمير المؤمنين، أن يأذن لى فى الإلمام بالبصرة، والكتابةَ إلى عامله بها، أن يطالِبَ الخاصّة والعامّة، بالسّلام علىّ ثلاثةَ أيّام، وإكرامى بعد ذلك.

فكتبَ إليه بما أردتُ، وانحدرتُ إلى البصرة، ودارى قد عَمُرت، وضياعى قد كَثُرت، ونعمتى قد فَشَت، فما تأخّر عنّى أحد.

---

(١) الأصمعى: يذكر هنا أنه كان يتوسط الناس عند أهل الحكم، ويقبل الهدايا ويحولها على الفور من بغداد إلى مدينته «البصرة» وبمثل هذا يحتال أهل زماننا من أصحاب السلطان، حتى لا يلاحظ الناس اتساع ثرواتهم، أو تنتبه إليهم النيابة الإدارية بعد أن تنتهى وظائفهم!!

(٢) الظهر: الدابة كالحصان والبعير، والآلة: الأثاث.

فلمّا كـان فى اليوم الثـالث، تأمّلتُ أصاغـر مَن جاءنى، فـإذا البقّـال، وعليه عـمامـة وَسِخـة، ورداءٌ لطيف، وجُـبّـةٌ قصيرة، وقـمـيصٌ طويل، وفى رجله جَرْموقان[1]، وهو بلا سراويل.

فقال: كيف أنت يا عبد الملك؟

فاستضحكتُ من حماقته، وخطابه لى بما كان يخاطبنى به الرّشيد.

وقلت: بخير، وقد قـبِلت وصيّتك، وجمعتُ ما عندى من الـكتب، وطرحتُها فى الدَّنّ، كما أمرتَ، وصببتُ عليها من الماء للعشرة أربعة، فخرج ما ترى.

ثمّ أحسنتُ إليه بعد ذلك، وجعلتُه وكيلى.

***

(١) الجرموق: يشبه «البوت» وكان يُلبس قديمًا فوق الخفّ لحمايته من الطين.

٨- أذان مُنْتَصَف اللّيل

حدّثني أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي:

أن شيخًا من التجّار، كان له على بعض القُوّاد، مال جليل ببغداد، فَمَاطَلَهُ به، وجَحَدَهُ إياه، واستخف به.

قال: فعَزَمتُ على التظلم إلى المتعضِد[١]، لأنى كنتُ تظلّمت إلى عبيد الله ابن سليمان الوزير، فلم ينفعنى ذلك.

فقال لى بعض إخوانى: عليَّ أن آخذ لك المال، ولا تحتاج إلى أن تتظلّم إلى الخليفة، قم معى السّاعة، فقمتُ معه.

فجاء بى إلى خيّاط فى سوق الثلاثاء، يَخيط، ويُقرئ القرآن فى مسجدٍ، فقص عليه قصّتى، فقام معنا.

فلما مشْينا، تأخّرت، وقلتُ لصديقى: لقد عرضت هذا الشيخ، وإيانا، لمكروهٍ عظيم، هذا إذا حصل على باب الرجل، صُفِعَ، وصُفِعْنا معه، هذا لم يلتفت إلى شفاعة فلان، وفلان، ولم يفكّر فى الوزير، فكيف يفكّرُ فى هذا الفقير؟

فضحك، وقال: لا عليك، امش، واسكُتْ.

فجئنا إلى باب القائد، فحين رأى غِلمانه الخيّاط، أعظموه وأهووا لتقبيل يده، فمنعهم من ذلك، وقالوا: ما جاء بك أيها الشيخ، فإن صاحبنا راكبٌ[٢]، فإن كان لك أمر يتم بنا بادرْنا إليه وإلا فادخل، واجلس إلى أن يجىء، فقَوِيَتْ نفسى بذلك، ودخلنا وجلسنا.

وجاء القائد، فلما رأى الشيخ أعظمه إعظامًا تامّاً، وقال: لستُ أنزع ثيابى، أو تأمرُنى بأمرك.

---

(١) المتعضد: أحد خلفاء بنى العباس الأقوياء.

(٢) العبارة تعنى أن سيدهم فى مهمة خارج بيته.

فخـاطبه في أمرى، فقـال: والله، ما عندى إلا خمســةُ آلاف دِرهم تسأله أن يأخذَها، وأعطيه رهنًا فى باقى ماله.

فبادرتُ إلى الإجابة، فأحضر الدراهم، وحُلياً بقيمة الباقى، فقبَضْتُ ذلك منه، وأشهدتُ عليه الرّجل، وصديقى، أنّ الرهن عندى إلى أجل، فإن حلَّ الأجَلُ ولم يعطنى، فقد وكّلنى فى بيـعه، وقبْض ما لى من ثمنه، فخـرجنا، وقد أجاب إلى ذلك.

فلما بلَغنا مسـجد الخيّاط، قلتُ له: قد ردّ الله تعـالى علىّ هذا المال بسببك، فأحبٌّ أن تأخذَ منه ما أحببت، بطيبة من قلبى.

فقال: مـا أسرع ما كافـأتنى على الجميل بالقبـيح، انصرف، بارك الله لك فى مالك.

فقلت: قد بَقيت لى حاجة.

قال: قُل.

قلت: تُخبرنى عن سبب طاعته لك، مع تهاونه بأكثر أهل الدولة.

فقال: قد بلغتَ مرادك، فلا تقطعنى عن شغلى، وما أعيشُ به.

فألححتُ عليه، فقـال: أنا رجلٌ أصلى بالناس فى هذا المسجد، وأقرئُ القرآن، منذ أربعين سنة، ومعاشى من هذه الخياطة، لا أعرف غيرها.

وكنتُ منذ دهر، قـد صليتُ المغرب، وخرجت أريد منزلـى، فاجتـزتُ بتُركىّ كان فى هذه الدار، وامرأةٍ جـميلة مجتازة، وقد تعلّق بهـا وهو سكران، ليدخلها داره، وهى ممتنعة تسـتغيث، وليس من أحـد يُغيثـها، أو يمنعه منهـا، وتقول فى جملة كـلامها: إن زوجى قـد حلَف علىّ بالطلاق، أن لا أبيت برًّا، فـإن بيتنى، خَرِب بيتى، مع ما يرتكبه منى من الفاحشة.

قال: فرَفـقت به وسألته تركهـا، فضرب رأسى بدبوس كان فى يده فـشجّنى، ولكمنى، وأدخل المرأة بيته.

فصــرتُ إلى منزلى، وغسلتُ الدم، وشددت الشـجة، واسـترحتُ، وخرجتُ لصلاة العشاء الآخرة.

فلما صلّينا، قلتُ لمن معى فى المسجـد، قوموا بنا إلى عدوّ الله، هذا التركى، لنُنكرَ عليه، ولا نبرح، أو نُخْرج المرأة.

فقامـوا، وجئنا فَضَجَجْنَا على بابه، فخرج إلينا فى عدة غلمـان، فأوْقع بنا، وقصدنى من بين الجماعة، فضربنى ضربًا عظيمًا كدت أتلف منه، فحملنى الجيران إلى منزلى كالتالف، فـعالجنى أهلى، ونمتُ نومًا قليلاً، وقـمتُ نصف الليل، فما حملنى النوم، للألـم، والفكر فى القصّة.

فقلت: هذا قد شَرِب طول ليلته، ولا يعرف الأوقات، فلو أذّنْتُ، لوقع له أن الفــجر قــد طلع، وأطلق المرأة، فلِحقَــت بيتــها قــبل الفجــر، فسلمت من أحــد المكروهين[1].

فخرجتُ إلى المسجد متحــاملاً، وصعدتُ المنارة، فأذنتُ، وجلستُ أطلع منها إلى الطريق، أترقّب خروج المرأة، فإن خرجَتُ وإلا أقمتُ الصلاة، لئلا يشك فى الصباح، فيخرجها.

فــما مــضت إلا ساعــة، والمرأة عنده، حــتى رأيتُ الشارع قــد امتــلأ خيــلاً، ورجالاً، ومشاعلَ، وهم يقولون: مَنْ أذن الساعة ففزعتُ، وسكتُّ.

ثم قلت: أخاطبهم، لعلى أستعين بهم على إخراج المرأة، فصِحتُ من المنارة: أنا أذنتُ.

فقالوا لى: انزل، وأجب أمير المؤمنين.

فقلت: دنا الفَــرَجُ، فنزلتُ، فإذا بدر[2]، وعدّة غِلمان، فـحملنى، وأدخلنى على الـمُعتضِد، فلما رأيته هِبتُه، وارتعتُ، فسكَّن منى.

---

(١) المكروه الأول هو الاعتداء على شرفها وقد حدث، والآخر تعرضها لطلاق زوجها، وهو محتمل!!

(٢) بدر من موالى المعتضِد المقربين جداً.

وقال: ما حملك على أن تغرّ المسلمين بأذانك فى غير وقته، فيخرج ذو الحاجة فى غير وقتها، ويمسك المريد للصوم، فى وقت قد أباح الله له الأكل فيه، وينقطع العَسَسُ والحرس عن الطواف؟

فقلت: يؤمّننى أميرُ المؤمنين، لأصْدُقه.

فقال: أنت آمن.

فقصصتُ عليه قصّة التركىّ، وأريْتُه الآثار.

فقال: يا بدر، علىّ بالغلام الساعة والمرأة، وعُزِلتُ فى موضعٍ.

فمضى بدر، وأحضر الغلام والمرأة، فسألها المعتضد عن الصورة، فأخبرتْهُ بمثل ما أخبرتُه.

فقال لبدر: بادر بها الساعة إلى زوجها، مع ثقةٍ يُدخلُها دارها، ويشرح لزوجها القصة، ويأمره عنى بالتمسّك بها، والإحسان إليها.

ثم استدعانى، فوقفتُ بإزائه، فجعل يخاطب الغلام، وأنا واقف أسمع.

فقال له: كم جرايتُك؟

قال: كذا وكذا.

قال: وكم عادتك؟

قال: كذا وكذا.

قال: وكم صِلاتك؟

قال: كذا وكذا.

قال: وكم جارية لك؟

قال: كذا وكذا، فذكر عدة جوارى.

قال: أفما كان فيهن، وفى هذه النعمة العريضة، كفايةٌ عن ارتكاب معصية الله تعالى، وخرق هيبة السُلطان، حتى استعملت ذلك، وجاوزته إلى الوثوب بمن أمرك بالمعروف؟ فأسْقِط الغلامُ فى يده، ولم يَحِرْ جوابًا.

فقال: هاتوا جوالقًا[1]، ومداق الجص[2] وأدخلوه الجوالق، ففعلوا ذلك به.

وقال للفراشين: دُقُّوه، وأنا أسمع صياحه، إلى أن مات، فأمر به، فطُرِح فى دِجلة، وتقدّم إلى بدر، أن يُحمل ما فى داره.

ثم قال لى: يا شيخ، أى شىء رأيتَ من أجناس المُنْكر، كبيرًا كان أو صغيرًا، أو أى أمر عنَّ لك، فمر به، وأنكر المُنْكر، ولو على هذا -وأومأ إلى بدر- فإن جرى عليك شىء، أو لم يُقْبل منك، فالعلامة بيننا أن تؤذن فى مثل الوقت الذى أذنت فيه، فإنى أسمعُ صوتك، وأستدعيك، وأفعلُ هذا بمن لا يقبل منك.

فدعوتُ له، وانصرفت.

وانتشر الخبر فى الأولياء والغلمان، فما خاطبتُ أحدًا بعدها فى إنصاف أحد، أو كفٍّ عن قبيح إلا أطاعنى كما رأيت، خوفًا من المعتضد.

وما احتجتُ إلى الأذان فى مثل ذلك الوقت.

●●●

---

(١) جوالق: (جمع جَولق): اكياس أو زكائب.

(٢) الجص: الجير.

٩- مُعاينة طبية

دخلتُ يومًا على القاضى أبى الحسين بن أبى عمر، وهو مغموم، فقلت: لا يغمّ الله قاضى القضاة، ما هذا الحزن الذى أراه به؟

قال: مات يزيدُ المائىُّ (١).

فقلت: يُبقى الله قاضى القضاة، ومن يزيد المائى، حتى إذا مات اغتمَ عليه قاضى القضاة، هذا الغمَّ كلّه؟

فقال: ويحُك، مثلك يقول هذا فى رجل كان أوْجَد زمانه فى صناعته، وقد مات وما ترك أحدًا يقاربه فى حِذْقه، وهل فخر البلدان إلا بكثرة رؤساء الصنائع، وحُذّاق أهل العلوم فيها؟ فإذا مضى رجل لا مثيل له فى صناعة لابد للناس منها، فهل يدل هذا إلا على نقصان العالم وانحطاط البلدان؟!

ثم أقبل يعدّد فضائله، والأشياء الطريفة التى عالج بها، والعللَ الصعبة التى زالت بتدبيره، فذكر من ذلك أشياء كثيرة، منها:

قال: أخبرنى منذ مدة رجلٌ من جِلّة أهل البلد، أنه كان حدث بابنة له علّة طريفة(٢)، فكتمتْ أمرها، ثم اطّلع عليها أبوها، فكتمها هو مُدَيْدَةً(٣)، ثم انتهى أمر البنت إلى حدّ الموت.

قال: وكانت العلة، أن فَرْجَ الصبية كان يَضْربُ عليها ضربًا عظيمًا لا تنام معه الليل ولا النهار، وتصرخ أعظم صُراخ، ويجرى فى خلال ذلك منه دمٌ يسير كماء اللحم، وليس هناك جرح يظهر، ولا ورم.

قال: فلما خِفْتُ المأثم، أحضرتُ يزيد، فشاورته.

---

(١) المائى: نسبة إلى الماء، والمقصود هنا: البول، فعمل هذا الرجل النظر فى البول، أو ما نعرفه الآن بتحليل البول، وسنرى من هذه القصة ما يدل على خبرة الرجل وفطنته.

(٢) الطرافة -هنا- تعنى الندرة.

(٣) أى زمنًا قصيرًا.

فقال: أتأذن لى فى الكلام، وتبسُط عُذرى فيه.

فقلت له: نعم.

قال: لا يُمكننى أن أصف لك شيئًا، دون أن أشاهد الموْضع بعينى، وأفتّشَه بيدى، وأسْأل المرأة عن أسباب لعلها كانت الجالبة للعلّة.

قال: فَلِعظم الصورة، وبلوغها حد التّلف، أمكنْتُه من ذلك.

فأطال المساءلة، وحدّثها بما ليس من جنس العلّة، بعد أن جَسّ الموضع من ظاهره، وعرف بُقعة الألم، حتى كدتُ أن أثِب به. ثم صبرتُ، ورجعتُ إلى ما أعرفه عن سيرته، فصبرتُ على مضض.

إلى أن قال: تأمرُ من يُمسكها، ففعلتُ.

فأدخل يده فى الموضع دخولاً شديدًا، فصاحت الجاريةُ، وأغمى عليها، وانبعث الدم، وأخرج يديه وفيها حيوان أقل من الخُنفساء، فرمى به.

فجلست الجارية فى الحال، وقالت: يا أبة، استرنى، فقد عُوفيتُ.

فأخذ يَزيدُ الحيوان بيده، وخرج من الموضع، فلحقته، فأجلسته.

وقلت: أخبرنى ما هذا؟

فقال: إن تلك المساءلة التى لم أشك من أنّك أنكرتَها، إنّما كانت لأطلب دليلاً أستدلُّ به على سبب العِلّة.

إلى أن قالت لى الصبيّة: إنها فى يوم من الأيّام، جلسَتْ فى بيت دُولاب البقر[1]، فى بُستان لكم، ثم حدثت العِلّة بها، من غير سبب تعرفه، فى غد ذلك اليوم.

فتخيّلت أنّه قد دبّ فى فَرْجها من القُراد[2] الذى يكون على البقر - وفى بيوت البقر قراد - قد تمكّن من أوّل داخل الفَرْج، فكلّما امتصّ الدم من موضعه ولَّد

---

(١) دولاب البقر: الساقية.

(٢) القرادة: حشرة تلتصق بجلد الحيوان وتعيش على امتصاص دمه.

الضَّرَبان، وأنه إذا شبع، خفّ الضربان، ولانقطاع مصّه، ونقَّط من الجرح الذى يمتص منه إلى خارج الفَرْج.

فقلت: أدخل يدى، وأفتّش.

فأدخلتُ يدى، فوجدتُ القراد كما حَدَسْت، فأخرجتُه، وهذا هو الحيوان، وقد تغيّرت صورتُه لكثرة ما امتص من الدم، مع طول الأيام.

قال: فتأمّلنا الحيوان، فإذا هو قُراد، وبَرِئت المرأة.

●●●

١٠ - الحُرَّةُ... والجَارِية

قال محمـد بن عَبْدوس فى كتاب «الوزراء»: إن إبراهيم بن العـباس الصولى، قال:

كنتُ أكتبُ لأحمـد بن أبى خالد، فدخلتُ عليه يومًا. فرأيتُـه مُطرِقًا، مفكرًا، مغمومًا، فسألته عن الخبر.

فأخرج إلىّ رُقعةً، فـإذا فيها أن حَظِيّةً [١] من أعز حواريه عنده يخالفُ إليها، وتُوطىء فراشه غيره، ويستشهد فى الرقعة، بخادمين كانا ثقتين عنده.

وقال لى: دعوتُ الخادمين، فسألتهما عن ذلك، فأنكرا، فتهددتُهُما، فأقاما على الإنكار، فضـربتهما، وأحـضرتُ لهما آلة العـذاب، فاعترفـا بكل ما فى الرُّقعـة على الجارية، وإنى لم أذق أمسِ ولا اليـوم طعامًـا، وقد هَمَمْـتُ بقتل الجارية.

فوجدتُ بين يديه مصحفًا، ففتـحته لأتفاءل بما يخرج فيه، فكان أوّل ما وقعت عينى عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]... الآية، فشككتُ فى صِحّة الحديث، وأريته ما خرج به الفأل.

وقلت: دعنى أتلطف فى كشف هذا.

قال: افعل.

فخلوتُ بالخادمين منفردين، ورَفَقْتُ بأحدهما، فقال: النارُ ولا العارُ، وذكر أن امرأة ابن أبى خالد، أعطتـه ألف دينار، وسألته الشهادة على الجـارية، وأحضرنى الكيس مختومًا بخاتم المرأة، وأمَـرَتْهُ أن لا يذكر شيئًا إلا بعد أن يُوقع به المكروه، ليكون أثبتَ للخبر، ودعوتُ الآخر، فاعترف بمثل ذلك أيضًا.

---

(١) الحظية: الجارية المخصصة لإمتاع سيدها، فليست للخدمة.

فبادرتُ إلى أحمد بالبشارة، فما وصلتُ إليه، حتى جاءته[1] رُقعةُ الحُرّة، تُعْلمه أن الرقعة الأولى كانت من فعلها، غَيْرة عليه من الجارية، وأن جميع ما فيها باطل، وأنها حملت الخادمين على ذلك، وأنها تائبة إلى الله تعالى من هذا الفعل وأمثاله.

فجاءته براءة الجارية من كل وجه فَسُرّ بذلك، وزال عنه ما كان فيه، وأحسن إلى الجارية.

●●●

(١) الرقعة: قصاصة الورق، أو الرسالة.

١١- والقضيَّةُ.. جارية!!

وقد كان فيما يقارب عصرنا مثل هذا، وهو ما حدَّثنى به أبو الحسن على ابن عمر الدارقُطنى الحافظ، قال: حدَّثنى أبو أحمد محمد بن أحمد الجُرجانى الفقيه، قال:

كنا ندرُسُ على أبى إسحاق المرْوَزِى الشافعى، وكان يدرس عليه معنا فتى من أهل خُراسان، له والد هناك، وكان يوجِّه إليه فى كل سنة، مع الحاج، قدر نَفَقَة السنة.

فاشترى جارية، فوقعت فى نفسه، وألِفَها، وألِفَتْه، وكانت معه سنين.

وكان رسمُه أن يستدين فى كل سنة، دينًا، بقدر ما يعجز من نفقته، فإذا جاء ما أنفذه أبوه إليه، قضى دَيْنه، وأنفق الباقى مدة ثم عاد إلى الاستدانة.

فلما كان سنة من السنين. جاء الحاج، وليس معهم نفقةً من أبيه.

فسألهم عن سبب ذلك، فقالوا له: إنَّ أباك اعتلّ علّة عظيمة صعبة، واشتغل بنفسه، فلم يتمكن من إنفاذ شىء إليك.

قال: فقلق الفتى قلقًا شديدًا، وجعل غرماؤه يطالبونه كالعادة، فى قضاء الدَّين وقت المَوْسم، فاضطرّ، وأخرج الجارية إلى النخاسين[1]، فعَرَضَها.

وكان الفتى ينزل بالقرب من منزلى، وكنّا نصطحب إلى منزل الفقيه، ولا نكاد نتفارق.

فباع الجارية بألفِ درهم وكَسْر، وعزم على أن يفرّق منها على غُرَمَائه[2] قدر ما لهم، ويَتَموّنُ بالباقى.

وكان قَلِقًا، موجَعًا، متحيّرًا، عند رجوعنا من النخّاسين.

(١) النخاس: تاجر الرقيق، الذى يبيع ويشترى العبيد والإماء، والعبارة تعنى: عرض الجارية للبيع.

(٢) الغرماء: أصحاب الدَّين المستحق للسداد.

فلما كان الليلُ إذا ببابى يدق، فقمتُ ففتحتُه، فإذا بالفتى.

فقلت: ما لك؟

فقال: قد امتنع علىّ النوم، وقد غلبتنى وحشة الجارية، والشوقُ إليها.

ووجدته من القلق على أمر عظيم، حتى أنكرت عقله، فقلتُ: ما تشاء؟

فقال: لا أدرى، وقد سهل علىّ أن ترجع الجاريةُ إلى ملكى، وأبكّرَ غداً فأقر لغُرمانى بمالهم، وأحبس فى حبس القاضى، إلى أن يفرِّج الله تعالى عنى، ويجيئنى من خُراسان ما أقضى به دَيْنى فى العام المقبل، وتكون الجارية فى ملكى.

فقلتُ له: أنا أكفيك ذلك فى غدٍ إن شاء الله، وأعملُ فى رجوع الجارية إليك، إذا كنت قد وطّنت نفسك على هذا.

قال: فبكّرنا إلى السوق، فسألنا عمن اشترى الجارية.

فقالوا: امرأة من دار أبى بكر بن أبى حامد، صاحب بيت المال[1].

فجئنا إلى مجلس الفقيه، فشرحتُ لأبى إسحاق المرْوزىّ بعض حديث الفتى، وسألتُه أن يكتب رُقعةً إلى أبى بكر بن أبى حامد، يسأله فيها فسخ البيع، والإقامة[2]، وأخذ الثمن، وردّ الجارية، فكتب رُقعة مؤكّدة فى ذلك.

فقمتُ، وأخذتُ بيد الخُراسانى صديقى، وجئنا إلى أبى بكر بن أبى حامد، فإذا هو مجلس حافل، فأمهلنا حتى خف، ثم دَنَوتُ أنا والفتى، فعرفنى وسألنى عن أبى إسحاق المروزى، فقلت: هذه رُقعته خاصة فى حاجةٍ له.

فلما قرأها، قال لى: أنت صاحبُ الجارية؟

قلت: لا، ولكنّه صديقى هذا، وأومأتُ إلى الخُراسانى، وقصصتُ عليه القصّة، وسبب بيع الجارية.

---

(١) صاحب بيت المال: هو وزير الخزانة الآن.

(٢) الإقالة: قبول عذر الفتى، وإعادة الجارية إليه بعد استرداد ثمنها.

فقال: والله، ما أعلمُ أنى ابتعتُ جاريةً فى هذه الأيام، ولا ابتيعت لى.

فقلت: إن امرأة جاءت وابتاعتها، وذكرت أنّها من دارك.

قال: يجوز.

ثم قال: يا فلان، فجاءه خادم، فقال له: امض إلى دُور الحُرُم، فاسأل عن جارية اشتريت أمس، فلم يزل يدخل ويخرج من دار إلى دار، حتى وقع عليها، فرجع إليه.

فقال له: أعَثَرْتَ عليها؟

فقال: نعم، فقال: أحضرها، فأحضرها.

فقال لها: من مولاك؟ فأومأتْ إلى الخُراسانى.

فقال لها: أفتحبين أن أردّك عليه؟

فقالت: والله، ليس مثلك يا مولاى من يُختار عليه، ولكن لمولاى علىّ حق التربية.

فقال: هى كَيِّسَة عاقلة، خُذْها.

قال: فأخرج الخُراسانى الكيس من كُمّه، وتركه بحضرته.

فقال للخادم: امض إلى الحُرُم، وقل لهن: ما كنتن وعدُتن به هذه الجارية من إحسان، فعجلنه الساعة.

قال: فجاء الخادم بأشياءٍ لها قدر وقيمة، فدفعها إليها.

ثم قال للخُراسانى: خُذ كيسَك فاقض منه دَيْنَك، ووسع بباقيه على نفسك وعلى جاريتك، والزم العلم، فقد أجريتُ عليك فى كل شهر قَفِيزَ دقيق، ودينارين، تستعينُ بها على أمرك.

قال: فوالله ما انقطعَتْ عن الفتى، حتى مات أبو بكر بن أبى حامد.

●●●

١٢- ... ويَوْمٌ عليكَ

حدّثنى علىّ بن الحسين بن محمّد بن موسى بن الفرات، قال:

كنتُ أتولّى ماسَبْذَان[١]، وكان صاحب البريد[٢] بها علىُّ بنُ يزيد، وكان قديمًا يكتب للعبّاس بن المأمون[٣]، فحدثنى: أن العبّاس غضِب عليه وأخذ جميع ما كان يملكُه، حتى إنه بقى بـ«سُرّ مَنْ رأى» لا يملك شيئًا، إلا برْذَونه[٤]، بسرجه ولجامه، ومُبطّنة، وطيلسانًا، وقميصًا، وشاشية، وأنه كان يركب فى أوّل النّهار، فيلقى من يريد لقاءه، ثم ينصرف، فيبعث ببرذونه إلى الكراء، فيكسب عليه ما يَعلفه، وما يُنفقه هو وغلامه[٥].

فاتّفق فى بعض الأيام أن الدابّة لم تكسِب شيئًا، فبات هو وغلامه طاويَيْن، قال: ونالنا من الغد مثلُ ذلك.

فقال غلامى: يا مولاى، نحن نصبر، ولكن الشأن فى الدابّة، فإنّى أخافُ أن تَعْطب.

قلتُ: فأىَّ شىء أعمل؟ ليس إلا السّرج، واللّجام، وثيابى، وإن بعتُ من ذلك شيئًا، تعطّلتُ عن الحركة، وطلب التصرف[٦].

قال: فانظر فى أمرك.

فنظرتُ، فإذا بحصيرى خَلَقٌ، ومخدتى لَبِنَةٌ مغشاة بِخرقة، أدعها تحت رأسى، ومَطْهَرَة خزَفٍ للطهور، فلم أجد غير منديل دَبيقى[٧] خَلَق، قد بقى منه الرسم.

---

(١) منطقة من بلاد فارس.

(٢) صاحب البريد: المسئول عن مراسلات الدولة فى هذه المنطقة.

(٣) يكتب له: أى بمنزلة مدير أعماله فى لغة زماننا.

(٤) البرذون: دابة بين الحصان والحمار.

(٥) هكذا الحال إذا غضب الكبراء على أتباعهم، تركه بحماره وثيابه لا أكثر، فكان أن الحمار يعوله ويوفر نفقته!!

(٦) طلب التصرّف: البحث عن وظيفة.

(٧) ديبق: قرية مصرية اشتهرت بصناعة الحرير، فإليها نُسب المنديل.

فقلتُ للغلام: خذ هذا المنديل، فبعه، واشتر عَلَفًا للدابّة، ولحمًا بدرهم، واشوِه، وجيء به، فقد قَرِمتُ إلى أكل اللحم.

فأخذ المنديل، ومضى، وبقيتُ فى الدار وحدى، وفيها شَاهْمَرْج[1] قد جاع لجوعنا، فلم أشعر إلا بعصفور قد سقط فى المَطْهَرة التى فيها الماء للطهور، عطشًا، فشرب، فنهض إليه الشاهمرج، فناهضه، فلضعفه ما قصر عنه، وطار العصفور، ووقف الشاهْمَرج، فعاد العصفور إلى المطهرة، فبادره الشّاهْمَرج فأخذه بحُمية، فابتلعه. فلما صار فى حَوْصَلَته، عاد إلى المطهرة، فتغسّل، ونشر جناحيه وصاح، فبكيْتُ، ورفعتُ رأسى إلى السماء، وقلت: اللهم، كما فرَّجْت عن هذا الشاهمرج، فرّجْ عنّا، وارزقنا من حيث لا نحتَسِب.

فما رددتُ طرفى، حتى دق بابى، فقلتُ: من أنت؟

قال: أنا إبراهيمُ بنُ يوحنّا، وكيلُ العبّاس بن المأمون.

فقلت: ادخل، فلما نظر إلى صورتى، قال: ما لى أراك على هذه الصورة، فكتمته خبرى.

فقال لى: الأميرُ يقرأ عليك السّلام، وقد اصطبح اليوم، وذكرك وقد أمر لك بخمسمائة دينار، وأخرج الكيسَ فوضعَه بين يدى.

فحمَدْتُ الله تعالى، ودعوتُ للعبّاس، ثم شرحتُ له قصّتى، وأطفته فى دارى وبيوتى، وحدّثته بحديث الدابّة، وما تقاسيه من الضُّرّ، والمنديل، والشاهْمرج، والدعاء، فتوجّع لى، وانصرف.

ولم يلبث أن عاد، فقال لى: صرتُ إلى الأمير، وحدّثته بحديثك كله، فاغتم لذلك، وأمر لك بخمسمائة دينار أخرى، قال: تأثّث بتلك، وأنفق هذه، إلى أن يُفرج الله.

وعاد غلامى، وقد باع المنديل، واشترى منه ما أردتُه، فأريتُه الدنانير، وحدثته الحديث، ففرح حتى كاد أن تنشق مرارتُه.

وما زال صُنْعُ الله يتعاهدُنا.

---

(١) شاهمرج: معناها (بالفارسية): ملك الطيور- نوع من الصقور.

١٣- العَصَبِيَّةُ العربيَّة

وذكر ابن عَبْدوس فى كتاب «الوزراء»، عن ثُمامةَ بن أشْرَس، أنّه قال:

اجتمع النّاس، وجلس لهم الفَضْلُ بنُ سَهْل[١]، على فُرُشٍ مرتفعة، فقام خطيبًا، فحمِدَ الله وأثنى عليه، وذكر النبىّ فصلّى عليه، ثمّ ابتدء بالوقيعة فى عبد الله بن مالك الخزاعى[٢]، وذكر أنّه كان يدّعى على الرّشيد - فى حكاية حكاها - دخولَ بيت القيان، وهو كاذبٌ فى ذلك، وهو الذى كان يفعل هذا الفعل، ويدخل المواخيرَ والدساكر، ولا يرفع نفسه عن ذلك، ولا يصونُ عِرضه.

قال ثُمامةُ: ثمّ أقبلَ علىّ، فقال: وإنّ أبا مَعْنٍ، ليعلمُ ذلك، ويعرفُ صحّة ما أقول، فتركتُ تشييع كلامه بالتصديق، وأطرقتُ إلى الأرض، ودخلْتنى عصبيةُ العربيّة لابنِ مالك.

ثمّ عاد إلى تهجين عبد الله، والتوسّعِ فى الدعاوَى عليه، ثمّ أقبلَ علىَّ ثانية. وقال: إنّ ثُمامةَ ليعرفُ ذلك، فسكتُّ، وأطرقتُ، وإنّما كان يريد منّى تشييع كلامه بالتصديق.

فلمّا رأى إعراضى عن مساعدته ترك الإقبال علىّ، وأخذ فى خُطبته، حتّى فَرَغَ من أربِهِ فى أمر عبد الله بن مالك.

فلمّا تفرّق النّاسُ عنه، وانصرفْتُ، علمتُ أنّى قد تعرّضت لَمَوْجَدةِ الفضل، وهو الوزير، وحالى عنده حالى.

فلمّا حَصَلْتُ فى منزلى، جاءنى بعض إخوانى مّمن كان فى ناحية الفضل، قالوا: ماذا صنع أبو مَعْن، يخاطبُه الوزير، فَيُعرِض عنه مرّةً بعد أخرى.

---

(١) الفضل بن سهل وزير المأمون، أما ثمامة فأحد علماء عصره.

(٢) عبد الله بن مالك الخزاعى قائد عربى عباسى، أما الفضل بن سهل فهو فارسى... من هنا أدركت ثمامة الغيْرة للنيْل من عبد الله والتشهير به وهو لا يملك الدفاع عن نفسه أمام الوزير.

فقلت: أنا والله، بالموْجَدَة[1] عليه - أعزّه الله - أحقّ، لأنّه قام في ذلك الجمع، وقد حضر كلُّ شريف ومشروف، فلم يستشهد بي في خُطبته، وما أجراه في كلامه، إلا في موضع رِيبَة، أو ذِكْر نَبْوَة، ودارِ مُقَيِّن ومغنّية، وما أقدرُ أن أشهد إلا أن أكون مع القوم ثالثًا.

فقالوا: صدقتَ - والله - يا أبا مَعْن، بِئسَ الموضعُ وضعكَ.

فرجع كلامي إليه، فقال: صدقَ واللهِ ثُمامة، وهو بالمَعْتَبَة أحقّ.

واندفعَتْ عنّي مَوْجَدَتُه، وما كان بي إلاّ ما داخلني من الحِميّة لعبدِ الله ابن مالك.

●●●

(١) الموْجَدة: الألم والعتاب.

١٤- عَرَبٌ.. وعَجَم!!

«كان محمدُ بنُ يزيد الأموى الحِصْنى قد أجابَ ساخرًا حين افتخر القائدُ العباسىُّ عبدُ الله بن طاهر (الفارسى) بأبيه. ثم تلاقى الرجلان حين ذهب عبد الله - فى قمة سطوته - إلى الشام. ويروى الحِصْنىُّ بنفسه ما جرى، وكيف انتهى، إذ قال»:

لما بلغنى إجماعُ عبد الله بن طاهر على الخروج لطلب نصر بن شَبَث - الخارجىّ كان فى ذلك الوقت - بنفسه، أيقنتُ بالهلاك، وخفتُ أن يقرَبَ منّى، فتنالنى منه بادرَة مكروهٍ، ولم أشكَ فى ذَهاب النعمة، وإن سَلِمت النفس لما بلغه من إجابتى إيّاه، عن قصيدته التى فَخَر بها:

مُدْمِنُ الإغضاءِ موصولُ ... ومُديمُ العَتْبِ مملولُ

ومَدينُ البيض فى تعب ... وغَريمُ البيض ممطولُ

وأخو الوجهَيْن حيث رَمَى ... بهواه فهو مَدْخُولُ

«إلى أن يفخر بأصوله فيقول»:

سائِلِى، عما تُسائلُنى ... قد يَرُدُّ الخُبْرَ مسئولُ

أنا مَن تعرفنَّ نسبتَه ... سلفى الغُرُّ البَهاليلُ

مُصْعَبٌ جدّى نقيبُ بنى ... هاشمٍ والأمرُ مجهولُ

وحسينٌ رأسُ دعوتهم ... ودعاء الحق مقبولُ

سلْ بهم تُنبِيك نجدتُهم ... مَشْرَفياتٌ مصاقِيلُ

قال الحِصْنِيُّ: وكنتُ لما بلغتنى القصيدةُ، امتعضتُ للعربية، وأُنفْتُ أن يفخر عليها رجل من العَجَم، لأنه قتل ملكًا من ملوكها بسيف أخيه[1]، لا بسيفه،

---

(١) يشير إلى مقتل الأمين وقد قتله القائد العباسى عبد الله بن طاهر بن الحسين، فكأنما قتله بسيف أخيه المأمون وليس بمقدرته الخاصة.

فيفخر عليها هذا الفخر، ويضع منها هذا الوضع، فَرَدَدْتُ على قصيدته، ولم أعلم أن الأيام تجمعنا، ولا أن الزمان يضطرني إلى الخوف منه، فقلت:

لا يَرُعْك القالُ والقيلُ ... كلما بُلِّغتَ تهويلُ

....

أيها النَّازى مطيتَه ... لأغَاليطكَ تحصيلُ

قد تأولتم على جهة ... ولنا في ذاك تأويلُ

قاتلُ المخلوعِ مقتولُ ... ودمُ القاتِل مطلولُ

قد يخون الرمحَ عاملُهُ ... وسِنانُ الرمح مصقولُ

ويَنالُ الوِتْرَ طالبُه ... بعد ما تسلو المثاكِيلُ

«ثم يصل إلى التهكمُّ الحاد المُقذع حين يصف آباء عبد الله بن طاهر بقوله»:

يا ابن بيت النار موقِدها ... ما لحاديه سراويلُ

أيُّ مجدٍ فيكَ نعرفه ... أيُّ جدٍّ لك بَهْلولُ

مَن حسينٌ أو أبوك ومَن ... مُصعبٌ غالَتْهُمُ غُولُ

وزُرَيْقٌ إذ تُخَلِّفُه ... نسبٌ عمرُكَ مَجهول

تلك دعوَى لا نناقشها ... وأبوّاتٌ مراذِيلُ

أسرةٌ ليست مباركةً ... غيرها الشمُّ البهاليلُ

ما جرى في عَودِ أثْلِكُم ... ماءُ مَجْدٍ فهو مدخولُ

قَدَحَتْ فيه أسافلُه ... وأعاليه مجاهيلُ

إنّ خيرَ القولِ أصدقُه ... حين تصطكّ الأقاويلُ

كُنْ على منهاج معرفةٍ ... لا تغرّنْك الأباطيلُ

قال: فلما قَرُب عبدُ الله بن طاهر منّى، استوحشتُ من المُقام خوفًا على

نفسى، ورأيتُ بُعدى وتسليمى حُرُمى عارًا باقيًا، ولم يكن لى إلى هربى بالحُرُم سبيل، فأقمتُ على أتمّ خوف مستسلمًا للاتّفاق، حتّى إذا كان اليوم الذى قيل إنه ينزل فيه العسكر بهذه النواحى أغلقتُ بابَ حصنى، وأقمتُ هذه الجاريةَ السوداء ربيئةً [1] تنظر لى على مَرْقَب مِن شرَف الحصن، وأمرتُها أن تُعرّفنى الموضع الذى ينزل فيه العسكر قبل أن يفجأنى، ولبِسْتُ ثيابَ الموت أكفانًا، وتطيّبتُ، وتحنّطتُ.

فلمّا رأت الجارية العسكر يقصد حصنى، نزلَتْ فعرّفتنى، فلم يرعْنى إلا دقٌّ باب الحصن فخرجتُ، فإذا عبدُ الله بنُ طاهر، واقف وحده، منفردٌ عن أصحابه، فسلّمتُ عليه سلامَ خائفٍ، فردَّ علىَّ غيرَ مُسْتَوحِشٍ، فأومأتُ إلى تقبيل رِجْلِهِ فى الرِكابِ، فمنع ألْطفَ مَنْعٍ وأحسنَه، ونزل على دكّانٍ على باب الحصن.

ثمّ قال: ليَسكنْ رَوْعُك، فقد أسأتَ الظنّ بنا، ولو علمنا أنّا بزيارتنا لك نُرَوِّعَكَ ما قصدناكَ.

ثمّ أطال المسألة، حتّى رأى الثقةَ منّى قد ظهرت، فسألنى عن سببُ مقامى فى البرّ [2]، وإيثارى إيّاه على الحاضرة، ورفاهة عيشها، وعن حال ضيعتى ومعاملتى فى ناحيتى، فأجبته بما حضر لى.

حتَّى إذا لم يبقَ من التأنيس شىءٌ أفضى إلى مساءلتى عن حديث نَصْرِ ابنِ شَبَث، وكيف الطريق إلى الظَّفَرِ به، فأخبرتهُ بما حَضَرنى[3].

ثمّ أقبل علىّ وقد انبسطتُ فى محادثته كلّ الانبساط، فقال: أحبّ أن تنشدنى القصيدة التى فيها:

يا ابنَ بيْتِ النارِ موقدها   ما لحاديه سراويلُ

---

(١) الربيئة: الذى يراقب الطريق.

(٢) البر: البادية.

(٣) هنا يتجلى ذكاء عبد الله بن طاهر فى تحويل مجرى الحديث بالسؤال عن الثائر الخارجى، وفى نفس الوقت يطمئن الحصنى بأنه ليس شاغله.. وسيكون أكبر نفسًا حين يطلب منه أن ينشد أمامه قصيدته فى هجاء آبائه.

فقلت: أصلح الله الأمير، قد أربَتْ نعمتُك على مِقدار همّتى، فلا تكدّرْها بما ينغّصُها.

فقال: إنّما أريد الزيادةَ فىَ تأنيسك، بأن لا ترانى متحفظًا مما خِفْتَ، وعزم علىَّ في إنشادها، عزم مُجِدٍّ فقلت: يريد أن تطرأ على سمعه، فيثورُ ما فى نفسه، فيوقعُ بى. ولم أجد من إنشادها بُدّاً، فأنشدتُهُ القصيدة، فلمّا فَرغْتُ منها، عاتبنى عتابًا سهلاً، فكان منه أن قال: يا هذا، ما حملَكَ على تكلّف إجابتى؟

فقلت: الأميرُ أصلحه الله، حمَلَنى على ذلك بقوله:

وأبى مَن لا كِفاء له ... مَن يُسامى مجدَه؟ قولوا!

فقلتُ كما تقول العرب، وتفتخر السُّوقَةُ على الملوك، وكنتُ لما بلغتُ إلى قولى:

يا ابنَ بيْتِ النّارِ موقِدها ... ما لحاديه سراويلُ

قال لى: يا ابنَ مسلمة، لقد أحصينا فى خزائن ذى اليمَينيْن بعد موته، ألفين وثَلثُمائة سراويل من صنوف الثّياب، ما أُصلِحَ فى أحدها تكّة، سوى ما استُعمل فى اللبّس، على أنّ النّاس يقلّون اتخاذ السراويلات فى كُسَاهم.

فاعتذرتُ إليه بما حضرنى من القول فى هذا، وفى جميع ما تضمنّته القصيدة، فقَبِل القول، وبَسَطَ العُذر، وأظهرَ الصفح.

وقال: قد دللتنا على ما احتجنا إليه، من معرفة أمر نَصْر بن شَبَث، أفتستحسنُ القعودَ عنّا في حربه. ولا يكون لك فى الظَّفَر به أثرٌ يشاكل إرشادك لوجوه مطالبه؟ فاعتذرتُ إليه بلزوم ضيعتى ومنزلى، وعجزى عن السّفر للقصور عن آلته.

فقال: نكفيكَ ذلك، وتقبَلُه منّا، ودعا بصاحب دوابّه، فأمره بإحضار خمسة مراكب من الخيل الهَمَاليج بسروجها ولجُمها المُحَلاّة، وبثلاث دوابّ من دوابّ الشَّاكرِيّة، وخمسة أبغل من بغال الثقل، وأمر صاحب كُسوته بإحضار خمسة

تُخُوتٍ من أصناف الثياب الفاخرة، وأمر خازنَه بإحضار خمس بدر دراهم، فأحضرَ جميعُ ذلك، ووُضعَ على الدكّان الذى كان عليه جالسًا بباب الحِصن.

ثم قال لى: كم مدَّة تأخرك عنّا إلى أن تلحق بنا؟ فقرَّبتُ الموعد، فقام ليركب، فابتدرتُ إلى يده لأقبلَّها، فمنعنى، وركب، وسار الجيش معه، وما ترك أحدًا ينزل، وكفى الله مؤونتهم، وخرجَت السوداء، فنقلت الشيابَ والبِدَر، وأخذ الغِلمان الكُراع، وما لَقِيتُ عبدَ الله بعدها.

●●●

عَرَبٌ وأتْرَاك

كان الإفشين[1] نَقَمَ على أبى دُلَف العِجْلىّ[2]، وهو مضموم إليه فى حرب بَابك[3]، أشياء، فلمّا ظَفِر ببَابك، وقَدِم «سُرَّ مَنْ رأى»، شكاه إلى المُعتصم، وسأله ليأمَره به، ففعل، ثم سأله أن يُطلق يده عليه، فلم يفعل، وكان أحمدُ ابنُ أبى دُؤَاد متعصباً لأبى دُلَف، يقول للمعتصم: إنّ الإفشينَ ظالمٌ له، وإنّما نَقَمَ عليه نصيحتَه فى مُحاربة بَابك، وجِدَّه فيها، ودَفْعَهُ ما كان الإفشين يذهب إليه من مُطاولة الأيّام، وإنفاقِ الأموال، وانبساطِ اليد فى الأعمال، وتركَهُ متابعته على ذلك.

فألحَّ الإفشين على المعتصم بالله فى إطلاق يده عليه، وكان للإفشينِ قَدْرٌ جليل عند المعتصم، يدخل عليه بغير إذْن.

«قال ابن أبى دُؤاد»: دَخَلْتُ على المعتصم يومًا، فقال: يا أبا عبد الله، لم يدعْنى اليومَ أبو الحسن الإفشين حتى أطلقتُ يدَه على القاسم بن عيسى (يعنى أبا دُلَف).

فقمتُ من بين يديه، وما أبصرُ شيئًا خوفًا على أبى دُلف، ودخلَنى أمرٌ عظيم، وخرجتُ فركبتُ دابتى، وسرتُ أشدَّ سير من الجَوْسَق إلى دار الإفشين بقرب المطِيرة، أؤمّل أن أدرك أبا دُلَف قبل أن يُحْدِثَ الإفشينُ عليه حادثة.

فلّما وقفتُ ببابه، كَرِهتُ أن أستأذنَ فيعلمَ أنّى قد حضرتُ بسبب أبى دُلَف، فيُعَجّل عليه، فدخلتُ على دابتى إلى الموضع الذى كنت أنزل فيه، وأوهمتُ حاجبه أنّى قد جئتُ برسالة المعتصم، ثمّ نزلتُ، فرُفِعَ السِّتر، فدخلتُ، فوجدتُ

---

(١) الإفشين قائد من الترك، صارت إليه قيادة الجيوش فى عصر المعتصم الذى استكثر من جنود الترك، خروجًا عن صراعات العرب والفُرس، فتحول الدواء إلى داء جديد، وهذه القصة تجسّد جانبًا من الصراع العربى التركى.

(٢) من أبطال العرب وقادتهم، واسمه القاسم بن عيسى.

(٣) بابك الخُرمىّ ثائر فارسى على الخلافة العباسية، هزمه الإفشين وقتله.

الإفشينَ في موضعه، وأبو دُلَف مقيَّد بالحديد بين يديه في نِطْعٍ، وهو يُقرِّعُهُ، ويخاطِبه بأشدّ غضبٍ وأعظمِ مُخاطبة.

فحين قربْتُ منه أمسَكَ، فسلَّمْتُ، وأخذتُ مجلسى، ثمّ قلت للإفشين: قد عرفتَ حُرمتى بأمير المؤمنين، وخدمتى إيّاه، وموضعى عنده، وموقعى من رأيه، وتفرّدَه بالصنيعة عندى والإحسان، وعلمتَ مع ذلك ميلى إليك، ومحبّتى لك، وقد رَغبْتُ إليك فيما يَرْغَبُ فيه مثلى إلى مثِلك، ممن رفع الله قدرَه، وأجلَّ خطره، وأعلى همتّه.

فقال: كلُّ ما قلتَ كما قلتَ، وكلّ ما أردتَ فهو مبذول لك، خلا هذا الجالس، فإنّى لا أشفِّعُكَ فيه.

فقلت: ما جئتُك إلا فى أمره، ولا ألتمس منك غيرَه، ولولا شدّة غضبك، وما تتوعّده به من القتل، لكان فى جميل عفوكَ ما يُغنى عن كلامك، ولكنّى لما عرفتُ غيظَك، وما تَنْقمه عليه، احتجتُ - مع موقعه منّى - إلى كلمة فى أمره، واستيهاب عظيم جُرْمه، إذ كان مثلُك فى جلالتك إنّما يُسأل جلائلَ الأمور.

فقال: يا أبا عبد الله، هذا رجل طَلَبَ دمى، ولم تُقنعه إزالةُ نعمتى، ولا سبيلَ إلى تشفيعكَ فيه، ولكنْ هذا بيتُ مالى، وهذه ضياعى، وكلُّ ما أملك بين يديك، فخذ من ذلك كلّه ما أردتَ.

فقلتُ: بارك الله لك فى أموالك وثَمّرهَا، لم آتِكَ في هذا، وإنّما أتيتُكَ فى مكْرُمَة يبقى لك فضلُها، وحسنُ أحدوثتِها، وتعتقد بها مِنّةٌ فى عنقى، ولا أزال مرتَهنًا فى شكرها.

فقال: ما عندى في هذا شيءٌ البتّةَ.

فقلتُ له: القاسمُ بن عيسى فارسُ العرب وشريفُها، فاستَبْقِه، وأنعِمْ عليه، فإن لم تره لهذا أهلاً، فهَبْه للعرب كلِّها، وأنت تعلم أنّ ملوكَ العجم لم تزل تَفْضُلُ

على ملوك العرب، ومن ذلك ما كان كسـرى إلى النّعمان حتى ملّكه، وأنتَ الآن بقيّةُ العَجَـم وشريفُها[1]، والقاسمُ شـريفُ العرب، فكن اليوم شريفًـا من العَجَمِ أنعم على شريفٍ من العرب، وعفا عنه.

فقـال: ما عـندى فى هذا جوابٌ إلا مـا سمِـعْتَ، وتنكّر، وتبيّنْتُ الشـرَّ فى وجهه.

فقلتُ فى نفسى: أنصرفُ، وأدَعُ هذا يقتل أبا دُلَف؟ لا والله، ولكن أمْثُلُ بين يديه قائمًا، وأكلّمه، فلعله أن يستحِيَ، فقُمتُ، وتوهّمنى أريد الانصرافَ، فتحفَّزَ لى.

فقلت: لستُ أريد الانصراف، وإنّـما مَثُلْتُ بين يديك قائمًا، صـابرًا، راغبًا، ضارعًا، سائلاً، مُستَوْهِبًا هذا الرّجلَ منك.

فكان جوابه أغْلظ.

فتحيّرتُ، وقلتُ فى نفـسى: أنكبُّ على رأسه، فأقبّله، فدَخَلَنى من ذلك أنَفٌ شديدٌ[2]، وقلتُ فى نفسى: أقبّلُ رأسَ هذا الأقلف؟[3] لا يكون هذا أبدًا.

ثمّ راجعتنى الشّفقةُ على أبى دُلَف، فقبّلتُ رأسَه، وضَرَعتُ إليه، فلم يجبنى، فأخذنى ما قَدُم ومَا حَدَث.

فجسلت، وقلت له: يا أبا الحسن، قد طلبتُ منك، وضَرَعْتُ إليك، ووضعتُ خدّى لك، ومثُلْتُ بين يديك، وقـبّلتُ رأسَكَ، فشفّعْنى، واصرِفْنِى شـاكرًا، فهو أجملُ بك.

فقال: لا واللهِ، ما عندى غير الذى قلتهُ لكَ.

فقلت له: أنا رسولُ أمير المؤمنين إليك، وهو يقول لك: لا تُحْدِثْ فى القاسم ابن عيسى حَدَثًا، فإنّك إن قتلته قُتِلتَ به.

---

(١) اعتبر ابن أبى دُؤَاد «العجم» جنسًا جامعًـا لكل مَن ليسوا عربًا، وهذا صحيح وإن يكن ضَرَبَ المثل للقائد التركى بكـسرى فارس.

(٢) الأنف والأنفة: الكبرياء والترفع.

(٣) الأقلف: الذى لم يُختن.

قال: أمير المؤمنين يقول هذا بعد أن أطلق يدى عليه؟

قلت: نعم، أنا رسوله إليك بما قلتُه لك، فإن كنتَ فى الطّاعة فاسمعْ وأطِعْ، وإن كنتَ قد خلَعْتَ، فقل: لا طاعة! ونفضتُ فى وجهه يدى، ونهضتُ.

فاضطرب حتّى لم يقدْر أن يدعوَ لى بدابّتى.

وركبتُ، فأغذَذْتُ السير إلى المُعتصِم، لأخبرَه الخبر، وبما اضْطِرِرْتُ إليه من تأدية رسالته، لأنّى علمتُ أنّه لم يقلْ لى ما قاله، إلا وهو يحبُّ استبقاء أبى دُلَف.

فانتهيتُ إلى الجَوْسَق فى وقتٍ حار، والحُجّابُ جميعًا نيام، والدَّارُ خالية، فدخلتُ حتّى انتهيتُ إلى سترِ الدَّار التى فيها المعتصِم، فجلست، وقلت: إن جاء الإفشين دخلتُ معه وتكلّمَتُ، وإن سألَ الوصول، أخبرتُ أميرَ المؤمنين الخبر كلّه[1].

فبيَّنا أنا كذلك، إذ خرج خادمٌ من وراء السِتر، فعرّفته، ثمّ دخل وخرج فقال: ادخل.

فدخلت، وقلت: يا أمير المؤمنين، أمَا لى حُرمة؟ أما لى ذِمام؟ أما لى حقّ؟ أما فى فَضل أمير المؤمنين علىّ، ونِعمته عندى، ما تجب رعايته؟

فقال: مالكَ يا أبا عبد الله؟ ما قصّتك؟ اجلس، فجلست.

ثمّ قلت: يا أميرَ المؤمنين، قلتَ لى اليوم فى القاسم بن عيسى قولاً علمتُ معه أنّك أردتَ استبقاءه وحقْنَ دمه، فمضيتُ من فورى إلى أبى الحسن الإفشين، ثمّ قصصتُ عليه القصّة إلى موضع الرّسالة التّى أدّيتُها عنه إليه، وهو فى كلّ ذلك يتغيّظ، ويفتل سِبَاله[2]، حتّى إذا أردتُ أن أعرّفه الرّسالةَ التى أدّيتُها عنه، قطع، وقال: يمضى قاضىٍّ، وصنيعتى أحمدُ بنُ أبى دُؤَاد إلى خَيْذَر[3]، فيخضعُ له، ويقفُ بين يديه، ويُقبّلُ رأسه، فلا يشفِّعه؟ قتلنى الله إن لم أقتلْه، يكرّرها.

(١) إشارة إلى ما ادَّعاه ابن أبى دُؤَاد من أنه يحمل رسالة صريحة من المعتصم بعدم قتل أبى دُلف.

(٢) السبال: الشارب. (٣) خيذر بن كاوس هو الإفشين.

فما استوفى كلامه، حتّى رُفع السِّتر ودخل الإفشين، فلقَيه بأكبرِ البّر والإكرام، وأجلسه بقُربه، وقال: فى هذا الوقت الحارّ يا أبا الحسن؟

فقال: يا أمير المؤمنين، رجلٌ قد عرفتَ ما نالنى منه، وأنّه طلب دمى، وقد أطلقت يدى عليه، يجيئُنى هذا، ويقول لى إنّك بعثتَ إلىّ تأمرنى أن لا أحْدِث فيه حَدَثًا، وأنّى إن قتلتهُ قُتِلْتُ به؟

قال: فغضب، وقال: أنا أرسلتُه إليك، فلا تُحدِثْ على القاسم بن عيسى حَدَثًا.

فنهض الإفشين مغضبًا يُدَمْدِمُ، واتّبعته لأتلافاه، فصاح بى المعتصم: ارجع يا أبا عبد الله، فرجعتُ، وقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّه كان بقى شىء مما جرى منّى قطعتنى بكلامك عن ذكره لك.

قال: تعنى الرّسالة؟

قلت: نعم.

قال: قد فهمتها، والقاسم (أبو دُلَف) يوافيك العشيَّة، فاحذر أن تفوه بشىء مما جرى.

ومضى الإفشين، فأطلق القاسمَ، وخلَع عليه، وحملَه، فجاءنى القاسم من العشيّة.

وما أخبرتُ بالحديث حتّى قُتِل الإفشينُ، ومات المُعتصِم.

●●●

١٦- الكُلُّ في واحد!!

حدّثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق التّنُوخيّ، قال:

كان إسماعيلُ الصفّار البصريُّ، أحدَ شيوخ المعتزلة الأجلاد، وكان النّاس - إذ ذاك - يتشدّدون على المعتزلة، وينالونهم بالمكاره.

فتقلّد البصرة نِزارُ بنُ محمّد الضبّي، فرُفع إليه عن رجل أنّه مُعتَزِلي، فحبسه(١)، فاستغاث الرّجل بإسماعيل، فكلّم غيرَ واحد من رؤساء البلد، أن يكلّم نِزاراً فيه، فتجنّبوا ذلك بسبب المَذْهب، فبات إسماعيل قَلِقًا.

ثمّ بكَرَ من غدٍ، فطاف على كل معتزليّ بالبصرة، وقال لهم: إن تمَّ هذا عليكم هلكتم متفرّقين، وحُبِسْتُمُ، وأتىَ على أموالكم ونفوسكم، فاقبلوا منّي، واجتمعوا، وتدبّروا برأيي، فإنّ الرّجل يتخلّص وتَعِزُّون.

فقالوا: لا نُخالِف عليك.

فوعدهم ليوم بعينه، ووعد معهم كلَّ مَن يعرفه من العوام، وأصحاب المذاهب ممّن يتّبع قُصّاص المعتزلة، ومَن يميل إليهم.

فلمّا كان ذلك اليوم، اجتمع له منهم أكثر من ألفِ رجل، فصار بهم إلى نِزار، واستأذن عليه، فأذِن له ولهم.

فقال: أعزّ الله الأمير، بلغَنا أنّك حَبَسْتَ فلانًا، لأنّه قال: إنّ القرآن مخلوق، وقد جئناك، وكلّنا نقول: إنّ القرآن مخلوق، وخلفنا ألوف يقولون كما نقول، فإمّا حبستَنا جميعًا، وإمّا أطلقت صاحبَنا، وإذا كان السُّلطان - أطال الله بقاءه - قد ترك المِحْنة، وقد أقرّ النّاسَ على مذاهبهم، فِلمَ نؤاخَذُ نحن بمذهبنا، من بين سائر المقالات؟

فنظر نِزار فإذا فتنة تثور، لم يُؤذنَ له فيها، ولم يَدْرِ ما تجرّ، فأطلق الرّجل، وسلّمه إليهم.

فشكره إسماعيل، وانصرف والجماعة.

---

(١) لا يزال الدساسون ضيقوا الفكر يفعلون الشيء نفسه تحت شعار العقيدة، أو الأخلاق... وقد رسمت القصة (الخبر) طريقة الردّ على من يحارب الفكر بالعنف.

١٧- الشاعرُ والمنُجِّم!!

حدّثني عليُّ بنُ هشام بن عبد الله الكاتب، قال: حدّثني أبو القاسم سليمان ابن الحسن بن مَخْلَد، قال:

لما أنفذَ أبي إلى مصر، واجتذبْتُ أبا عُبادة البُحْترىَّ، وأبا مَعْشَرٍ المنجِّم، وكنتُ آنس بهما في وَحدتي، وملازمتي البيت، فكانا أكثرَ الأوقات عندي، يحادثاني ويعاشراني.

فحدّثاني يومًا: إنّهما أضاقا إضاقةً شديدة، وكانا مصطحبين، فعنَّ لهما أن يَلْقَيا المعتز بالله، وهو محبوس، فيتودّدان إليه ويؤصِّلان عنده أصلاً[1]، فتوصّلا إليه، حتّى لقياه في حبسه.

قال البحترىّ: فأنشدتُه أبياتي التي كنت قلتُها في محمّد بن يوسف الثَّغْرى، لما حُبِس، وخاطبتُ بها المعتز، كأنّي عمِلتُها له في الحال، وهي:

جُعلتُ فِداك الدّهرُ ليس بمنفكّ ... من الحادث المشكّو والنّازلِ المَشْكى

وما هذه الأيّامُ إلاّ منازلٌ ... فمن منزلٍ رَحْبٍ ومن منزلٍ ضَنْك

وقد هذَّبتْك الحادثاتُ وإنّما ... صفا الذّهبُ الإبريزُ قبلَك بالسَّبْك

أما في رسول الله يوسفَ أسوَةٌ ... لمثلك محبوسًا على الظُّلم والإفْك

أقام جميلَ الصبر في السّجن برهةً ... فآل به الصّبر الجميل إلى المُلْك

على أنّه قد ضِيم في حبسك العُلاَ ... وأصبح عزُّ الدِّين في قبضةِ الشِّرْك

قال: فأخذ الرُّقعة التي فيها الأبيات، فدفعها إلى خادمٍ كان واقفًا على رأسه، وقال له: احتفظ بهذه الرُّقعة، فإن فرَّج الله عنّي، فأذكِرني بها، لأقضيَ حقّ هذا الرّجل الحرّ.

(١) أي يقدمان له خدمة في مرحلة اضطهاده، يقدِّرها لهما حين يئول الأمر إليه.

وقال لى أبو معشر: وقد كنتُ أنا أخذت مولده، ووقتَ عُقدَ له العهد، ووقتَ عُقدت البيعةُ للمستعين بالخلافة، فنظرتُ فى ذلك، وصحّحتُ الحُكم للمعتزّ بالخلافة بعد فتنة تجرى وحروب، وحكَمْتُ على المستعين بالقتل، فسلّمتُ ذلك إلى المعتزل، وانصرفنا[1].

وضرب الزّمانُ ضربه، وصحّ الحكم بأسره.

قال أبو معشر: فدخلتُ أنا والبُحترى جميعًا إلى المعتزّ، وهو خليفة، بعد خلع المُستعين وتغريقه، فقال لى: لم أنسَكَ، وقد صحّ حُكْمُك، وقد أجريْتُ لك فى كلّ شهر مائةَ دينار، وثلاثين ديناراً نُزُلاً، وجعلتُك رئيسَ المنجمين فى دار الخلافة، وأمرتُ لك عاجلاً بإطلاقِ ألفِ دينارٍ صِلَةً، فقبضتُ ذلك كلّه فى يومى.

●●●

(١) وهكذا خدع ولى العهد (المعتز) المتعلق بالخلافة بأبيات تناسب حاله لكنها ليست فيه، وتلفيقات منجم كاذب، وتفاءل بهذا وصدّقه، وأثاب عليه فيما بعد.

١٨- جَهَالَة أهلِ الثِّقَة

حدّثنى محمّد بن مَخْلد، وكان يلقّب لُبَد، لطول عمره، وروى عنه المدائنىّ الكاتب، عن أبيه مخلد بن يزيد:

أنّ المأمونَ، أوّلَ ما قدم العراق، خطر له أن يقلّد الأعمال، الشيعةَ [١] الذين قدموا معه من خُراسان، فطالت عُطلة كتّاب السواد وعمّاله، وكانوا يحضُرون دارَه فى كلّ يوم، حتّى ساءت أحوالهم.

فخرج يومًا بعضُ مشايخ الشيعة، وكان مغفلاً، فتأمّل وجوههم، فلم يَرَ فيهم أسنَّ من مَخْلَد بن يزيد، فجلس إليه، وقال له: إنّ أمير المؤمنين أمرنى أن أتخيّر ناحية من نواحى الخَراج، صالحةَ المِرْفق، ليوقّع بتقليدى إيّاها، فاخترْ لى ناحية.

فقال: لا أعرف لك عملاً أولى بك من بَزْبَنْدَات[٢] البحر، وصدقات الوحْش.

فقال له: اكتبه لى. فكتبه له مَخْلَد، فعرض الشيعىّ الرُّقعةَ على المأمون، وسأل تقليدهَ ذلك العمل.

فقال له: مَنْ كتب لك هذه الرُّقعة؟

فقال: شيخٌ من الكتّاب، يحضُر الدارَ فى كلّ يوم.

فقال: هلمَّه.

فلمّا دخل، قال له المأمون، ما هذا يا جاهل؟ تفرّغتَ لأصحابى؟

فقال له: يا أمير المؤمنين، أصحابُنا هؤلاء ثقاتٌ يصلحون لحفظ ما يصل إلى أيديهم من الخزائن والأموال، وأما شروط الخراج، وحكمه، وما يجب تعجيلُ استخراجه، وما يجب تأخيره، وما يجب إطلاقه، وما يجب منعه، وما يجب

---

(١) الشيعة بمعنى الأنصار الذين قاتلوا معه ضد أخيه الأمين.

(٢) بزبندات البحر: أى السدود التى تقام على شاطئه. وهنا كان أهل «الخبرة» الذين لحقهم التعطل يتهكمون من أهل «الثقة» الجهلاء، فليست هناك وظائف بهذا المعنى!!

إنفاقه، وما يجب الاحـتسابُ به، فلا يعرفونه، وتقليـدهم يعود بذَهاب الارتفاع، فإن كنتَ يا أمـير المؤمنين لا تَثِقُ بنا، فضمّ إلى كلّ واحد منهم رجـلاً منّا، فيكون الشيعيُّ يحفظ المال، ونحن نجمعه.

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه، وأمر بتقليد عمّال السَّواد وكتّابه، وأن يَضُمَّ إلى كلٍّ واحد منهم، واحدًا من الشـيعة، وضمّ مَخْلَدَ إلى ذلك الشـيخ، وقلّده ناحية جليلة.

●●●

١٩- مصادَفةٌ.. صَدَقَتْ

حدّثني عبيدُ الله بن محمّد العَبْقَسي، عن بعض تجّار الكَرْخ ببغداد قال:

كنتُ أعاملُ رجلاً من الخُراسانية، أبيعُ له في كل مَوْسِم متاعًا، فأنتفعُ من سمسرته بألوف دَراهِم.

فلما كان سنةٌ من السنين تأخّر عنّي، فأثّر ذلك في حالي، وتواترت عليّ مِحنٌ، فأغلقتُ دكّاني وجلستُ في بيتي، مستترًا من دَيْنٍ لحقني، أربع سنين.

فلمّا كان في وقت الحاجّ، تتبّعَتْ نفسي خبرَ الخُراساني، طمعًا في إصلاح أمري به، فمضيْتُ إلى سوق يَحيى، فلم أعْط له خبرًا، فرجعتُ، فنزلتُ الجزيرة وأنا تعب مغموم.

وكان يومًا حارًا، فنزلتُ إلى دِجلة، فتغسّلت، وصَعِدتُ، فابتلّ موضعُ قدمي، فقلعتْ رجلي قطعةً من الرمل، انكشفت عن سَيْرٍ.

فلبستُ ثيابي، وجلستُ مفكرًا أولَعُ بالسير، فلم أزل أجرّه حتّى ظهر لي هِمْيَان[1] موصولٌ به، فأخذتُه، فإذا هو ملوءٌ دنانيرَ، فأخفيته تحت ثيابي، ووافيتُ منزلي، فإذا فيه ألفُ دينار.

فَقوِيَتْ نفسي قوّةً شديدة، وعاهدتُ الله عزَّ وجَلَّ، أنّه متى صَلُحَت حالي، وعادت، أن أعرِّف الهميانَ، فمَن أعطاني صِفتَه، رددتُه عليه.

واحتفظت بالهميان، وأصلحتُ أمري مع غُرَمائي، وفتحت دكّاني، وعدتُ إلى رَسْمي من التجارة والسَّمْسَرة، فما مضت إلا ثلاث سنين حتّى حصَل في ملِكي ألوفُ دنانير.

وجاء الحُجُّ، فتتبّعتُهم لأعرِّف الهِميان، فلم أجد مَن يعطيني صفتَه، فعدتُ إلى دكّاني.

---

(١) الهميان: الحزام وقد ربط إليه كيس لحفظ النقود.

فبينما أنا جالس، إذا رجلٌ قائم حِيال دكّانى، أشعثَ، أغبرَ، وافِى السّبال[1]، وفى خِلْقَة سُؤَّال[2] الخراسانيّة، وزيِّهم، فظننته سائلاً، فأومأت إلى دُرَيْهات لأعطِيَه، فأسرع الانصراف، فارتبْتُ به، فقمتُ، ولحِقْتُه، وتأمّلته، فإذا هو صاحبى الّذى كنت أنتفع بسمسرته فى السنة بألوفِ دراهم.

فقلت له: يا هذا، ما الذى أصابك؟ وبكيْتُ رحمةً له.

فبكى، وقال: حديثى طويل.

فقلت: البيت، وحملتُه إلى منزلى، فأدخلته الحَمَّام، وألبستُه ثيابًا نظافًا، وأطعمته، وسألته عن خبره.

فقال: أنت تعرف حالى ونعمتى، وإنّى أردتُ الخروج إلى الحَجّ فى آخر سنة جئتُ إلى بغداد، فقال لى أمير البلد: عندى قطعةُ ياقوتٍ أحمرَ كالكفّ، لا قيمة لها عِظمًا وجلالةَ، ولا تصلح إلاّ للخليفة، فخذها معك، فبعْها لى ببغداد، واشتر لى من ثمنها متاعًا طَلَبَه، من عِطْر، وطُرَف، بكذا وكذا، واحمِل الباقى مالاً.

فأخذتُ القطعةَ الياقوت، وهى كمال قال، فجعلتُها فى هميان جِلْد، من صفته كيْتَ وكيْتَ، وصف الهِميان الّذى وَجَدْتُه، وجعلتُ فى الهِميانِ ألفَ دينار عيْنًا من مالى، وحملتُه فى وَسَطى.

فلمّا جئتُ إلى بغداد، نزلتُ أسبح عشياً فى الجزيرة الّتى بِسُوقِ يَحيى، وتركتُ الهميان وثيابى بحيث ألاحظُها.

فلمّا صعدت من دِجلة، لبستُ ثيابى عند غروب الشمس، وأنْسِيتُ الهميان، فلم أذكرْه إلى أن أصبحتُ، قعدتُ أطلبه، فكأنَّ الأرضَ ابتلعته.

فهوَّنْتُ على نفسى المصيبة، وقلت: لعلّ قيمةَ الحَجَرِ ثلاثةُ آلاف دينار، أغرمها له.

---

(١) السبال: الشارب، فالرجل أشعث مهمل الشعر لبؤسه.

(٢) السؤال (بتشديد الهمزة): جمع سائل، وهو الشحاذ.

فخرجتُ إلى الحجّ، فلما رجعتُ، حاسبْتُك على ثمن متاعى، واشتريتُ للأمير ما أراده، ورجعتُ إلى بلدى، فأنفذتُ إلى الأمير ما اشتريتُه، وأتيتُه، فأخبرتُه بخبرى.

وقلت له: خذ منّى ثلاثة آلاف دينار، عِوَضًا عن الحَجر.

فطمِع فىّ، وقال: قيمته خمسون ألف دينار، وقبض علىّ، وعلى جميع ما أملكه من مال ومتاع، وأنزل بى صنوف المكاره، حتّى أشهَدَ علىَّ فى جميع أملاكى[1]، وحبسنى سبع سنين، كنتُ يُرَدَّدُ علىَّ فيها العذاب.

فلمّا كان فى هذه السنة، سأله النَّاس فى أمرى، فأطلقنى.

فلم يمكننى المُقام ببلدى، وتحمّلُ شماتة الأعداء، فخرجتُ على وجهى، أعالجُ الفقرَ، بحيث لا أُعْرَف، وجئتُ مع الحَجّ الخُراسانى، أمشى أكثرَ الطريق، ولا أدرى ما أعمل، فجئتُ إليك لأشاورَك فى معاشٍ أتعلّق به.

فقلت: قد ردَّ الله عليك بعضَ ضالتك، هذا الهِميان الّذى وصفْتَه، عندى، وكان فيه ألفُ دينار أخذتُها، وعاهدت الله تعالى، أنّنى ضامنها لمن يعطينى صفةَ الهِميان، وقد أعطيتنى أنت صِفتَه، وعلمتُ أنّه لك، وقمتُ، فجئته بكيسٍ فيه ألفُ دينار.

وقلتُ له: تعيّشْ بهذا فى بغداد، لأنّك لا تَعْدَمُ خيرًا إن شاء الله.

فقال لى: يا سيّدى الهميان بعينه عندك، لم يخرج عن يدك؟

قلت: نعم.

فشَهِقَ شهقة، ظننتُ أنّه قد مات معها، وغُشِىَ عليه، فلمّا أفاق بعد ساعة، قال لى: أين الهميان؟

فجئتُه به، فطلب سكينًا، فأتيتُه بها، فخرق أسفل الهِميان، وأخرج منه حَجَرَ

---

(١) أى ان أمير البلد استولى على جميع ما يملك فى مقابل الياقوتة المفقودة، وأشهد عليه أنه باع له هذه الممتلكات!!

ياقوتٍ أحــمر، أشرق منه البـيت، وكاد يأخذ بَصَـرى شعاعُــهُ، وأقبل يشكرنى، ويدعو لى.

فقلتُ له: خذ دنانيرك.

فحلف بكلِّ يمين، لا يأخــذ منها إلاّ ثمنَ ناقة، ومحمل، ونفقة تُبْلِغْـه، فبعد كلّ جــهد أخــذ ثلثــمائة دينــار، وأحلَّنى من الباقــى، وأقام عندى، إلى أن عــاد الحاجّ، فخرج معهم.

فلمّا كان العام المقبل، جاءنى بقريب ممَّا كان يجيئنى به سابقًا من المتاع.

فقلت له: أخبِرنى خبرك.

فقــال: مضيتُ، فــشرحتُ لأهل البلد خَـبَرى، وأريتُهم الحــجَر، فجـاء معى وجوهُهم إلى الأمير، وأعلموه القصّة، وخاطبوه فى إنصافى.

فأخــذ الحجَر، وردّ علىَّ جمـيع ما كان أخذه منّى، من مـتاع، وعقَار، وغـير ذلك، ووهبَ لى من عنده مالاً.

وقال: اجعلنى فى حِلّ مّما عذّبتُك وآذيتُك فأحللتُه.

وعادت نعـمتى إلى مـا كانت عليه، وعـدتُ إلى تجارتى ومـعاشى، وكلّ هذا بفضل الله تعالى وبركتك، ودعا لى.

وكان يجيئنى بعد ذلك، حتّى مات.

●●●

٢٠- المأمون يعود إلى السماع

حدّثنى أبو الفرج الأصبهانى، قال:

أقام المأمونُ بعد دخوله بغداد عشرين شهرًا، ولم يسمع حرفًا من الأغانى، ثم كان أوّلَ مَن تغنّى بحضرته أبو عيسى بن الرّشيد أوّل مرّة، ثمّ واظب على السماع متسترًا، متشبّهًا بالرّشيد فى أوّل أمره، فأقام المأمون كذلك أربع سنين، ثم ظهر للندماء والمغنّين.

قال إسحاقُ بنُ إبراهيمَ المَوْصِلى: وكان حين أحبّ السّماع، سأل عنّى، فجُرِّحْتُ بحضرته، وقال الطاعن علىّ: ما يقول أمير المؤمنين فى رجل يَتِيهُ على الخلفاء، ما بَقَّى هذا من التيه شيئًا إلاّ استعمله.

فأمسك عن ذِكْرِى، وجفانى مَن كان يصلنى لسوء رأيه فىَّ، فأضرَّ ذلك بى، حتَّى جاءنى عَلُّوَيَهَ يومًا، فقال لى: أتأذن لى فى ذِكْرِكَ بحضرة المأمون، فإنّا قد دُعِينا اليوم.

فقلت: لا، ولكن غنِّه بهذا الشِعر، فإنّه يبعثه على أن يسألك لمن هو؟

فإذا سألك انفتح لك ما تريده، وكان الجوابُ أسهلَ عليك من الابتداء.

قال: هات، فألقيتُ عليه لحنى فى شِعرى:

يا سَرْحَةَ الماء قد سُدَّت مواردُهُ ... أما إليك طريقٌ غيرُ مسدودِ

لحائم حامَ حتّى لا حُيامَ به ... مشرّدٍ عن طريق الماء مطرودِ

قال أبو الفرج الأصبهانى: والغناء فيه لإسحاق الموصلى، رَمَلٌ بالوسطى، عنه، وعن عمرو بن بانة.

رجع الحديث، قال: فمضى عَلُّويَه، فلمّا استقرّ به المجلس، غنّاه بالشِعر، الّذى أمره به إسحاق.

فقال المأمون، ويلك يا عَلُّويَه، لمن هذا الشِعر:

فقال: يا سيّدى لعبدٍ من عبيدك، جفوتَه، واطّرحتَه، من غير ذنب.

فقال: إسحاقَ تَعْنِى؟

قال: نعم.

فقال: يحضر الساعة.

قال إسحاق: فجاءنى رسول المأمون، فصرتُ إليه، فلمّا دخلتُ إليه استدنانى، فدنوتُ منه، فرفع يديه إلىّ مادّهما، فانكببتُ عليه، فاحتضننى بيديه، وأظهر من بِرِّى وإكرامى، ما لو أظهره صديقٌ مؤانس لصديق، لسُرَّ به.

●●●

الفصل الثالث

القصص الشعبيــة

١- راكب الأسد

حدّثنى أبو جعـفر أصبغ بن أحمد، وكـان يحجُبُ أبا محمد الـمُـهَلّبى رحمه الله، قبل وزارته، فلما ولىَ الوَزارة كـان يصرّفه فى الاستِحْثَـاث على العمال[1]، وفى الأعمال التى يتصرّف فيها العمّال الصغار، قال:

كنت بشـيراز مع أبى الحسن عـلى بن خلف بن طناب، وهو يتولّى عـمالتـها يومئذ.

فجاء مُسـتحِثٌ من الوزير، يطالبه بحمل الأموال، وكان أحـدَ العمّال الأكابر، وقد كُوتِب بإكرامه.

فأحضره أوّل يوم طعامه وشرابه، فامتنع من مؤاكلته، وذكر أنّ له عذراً.

فقال: لابدّ أن تأكل.

فأكل بأطراف أصابعه، ولم يُخرج من كُمّه.

فلمّا كـان فى غد، قال علىّ بن خـلف لحاشيـته: لِيدْعُـه كلّ يوم واحدٌ منكم فكانوا يدعونه، ويدعون بعضهم بعضًا، فكانت صورته فى الأكل واحدة.

فقالوا: لعلّ به بَرَصًا أو جُذامًا.

إلى أن بلغت النوبة إلىّ، فدعوتُه، ودعوتُ الحاشية، وجلسنا نأكل، وهو يأكل معنا على هذه الصورة، فسألته إخراج يده والانبساطَ فى الأكل، فامتنع عن إخراج يده.

فقلت له: يلحقك تنغيصٌ بالأكل هكذا، فأحرِجْها على أىّ شىء كان بها، فإنا نرضى به.

---

(١) الاستحثاث هو ما نطلق عليه الآن: متابعة الخطة أو مراقبة الموظفين.

قال: فكشفها، فإذا فيها وفى ذراعه أكثرُ من خمسين ضربة، بعضها مُندمل، ويعضها فيه بقيّة وعليها أدوية، وهى على أقبح منظر.

فأكل معنا غير مُحْتَشم[1]، وقُدّم الشراب فشربنا، فلما أخذ منه الشراب، سألناه عن سبب تلك الضربَات.

فقال: هو أمر ظريف أخاف أن لا أصدَّق فيه.

فقلت: لا بدّ أن تتفضْل بذلك.

فقال: كنت عام أوّل قائمًا بحضرة الوزير، فسلّم إلىّ كتابًا إلى عامل دمشق، ومنشورًا، وأمرنى بالشخوص إليه، وإرهاقه بالمطالبة بحمل الأموال، ورسم لى أن أخرج على طريق السَّماوة لأتعجّل، وكتب إلى عامل هَيْت[2] بإنفاذى مع خِفارة.

فلما حَصَلْتُ بـ«هيت»، استدعى العاملُ جماعة من عدّةٍ من أحياء العرب، وسلّمنى إليهم، وأعطاهم مالاً على ذلك، وأشهد عليهم بتسلّمى، واحتاط فى أمرى.

وكانت هناك قافلة تريد الخروج منذ مدّة، وتتوقّى البَرِّيَّةَ، فأنسوا بى، وسألونى أن آخذ منهم لنفسى مالاً، وللخفراء الأعراب مالاً، وأخلَهم فى الخِفارة، ويسيرون معى، ففعلتُ ذلك، فصرنا قافلة عظيمة.

وكان معى من غِلمانى ممَّن يحمل السلاح نحو عشرين غلامًا، وفى حمّالى القافلة والتجارة جماعةٌ يحملون السلاح أيضًا.

فرحلنا عن هَيْت، وسرنا فى البريّة ثلاثة أيّام بلياليها، فبينَا نحن نسير إذ لاحتْ لنا خيل.

فقلت للأعراب: ما هذه الخيل؟ فمضى منهم قومٍ إليهم ثم عادوا كالمنهزمين.

---

(١) دون شعور بالحرج.

(٢) السماوة: بادية الشام، وهَيْت: إحدى القرى فى الطريق إليها.

فقالوا: هؤلاء قوم من بنى فلان بيننا وبينهم شرٌّ وقتال، ونحن طِلْبَتُهُم[1]، ولا ثبات لنا معهم، ولا يمكننا خِفارتكم معهم، وركضوا منصرفين، وبقينا متحيّرين، فلم أشكّ أنّهم كانوا من أهلهم، وأنهم فعلوا ذلك بِمُوَاطأةٍ علينا.

فجمعتُ القافلة، وشجّعتُ أهلها وغلمانى، وضممتُ بعضها إلى بعض، وأمرتهم بحمل السلاح، وَلأمَةِ[2] الحرب، فصرنا حول القافلة من خارجها متساندين إليها كالدائرة.

وقلت لمن معى: لو كان هؤلاء يأخذون أموالنا ويَدَعُون جمالَنا لننجوَ عليها كان هذا أسهل، ولكنّ الجمال والدواب أوّلُ ما تؤخذ، ونتلف نحن فى البريّة ضيعة وعطشًا، فاعملوا على أن نقاتل، فإن هزمناهم سِلمنا، وإن قُتلنا كان أسهل من الموت بالعطش.

فقالوا: نفعل.

وغَشِينَا القومُ، فقاتلناهم من انتصاف النهار إلى أن حجز الليل بيننا، ولم يقدروا علينا، وقتلْنا عدّة خيل، وجرحنا منهم جماعة، وما ظِفروا منّا بِعَوْرة، وباتوا بالقرب منّا حَنِقين علينا.

وتفرّق الناس للأكل والصلاة، واجتهدتُ بهم أن يجتمعوا، ويبيتوا تحت السلاح، فخالفونى، وكانوا قد كلّوا وتعِبُوا، ونام أكثرهم.

فغشيتنا الخيلُ، فلم يكن عندنا امتناع، فوضعوا فينا السيوف، وكنت أنا المطلوبَ خاصّة، لما شاهدوه من تدبيرى القوم برأيى، وعلموا أنّى رئيسُ القافلة، فقطّعونى بالسيف، ولحقتنى هذه الجراحاتُ كلُّها وفى بدنى أضعافها.

قال: وقد كشف لنا عن أكثر جسده، فإذا به أمرٌ عظيم هالنا، ولم نره فى بَشر قط.

---

(١) طلبتهم: الهدف الذى يبحثون عنه.

(٢) لأمة الحرب: رداء الحرب من ثياب وسلاح.

قال: وكـان فى أجلى تأخيرٌ، فـرميتُ نفسى بين القـتلى، لا أشكّ فى تلفى، وساقوا الجمال والأمتعة والأسارى.

فلما كان بعد ساعة ، أفقتُ، فـوجدتُ فى نفسى قوّة، والعطش قد اشتد بى، فلن أزل أتحامل، حتى قمتُ أطلب فى القافلة سطيحة[1] قد أفلتت، أشرب منها، فلم أجد شيئًا.

ورأيتُ القتلى والـمـجروحـين الـذيـن هم فى آخر رمق، وسـمعـتُ من أنينهم ما أضعف نفسى، وأيقنتُ بالتلف.

وقلت: غاية ما أعيش إلى أن تطلعَ الشمس.

فتحامـلت أطلب شجرة أو محملاً قـد أفلت، لأجعله ظِلاًّ لى من الشمس إذا طلعت.

فـإذا أنا قد عـثرتُ بشىء لا أدرى مـا هو، فى الظلمـة، فإذا أنا مُنبطِح عليـه بطولى وطوله.

فثار من تحتى، وعانقته، وقدّرته رجلاً من الأعراب، فإذا هو أسدٌ!!

فحين علمتُ ذلك طار عقـلى، وقلت: إن استرخيْت افترسنى، فعـانقتُ رقبته بيدى، ونمتُ على ظهره، وألصقتُ بطنى بظهره، وجعلت رجلَىَّ تحت مَخْصَاه.

وكانت دمائى تجرى، فحين داخلنى ذلك الفزع العظيم رقأ[2] الدم، وعَلِقَ شعر الأسد بأفـواه أكثر الجـراحات، فصـار سِداداً لها، وعـونًا على انقطاع الدم، لأنّى حَصَلْتُ كالملتصق عليه.

وورد على الأسد منّى، أطرف ممّا ورد علىَّ منه وأعظم، وأقبل يجرى تحتى كما تجرى الفرس تحت الراكـب القوىّ، وأنا أحسٌ بروحى تخرج، وأعضـائى تتقصّف من شدّة جريه، ولم أشكّ أنّه يقصِد أجَمَةً بالقرب، فيلقينى إلى لَبْوتِهِ فتفترسنى.

---

(١) السطيحة: وعاء الماء أو القربة.

(٢) رقأ: تجمد وتوقف.

فجعلت أضبط نفسى مع ذلك، وأؤمّل الفرج، وأدافع الموت عاجلاً، وكلّما همّ أن يربض ركضتُ خِصاه برجلى فيطير، وأنا أعجب من نفسى ومطيّتى، وأدعو الله عَزّ وجَلّ، وأرجو الحياة مرّة، ومرّة آيس من نفسى.

إلى أن ضربنى نسيمُ السَّحَر، فقويت نفسى، وأقبل الفجر يضىء، فتذكّرت طلوع الشمس فجزِعت، ودعوت الله تعالى، وتضرعتُ إليه.

فما كان بأسرعَ من أن سمعت صوتًا ضعيفًا لا أدرى ما هو، ثم قوى، فشبّهته بصوت ناعورة، والأسد يجرى، وقوى الصوت، فلم أشكّ فى أنّه ناعورة.

ثم صعِد الأسد إلى تلّ، فرأيتُ منه بياض ماء الفرات وهو جار، وناعورة تدور، والأسد يمشى على شاطئ الفرات برفق، إلى أن وجد مُشْرعة[1]، فنزل منها إلى الماء، وأقبل يسبح ليبعد.

فقلتُ لنفسى: ما قعودى، لئن لم أتخلّص هنا، لا تخلّصتُ أبدًا.

فما زلت أرْفقُ به، حتى تخلّصت، وسقطتُ عنه، وسبحتُ منحدرًا، وأقبل هو يشقّ الماء عرْضًا.

فما سبحتُ إلا قليلاً، حتى وقعت عينى على جزيرة، فقصدتها، وحصلت فيها، وقد بطلَتْ قوّتِى، وذهب عقلى، فطرحتُ نفسى عليها كالتالف.

فلم أُحِسّ إلاّ بحر الشمس قد أنبهنى، فرجعتُ أطلب شجرة رأيتها فى الجزيرة، لأستظل بها من الشمس، فرأيتُ الأسد مُقعِيًا على شاطئ الفرات حيال الجزيرة، فقلّ فزعى منه.

وأقمتُ مستظلاً بالشجرة، أشربُ من ذلك الماء، إلى العصر، فإذا أنا بزورق منحدر، فصحتُ بهم، فوقفوا فى وسط الماء.

فقلت: يا قوم، احملونى معكم، وارحمونى.

فقالوا: أنت دسيس اللصوص.

---

(١) المشرعة: الموردة.

فأريتهم جراحاتى، وحلفتُ لهم أنّه ما فى الجزيرة بعلمى أحد سواى، وأومأت لهم إلى الأسد، وقلت لهم: قصّتى طريفة، وإن تجاوزتموني كنتم أنتم قد قتلتمونى، فالله، الله، فى أمرى، فوقفوا، فأتوا فحملونى.

فلمّا حَصَلت فى الزورق، ذهب عقلى، فما أفقتُ إلا فى اليوم الثانى، فإذا علىّ ثياب نظاف، وقد غُسِلت جراحاتى، وجُعِل فيها الزيت والأدوية، وأنا بصورة الأحياء.

فسألنى أهل الزورق عن حالى، فحدّثتهم.

وبلغنا إلى هَيْت، فأنفذتُ إلى العامل مَن عرّفه خبرى، فجاءنى مَن حملنى إليه.

وقال: ما ظننت أنّك أفْلَتَّ، فالحمد لله على السلامة.

وقال لى: كيف هذا الذى جرى لك؟

فحدّثته الحديث من أوّله إلى آخره، فتعجّب عجبًا شديدًا، وقال: بين الموضع الذى قُطِعَ عليكم فيه الطريق، وبين الموضع الذى حملك أهل الزورق منه مسافة أربعين فرسخًا على غير مَحَجّة.

فأقمتُ عنده أيّامًا، ثم أعطانى نفقة، وثيابًا، وزورقًا، فجئت إلى بغداد، فمكثتُ أعالج جراحاتى عشرة أشهر حتى صرتُ هكذا.

ثم خرجت وقد افتقرتُ، وأنفقتُ جميع ما كان فى بيتى، فلمّا قمتُ بين يدى الوزير، رقّ لى، وأطلق مالاً، وأخرجنى إليكم.

●●●

٢- الجميلة المتوحشة

حدّثني أبو المغيرة محمّد بن يعقوب بن يوسف، الشاعر البصري، قال: حدّثني أبو موسى عيسى بن عبد الله البغدادي، قال: حدّثني صديق لي قال:

كنتُ قاصداً الرملة[1] وحدي، وما كنتُ دخلتها قط.

فانتهيتُ إليها وقد نام الناس، ودخل الليل، فعَدَلْتُ إلى الجبّانة، ودخلتُ بعض القِباب التي على القبور، فطرحتُ دَرَقَةَ[2] كانت معي، واتّكأتُ عليها، وعانقتُ سيفي، واضطجعتُ أريد النوم، لأدخلَ البلد نهاراً.

قال: فاستَوْحَشْتُ من الموضع، وأرِقتُ، فلمّا طال أرقي، أحسستُ بحركة.

فقلت: لصوص يجتازون، ومتى تصدّيتُ لهم، لم آمنهم، ولعلّهم أن يكونوا جماعة، فانخزلتُ بمكاني ولم أتحرّك.

وأخرجتُ رأسي من بعض أبواب القبّة، على تخوّف شديد منّي، فرأيتُ دابّة كالذئب تمشي، فإذا به قصد قبّة بحيالي، وما زال يتلفت طويلاً، ويدور حواليها، ثم دخلها.

فارتبتُ به، وأنكرتُ أمره وتطلّعَتْ نفسي إلى علم ما هو فيه.

فدخل القبّة، وخرج غير مطيل، ثم جعل يتبصّر، ثم دخل وخرج بسرعة، ثم دخل وعيني إليه، فضرب بيده إلى قبر في القبّة يعثره.

فقلت: نبّاشٌ لا شكّ فيه، وتأمّلته يحفر بيده، فعلمتُ أنّ فيها آلة حديد يحفر بها.

فتركته إلى أن اطمأنّ وأطال، وحفر شيئًا كثيراً، ثم أخذتُ سيفي ودرقتي، ومشيْتُ على أطراف أناملي، حتى دخلتُ القبّة، فأحسّ بي، فقام إليّ بقامة إنسان، وأومأ إليّ ليلطِمَني بكفّه، فضربتُ يده بالسيف، فأبنْتُها[3] وطارت.

---

(١) الرملة: من مدن فلسطين.

(٢) الدرقة: الدرع المصنوع من الجلد.

(٣) أبنتها: قطعتها.

فقال: أوّه، قتلتنى لعنك الله.

وعدا من بين يدىّ، وعدوتُ خلفه، وكانت ليلة مقمرة، حتى دخل البلد. وأنا وراءه ولستُ ألحقه، إلاّ أنّه بحيث يقع بصرى عليه.

إلى أن اجتاز بى طرقًا كثيرة، وأنا فى خلال ذلك أعلّم الطريق لئلا أضلّ، حتى جاء إلى باب، فدفعه ودخل وأغلقه، وأنا أسمع.

فعلّمتُ الباب، ورجعتُ أقفو الأثر والعلاماتِ التى علّمتها فى طريقى، حتى انتهيتُ إلى القبّة التى كان فيها النبّاش.

وطلبت الكفّ فوجدتها، فأخرجتها إلى القمر، فبعد جَهد، انتزعتُ الكفّ المقطوعة من الآلة الحديد، وإذا هى كفّ كالكفّ، وقد أدخل أصابعه فى الأصابع، وإذا هى كفّ فيها نقش حنّاء، وخاتمان من الذهب، فعلمتُ أنّها امرأة.

فحين علمتُ أنّها امرأة، اغتممتُ، وتأملتُ الكفّ، فإذا هى أحسن كفٍّ فى الدنيا، نعومة، ورطوبة، وسِمَنًا، وملاحة.

فمسحتُ الدم عنها، ونمتُ فى القبّة التى كنتُ فيها، ودخلتُ البلد من الغد، أطلب العلاماتِ التى علّمتها، حتى انتهيتُ إلى الباب.

فسألت: لمن الدار؟

فقالوا: لقاضى البلد.

واجتمع عليها خلق كثير، وخرج منها شيخ بهىّ، فصلّى الغداةَ بالناس، وجلس فى المحراب، فازداد عجبى من الأمر.

فقلتُ لبعض الحاضرين: بمن يُعرف هذا القاضى؟

فقال: بفلان.

وأطلت الجلوس والحديث فى معناه، حتى عرفتُ أن له ابنةً عاتِقًا[1]، وزوجة، فلم أشك فى أنّ النبّاشة ابنته.

---

(١) الفتاة العاتق: التى بلغت سنّ الزواج.

فتقدّمتُ إليه، وقلت: بينى وبين القاضى أعزّه الله حديثٌ لا يصلح إلاّ على خَلْوة.

فقام إلى داخل المسجد، وخلا بى، وقال: قُلْ.

فأخرجتُ الكفّ وقلتُ: أتعرف هذه؟

فتأمّلها طويلاً، وقال: أمّا الكفّ فلا، وأما الخاتمان، فمن خواتيم ابنةٍ لى عاتق، فما الخبر؟

فقصصتُ عليه القصّة بأسرها، فقال: قُمّ معى.

فأدخلنى إلى داره، وأغلق الباب، واستدعى طبقًا وطعامًا، فأحضِر واستدعى امرأته، فقال لها الخادم: اخرجى.

فقالت: قُلْ له كيف أخرج ومعك رجل غريب، فخرج الخادم، وأعلمه بما قالت.

فقال: لابدّ من خروجها تأكل معنا، فهنا مَن لا أحتشِمُهُ.

فتأبّت عليه، فحلف بالطلاق لتخرجنّ له فخرجتّ باكية، وجلست معنا.

فقلت لها: أخرجى ابنتَك.

فقالت: يا هذا، أو قد جُننتَ؟ ما الذى حلّ بك، قد فضحتنى وأنا امرأة كبيرة، فكيف تهتك صبية عاتقًا؟ فحلف بالطلاق لتخرجنها فخرجت.

فقال: كلى معنا، فرأيتُ صبية كالدينار، ما نظرتْ مقلتاى أحسنَ منها، إلاّ أنّ لونها قد اصفرّ جداً، وهى مريضة.

فعلمتُ أنّ ذلك لنزف الدم من يدها، فاقبلت تأكل بشمالها، ويمينُها مخبوءة.

فقال لها أبوها: أخرجى يَدك اليمنى.

فقالت أمّها: قد خرج بها خُرَّاج، وهى مشدودة، فحلف لتَخرُجنّها.

فقالت له امرأته: يا رجل استر على نفسك، وابنتكَ، فوالله، وحلفت له بأيْمان كثيرة، ما اطّلعت لهذه الصبيّة على سوء قط إلاّ البارحة، فإنّها جاءتنى بعد نصف الليل. فأيقظتنى، وقالت: يا أمى، الحقينى، وإلا تلفتُ.

فقلت: مالَكِ؟

فقالت: إنّه قد قُطعَتْ يدى، وهو ذا أنزف الدم، والساعة أموت، فعالجينى، وأخرجت يدها مقطوعة، فلطمتُ.

فقالت: يا أماه لا تفضحينى ونفسَك بالصياح عند أبى والجيران، وعالجينى.

فقلت: لا أدرى بِمَ أعالجك.

فقالت: إغلى زيتًا، وأكوى به يدى.

ففعلتُ ذلك، وكويتها، وشددتها، وقلت لها: الآن خبّرينى ما دهاكِ، فامتنعت.

فقلت: واللهِ، إن لم تحدثينى، لأكشفنّ أمرك لأبيك.

فقالت: إنّه وقع فى نفسى، منذ سنين، أن أنبش القبور، فتقدّمتُ إلى هذه الجارية، فاشترت لى جلد ماعز بشعره واستعملت لى كفاً من حديد.

فكنت إذا أعْتَمَ الليل، أفتح الباب، وآمرُها أن تنام فى الدهليز، ولا تغلق الباب، وألبس الجلد، والكفّ الحديد، وأمشى على أربع، فلا يشكّ الذى يرانى من فوق سطح أو غيره أنّنى كلب.

ثم أخرج إلى المقبرة، وقد عرفتُ من النهار، خبر مَن يموت من رؤساء البلد، وأين دُفِنِ، فأقصِد قبره، فأنبشه، وآخذ الأكفان، وأدخلها معى فى الجلد، وأمشى مشيتى، وأعود والباب غير منغلق، فأدخل وأغلقه، وأنزع تلك الآلة، فأدفعها إلى الجارية، مع ما قد أخذت من الأكفان فتخبئه فى بيت لا تعلمون به.

وقد اجتمع عندى نحو ثلثمائة كفن، أو ما يقارب هذا المقدار، لا أدرى ما أصنعُ بها، إلاّ أنّى كنت أجد لهذا الخروج، والفعل، لذّة لا سبب لها أكثر من إصابتى بهذه المحنة.

فلمّا كانت الليلة، سُلّط علىّ رجل أحسّ بى، كأنّه كان حارسًا لذلك القبر، فقمتُ لأضربُ وجهه بالكفّ الحديد، ليشتغل عنّى، وأعدو، فداخلنى بالسيف، ليضربنى، فتوقّيتُ الضربة بيمينى، فأبان كفّى.

فقلت لها: أظهرى أن قد خـرج فى كفّك خُرَاجٌ، وتعالَلِى، فإنّ الذى بك من الصفار، يصدّق قولك.

فإذا مضت أيّام، قلتُ لأبيكِ: إذا لم تُقطع يدُك، خَبُثَ جميع جسدك، وتلفتِ، فيأذن فى قطعها، فنظهر أنّا قطعناها، ويشيع الخبر -حينئذ- بهذا، ويستتر أمرك.

فعملنا على هذا، بعد أن استتبْتُها[1]، فتابت، وحَلَفَتْ بالله العظيم، لا عادت تفعل شيئًا من ذلك.

وكنتُ قد خطر لى أن أبيع هذه الجـارية، إلى سَفَّار يُغـرِّبُها عن هذه البلد التى نحن فيها، وأراعى مَبيت الصبيّة، وأبيتُّهُا إلى جانبى، ففضحتنَا ونفسَك.

فقال القاضى للصبيّة: ما تقولين؟

فقالت صدقت أمّى، ووالله، لا عدتُ أبدًا، وأنا تائبةٌ إلى الله تعالى.

فقال لها أبوها: هذا صاحبك الذى قطع يدك، فكادت تتلف جزعًا.

ثم قال لى: يا فتى من أين أنت؟

قلت: من العراق.

قال: ففيمَ ورَدْتَ؟

قلت: أطلب الرزق.

قال: قد جاءك حلالاً طيـبًا، نحن قـوم مـياسـير[2]، ولله علينا نعمة وسِتر، فلا تُنقِص النعـمة، ولا تهتك السِّتـر، أنا أزوّجكَ بابنتى هذه، وأغنيكَ بمالى عن الناس، وتكون معنا فى دارنا.

فقلت: نعم.

فرفع الطعـام، ثم خرج إلى المسجد، والناس مـجتمعـون ينتظرونه، فخطب، وزوّجنى، وقام فرجع، وأقعدنى فى الدار.

---

(١) طلبت منها أن تتوب.

(٢) مياسير: ميسورون أغنياء.

ووقعت الصبيّة فى نفسى، حتى كدتُ أموت عشقًا لها، فافترعتها[1] وأقامت معى شهورًا، وهى نافرةٌ منّى، وأنا أؤانسها، وأبكى حسرة على يدها، وأعتذر إليها، وهى تظهر قَبول عذرى، وأنّ الذى بها غمّاً على يدها، وهى تزداد حُنقًا علىّ.

إلى أن نمتُ ليلةً، واستثقلتُ فى نومى، فأحسستُ بِثقْل على صدرى، فانتبهتُ جَزِعًا، فإذا زوجتى باركة على صدرى، وركبتاها على يدىَّ، مستوثقة منهما، وفى يدها سكّين، وقد أهْوَتْ لتذبحنى، فاضطربتُ.

ورُمْت الخلاص، فتعذّر، وخَشِيتُ أن تبادرنى، فسكتّ، وقلت لها: كلّمينى، واعملى ما شئتِ.

فقالت لى: قل.

فقلت: ما يدعوكِ إلى هذا؟

قالت: أظننتَ أنّك قد قطعتَ يدى، وهتكتنى، وتزوّجنى مثلك، وتنجو سالمًا؟ والله لا كان هذا.

فقلت: أما الذبح، فقد فاتك، ولكنّك تتمكّنين من جراحات توقعينها بى، ولا تأمنين أن أفلتَ، فأذبحك، وأهرب أو أكشف هذا عليك، ثم أسلمك إلى السلطان، فتنكشف جنايتك الأولى، والثانية، ويتبرّأ منكِ أبوك، وأهلك، وتُقتلين.

فقالت: افعل ما شئتَ لا بدّ من ذبحك، وقد استوحش الآن كلّ منّا من صاحبه.

فنظرتُ، فإذا الخلاص منها بعيد، ولا بدّ من أن تجرح موضعًا من بدنى، فيكون فيه تلفى.

فقلت: ليس إلاّ العمل فى حيلة، فقلتُ لها: أوَ غير هذا؟

قالت: قل.

---

(١) افترع الفتاة: أزال بكارتها.

قلت: أطلّقك الساعة، وتفرجين عنّى، وأخرج غدًا عن البلد، فلا أراكِ، ولا ترينى أبدًا، ولا يُكشف لك حديث فى بلدك، ولا تفتضحى، وتتزوّجين بمن شئتِ، فقد شاع أنّ يدك قُطِعت بخرّاج خبثها، وتربحين الستر.

قالت: لا أفعل، حتى تحلف لى أنّك لا تقيم فى البلد، ولا تفضحنى أبدًا، وتعجّل لى الطلاق.

فطلّقتها، وحلفتُ لها بالأيْمان المغلَّظة أنّى أخرج، ولا أفضحها، فقامت عن صدرى تعدو، خوفًا من أن أقبض عليها، حتى رمت الموسى من يدها، بحيث لا أدرى أين هو، وعادت.

وأخذتْ تُظهِر أنّ الذى فعلته بى مُزاحًا، وأخذت تلاعبنى، فقلت: إليكِ عنى، فقد حَرُمْتِ علىّ، ولا تحلّ لى ملامستُك، وفى غد أخرج عنك.

فقال: الآن علمتُ صدقك، والله، لئن لم تفعل، لا نجوتَ من يدى، وقامت فجاءتنى بُصرة، وقالت: هذه مائة دينار، خذها نفقة لك، واكتب رُقعة بطلاقى، واخرج غدًا.

فأخذتُ الدنانير، وخرجتُ من سُحْرَةِ ذلك اليوم، بعد أن كتبتُ إلى أبيها، أنّى قد طلقتها ثلاثًا، وأنّنى خرجتُ حياءً منه.

ولم ألتق معهم إلى الآن.

●●●

٣- الرؤيا

حدثنى أبو المحسن أحمد بن يوسف الأزرق بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول الأنبارى التّنّوخى، قال:

خرج أخى أبو محمد الحسن بن يوسف، يقصد أخانا أبا يعقوب إسحاق ابن يوسف وهو حينئذ بمصر، ومعه زوجة كانت لأبى يعقوب إسحاق ببغداد، وبُنية له منها، ومضى.

فلما عاد حدثنى أنه سلك فى قافلة كبيرة، من «هيْت» على طريق السماوة[١]، يريد دمشق، قال: فلما حصلنا فى أعماق السماوة، أخفرنا[٢] خفراؤنا، وجاء قوم من الأعراب، فظاهروهم علينا، وأظهروا أنهم من غيرهم، وقطعوا علينا، فاستاقوا ركائبنا، فبقيت أنا والناس مطرحين على الماء الذى كنا نزلنا عليه بلا جمل، ولا زاد، ولا دليل، فأيسنا من الحياة.

فقلتُ للناس: إن الموت لا بد منه على كل حال، أقمنا فى أماكننا أم سرنا، فلأن نسير فى طلب الخلاص فلعل الله أن يرحمنا ويخلصنا، أولى من أن نموت ههنا، وإن متنا فى سيرنا كان أعذر.

فساعدونى، وسرنا يومنا وليلتنا، وأنا أحمل الصبية ابنة أخى، لأن أمها عجزت عن حملها، وكلما طال علينا الطريق، ولم نر إنسانًا ولا محجة[٣]، أحسسنا بالهلاك، ومات منا قوم، وأنا خلال ذلك، قد بدأت بقراءة ختمة، وأنا متشاغل بها، وبالدعاء.

إلى أن وقعنا فى اليوم الثانى، على حلة[٤] أعراب، فأنكرونا، فلم أعمل عملاً، حتى ولجت بيت امرأة منهم، فأمسكت ذيلها، وكنت سمعت أن الإنسان إذا عمل ذلك أمن شرهم، ووجب حقه عليهم، ثم تفرقنا فى البيوت.

---

(١) من الطريف أن يكون حادث قطع الطريق فى قصة سابقة فى هذا الموقع نفسه ببادية الشام أو السماوة، وهذا يؤكد اضطراب الأمن فى المنطقة، وكثرة لصوص الأعراب.

(٢) أخفرتنا: غدرت بنا، وهذا ما حدث أيضًا فى القصة السابقة.

(٣) المحجة: الطريق.

(٤) الحلة: القرية أو ما يشبهها.

واختلفت أحوال الناس، فأما أنا، فإن صاحب البيت الذى نزلت عليه، لما رأى هيبتى ودرسى للقرآن، أكرمنى، ولم أزل أحادثه وأرفق به.

فقال لى: ما تشاء؟

فقلت: تركبنى وهذه المرأة، وهذه الصبية، راحلة، وتسير معنا إلى دمشق على راحلة أخرى، بزادٍ وماءٍ، حتى أعطيك ثمن راحلتك، وأهبها لك، وأقضى حقك بعد هذا.

قال: فتذمم[1] واستحيا، وقدرتُ أنى إذا دخلت دمشق، وجدت بها من أصدقاء أخى، من آخذ منه ما أريد.

فكسانى الأعرابى، وكسا المرأة والصبية، ووطأ لى راحلة، وحمل معنا من الماء والزاد كفايتنا، وركب هو راحلة أخرى، وكان أكثر من وصل معنا إلى ذلك الموضع، قد تأتّى لى، فصرنا رفقة صالحة العدد.

فلما كان بعد أيام، شارفنا دمشق مع طلوع الشمس، فإذا بأهلها قد خرجوا يستقبلوننا، وكل من له صديق أو معرفة، يسأل عنه، وقد بلغهم خبر القطع، فما شعرتُ إلا بإنسان يسأل عنى، بكنيتى ونسبى.

فقلت: هأنذا.

فعدل إلى: وقال: أنت أبو محمد الأزرقُ الأنبارىُّ؟

فقلت: نعم.

فقال: إلىّ، وأخذ بخطام راحلتى، وتبعنى الأعرابى براحلته، حتى دخلنا مع الرجل دمشق.

فجاء بنا الرجل، إلى دار حسنة سرية، تدل على نعمة حسنة، فأنزلنا، ولم أشك أنه صديق لأخى.

---

(١) تذمم: أظهر التعفف.

فنزلت، وأنزلتُ الأعرابى معى، وأخذت جمالنا، وأدخلنا الحمام وألبست خلعة نظيفة، وفعل بالمرأة والصبية مثل ذلك، وأقمتُ عنده يومين فى خفض عيش، لا أسأله عن شىء، ولا يسألنى.

فلما كان فى اليوم الثالث، قال: ما صورة هذا الأعرابى معك[1]؟ فأخبرته بما أخذنا منه.

فقال لى: خذ ما تريد من المال.

فقلت: أريد كذا وكذا ديناراً، فأعطانى ذلك، فدفعته إلى الأعرابى، وسلمت إليه جمليه.

وسألت الرجل أن يزوده زاداً كثيراً لا يكون مثله فى البادية، فأخرج له شيئًا كثيراً، وخرج الأعرابى شاكراً.

فقال لى الرجل: إلى أين تريد من البلاد، وكم يكفيك من النفقة؟

فلما قال لى ذلك، ارتبتُ به، وقلت: لو كان هذا من أصدقاء أخى الذين كاتبهم بتفقدى، لكان يعرف مقصدى.

فقلت له: كم كاتبك أخى أن تدفع إلىّ؟

قال: ومن أخوك؟

قلت: أبو يعقوب الأزرق الأنبارى، الكاتب بمصر.

فقال: والله، ما سمعت بهذا الاسم قط، ولا أعرفه.

فورد علىّ أعجب مورد، وقلت له: يا هذا، إنى ظننتك صديقًا لأخى، وأن ما عاملتنى به من الجميل من أجله، فانبسطت إليك بالطلب، ولو لم أعتقد هذا لانقبضتُ، فما السبب فيما عاملتنى به؟

فقال: أمر هو أوْكَدُ من أمر أخيك، يجب أن يكون انبساطك إليه أتمّ.

(١) يعنى ما علاقة هذا الأعرابى بك؟

فقلت: ما هو؟

قال: إنّ خبر الوقعة بالقافلة التى كنت فيها، بلغنا فى يوم كذا وكذا، فما بقى كبير أحد بدمشق، إلا وردت عليه مصيبة عظيمة، إما بذهاب مال، أو بغم على صديق، غيرى، فإنى لم يكن لى شىء من ذلك يتعلق قلبى به، واتعد الناس للخروج، لتلقى المنقطعين، وإصلاح أحوالهم، ولم أعزم أنا.

فلما كان فى الليل، رأيت النبى ﷺ فى النوم، وهو يقول لى: أدرك أبا محمد الأزرقَ الأنبارى، وأغنْه، وأصلْح شأنه بما يُبلغه مقصده، فلما أصبحتُ، خرجتُ مع الناس، فسألتُ عنك، فكان ما رأيتَ، والآن اذكر ما تريده.

فبكيت بكاءً شديدًا، لم أقدر معه على خطابه مدة، ثم نظرتُ إلى ما يبلغنى مصر، فطلبته منه، فأخذته، وأصلحتُ أمرى، وسألتُ الرجل عن اسمه، فقال: أنا فلان ابن فلان الصابونى..

قال: فلما بلغت إلى مصر، حدثت أخى بالحديث، فعجب منه، وبكى.

قال أبو الحسن: وضرب الدهر ضربه، وورد أبو يعقوب أخى إلى بغداد بعد سنين، فتذاكرنا هذا الحديث.

فقال أخى: لما عرفنى أخى أبو محمد، ما عامله به ابن الصابونى الدمشقى هذا، جعلته صديقًا لى، فكنت أكاتبه.

فلما وردتُ إلى دمشق، وجدتُ حاله قد اختلت، لمحَنٍ لحقته، فوهبتُ له ضيعتى بدمشق، وكانت جليلة الغلّة والقيمة، فسلّمتها إليه، مكافأةً لما عامل به أبا محمد أخى.

●●●

٤- ضَرْبَةُ حَظّ

خرج رجل من الكتّاب فى عسكر المعتصم إلى مصر، يريد التصرفُ[١]، فلم يحظ بشىء مما أمل، ودخل المعتصم بالله مصر.

قال: فحدَّثنى بعض المتصرفين عنه، قال: نزلتُ فى دارٍ بالقرب منه، فحدثنى الرجل بما كنت وقفتُ على بعضه.

قال: أصبحتُ ذات يوم، وقد نَفَدت نفقتى، وتقطعت ثيابى، وأنا من الهم، والغم، على ما لا يوصف عظمًا.

فقال لى غلامى: يا مولاى، أىَّ شىء نعمل اليوم؟

فقلت له: خذ لجام الدابّة، فبِعْه، فإنه مُحَلًّى، وابتع مكانه لجامًا حديدًا، واشتر لنا خبزًا سَمِيذًا، وجَدْيًا سمينًا، فقد قرِمْتُ إلى أكلهما، وعجل، ولا تدع أن تبتاع فيما تبتاعه كوز نبيذ شيروىّ[٢].

فمضى الغلام، وجلستُ أفكر فى أمرى، ومَن ألاقى، وكيف أعمل، وإذا بباب الدار قد دُقّ دقاً عنيفًا، حتى يكاد أن يُكسر، وإذا رَهَجٌ[٣] شديد.

فقلت لغلام كان واقفًا بين يدى: بادر، فانظر ما هذا.

فإلى أن يفتح الباب، كُسر، وامتلأت الدار بالغلمان الأتراك وغيرهم، وإذا بأشناس، وهو حاجب المعتصم، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وهو الوزير، قد دخلا.

فطرحتُ لهم زُلية[٤]، فجلسا عليها، وإذا معهما حفّارون.

---

(١) يريد التصرف: يبحث عن وظيفة.

(٢) السميذ: السميط، قرم إلى اللحم: اشتاق إلى أكله، وشيروى: نسبة إلى شيراز أو شخصه يصنعه.

(٣) رهج: غبار.

(٤) زلية: بساط، وهى فارسية، وتستخدم فى الخليج والعراق الآن ولكن يقال: زولية.

قال: فلما رأيتُ ذلك، بادرتُ فقبلت أيديهما، فسألانى عن خبرى، فخبرتهما إياه، وأننى قد خرجتُ فى جملة أهل العسكر، طلبًا للتصرف وذكرتُ حالى وما قد آلت إليه، فوعدانى جميلاً، والحفّارون يحفرون فى وسط الدار، حتى ترجل النهار[١]، وأنا واقف بين أيديهما، وربما حدثتهما.

فالتفت أشْناس إلى محمد بن عبد الملك فقال: أنا والله جائع.

فقال له محمد: وأنا -واللهِ- كذلك.

فقلتُ عند ذلك: يا سيدى، عند خادمكما شىء قد اتُّخذَ له، فإن أذنتما فى إحضاره أحضره.

فقالا: هات.

فقدمت الجدى: وما كان ابتيع لنا، فأكلا، واستوفيا، وغسلا أيديهما.

ثم قال لى أشناس: عندك شىء من ذلك الفن؟[٢].

قلت: نعم، فسقيتهما ثلاثة أقداح.

وجعل أحدُهُما يقول للآخر: ظريف، وما ينبغى لنا أن نضيعه البائس.

فبينما الحال على ذلك، إذ ارتفع تكبيرُ الحفارين، وإذا هم قد كشفوا عن عشرين مرجلاً[٣] دنانير، فوجهوا بالبشارة إلى المعتصم، وأخرجت المراجل.

فلما نهضا، قال أحدهما للآخر: فهذا الشقى الذى أكلنا طعامه، وشربنا شرابه، ندعه هكذا؟

فقال له الآخر: فنعمل ماذا؟

قال: نَحفِن له من كل مِرْجل حَفْنة، لا تؤثر فيه، فنكون قد أغنيناه، ونَصْدُقُ أمير المؤمنين عن الحديث.

---

(١) ترجل النهار: بلغ غايته، أى وقت الظهيرة.

(٢) السؤال عن «ذلك الفن» كناية عن النبيذ.

(٣) المرجل: الإناء أو القدر الضخمة.

ثم قالا : افـتح حجرك. وجـعل كل واحد، يحفِن له حَـفْنَة، من كل مِرْجَل، وأخذا المال، وانصرفا.

فنظرتُ، فإذا قـد حصل لى عشـرون ألف دينار، فانصرفتُ بهـا إلى العراق، وابتعتُ بها ضياعًا ولزمت منزلى، وتركت التصرف.

●●●

٥- عَوْدَةُ الغائِب

قال مؤلف هذا الكتاب: وقد بلغنى حديث لعمرو بن مَسْعَدة فى زلاله[١]، أن عمروَ بنَ مسعدة، كان مُصَعِداً من واسط إلى بغداد، فى حرٍّ شديد، وهو جالس فى زلال، فناداه رجلٌ: يا صاحب الزلال، بنعمة الله عليك إلا نظرتَ إلىّ.

قال: فكشف سَجْفَ الزلال، فإذا بشيخ ضعيف حاسرِ الرأس.

فقال له: قد ترى ما أنا عليه، ولستُ أجد مَن يحملنى، فابْتغ الأجر فىّ، وتقدم إلى ملاّحيك يطرحونى بين مجاديفهم، إلى أن أصل بلداً يطرحونى فيه.

قال عمرو بن مسعدة: فرحمته، وقلت: خذوه، فأخذوه، فغُشِىَ عليه، وكاد يموت لما لحقه من المشى فى الشمس.

فلما أفاق، قلت له: يا شيخ، ما حالك، وما قصتك؟

فقال: قصة طويلة.

فسكّنته وطرحتُ عليه قميصاً ومنديلاً، وأمرتُ له بِدَراهمَ وشَمْشَك[٢]، فشكرنى.

فقلت: لا بد أن تحدّثنى بحديثك.

فقال: أنا رجل كانت لله عَزَّ وجَلَّ علىَّ نعمة جليلة، وكنتُ صَيرفيّاً، فابتعتُ جارية بخمسمائة دينار، فعشقتها عشقاً عظيماً، وكنتُ لا أقدر أن أفارقها ساعة واحدة، فإذا خرجتُ إلى الدكان، أخذنى كالجنون والهَيَمَان، حتى أعود فأجلس معها يومى كله.

فدام ذلك حتى تعطل دكانى، وتعطل كسبى، وأقبلتُ أنفق من رأس المال، حتى لم يبق منه قليل ولا كثير، وأنا مع ذلك لا أطيق أن أفارقها..

---

(١) الزلال: نوع من سفن السفر الخاصة.

(٢) الشمشك: هو الشبشب بالفارسية.

فحبِلَت الجـارية، وأقبلتُ أنقض دارى، وأبيه نَقْضَهـا، حتى فَرَغْت من ذلك، فلم تبق لى حيلة.

فضربهـا الطَّلْقُ، فقالت: يا هذا، هو ذا أموت، فاحـتل فيما تبتـاع به عسلاً، ودقيقًا، وشيرجًا[1]، ولحمًا، وإلا متُّ.

فبكيتُ، وحـزنتُ، وخرجتُ على وجـهى، وجئتُ لأغرقِ نفـسى فى دِجلة، فذكرتُ حلاوة النفس، وخوف العقاب فى الآخرة، فامتنعت.

ثم خرجتُ هائمًا على وجهى إلى النَّهْـروَان، وما زلتُ أمشى من قرية إلى قـرية، حتى بلغتُ خُـراسـان، فصـادفتُ بهـا من عرفنى، وتصـرّفت[2] فى ضياعه، ورزقنى الله عَزَّ وجَلَّ مالاً عظيمًا، فأثريْت، واتَّسعت حالى، ومكثتُ سنين، لا أعرف خبر منزلى، فلم أشكّ أن الجارية قد ماتت.

وتراخت السنون حتى حصل لى ما قيمته عشرون ألف دينار.

فقلت: قد صارت لى نعمة، فلو رجعتُ إلى وطنى.

فابتعتُ بالمال كله، متاعًا من خُـراسان، وأقبلتُ أريد العراق، من طريق فارسَ والأهْوَاز.

فلما حَـصَلتُ بينهما، خـرج على القافلة لصـوص، فأخذوا جمـيع ما فيـها، ونَجَوْتُ بثيابى، وعدتُ فقيرًا.

ودخلتُ الأهواز، فبـقيتُ بها متـحيرًا، حتى كـشفتُ خبرى لبـعض أهلها ممن أعرفه، فأعطانى ما تحملت به إلى واسط.

ونفدَتْ نفقـتى، فمشيْتُ إلى هذا المـوضع، وقد كدتُ أتلف، فاستـغثتُ بك، ولى منذ فارقت بغداد، ثمان وعشرون سنة.

فعـجبتُ من ذلك، وقلت له: اذهب، فاعـرف خبرَ أهلك، وصـرْ إلىَّ، فإنِّى أتقدم بتصريفك فيما يصلح لمثلك، فشكر، ودعا، ودخلنا بغداد.

---

(١) الشيرج: زيت السمسم أو السيرج.

(٢) تصرفت: عملت أو توظفت.

ومضت على ذلك مدة طويلة، أنسيتُه فيها، فبينَا أنا يومًا، قد ركبتُ، أريد دار المأمون، وإذا بالشيخ على بابى، راكبًا بغلاً فارهًا، بمَرْكَبٍ محلى ثقيل، وغلامٍ أسودَ بين يديه، وثيابٍ حسنة.

فلما رأيته رحبت به، وقلت: ما الخبر؟

فقال: طويل، وها أنا آتى إليك فى غدٍ، وأحدثك بالخبر.

فلما كان من الغد، جاءنى، فقلت له: عرفنى خبرك، فقد سررتُ بسلامتك، وبظاهر حالك.

فقال: إنّى صعدت من زلآلك، فقصدتُ دارى، فوجدتُ حائطها الذى يلى الطريق كما خلّفته، غير أن باب الدار كان مَجْلواً، نظيفًا، وعليه دكاكين، وبواب، وبغل مع شاكرية[1].

فقلت: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، ماتت جاريتى، وملك الدار بعضُ الجيران، فباعها من رجل من أصحاب السلطان.

ثم تقدّمتُ إلى بقّال كنتُ أعرفه فى المحلة، فوجدتُ فى دكانه غلامًا حَدَثًا.

فقلت له: مَن تكون من فلان البقال؟

فقال: أنا ابنه.

فقلت: ومتى مات؟

قال: منذ عشرين سنة.

قلت: لمن هذه الدار؟

قال: لابن داية أمير المؤمنين، وهو الآن صاحب بيت ماله.

قلت: بمن يُعرف؟

قال: بابن فلان الصيْرَفىّ، فأسمانى.

---

(١) الشاكرية: السيّاس (جمع سائس)، ويقصد بالدكاكين: المقاعد، أو ما نطلق عليه «الدكّة».

قلت: فهذه الدار مَن باعها إليه.

قال: هذه دار أبيه..

قلت: وأبوه يعيش؟

قال: لا.

قلت: أتعرف من حديثهم شيئًا؟

قال: نعم، حدّثنى أبى، أنّ والد هذا الرجل كان صيرفيّاً جليلاً، فافتقر، وأنّ أمّ هذا الرجل ضربها الطَلْق، فخرج أبوه يطلب لها شيئًا، ففُقِد، وهَلَكَ.

وقال أبى: جاءنى رسول أمّ هذا، يطلب لها شيئًا، وهى تستغيث بى، فقمتُ لها بحوائج الولادة، ودفعتُ لها عشرة دراهم، فما أنفقَتْها، حتى قيل: قد وُلد لأمير المؤمنين الرشيد، مولود ذكر، وقد عُرض عليه جميعُ الدايات، فلم يقبل ثديهنّ، وقد طُلبَ له الحرائر، فجاءوه بغير واحدة، فما أخذ ثدى واحدة منهن، وهم فى طلب مُرضع.

فأرشدتُ الذى طلب الداية إلى أمّ هذا، فحُمِلَتْ إلى دار الرشيد، فحين وُضِع فمّ الصبى على ثديها، قَبِله، فأرضعته، وكان الصبى المأمون، وصارت عندهم فى حال جليلة، ووصل إليها منهم خير كثير.

ثم خرج المأمون إلى خُراسان، وخرجت هذه المرأة وابنُها هذا معها، ولم نعرف أخبارهم إلاّ منذ قريب، لما عاد المأمون، وعادت حاشيتُه، رأينا هذا قد صار رجلاً، ولم أكن رأيته قَبْلُ قط، وقد كان أبى مات.

فقالوا: هذا ابن فلان الصيرفى، وابنُ داية الخليفة المأمون، فبنى هذه الدار وسواها.

فقلت: فعندك علم من أمّهُ أهى حيّة أم ميتة؟

قال: هى حيّة، تمضى إلى دار الخليفة أيّامًا، وتكون عند ابنها أيّامًا هنا.

فحَمَدْتُ الله تعالى على هذه الحال، وجئت، حتى دخلت الدار مع الناس، فرأيتُ الصحن فى نهاية العمارة والحُسْن، وفيه مجلسٌ كبير مفروش بفُرُشٍ فاخرة، وفى صدره رجل شاب بين يديه كتّاب وجَهَابذة[1]، وحساب يستوفيه عليهم، وفى صفاف الدار وبعض مجالسها، جَهَابِذَةٌ بين أيديهم الأموال والتخوت، والشواهين[2]، يقبضون ويُقْبِضُون.

وبَصُرْتُ بالفتى، فرأيتُ شبَهِى فيه، فعلمتُ أنه ابنى، فجلستُ فى غُمار الناس، إلى أن لم يبق فى المجلس غيرى، فأقبل علىّ.

فقال: يا شيخ، هل من حاجة تقولها؟

فقلت: نعم، ولكنه أمر لا يجوز أن يسمعَه غيرُك.

فأومأ إلى غِلمان كانوا قيامًا حوله، فانصرفوا، وقال: قُلْ، أعزّكَ الله.

قلت: أنا أبوك.

فلمّا سمع ذلك تغيّر وجهه، ثم وثب مسرعًا، وتركنى مكانى.

فلم أشعر إلا بخادم جاءنى، فقال: قم يا سيدى، فقمت أسير معه، حتى بلغت ستارة منصوبة، فى دار لطيفة، وكرسى بين يديها، والفتى جالس على كرسى آخر.

فقال: اجلس أيّها الشيخ..

فجلستُ على الكرسى، ودخل الخادم، فإذا بحركة خلف الستارة.

فقلت: أظنّك تريد أن تختبر صدق ما قلتُ لك من جهة فلانة، وذكرتُ اسم جاريتى، أمّه.

قال: فإذا بالستارة قد كُشِفَت، والجارية قد خرجت إلىّ، فوقعت علىّ تقبّلنى وتبكى، وتقول: مولاى والله.

---

(١) الجهابذة: (جمع جهبذ) وهم الصيارفة ومحصلو الأموال.

(٢) التخت: صندوق يُحفظ به ميزان الذهب، والشاهين: الميزان.

قال: فرأيتُ الفتى، قد تشوّش، وبُهِتَ وتحيّر.

فقلت للجارية: وَيْحَكِ ما خبرك؟

فقالت: دع خبرى، ففى مشاهدتك، ممَّا تفضل الله عَزَّ وجَلَّ بذلك، كفاية، إلى أن أخبرك، فقُلْ ما كان من خبرك أنت؟

فقصصتُ عليها خبرى، منذ يوم خروجى من عندها، إلى يومى ذاك، وقصَّت هى، علىَّ قصتها، مثل ما قال ابن البقال، وأعجب، وأشرح، وكلّ ذلك بمرأى من الفتى ومسمع، فلما استوفى الحديث، خرج وتركنى فى مكانى.

قال: وإذا أنا بخادم، قال: يا مولاى، يسألك ولدك أن تخرج إليه.

قال: فخرجتُ إليه، فلما رآنى من بعيد، قام قائمًا على رجليه، وقال: معذرة إلى الله، وإليكَ يا أبة، من تقصيرى فى حقك، فإنه فجأنى من أمرك، ما لم أظنّ أنّه يكون، والآن، فهذه النعمة لك، وأنا ولدُك، وأميرُ المؤمنين مجتهد بى منذ دهر، أن أدَعَ هذه الجَهْبذَة، وأتوفرَ على خدمته فى الدار، فلا أفعل، طلبًا للتمسكَ بصنعتى، والآن، فأنا أسأله أن يرد إليك عملى، وأخدمُه أنا فى غيرها، فقم عاجلاً، وأصلِحْ أمرك.

فأخِذت إلى الحمّام ونُظِّفت، وجاءونى بخِلعة، فألبستها، وخرجتُ إلى حجرة والدته، فجلستُ فيها.

ثم أدخلنى على أمير المؤمنين، وحدّثتُه بحديثى، وخلَعَ علىّ، وردّ إلىّ العمل الذى كان إلى ولدى، وأجرى علىّ من الرزق، فى كلّ شهر كذا، وقلّد ابنى أعمالاً هى من أجلّ عمله، وأضْعَفَ له أرزاقه، وأمره بلزوم حضرته فى أشياء استعمله فيها من خاصّ أمره.

فجئتُ لأشكركَ على ما عاملتنى به من الجميل، وأعرفك بتجدّد النعمة.

قال عمرو بن مَسْعدَة: فلما أسمى الفتى علِمتُ أنّه ابنُ داية المأمون، كما قال.

●●●

٦- فِرَاسَةٌ أو تَعَارُفُ أرْوَاحٍ؟!

عن رجل من أهل الكوفة، قال:

كنّا مع مَسْلَمة بنِ عبد الملك[١]، ببلاد الرّوم، فسبا سبـايا كثيرة، وأقام ببعض المنازل، فعُـرضَ السبىُ على السيف، فقـتل خَلْقًا، حتّى عُـرِضَ عليه شيخٌ كبـير ضعيف، فأمر بقتله.

فقال له: ما حاجتك إلى قتل شيخ مـثلى؟ إن تركتنى حياً، جئتك بأسيرّين من المسلمين شابّين.

قال له: ومَن لى بذلك؟[٢].

قال: إنّى إذا وعدتُ وفيتُ.

قال: لستُ أثِق بك.

فقـال له: دعنى حتّى أطوفَ فى عسكرك، لعلّى أعـرف مَن يتكفَّلُ بى إلى أن أمضى وأعود أجىء بالأسيرين.

فتوكَل به مَن يطوف به، وأمـره بالاحتفاظ به، فما زال الشّـيخ يطوف ويتصفّح الوجوه، حتّى مرّ بفتّى من بنى كلاب، قائمًا يحسّ فرسه[٣].

فقال له: يا فتى، اضمنّى للأمير، وقص عليه قصّته.

فقال: أفعَلَ، وجاء الفتى إلى مَسْلَمة، فضمنه، فأطلقه مسلمة.

فلمّا مضى، قال للفتى: أتعرفه؟

قال: لا، والله.

قال: فلمَ ضمنته؟

---

(١) أحد القادة الأبطال من البيت الأموى.

(٢) يعنى: مَن يضمن صدقك؟

(٣) يحسّه: ينظفه. والمحسَّة: آلة من حديد ذات أضراس يُزال بها الغبار عن الدابة.

قال: رأيته يتصفّح الوجوه، فاختارنى من بينهم، فكرهتُ أن أخلُفَ ظنّه فىّ.

فلمّا كان من الغد، عاد الشيخ، ومعه أسيران شابّان من المسلمين، فسلّمهما إلى مَسْلَمة، وقال: إن رأى الأميرُ أن يأذن لهذا الفتى أن يصير معى إلى حصنى لأكافئَه على فعله.

فقال مسلمة للفتى الكلابى: إن شئتَ فامضِ معه.

فلمّا صار إلى حصنه، قال له: يا فتى، تعلم -واللّهِ- أنّك ابنى؟

قال له: وكيف أكون ابنك، وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت رجل من الرّوم نصرانى؟!

فقال له: أخبرنى عن أمّك، ما هى؟

فقال: روميّة.

قال: فإنّى أصفها لك، فباللّهِ إن صَدَقْتُ، إلاّ صَدَّقْتَنِى.

قال: أفعلَ.

فأقبل الرّْومى، يصف أمّ الفتى، ما خَرَم من صفتها شيئًا.

فقال له الفتى: هى كذلك، فكيف عرفتَ أنّى ابنها؟

قال: بالشّبّه، وتعارفِ الأرواح، وصدقِ الفراسة.

ثمّ أخرج إليه امرأة، فلمّا رآها الفتى لم يشكّ فيها أنهّا أمه لتقارُب الشّبه، وخرجت معها عجوز كأنّها هى، فأقبلتا تقبّلان رأس الفتى، ويديه، وتترشّفانه.

فقال له: هذه جدّتُك، وهذه خالتُك.

ثمّ اطّلع من حِصنه، فدعا بشباب فى الصحراء، فأقبلوا، فكلّمهم بالرّومية، فأقبلوا يقبّلون رأس الفتى ويديه، فقال: هؤلاء أخوالُك، وبنو خالاتك، وبنو عمّ والدتك.

ثمّ أخرج إليه حَلْياً كثيرًا، وثيابًا فاخرةً، وقال: هذا لوالدتك عندنا منذ سُبِيَتْ، فخذه معك، وادفعه إليها، فإنّها ستعرفه، ثمّ أعطاه لنفسه مالاً كثيرًا، وثيابًا، وحلياً، وحمله على عدّة دواب، وألحقه بعسكر مَسْلَمة، وانصرف. وأقبل الفتى قافلاً حتىّ دخل إلى منزله فأقبل يُخرج الشيء بعد الشيء مما عرّفه الشيخ أنّه لأمّه، وتراه أمّه، فتبكى، فيقول لها: قد وهبتُه لك.

فلمّا كثَّر عليها، قالت له: يا بنىّ، أسألك باللّهِ، من أى بلد صارت إليكم هذه الثّياب، وهل تصف لى أهل هذا الحصن الذى كان فيه هذا؟

فوصف لها الفتى صفةَ البلد والحصن، ووصف لها أمّها وأختها، والرّجالَ الذين رآهم، وهى تبكى وتقلق.

فقال لها: ما يبكيكِ؟

فقالت: الشيخ واللّهِ والدى، والعجوز أمّى، وتلك أختى.

فقصّ عليها الخبر، وأخرج بقيّة ما كان أنفذه معه أبوها إليها، فدفعه إليها.

●●●

٧- ابنُ التِّمْسَاح!!

وحكى أبو على محمد بن الحسن بن المظفّر الكاتب المعروف بالحاتِمىّ، قال:

رأيتُ بمصر رجلاً يُعرف بابن التمساح، فسألتُ جماعة من أهل مصر، من العامّة، عن ذلك.

فقالوا: هذا وَطِئَ التمساحُ أمّه، فولدته.

فكذّبْتُ ذلك، وبحثتُ عن الخبر، فأخبرنى جماعةٌ من عقلاء مصر، أن التمساح بها يأخذ النّاس من الماء فيفترسهم.

وربما أخذهم وهو شبعان، فيحمل المأخوذ بيده على صدره، حتى يجيء به إلى أجرافِ أسفلَ مصر بمسافة، وهى جبال حجارة فيها مغارات إلى النيل، لا يصل إليها الماشى ولا سالك الماء لبعدِها عن الجهتين.

فيتسلّق التمساح إلى بعض المغارات، فيردع بها الإنسان الذى أخذه، حيّاً أو ميتّا بحسب الاتفاق، ويمضى.

فإذا جاع ولم يظفر بشىء، عاد إلى الموضع فيفترس الإنسان الذى خبّأه هناك.

قال: فكان قد قبض على امرأة فى بعض الأوقات، فجعلها فى المغارة، فذكرتْ المرأة، أنّها حينما استقرّت فى المغارة، وانصرف التمساح، رأت هناك رجلاً حيّاً، وآثار جماعة قد افترسهم التمساح.

وأنّها سألت الرجلَ عن أمره، فذكر أنّ التمساح تركه هناك منذ يومين.

قالت: وأخذ الرجل يؤانسنى بالحديث، إلى أن طالبنى بنفسى.

فقلت: يا هذا اتّق اللهَ.

فقال: التمساح قد مضى، ومن ساعة إلى ساعة فَرَج، ولعل أن تجتازَ بنا سفينة قبل عودته فنطرحَ أنفسنا إليها.

فوعظتُه، فلم يلتفت إلى كلامى، واغتصبنى نفسى، فواقعنى.

وما نزل حتى جاء التمساح، فأخذه من فوقى، ومضى، فبقيتُ كالميتة فزعًا.

فأنا كذلك، إذ سمعتُ وقْعَ حوافر الخيل، وصوتَ أقدام كثيرين، فأخرجت رأسى من الغار، وصحتُ واستغثتُ، فاطلع أحدهم.

وقال: ما أنت؟

فقلت: حديثى ظريف، أرموا لى حبلاً أتخلّص به إليكم.

فرموا لى حبلاً، فشددتُ نفسى، واستظهرتُ جهدى، وأطراف الحبل فى أيديهم.

فقلت: اجذبونى.

فجذبونى، فصرتُ معهم على ظهر المغارة، بعد أن تَوَهَّنْتُ، وتسلّخَتْ يدى.

فسألونى عن خبرى، فأخبرتهم، فأركبونى شيئًا، وأدخلونى البلد، فلمّا كان وقتُ عادة حيْضى، تأخّرت عنّى، ثم ظهر الحَمْل. فولدت ابنى هذا بعد تسعة أشهر.

وكرِهْتُ أن أخبر كل أحد بهذا الحديث، فنسبْتُ ذلك إلى التمساح واستَتَرَ أمرى بذلك.

●●●

٨- سَيِّدٌ محسُودٌ

منارةُ، خادمُ الخلفاء، قال:

رُفعَ إلى هارون الرشـيد، أنّ رجلاً بدمـشق، من بقايـا بنى أميّة، عظـيم الجاه واسعَ الدُّنيـا، كثـير المال والأمـلاك، مطاعًا فى البلد، له جـماعـة أولاد ومماليك وموالى، يركـبون الخيل، ويحـملون السّلاح، ويغزون الرّوم، وأنّه سَـمْحٌ جواد، كثـيرُ البـذل والضيـافة، وأنَّه لا يؤمن منه فَـتْقٌ لا يمكن رَتْقُهُ، فـعَظُمَ ذلك على الرّشيد.

قال منارة: وكان وقوفُ الرّشيـد على هذا وهو بالكوفة، فى بعض خَرْجاته إلى الحجّ سنة ست وثمانين ومـائة، وقد عاد من الموسم، وقد بايع للأمـين ثم المأمون ثم المؤتَمن[١].

فدعـانى وهو خال، فقال لـى: دعوتك لأمر أهمنى وقد مـنعنى النوم، فانظر كيف تكون؟ ثم قصّ علىّ خبر الأموى.

وقال: اخرج السّاعة، فـقد أعددتُ لك الجمَازات[٢]، وأزحتُ علّتَك فى الزاد والنَّفقة والآلات، وضَمَمْتُ إليك مائة غلام، فاسلك البرّيَّة، وهذا كتابى إلى أمير دمشق، وهذه قيود، فادخل، وابدأ بالرجل، فـإن سمع وأطاع، فقيّده، وجئنى به وإلا فتـوكَّل به أنت ومن معك حـتى لا يهرُب، وأنْفذ الكتـابَ إلى أميـر دمشق، ليركب فى جيشـه فيقبض عليه، وتجيئنى به، وقـد أجَلتك لذهابك ستاً، ولعودك ستاً، ويومًا لمقامك، وهذا محـمَل، تجعله -إذا قيّدته- فى شُقّه، وتجلس أنت فى الشّقَ الآخر، ولا تكل حفظه إلى غيرك، حتى تأتينى به فى اليوم الثالث عشر من خروجك، وإذا دخلتَ داره فتفقدْها، وجميع مـا فيها، وأهله، وولده، وحاشيته،

---

(١) هنا مفارقة ذكية وطريفة من راوية القصة، فالرشيد يبايع لخلافته ثلاثة أجيال قادمة، مع هذا يخشى رجلاً محدود القدرة فى أطراف ملكه الواسع!!

(٢) الجمازات: الإبل السريعة المدربة على السفر عدواً.

وغلمانه، وقدْرَ النعـمة، والحال، والمحل، واحفظ ما يقوله الرّجل حـرفًا بحرف، بجمـيع ألفاظه، منذ وقـوع طرفك عليه، إلى أن تأتينى به، وإيّاك أن يـشذّ عليك شىء من أمره، انطلق مُصَاحبًا.

قـال منارة: فودّعـتُـه وخرجـتُ، فركـبنا الإبل، وطوينا المنازل، أسـيـر الليل والنّهار، ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين، والبّول، وتنفيس النّاس قليلاً.

إلى أن دخلتُ دمـشق فى أوّل الليلة السّابعـة، وأبواب البلد مغلقـة، فكرِهْت طَرْقها، فنمتُ بظاهر البلد، إلى أن فُتح بابُه فى الغد، فدخلتُ على هيأتى، حتى أتيتُ باب دار الرجل، وعليـه صُفُفٌ عظيـمة، وحـاشيـة كثـيرة، فلم أسـتأذن، ودخلتُ بغير إذن.

فلما رأى القـوم ذلك، سألوا بعض أصـحابى عنّى، فقـالوا لهم: هذا منارة، رسولُ أمير المؤمنين إلى صاحبكم، فأمسكوا.

فلمّا صرتُ فى صَحْنِ الدّار، نزلتُ، ودخلتُ مجلسًا، رأيتُ فيه قومًا جلوسًا، فظننتُ أن الرّجل فيهم، فقاموا إلىّ، ورحبوا بى، وأكرمونى فقلت: أفيكم فلان؟

قالوا: لا، نحن أولاده، وهو فى الحمّام.

فقلت: استعجلوه.

فمضى بعـضهم يستعجله، وأنا أتفـقد الدّار، والأحوال، والحاشيـة، فوجدتُ الدّار قد مَاجَتْ بأهلِها مَوْجًا شديدًا.

فلم أزل كذلك، حتى خرج الرّجل، بعد أن أطال، واستَرَبْتُ به، واشتدّ قلقى وخوفى من أن يتوارى.

إلى أن رأيتُ شيخًا قد أقبل بزىّ الحمّـام، يمشى فى الصّحن، وحوله جماعة، كهولٌ، وأحداثٌ، وصبيانٌ، هم أولاده، وغلمانٌ كثير، فعلمتُ أنه الرّجل.

فجـاء حتى جلس، وسلّم علىّ سـلامًا خفـيفـا، وسألنى عن أميـر المؤمنين، واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب.

فما انقضى كلامه حتّى جاؤوه بأطباق الفاكهة، فقال لى: تقدّم يا منارة فكُل معنا.

فقلت: ما بى إلى ذلك حاجة.

فلم يعاودنى، وأقبل يأكل هو والحاضرون معه، ثم غسل يديه، ودعا بالطعام، فجاؤوه بمائدة حسنة جميلة، لم أر مثلها إلا للخليفة، فقال: تقدّم يا منارةُ فساعدْنا على الأكل، لا يزيد على أن يدعونى باسمى، كما يدعونى الخليفة.

فامتنعتُ، فلم يعاودنى، وأكل هو وأولاده، وكانوا تسعة، عددتهم، وجماعة كثيرة من أصحابه، وحاشيته، وجماعة من أولاده وأولاد أولاده.

فتأمّلتُ أكله فى نفسه، فرأيته أكْلَ الملوك، ووجدتُ جأشه رابطًا، وذلك الاضطراب الذى كان فى داره قد سكن، ووجدته لا يُرفع من بين يديه شىء، كان على المائدة، إلا وُهِبَ.

وقد كان غلمانه، لما نزلتُ الدّار، أخذوا جِمالى، وجميع غِلمانى، فعدلوا بهم إلى دار له، فما أطاقوا ممانعتهم، وبقيت وحدى، ليس بين يدى إلا خمسة أو ستة غلمانٍ وقوفٍ على رأسى.

فقلتُ فى نفسى: هذا جبّار عنيد، فإن امتنع علىّ من الشّخوص، لم أطق إشْخَاصَه بنفسى، ولا بمن معى، ولا حِفْظه إلى أن يلحقنى أميرُ البلد، وجَزِعتُ جَزَعًا شديدًا، ورابنى منه استخفافه بى، وتهاونه بأمرى، وأن يدعونى باسمى، وقلّةُ اكتراثه بامتناعى من الأكل والشرب، ولا يسألنى عمّا جئتُ له، ويأكل مطمئناً.

وأنا أفكّر فى ذلك، إذ فرغ من طعامه، وغسل يديه، واستُدْعى بالبخور، فتبخّر، وقام إلى الصّلاة، فصلّى الظهر صلاة حسنة، وأكثر من الدّعاء والابتهال.

فلمّا انفتل من محرابه، أقبل علىَّ، وقال: ما أقدمك يا منارة؟

فقلت: أمرٌ لك من أمير المؤمنين، وأخرجتُ الكتاب، فدفعتُه إليه، ففضّه، وقرأه، فلما استَتَمْ قراءته، دعا أولاده، وحاشيتَه، فاجتمعوا، فلم أشك أنّه يريد أن يُوقعَ بى.

فلمّا تكاملوا، ابتدأ فحلف أيمانًا غليظةً. فيها الطّلاق، والعتاق، والحجّ، والصّدقة، والوَقْفُ، والحَبْس، إن اجتمع اثنان منهم فى موضع، وأن يتفرّقوا، ويدخلوا منازِلهم، ولا يظهر منهم أحد، إلى أن يَنكشفَ له أمر يعمل عليه.

ثم قال: هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرنى بالمسير إلى بابه، ولستُ أقيم بعد نظرى فيه لحظةً واحدة.

وقال لغلمانه، وأولاده: استوصوا بمن ورائى من الحُرُم خيرًا، وما بى حاجة أن يصحَبنى غلام، هات أقْيَادكَ يا منارة.

فدعوتُ بها، وكانت فى سَفَطٍ، فأحضَر حدّادًا، ومدّ ساقيه، فقيّدتُه، وأمرتُ غِلمانى بحمله حتى حَصَل فى المحمل، وركبت فى الشّق الآخر، وسرتُ من وقتى، ولم ألق أمير البلد، ولا غيره.

وسرتُ بالرّجل، ليس معه أحد، إلى أن صرنا بظاهر دمشق، فابتدأ يحدّثنى بانبساط، حتّى انتهينا إلى بُستانٍ حسن فى الغوطة، فقال: ترى هذا؟

فقلت: نعم.

قال: هو لى، وفيه من غرائب الأشجار كَيْتَ وكَيْتَ، ثم انتهى إلى آخر، فقال مثل ذلك، ثم انتهى إلى مزارع حسانٍ، وقرى سَرِيّة، فأقبل يقول: هذا لى، ويصف كل شىء فيها.

فاشتدّ غيظى منه، فقلتُ له: هل علمتَ أنى شديد التعجّب منك؟

قال: ولم؟

قلت: ألَسْت تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمّه أمرُك، حتّى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك، وولدك، ومالك، وأخرجك عن جميع حالك، وحيدًا،

فريدًا، مقيّدًا، لا تدرى ما يصير إليه أمرُك، ولا كيف تكون، وأنت مع هذا، فارغُ القلب، تصف بساتينك وضياعَك، هذا وقد رأيتك، وقد جئتُ، وأنت لا تعلم فيم جئتُ، وأنت ساكنُ القلب، قليل الفكر، وقد كنتَ عندى شيخًا عاقلاً.

فقال مجيبًا لى: إنّا لله وإنَّا إليه راجعون، وأخطأتْ فِراستى فيك يا مَنارة، قدّرْتُك رجلاً كاملا العقل، وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل، إلا بعد أن عرفوك بذلك، فإذا عقلك وكلامُك يشبه كلامَ العَوَامّ وعقلهم، فالله المُستعان.

أمّا قولك فى أمير المؤمنين، وإزعاجه لى من دارى، وإخراجه إيّاى إلى بابه على هذه الصّورة، فأنا على ثقة بالله عَزَّ وجَلّ، الذى بيده ناصيةُ أمير المؤمنين، فلا يملك معه لنفسه، ولا لغيره، ضَرّاً ولا نَفعًا، إلا بإذن الله ومشيئته، ولا ذنب لى عند أمير المؤمنين أخافُهُ، وبعد، فإذا عرف أمير المؤمنين أمرى، وعَلِمَ سلامة جانبى، وصلاح ناحيتى، وأن الأعداء والحَسَدَة، رَمَونى عنده بما لست فى طريقه، وتقولوا علىّ الأباطيل الكاذبة، لم يستحل دمى، وتحرّجَ من أذاى وإزعاجى، فردنى مكرّمًا، أو أقامنى ببابه معظّمًا، وإن كان سبق فى قضاء الله تعالى، أنه يَبْدُرُ إلىّ ببادرة سوء، وقد حضر أجلى، وحان سَفْكُ دمى على يده، فلو اجتهدَتْ الملائكةُ والأنبياءُ وأهلُ السموات والأرض، على صَرْف ذلك عنى ما استطاعوا، فلِمَ أتعجّل الهم، وأتسلّف الفكرة والغمَّ، فيما قد فَرَغ الله منه، وأنا حسنُ الظنّ بالله الذى خلق ورزق، وأحيا وأمات، وفطر وجَبَلَ، وأحسن وأجْمَل، وأين الصّبرُ والرّضا، والتفويضُ والتَسليم إلى من يملك الدّنيا والآخرة، وكنتُ أحسَب أنّك تعرف هذا، فإذ قد عرفتُ مبلغَ فهمك، فإنى لا أكلّمك بكلمة، حتى تفرق بيننا حضرةُ أمير المؤمنين.

ثم أعْرَضَ عنّى، فما سمعتُ له لفظةً بغير القرآن والتسبيح، أو طلب ماء، أو حاجة تجرى مجراه، حتى شارفنا الكوفة فى اليوم الثّالثِ عَشَرَ بعد الظّهر، فإذا النُّجُبُ قد استقبلتنا على فراسخَ من الكوفة، يتجسّسون خبرى.

فلمّا رأونى رجعوا بخبرى إلى أمير المؤمنين، فانتهيتُ إلى الباب آخر النّهار، فدخلتُ على الرّشيد، فقبّلتُ الأرض، ووقفتُ بين يديه.

فقال: هات ما عندك، وإيّاك أن تُغفل منه لفظة واحدة.

فسُقت إليه الحديث من أوّله، حتّى انتهيتُ إلى ذكر الفاكهة والطّعام والغسل والطَّهور والبَخور، وما حدّثتُ به نفسى من امتناعه منى، والغضب يظهر فى وجهه ويتزايد، حتى انتهيتُ إلى فَراغ الأموىّ من الصّلاة، وانفِتَاله، وسؤاله عن سبب مقدمى، ودفعى الكتاب إليه، ومبادرته إلى إحضار ولده وأسبابه، ويمينه أن لا يتبعه أحد منهم، وصرفِهِ إيّاهم، ومدّ رجليه حتّى قيّدته، فما زال وجه الرّشيد يُسْفِر.

فلما انتهيتُ إلى ما خاطبنى به فى المحْمَل، عند توبيخى إيّاه، قال: صَدَقَ والله، ما هذا إلا رجلٌ محسود على النّعمة، مكذوبٌ عليه، ولقد أذيناه، ولعمرى لقد أزعجناه، وروّعناه، وروعنا أهله، فبادر بنزع قيوده عنه، وائتنى به. فخرجتُ، فنزعتُ قيوده، وأدخلته على الرّشيد، فما هو إلا أن رآه، حتى رأيتُ ماء الحياء، يدور فى وجه الرّشيد، ودنا الأموى، فسلّم بالخلافة، ووقف، فردّ عليه الرشيد، ردّاً جميلاً، وأمره بالجلوس، فجلس.

وأقبل عليه الرّشيد، ثم قال له: إنه بلغنا عنك فَضْل همّةٍ، وأمور، أحببنا معها أن نراك، ونسمع كلامك، ونُحسن إليك، فاذكر حوائجك.

فأجاب الأموى جوابًا جميلاً، وشكر، ودعا ثم قال: أما حاجتى، فما لى إلا حاجة واحدة.

فقال: مقضيّة، فما هى؟

قال: يا أمير المؤمنين، تردُّنى إلى بلدى، وأهلى، وولدى.

فقال: نحن نفعل ذلك، ولكن سَلْ ما تحتاج إليه من صلاح جاهك ومعاشك، فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شىء من هذا.

فقال: عُمّال أمير المؤمنين مُنصفُون، وقد استغنيْتُ بعَدْله عن مسألته، وأمورى منظمة، وأحوالى مستقيمة، وكذلك أمور أهل بلدى بالعدل الشّامل فى دولة أمير المؤمنين.

فقال له الرّشيد: انصرف محفوظًا إلى بلدك، واكتب إلينا بأمرٍ إن عَرَضَ لك، فودّعه الأموىُّ.

فلمّا ولّى خارجًا، قال لى الرّشيد: يا منارة، احمله من وقتك، وسِرْ به راجعًا كما أتيت به، حتّى إذا أوصلتَه إلى المجلس الذى أخذته منه، فارجع وخله.

ففعلتُ ذلك.

●●●

٩- خُرافةٌ تاريخيَّة

ورَدَ كتاب صاحب بريد الثغور الشاميّة، على عبد الملك، يخبره فيه أن خيلاً من الرّوم تراءَتْ للمسلمين، فنفروا إليها، ثم عادوا ومعهم رجلٌ كان قد أسِرَ فى أيام معاوية بن أبى سفيان، فذكر أن الرّوم لما تواقَفُوا مع المسلمين، أخبروهم أنهم لم يأتوا لحربٍ، وإنّما جاؤوا بهذا المسلم ليسلّموه إلى المسلمين، لأن عظيم الرّوم أمرهم بذلك.

وذكر صاحب البريد، أن النافرين ذكروا، أنّهم سألوا المسلم عمّا قال الرّوم، فوافق قوله قولهم، وذكر أن الرّوم قد أحسنوا إليه، فانصرفوا عنهم، وإنى سألته عن سبب مَخْرَجِهِ، فذكر أنه لا يخبر بذلك أحدًا دون أمير المؤمنين.

فأمر عبد الملك بإشْخاص المسلم إليه، فأشْخص إلى دمشق.

فلما دخل على عبد الملك، قال له: من أنت؟

قال: قُبَاث بن رزين اللّخمى، أسكن فُسطاط مصر فى الموضع المعروف بالحمراء، أسرتُ فى زمن معاوية[١]، وطاغية الرّوم -إذ ذاك- توما بن مرزوق.

فقال له عبد الملك: فكيف كان فعله بكم؟

قال: لم أجد أحدًا أشدّ عداوة للإسلام وأهله منه، إلا أنّه كان حليمًا، فكان المسلمون فى أيّامه أحسن أحوالاً منهم فى أيّام غيره[٢]، إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه ليون، فقال -فى أوّل ما ملك-: إنّ الأسرى إذا طال أسرهم فى بلدٍ، أنسوا به، ولو كان على غاية الرداءة، وليس شىء أنْكأ لقُلوبهم من نقلهم من بلد إلى بلد، فأمر باثنى عشر قِدْحًا[٣]، فكتب على رأس كل قدح اسم بَطْرِيق[٤] من

(١) هذا يعنى أنه بقى فى أسر الروم أكثر من عشرين عامًا.

(٢) يقصد الأسرى المسلمين فى بلاد الروم.

(٣) القدح: السهم.

(٤) البطريق (فى لغة زمانهم) القائد من الروم (أو حاكم الإقليم = المحافظ فى زماننا وكما ستدل الحكاية)، وليس «رجل الدين» كما هو الآن من كلمة بطريق.

بطارقة البلدان، ويُضرب بالقِداح فى كل سنة أربع مرات، فمَن خرج اسمه فى القدْح الأوّل، حُوِّل إليه المسلمون، فاحتبسهم عنده شهرًا، ثمّ إلى الثانى، ثمّ إلى الثّالث، ثم تعاد القِداح بعد ذلك.

فكنّا لا نصير عند أحد من البطارقة، إلا قال لنا: احمدوا الله حيث لم يبتلكم ببطريق البَرْجان[1]، فكنّا نرتاع لذكره، ونحمد ربّنا إذ لم يبتلنا به. فمكثنا على ذلك سنين.

ثمّ ضُربت القِداح، فخرج الأوّل والثانى لبطريقين، والثالث لبطريق البَرْجان، فمر بنا فى الشهرين غمّ كبير، نترقّب المكروه.

ثمّ انقضى الشهران، فحُملنا إليه، فرأينا على بابه من الجمْع خلاف ما كنّا نعاين، ورأينا من زبانيته من الغِلظة خلاف ما كنّا نرى، ثم وصلنا إليه، فتبين لنا من فظاظته وغلظته، ما أيقنا معه بالهَلكة، ثم دعا بالحدادين، فأمر بتقييد المسلمين بأمثال[2] ما كان يقيّدهم به غيره، فلم يزل الحديد يعمل فى رِجْل واحد واحد، حتى صار الحدّاد إلىّ، فنظرت إلى وجه البطريق فرأيته قد نظر إلىّ نظرًا بخلاف العين التى كان ينظرُ بها إلى غيرى، ثم كلّمنى بلسانٍ عربىّ، فسألنى عن اسمى ونسبى ومسكنى، بمثل ما سألنى عنه أمير المؤمنين، فصَدَقْتُهُ عمّا سألنى عنه.

ثم قال لى: كيف حفظُك لكتابكم؟ فأعلمته أنى حافظ.

قال: اقرأ آل عمران، فقرأتُ منها خمسين آيةً.

فقال: إنّك لقارئٌ فصيح، ثم سألنى عن روايتى للشعر، فأعلمته أنى راوية.

فاستنشدنى لجماعة من الشعراء، فقال: إنك لحسنُ الرواية.

ثم قال لخليفته: إنّى قد وَمِقتُ[3] هذا الرّجل، فلا تُحَدّده.

ثم قال: وليس من الإنصاف أن أسوءه فى أصحابه، ففكّ الحديد عن جماعتهم، وأحسنْ مثواهم، ولا تقصرْ فى قِراهم[4].

---

(١) البرجان: اسم طائفة أو بلد فى شمال بلاد الروم.

(٢) امثال: أضعاف. (٣) ومقه: أحبه أو مال إليه، فلا تقيده بالحديد.

(٤) القِرى (بكسر القاف): الضيافة.

ثمّ دعا صاحبَ مطبخه، فقال له: لستُ أطعَمُ طعامًا، ما دام هذا العربىّ عندى، إلا معه، فاحذر أن تُدخل مطبخى ما لا يحلّ للمسلمين أكلُه، وأن تجعل الخمر فى شىء من طبيخك، ثمّ دعا بمائدته، واستَدْنانى حتّى قعدتُ إلى جانبه.

فقلت له: فَدَتْكَ نفسى وبأبى أنت، أحبُّ أن تخبَرنى من أى العرب أنت؟

فضحك وقال: لستُ أعرف لمسألتك جوابًا، لأنّى لستُ عربياً فأجيبك على سؤالك.

فقلتُ له: مع هذه الفصاحة بالعربية؟

فقال: إن كان العلم باللّسان ينقل الإنسان من جنسه إلى جنس مَنْ حَفِظَ لسانَه، فأنت إذًا رومى، فإنّ فصاحتك بلسان الروم، ليست بدون فصاحتى بلسان العرب، فعلى قياس قولك ينبغى أن تكون رومياً، وأكون أنا عربياً[1].

فصدّقتُ قوله، وأقمتُ عنده خَمْسَ عَشْرَةَ ليلة، لم أكن منذ خُلِقْتُ، فى نعمة، أكبرَ منها.

فلمّا كانت ليلة سِت عَشْرَةَ، فكَّرتُ أنّ الشّهر قد مضى نصفُه، وأن الليالى تقرّبنى من الانتقال إلى غيره، فبتُّ مغمومًا.

وصار رسوله إلىّ، فى اليوم السادس عشرَ يدعونى إلى طعامه، فلمّا حضر الطعام بين أيدينا، رأى أكلى مقصراً عمّا كان يعهد، فضحك، ثم قال لى: أحسبك يا عربىّ، لما مضى نصف الشّهر، فكَّرتَ فى أنّ الأيام تقرّبك من الانتقال عنّى إلى غيرى ممَّن لا يعاملك بمثل معاملتى، ولا يكون عيشك معه مثل عيشك معى، فَسَهِرت، واعتراكَ لذلك غمّ غيَّر طعامك، فأعلمته أنّه قد صدق.

فقال: ما أنا إن لم أحسن الاختيار لصديقى بحرٍّ، وقد أمنَّك اللّه ممّا حَذِرْت، ولم ألبث فى اليوم الذى وصلتَ إلىّ فيه، حتى سألت الملكَ، فصيّرك عندى، ما كنتَ فى أرض الرّوم، فلستَ تُنقل عن يدى، ولا تخرج منها إلاّ إلى

---

(١) هذا تعليل طريف مقبول لميل بطريق البرجان إلى الأسير العربى، أنه وجد لغته «الرومية» جيدة.

بلدك، وأرجو أن يسبّب اللّه ذلك على يدىّ، فطابت نفسى، ولم أزل مقيمًا عنده، إلى أن انقضى الشهر.

فلمّا انقضى، ضُربِ بالقداح، فخرج الأوّل، والثّانى، والثالث، لبطارقة غير الذى نحن عِنده، فحُوِّل أصحابى، وبقيتُ وحدى.

وتغدّيتُ فى ذلك اليوم مع البَطريق، وكان من عادتى أن أنصرفَ من عنده بعد غَدائى إلى إخوانى من المسلمين، فنتحدّث، ونأنس، ونقرأ القرآن، ونَجْمَعُ الصلوات، ونتذاكرُ الفرائضَ، ويسمع بعضنا من بعض ما حفظ من العلم وغيره، فانصرفت ذلك اليوم بعد غَدائى إلى الموضع الذى كنتُ أصير إليه وفيه المسلمون، فلم أرَ فيه أحدًا إلاّ الكَفَرَة، فضاق صدرى ضيقًا تمنّيتُ معه أنّى كنت مع أصحابى، فبِتُّ بليلةٍ صعبة لم أطعمَ فيها الغَمْضَ، وأصبحتُ أكسفَ خَلْقِ اللّهِ بالاً، وأسوأهم حالاً.

وصار إلىّ الرسولُ فى وقت الغداء، فصرتُ إليه، فتبين الغمّ فى أسرّة وجهى، ومددتُ يدى إلى الطعام، فرأى مدّ يدى إليه، خلافَ مدِّى الذى كان يعرف، فضحك، ثمّ قال: أحسبك اغتممتَ لفراق أصحابك؟

فأعلمته أنّه صدق، وسألته: هل عنده حيلة فى ردّهم إلى يده.

فقال: إنّ الملك لم ير أن يُنقلَ أصحابُك من يدى إلى يد غيرى إلاّ ليغمَّهم بما يفعل، ومن المحال أن يدع تدبيره فى الإضرار بهم، لمِيْلى إليك ومحبّتى لك، وليس عندى فى هذا الباب حيلة، فسألتُه أن يسأل الملك إخراجى عن يده، وضمّى إلى أصحابى أكون معهم حيث كانوا.

فقال: ولا فى هذا أيضًا حيلة، لأنّى لا أستجيز أن أنقلَكَ من سَعَةٍ إلى ضيقٍ، ومن كرامة إلى هوان، ومن نعمة إلى شقاء.

فلمّا قال ذلك، تبين فىَّ الانكسار، وغلبة الغمّ، فقال لى: بَلغَ بك الغمَ إلى النهاية؟

فأخبرته: أنّه قد بلغ بى الغمّ، أن اخترتُ الموت على الحياة، لعلمى أنّه لا راحة لى بغيره.

فقال لى: إن كنتَ صادقًا، فقد دنَا فَرَجُك.

فسألته عمّا دلّه على ذلك، فقال لى: إنّى وقعتُ فى نكَبات أشدّ هولاً ممّا أنتَ فيه، وكان عاقبتها الفَرَج.

وأعلمنى أنّ بَطْرَقَة بلده لم تزل فى آبائه يتوارثونها، وأنّ عددهم كان كثيرًا، ولم يبق غيرُ أبيه وعمه، وكانت البَطْرَقَةُ إلى عمّه دون أبيه، فأبطأ على أبيه وعمه الولد[1]، فبذلا للمُتَطَبِّبين الكثير من الأموال لعلاجهما بما يُصلح الرجالَ للنساء، إلى أن بَطَل العمّ، ويئس من الانتشار، فصرف بعضُ الأطباء عنايته إلى معالجة أبى البطريق، فعَلِقَتْ أمّه به.

فلمّا علم العمّ أنّه قد عَلِقَتْ أمُّه به، جمع عِدّةً من الحُبالى، من ألْسنة مختلفة، منها العربى، والرّومى، والإفرنجى، والصّقلابى، والخَزَرِى، وغير ذلك، فوُضعن فى داره.

فلمّا وضعتْ البطريقَ أمُّه، أمر بتصيير أولئك النّساء كلّهن معه، وتقدّمَ إلى كلّ واحدة منهنّ، ألاّ تكلّمه إلاّ بلسانها.

فلم تَسْتَتِمّ له أربع سنين، حتّى تكلمّ بكلّ الألسنة التى لأمّهاته اللاتى أرضعنَه.

ثمّ أمر بتصيير مُلاعبيه ومُؤدّبيه من جميع أجناس النّساء اللّواتى ربّينه، فكانوا يعلّمونه الكتابة، وقراءةَ كتبهم فلم تمرّ عليه تِسْعُ سنين، حتّى عرف ذلك كلّه.

ثمّ أمر عمُّه أن يُضمّ إليه جماعة من الفرسان يعلّمونه الثّقافةَ والمُنازلة، وجميع ما يتعلّمه الفرسان، وتقدّم بمنعه من سُكْنَى المنازل، وأمر أن ينزل فى المضارب، وأن يُمنع من أكل اللحم إلاّ ما يصيده طائرٌ يحمله على يديه، أو كلبٌ يسعى بين يديه، أو صيدَ بسهمه، فكانت تلك حاله حتى استوفى عشْرَ سنين، ثمّ

---

(١) بمعنى أنهما لم ينجبا.

مات عـمّه، وَوَلِىَ أبوه البطرقةَ بـعد عمّـه، وأمره القُدُوم عليـه، فلما رآه، ورأى فهمـه، وأدبه، وشمائله، اشتـدّ عُجبُهُ به، فســمح له بما لم تكن الملوك تسمح به لأولادها، وأعدّ له المضارب والفساطيط[١] الدّيباج، وضمّ إليه جماعـةً كثيفةً من الفـرسـان، ووسّع على الجـميع فـى كلّ ما يـحتـاجـون إليـه، وردّه إلى سُكنى المضارب، وأخذه بالاستبعاد عن منازل أبيه.

قال البطريق: فلمّا تمت لى خَمْسَ عَشْـرَةَ سنة، ركبتُ يومًا لارتياد مكان أكون فيه، فـبَصُرْتُ بغدير مـاء قدّرت طوله ألف ذراع وعرضَه ما بين ثـلثمائة ذراع إلى أربعمائة ذراع، فأمـرتُ بضرب مضاربى عليه، وتوجّهتُ إلى الـصيد، فرزقتُ منه فى ذلك اليـوم، ما لم أطمع فى مـثله كثرةً، ونـزلتُ فى بعض المضارب فـأمرتُ الطبّاخين، فطبخوا لى ما اشتهيتُ من الطعام، ثـمّ نُصِبَتْ المائدةُ بين يدىً.

فإنّى لأنظر إلى الطبيخ يُـغرف، إذ سمعتُ ضجّة عظيـمة، فما فهـمتُ خبرها حتّى رأيتُ رؤوس أصحـابى تتساقط عن أبدانهم، فـتنحّيتُ عن مكانى الذى كنتُ فيه، وخلـعتُ الثّياب التى كانت علىّ، ولبـستُ ثيابَ بعض عبيـدى، ثـمّ ضربتُ ببصرى يَمنة ويَسرة، فلم أر حولى إلاّ مقـتولاً، وإذا فاعل ذلك بأصحابى مَنْسرٍ[٢] من مناسر البَرجان.

ثمّ أسِرتُ كما يؤسر العبيد، واحتُمِل جـميع ما كان معنا، من مضرب وغيره، وصاروا بى إلى ملك البَرجان.

فلمّا رآنى، ولم يكن له ولـد ذَكَر، أمر بالتوسـعة علىّ، وأن أكون واقـفًا عند رأسه، وسمّانى ابنَه.

وكان للملك بنت، وكـان بها مُغـرمًا، وكان قـد علّمها الفـروسية، ومـساورةَ الفرسان، ومساهمتَهم ومراكضتَهم.

---

(١) جمع فـطاط، وهو الخيمة. والديباج: الحرير.

(٢) المنسر: عصابة اللصوص كبيرة العدد، فى مصر تفخم السين وتنطق «مَنصَر».

فقال -وأنا حاضر- لجماعة من بطارقته: مَن منكم يتوجّه إلى ملك الرّوم فيجيئنى بكاتب من بلده، ليعلّمَ ابنتى الكتابة.

فأعلمته أنّ رسوله لا يأتيه بأكتبَ منّى.

فأمرنى أن أكتب بين يديه، فكتبتُ، فاستحسن خطّى، وقرنه بكتب كانت تَرِدُ عليه من والدى، فرأى خَطّى أجودَ منها، فدفع إلىّ ابنته، وأمرنى أن أعلّمها الكتابة، فهَوِيتُها، وهَوِيَتْنى.

فمكثَتْ معى حتّى استوفت ثلاثَ عَشْرَةَ سنة، ثمّ عَدَتْ إلىّ يومًا وهى باكية، فقلت لها: ما يُبكيك يا سيّدتى؟

فقالت: دعنى، يحقُّ لى البكاء، فسألتها عن السبب.

فقالت: كنتُ جالسة بين يدىْ أبى وأمّى فى هذه اللّيلة، فغلبتنى عينى، فنمت، فسمعت أبى يقول لأمّى: أرى ثَدْيَىْ ابنتك قد تَفَلّكَا[1]، وأرى هذا الرّومى قد غَلُظَ كلامُه، وليس ينبغى أن يجتمعا بعد هذا الوقت، فإذا جلسَتْ غدًا معه، فابعثى إليهما مَن يفرّق بينهما، حتّى لا يراها، ولا تراه.

قال البطريق: ومن سُنَّة البَرجانِ، أن يكون الرّجل يخطب لابنته زوجًا، حتّى يزوّجها، ولا يخطب لها إلاّ مَن تختاره البنت.

قال البطريق: فقلتُ لابنة الملك، إذا سألك أبوكِ، مَن تحبّين أن أخطب لك من الرّجال، فقولى: لستُ أريد إلا هذا الرّومى.

فغضِبَتْ، وقالت: كيف يجوز أن أسأل أبى أن يزوّجنى بِعَبْد؟

قال: فقلت لها: ما جعلنى اللّه عبدًا، وأنا ابنُ ملك، وأبى ملك الرّوم.

قال البطريق: وأهل البَرجان، يسمّون البطريقَ الرومىَّ الذى يتولّى حدّ برجان: ملك الرّوم.

---

(١) تفلكا: نسبة إلى الفلك، وهو مستدير، والمعنى أنها كبرت واستدار ثديها.

فسألتنى: هل أخبرتُها بحقّ؟

فأعلمتها أنّه حقّ.

فما انقضى كلامنا، حتّى جاء رسول الملك، ففرّقوا بيننا، ولم يمض بعد ذلك، إلاّ ثلاثة أيّام حتى دعانى الملك، فدخلتُ عليه، فرأيتُ أمارات الشّر مستحكمةً فى وجهه.

فقال لى: يا شقىُّ، ما حملك على الكَذِب فى نسبِك؟ وأنا أحكم على مَن انتسب إلى غير أبيه بالقتل.

فقلت له: ما انْتَسَبْتُ إلى غير أبى.

فقال لى: أتقول إنّك ابنُ ملك الرّوم؟

فأعلمته أنى أقول ذلك، ودعوته إلى الكشف عنه.

فقال: لستُ أحتاج إلى كشف أمرِكَ برسولٍ أرسله ليَعرفَ خبرَك، ولكن لى أشياء أمتحنك بها، فأعرف صدقك من كذبك، فدعوته إلى كشفها بما شاء.

فدعا بدابّة، ولَبْد، وسَرْج، ولجام، فأمرنى بتناول الدابة، فأخذتُ الدّابة من يد السائس، ثمّ أمرنى بأخذ اللّبْد، فأخذته، ثمّ أمرنى بإلقائه على الدّابة، فَفَعَلْتُ ما أمرنى به، ثمّ أمرنى بتناول السرج، فأخذته، ثمّ أمرنى بشدّ الحزام، والثَّفر، واللَّببَ[1]، وأخذ اللّجام وإلجام الدابّة، ففعلتُ ذلك، ثمّ أمرنى بركوب الدابّة، فركبت، وأمرنى بالسيّر فسرِت، وأمرنى بالإقبال والإدبار، ففعلت، ثمّ أمرنى بالنزول، فنزلت.

فقال عند ذلك: أشهد أنّه ابن ملك الرّوم، لأنّه أخذ الدابّة أخْذَ ملك، وعمِل سائرَ الأشياء مثلما تعمله الملوك، فاشهدوا أنّى قد زوّجته ابنتى.

فلمّا قالوا: شهِدنا، قال: لا تشهدوا.

(١) الثفر: سير من الجلد يشد على مؤخرة الدابة، واللبب (عكسه): ما يشد فى صدر الدابة.

فلمّا سمعت قوله: لا تشهدوا، تخوّفتُ أن يأتى على نفسى.

ثمّ قال لى: لم أتوقّف عن الشّهادة رغبة عنك، ولكنّا لنا شرط لا نقدر أن نخالفه، ولم نأمن أن تُضطر إليه، فنحملك على شرطنا، وهو ما لم نخبرك به، ونوقفك عليه، فنكون قد ظلمناك، أو ندع لك سنّة بلدنا، فنكون قد فارقنا سُنّتنا، إنّ سُنّتنا يا رومى، أن لا نفرّق بين الزوجين إذا مات أحدُهما، فإن مات الرجل قبل المرأة، نومناها معه فى نعشه، وحملناهما معًا، حتّى ننزلهما إلى بئر هى مأوى موتانا، وجعلنا معهما طعامًا وشرابًا لثلاثة أيام، ثمّ أنزلناهما إلى البئر، فإذا صارا إلى قرارها سيّبنا الحبال عليهما، وكذلك إن ماتت المرأة قبل الرجل، جعلناها فى سريرها، وجعلنا زوجها معها، وصيرناهما جميعًا فى البئر، فإن رَضِيتَ بهذه السُّنَة فبارَكَ اللّه لك فى زوجك، وإن لم ترض أقَلْنَاك، فلسنا نزوّجك، ولا تستقيم لنا على خلاف سُنّتنا، فأحوجتنى الصبابة بها أن قلت: قد رَضِيتُ بهذه السُّنَّة.

فأمر بتجهيزها وتسليمها إلىّ، وجمع بيننا، فأقمتُ معها أربعين يومًا، لا نرى إلاّ أنّا قد فزنا بمُلك الدنيا.

ثمّ اعتلّت علّة كانت معها غَشْيَة، لم يشكّ كلّ من رآها إلاّ أنّها قُبِضَتْ، فجُهّزَتْ بأفخر ثيابها، وجُهّزتُ معها بمثل ذلك، وحُمِلْنا على نعش واحد، وركب الملك، وأهل الملكة، فشيّعونا حتّى وافوا بنا شَفِيرَ البئر، ثمّ شدّوا أسافل السرير بالحبال، وجعلوا معنا فى النعشِ طعامًا وشرابًا لثلاثة أيام، ثمّ حطّونا حتّى صرنا إلى قرارة البئر.

ثمّ أرخَيتْ علينا الحبال، فسقط حبل منها على وجه الجارية، فأزال الوجعُ ما كان بها من الغَشْيِ، فانتبهت، فلمّا انتبهَتْ، رأيتُ أنّ الدنيا قد جُمِعَتْ لى.

واستمرّت عينى على الظلمة، فرأيتُ فى الموضع الذى أنا فيه، من الخبز اليابس والخمر ما له دهر كثير، فأخذنا نتغذّى به جميعًا.

وكنّا لا نعدَم فى يوم من الأيّام، إلاّ النادر، سريرًا يُدَلّى فيه زوجان، أحدهما ميت، والآخر حى، فإن كان النّازل رجلاً حيّاً، تولّيتُ أنا قتلهَ، لئّلا يكون مع

زوجتى غيرى، وكذلك إن كانت الحيّة امرأة، تولّت زوجتى قتلها، لئلا يكون مع زوجها غيرها.

فمكثنا فى البئر على هذه الحال أكثر من سنة، ثمّ دلّى فى البئر دَلْوَ، فعلمت أنّ مدلّى الدلو غيرُ برَجانى، وأنّه لا يدخل ذلك الموضع غير برجانىّ، إلاّ رومى، ووقع لى أن أقدّم الجارية قبلى، لتتخلّص، ثمّ تعرّفهم حالى، فيردّوا إلىّ، فأصعَد.

فحملت بنت الملك فجعلتها فى الدلو بكُسْوَتِها، وحُلِيِّها، وجواهرها، واجتذب القوم الدلو، فخرجت إليهم الجارية.

فإذا القوم مماليكُ لأبى، ولم يـنتبهوا للسؤال عنّى، وهابتـهم الجارية، أن تقول لهم شيئًا، وقد كانوا رأوا ما فيه أمى وأبى، وما غلب عليهما من الحزن لفقدى، فصاروا إليهما بالجارية ليتسلّون بها، فسُرًّا بها، وسكنا إليها.

واستمرّت هيبة الجارية لهما فحَصَلَت شرًّ محصل.

وقد كان لوالدى صديق، له أدب وحكمة، وعلم بالتصوير، صوّر لهما صورتى فى خشبة، وزوّقها، وجعلها فى بيت، وقال لأبوى: إذا ذكرتما ابنكما، واشتدّ غمكما، فادخلا فانظرا إلى هذه الصورة، فإنكما ستبكيان بكاءً كثيرًا يعقبكما سَلْوة.

فلمّا صارت الجارية إلى أبوى، ورأتهما يدخلان ذلك البيتَ كثيرًا، ويخرجان، وقد بكيا، استقفَتْهُما يومًا، وهما داخلان، فبصُرت بالصورة، فلمّا رأتها لطمت وجهها، ونتفت شعرها، ومزّقت ثيابها..

فسألاها عن السبب فيما صنعت بنفسها، فقالت: هذه صورة زوجى، فسألاها عن اسمه، واسم أبيه وأمّه، فأسْمَتهم جميعًا.

فقالا لها: فأين زوجك؟

قالت: فى البئر التى أخرجت منها، فركب أبى وأمّى فى أكثر أهل البلد، ومعهم الغلمان الذين أخرجوا الجارية من البئر، حتّى وافوا البئر فدلّوا الدلو،

وكنتُ قد سللتُ سيفى الذى كان أنزل معى من غمده، وجعلت ذُبَابه بين ثديى لأتكئ عليه، فأخرجه من ظهرى، فأستريح من الدنيا، لغلبة الغمّ علىّ، فوثبت، فقعدت فى الدّلو، واجتذبونى حتّى خرجت، فوجدت أبى، وأمىّ، وامرأتى، على شفير البئر، وقد أحضروا لى الدواب لأركب وأنصرف إلى بلادى، وكان أبى قد صار ملك تلك البلاد، فلم أطعهما، وأعلمتهما أن الأصوب البعثة إلى أبى الجارية، وأمها، حتّى يريا ابنتهما مثلما رأيتمانى.

ففعلاً ذلك، ووجّهَا إلى أبى الجارية، وهو صاحب البَرجان، فخرج فى أهل مملكته، حتّى عايَنَها، وأقاموا عُرْسًا جديدًا، وحدثت مهادنة بين الرّوم والبَرجان، جرت فيها أيمان مؤكدة أن لا يعدو أحدهما على صاحبه ثلاثين سنة، وصار القوم إلى بلادهم، وصرنا إلى منازلنا.

قال: ومات أبى، فورَثت البَطْرقة عنه، ورُزِقت من بنت ملك البَرجان الولد، وأنت يا عربى، فإن كان الغمّ قد بلغ منك إلى ما ذكرتَ فقد جاءك الفَرَج.

فما انقضى كلام البطريق، حتّى دخل عليه رسولُ ملك الرّوم يدعوه، فمضى إليه، ثمّ عاد إلىّ، فقال: يا عربىّ، قد جاءك الفَرَج، كنتُ عند الملك، وقد جرى ذِكْرُ العرب، ورمتهم البطارقةُ عن قوس واحدة، فذكروا أنّهم لا عقولَ لهم ولا آداب، وأنّ قهرهم الرّوم بالغلبة والاتّفاق، لا بِحُسْنِ التدبير.

فأعلمتُ الملك أنّ الأمر بخلاف ما قالوا، فإنّ للعرب آدابًا، وأذهانًا، وتدبيرًا جيّدًا.

فقال لى الملك: أنت لمحبّتك لضيفِكَ العربىِّ تُفْرِطُ فى إعطاء العرب ما ليس لها، وتصفها بما ليس فيها.

فقلت: إن رأى الملك أن يأذن فى إحضار هذا العربى، ليجمعَ بينه وبين هؤلاء المتكلّمين، ليعرف فضيلته، فأمرنى بحملك إليه.

فقلت: بئس ما صنعتَ بى، لأنّى أخاف إن غلبنى أصحابه أن يستخف بى، وإن غلبتُهم أن يَضْطَغِنَ علىّ.

فقال: هذه صفة العامة، والملوك على خلافها، وأنا أخبرك أنّك إن غلبتهم جللتَ فى عين الملك، وكنتَ عنده بمكان يقضى لك فيه حاجة، وإن غلبوك سرّه غَلَبَة أهل دينه لك، فأوْجَبَ لك أيضًا بذاك ذمامًا[1]، وإنّ أقلّ ما يرى أن يقضى لك حاجة، فإن غَلَبتَ أو غُلبتَ فسله إخراجك من بلده، وردَّك إلى بلادك، فإنَّه سوف يفعل ذلك.

قال قباث: فلمّا دخلتُ على الملك، استدنانى، وقرّبنى، وأكرمنى، وقال لى: ناظِرْ هؤلاء البطارقة.

فأعلمته، أنّى لا أرضى لنفسى بمناظرتهم، وأنّى لا أناظر إلاّ البطريقَ الأكبر، فأمر بإحضاره.

فلمّا دخل، سلّمتُ عليه، وقلتُ له: مرحبًا أيّها الشّيخ الكبير القَدْر.

ثمّ قلت له: يا شيخ، كيف أنت؟

قال: فى عافية.

قلت: فكيف أحوالُك كلُّها؟

قال: كما تحبّ.

فقلت له: فكيف ابنُك؟

فتضاحكت البطارقةُ كلُّها، وقالوا: زعم البطريقُ - يعنون الذى هو صديقى - أنّ هذا أديب، وأنّ له عقلاً، وهو لا يعلم بجهله، أنّ الله تعالى قد صان هذا البطريق عن أن يكون له ابن.

فقلت: كأنّكم ترفعونه عن أن يكون له ابن؟

قالوا: إى واللّهِ، إنّا لنرفعه، إذ كان اللّه رفعه عن ذلك.

فقلت: واعجبًا، أيَجِلُّ عبد من عبيد اللّه، أن يكون له ابن، ولا يَجِلُّ اللّه تعالى، وهو خالق الخلائق كلّها، عن أن يكون له ابن.

---

(١) الذمام: الحرمة والمنزلة.

قال: فنَخَرَ البطريقُ نَخْرَةً أفزعتنى، ثمّ قال: أيّها الملك، أخْرِجْ هذا السّاعة عن بلدك، لا يُفسد عليك أهله.

فدعا الملك بالفرسان، فضمّنى إليهم، وأحضر لى دوابَّ البريد، وأمر بحملى عليها، وتسليمى إلى مَن يلقانا فى أرض الإسلام من المسلمين، فسلّمونى إلى مَن تسلّمنى من أهل الثّغر.

ثمّ ذكر حديثًا لعبد الملك، مع الرّجل، لا يتعلّق بهذا الباب فأذكره، واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصوّاب.

●●●

١٠- لا يحضرُ دَعْوةً.. لا يُشَيِّع جِنَازة!!

حدّثني عبيدُ اللَّه بن محمد، قال: حدّثنا أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوى العلوى النّقيب، قال:

حدّثنى شيخ كان يخدُمنى، وقد تجارْينا أحاديث النّاس، فقال: إنّه حلف بالطلاق، ألاّ يحضُرَ دعوة، ولا يشيّع جنازة، فسألته عن ذلك.

فقال: كنتُ انحدرتُ إلى البَصرة من بغداد، فصعدتُ إلى بعض مشارع[1] البصرة عشاءً، فاستقبلنى رجل، فكنّانى بغير كُنْيتى، وبشَّ فى وجهى، وأحْفَى، وجعل يسألنى عن قوم لا أعرفهم، ويحلف علىّ فى النّزول عنده.

وكنتُ غريبًا، لا أعرف مكانًا، فقلت: أبيتُ عنده الليلة إلى غدٍ، فأطلبُ موضعًا.

فموَّهْتُ عليه فى القول، فجذبنى إلى منزله، وكان معى رَجْلٌ صالح، وفى كمّى دراهم كثيرة.

فدخلتُ إليه، فإذا عنده دعوةٌ، والقوم على نبيذ، وقد خرج لحاجة، فشبّهنى بصديق له، وتَمَوَّه عليه أمرى لسكْرِه.

وكان فيمن عنده، رجلٌ له غلام أمرد، فلمّا أخذوا مضاجعهم للنّوم، أرِقْتُ من بينهم.

فلمّا كان بعد ساعة، رأيتُ واحدًا من الجماعة، قد قام إلى الغلام الأمرد، فَفَسَق به، ورجع إلى موضعه، وكان قريبًا من صاحب الغُلام.

واستيقظ فى الحال صاحبُ الغلام، فتقدمَ إلى غلامه ليفْسُقَ به.

فقال له: ما تريد؟ ألم تكن الساعة عندى، وفعلتَ بى كذا وكذا؟

فقال: لا.

---

(١) المشارع جمع مشرعة، وهى «المورَدة».

فقال: قـد جاءنى السّاعةَ مَن فعل بى، وظننـته إيّاك، فلمِ أتحرّك، ولم أظنّ أنّ أحدًا يَجْسُرُ عليك.

فنَخَرَ الرّجل، وجـرّد سكينًا من وَسَطِه، وقام، وأنا أرْعَـدُ، فلو كان دنا منّى، حتّى يجدنى أرعد، لقتلنى، وظنّ أنّى صاحب القصّة.

فلما أراد اللّه عزّ وجَلّ، من بقاء حياتى ما أراد، بدأ بصاحبه، فوضع يده على قلبه، فوجـده يخفُق، وقد تناوَمَ عليه، يرجو بذلك السـلامة، فوضع السكّين فى قلبه، وأمسك فَاهُ، فاضطرب الرّجل، وتَلِفَ.

فأخذ الرّجل بيد غلامه، وفتح الباب، وانصرف.

فورد علىّ أمر عظيم.

وقلت: أنا غـريب، وينتبـه صاحبُ البـيت، فلا يعـرفنى، ولا يشكّ فى إنّى صاحب الجناية، فأقتل.

فتـركتُ رَحْلى، وأخذتُ ردائى، ونَعـلى، وطـلبتُ البـاب، فلم أزل أمشى، لا أدرى أين أقصد، والليل منتصـف، وخِفْت العَسَس، فرأيتُ أتون[1] حمّام لم يُوقَدَ بَعْدُ.

فقلت: أختبئ فيه، إلى أن يُفتح الحمّام، فأدخله، فجلستُ فى كِسْر الأتّون.

فما لبثـتُ حينًا، حتّى سمعتُ وَقْعَ حافـر، وإذا برجل يقول: قد رأيتك يا ابن الفاعلة، ودخل الأتّون، وأنـا كالميت من الفزع، لا أتحـرّك، فلمّا لم يجد حـساً، أدخل رأسـه، ويدَه، ويومئ بسـيف مـعـه فى الأتّون، وأنا بعـيـد عن أن ينالنى السيّف، صابرٌ، مستسلم.

فلمّـا لم يُحسّ أحـدًا، خرج إلى بابه، وإذا مـعـه جارية، فـأدخلهـا الأتّون، فذبحَها، وتركَها ومضى.

---

(١) أتون: فرن.

فرأيتُ بريق خَلْخَالَيْن فى رجليهْا، فانتزعتهما منها، وخرجت، وما زلتُ أمشى فى الطريق متحيّرًا، إلى أن صرتُ إلى باب حمّام قد فُتِح، فدخلته، وخبأتُ ما معى فى ثيابى، عند الحمامى.

وخرجتُ وقد أصبحتُ، فضممتُ الخَلْخَالَيْن إلى ما معى، وطلبتُ الطريق، فعرفتُ أنّى بالقرب من دار صديقٍ لى، فطلبتها، فدققتُ بابه، ففتح لى، وسُرّ بمقدَمى، وأدخلنى.

فدفعتُ إليه منديلى الذى كان فيه دراهمى والخَلْخَالَيْن، ليخبّئهما، فلمّا نظر إليهما تغيّر وجهه.

فقلت: مالك؟

فقال: من أين لك هذان الخَلْخَالان؟

فأخبرته بخبرى كلّه فى ليلتى، فدخل مسرعًا إلى دار حَرَمه، وخرج إلىّ.

فقال: أتعرف الرّجل الذى رأيتَه قتل الجارية؟

قلت: أمّا بوجهه فلا، لأنّ اللّيلَ والظلمةَ كانت حائلةً بيننا، ولكنْ إن سمعتُ كلامَه عرفتُه.

فأعدّ طعامًا، وغدا فى أمره، وعاد بعد ساعة، ومعه رجلٌ شابّ من الجُند، فكلّمه، وغمزنى عليه.

فقلت: نعم، هذا هو الرّجل.

ثمّ أكلنا، وحضر الشراب، فحَمَل عليه بالنّبيذ، فسكِرَ، ونام موضعه، فأغلق بابَ الدار، وذبح الرّجل.

وقال لى: إنّ المقتولة أختى، وكان هذا قد أفسدها، ونمى الخبر إلىّ منذ أيّام فلم أصدّق، إلاّ أنّى طردت أختى، وأبعدتُها عنّى، فمضت إليه، ولستُ أدرى ما كان بينهما، حتّى قتلها، وإنّما عرفت الخَلْخَالَيْن ودخلتُ فسألتها عنها. فقيل لى: هى عند فلان.

فقلت: قد رَضِيتُ عنها، فوجّهوا، فردّوها، فَلَجْلَجُوا في القول، فعلمتُ أنّ الرّجل قد قتلها كما ذكرتُ، فقتلته، فقم حتّى ندفنه.

فخرجنا ليلاً، أنا والرّجل، حتّى دفنّاه، وعدتُ إلى المُشْرَعة، هاربًا من البصرة، حتّى دخلتُ بغداد.

وحلفتُ ألاّ أحضُر دعوة أبدًا.

وأمّا الجنازة، فإنّي خرجتُ ببغداد، نصف النّهار، في يوم حار، لحاجة فاستقبلتني جِنازة يحملها نَفْسَان.

فقلت: غريبٌ، فقيرٌ، أحملها معهما فأثاب، فدخلت تحتها، بدلاً من أحد الحمّالين.

فحين استقرّت على كتفي، افتقدتُ الحمّال، فلم أجِدْه، فصحتُ: يا حمّال، يا حمّال.

فقال الآخر: امش، واسكت، قد انصرف الحمّال.

فقلت: السّاعةَ، واللّهِ، أرمي بها.

فقال الحمّال: واللّهِ، لئن فعلتَ لأصيحنّ.

فاستحيَيْتُ، وقلت: ثوابٌ، فحملناها إلى مسجد الجنائز، فلمّا حططنا الجنازة في مسجد الجنائز، هرب الحمّال الآخر.

فقلت: ما لهؤلاء الملاعين، واللّهِ، لأتِمّنَّ الثواب، فأخرجتُ من كمّي دراهم، وصحت: يا حفّار، أين قبر هذه الجِنازة؟

فقال: لا أدري.

فقلت: احفر، فأخذ منّي دِرهمين، وحفر قبرًا.

فلمّا صوّبت عليه الجِنازة، ليأخذ الميت فيدفنه، وثب الحفّار من القبر فلطمني، وجعل عمّامتي في رقبتي، وصاح: يا قوم.. قتيل، فاجتمع الناس، فسألوه.

فقال: هذا الرّجل، جاء بهـذا الميت، بلا رأس، لأدفنه، وحلّ الكفن، فوجدوا الأمر على ما قاله الحفّار.

فدَهشْتُ، وتحيّرت، وجرى علىّ من مكروه العامّة، ما كادت نفسى تتلف معه.

ثمّ حُملتُ إلى صاحب الشُّرطة، وأُخبِـرَ الخبر، فلم يُرِدْ شاهدًا علىّ، فجُرّدت للسياط، وأنا ساكتٌ باهت.

وكان له كـاتب عاقل، فـحين رآنى، ورأى حـيرتى، قال له: أنظِـرنى، حتّى أكشفَ حالَ هذا الرّجل، فإنّى أحسبه مظلومًا، فأمْهله.

فقام، وخَلاَ بى، وساءلنى، فأخبرته خبرى، ولم أزِد فيه ولم أنْقُص.

فنحّى الميت عن الجِنازة، وفتّشها، فوجد عليها مكتوبًا: أنّها للمسجد الفلانى، فى النّاحية الفلانية.

فأخذ معه رجاله ومضى، فدخل المسجد مـتنكرًا، فوجد فيه خيّاطًا، فسأله عن جِنازة هناك، كأنّه يريد أن يحمل عليها ميتًا له.

فقال الخيّاط: للمسجد جنازة، إلاّ أنّها قد أخِذَت منه الغدَاةَ، لِحَمْل ميت، ولم تُردّ.

قال: مَن أخذها؟

قال: أهلُ تلك الدار، وأومأ إليها.

فكَبَسها الكاتـب برجّالة الشُّرطة، فوجد رجالاً، فقـبض عليهم، وحملهم إلى الشُّرطة، وأخبر صاحب الشُّرطة بالخبر.

وقرّر القومَ، فأقرّوا أنّهم تغايروا على غلام أمـرد كان معهم، فقتلوه، وطرحوا رأسه فى بئر حفروها فى الدّار، وحملوه على تلك الصورة، وأنّ الحمّالَيْن كانا من جملة القوم، وعلى أصلٍ هربًا.

فضُربت أعناق القوم، وخُلّىَ سبيلى.

فهذا سبب يَمينى فى ألا أحضُرَ جنازة.

●●●

١١- جَزَاءُ الإحسَان!!

حدّثنى إبراهيمُ بنُ علىّ بنِ سعيد بن على زَوْبعة النَّصيبِينِىّ المتكلِّم، قال:

قال جماعة من أهل نصيبين، إنّه كان بها أخَوان، ورثا عن أبيهما مالاً عظيمًا، جليلاً، فاقتسماه، فأسرع أحدهما فى حصّته حتى لم يبق معه شىء[١]، واحتاج إلى ما فى أيدى الناس، وثمّر الآخر حصّته، فزادت.

وعرض له سفر فى تجارته، فجاءه أخوه الفقير، وقال: يا أخى إنّك تحتاج إلى أن تستأجر غلامًا فى سفرك، وأنا أحتاج إلى أن أخدُمَ الناس، فاجعلنى بدل غُلام تستأجره، فيكون ذلك أصْوَنَ لى ولك.

فلم يشكّ الأخ أنّ أخاه قد تأدّب، وأنّ هذا أوّلُ إقباله، وآثر أن يَصُونَ أخاه، ورقّ عليه، فأخذه معه.

وكان للأخ الغنىّ حمارٌ فارِهٌ يركبه، وقد استأجر بِغالاً لأحماله، فأركب أخاه أحدَها، وركب هو أحدها، وأركب المُكارى الحمار، وساروا.

فلمّا استمر بهم السفر، حصَلوا فى جبل فى الطريق، وفيه كهف فيه عين ماء، فقال الأخ الفقير للأخ الغنى: لو نزلنا ههنا، وأرحنا دوابَّنا، وسقيناها من هذا الماء، وأكلنا، ثم ركبنا، لكان أرْوَحَ لنا.

فقال: افعل.

فنزل التاجر على باب الكهف الذى فى الجبل، وأدخل متاعه إليه، وبسط السُّفْرة، وأخذ أخوه الفقير، والمُكارى، الدوابّ، ومضيا ليسقياها.

وانتظر التاجرُ أخاه، فاحتبس طويلاً، ثم جاء وحده، وشدّ الدوابّ.

فقال له أخوه: يا أخى ما قُعادك، وأنا أنتظرك تأكل معى؟

(١) أى أسرف فى إنفاق ما ورثه ولم يثمره.

فقال: حتى سقيْتُ الدوابّ.

فقال: وأين الـمُكارى؟

فقال: قد نام فى الجبل.

فقال: تعال، حتّى نأكل.

فتركه ومضى، ثم عاد، وبيده حجارة يرمى بها أخاه، ويقول له: استَكْتِف[1] يا ابنَ الفاعلة.

فقال له: ويُحك ما تريد؟

فقال: أريد قتلَك يا ابنَ الفاعلة، أخذت مالَ أبى، فجعلتَه تجارةً لك، وجعلتنى غُلامَك.

قال: ورفسه، وألقاه على ظهره، ثم أوثقه كِتافًا، وأثخنه ضربًا بالحجارة، وشجاجًا، وصاح الرجل، فلم يجبه أحد.

وبرك أخوه الفقير على صدره، وكان فى وسطه سكّين عظيمة، فى قِراب لها، فرام استخراجها من القِراب ليذبحه بها، فتعسّرت عليه، فقام عن صدر أخيه، وأعلا يدَه اليسرى، وفيها السكّينُ فى قرابها، وجذبها بيده اليمين، وقد صار القراب مع حَلْقِهِ، فخرجت السكين بحمية الجذبة، فذبحتْه، فوقع يخور فى دمه، ونزف إلى أن مات، وجفّت يده على السكّين بعد موته، وهى فيها.

وحصل على تلك الصورة، وأخوه الغنيُّ مشدود، لا يقدر على الحركة، والسُّفْرة منشورة، والطعام عليها، والدواب مشدودة.

فأقام على تلك الصورة بقيّة يومه، وليلته، وقطعةً من غده.

فاجتازت قافلة على المحجّة، وكان بينها وبين الكهف بُعْد، فأحسّت البغال بالدوابّ المجتازة، فصَهلت، ونَهَقَ الحمار، وجذبت الرَّسَنَ، وجذبت البغال أرسانها، فأفلتت، وغارت[2] تطلب الدوابّ.

---

(١) استكتف: أى كتفْ نفسك.

(٢) غارت (عامية بغدادية): أسرعت تجرى.

فلمّـا رأى أهل القافلة، دواباً غـائرة، ظنّوا أنّها لقـوم قد أسرهم الـلصوص، وكانوا فى مَنَعَة، فتسارعوا إلى البغال.

فلمّا قصدوها، رجعت تطلبُ موضعَها.

وتبعـها قـوم من أهل القافلة، حـتى انتهـوا إلى التاجـر، وشاهدوه مكتـوفًا، والسُّفرةَ منشورة، والأخَ مذبوحًا، وبيده السكين، فشاهدوا عجبًا.

واستنـطقوا الرجل، فـأومأ إليهم أنّ لا قُـدرة له على الكلام، فـحلّوا كتـافه، وسقوه ماءً، وأقاموا عليه أن أفاق، وقدر على الكلام، فأخبرهم الخبر.

فطلبوا الـمُكارى، فوجدوه غريقًا فى الماء، قد غرقه الأخ الفقير.

فحملوا أثقال التاجر على بغاله، وأركبوه على حماره، وسيرّوه معهم إلى المنزل الآخر.

●●●

١٢- قِرْدٌ!!

حدّثني عليّ بن نظيف المتكلّم، المعروف بشَهْدَانْجَة، وسعيد بن عبد الله السمَرْقَنْدي الفقيه الحنفي، عمّن حدّثهما:

إنّه بات في سطح خَانٍ، في بعض الأسفار، ومعهم قَرّاد، ومعه قِرد، وامرأته، فباتا في خان.

قال: فلما نام الناس، رأيت القردَ قد قلع المسمارَ الذي في السلسلة، ومشى نحو المرأة، فلم أعلم ما يريد.

فقمتُ، فرآني القرد، فرجع إلى مكانه، فجلستُ، ففعل ذلك دَفَعات، وفعلتُهُ.

فلما طال عليه الأمر، جاء إلى خُرْج القرّاد، ففتحه، وأخرج منه صُرّةَ دَراهم، خمّنتُ أنّ فيها أكثرَ من مائة درهم، فرمى بها إليّ.

فعجبتُ من أمره، وقلت: أمْسِكُ، لأنظرَ ما يفعل، فأمسكتُ.

فجاء إلى المرأة، فمكّنته من نفسها، فوَطِأها.

فاغتممتُ بتمكيني إيّاه من ذلك، وحفظتُ الصرّة.

فلما كان من غدٍ، صاح القَرّاد، يطلب ما ذهب منه.

وقال لصاحب الخان، قِرْدِي يعرف مَن أخذ الصُّرة، فاضبط بابَ الخان، وأقعُدُ أنا وأنت والقرد، ويخرج الناس، فمن علِق به القرد فهو خَصمي، ففعل ذلك.

وأقبل الناس يخرجون والقرد ساكت لا يتكلم، وخرجتُ فما عَرَضَ لي، فوقفتُ خارِج الخان أنظر ما يجرِي، فلمّا لم يبق إلاّ يهودي، فخرج، فعلِق به القرد.

فقال القَراد: هذا خَصمي، وجذبه ليحملَه إلى صاحب الشُّرطة، فلم أستحلّ السكوت.

فقلت: يا قوم، ليس اليهـودىّ صاحبَكم، والصُّرَّة معى، ولى قصّة عـجيبة فى أخذها، وأخرجتها، وقصصتُ عليهم القصة.

فحُـمِلْنا إلى صاحب الـشُّرطة، وحضـرت الرفقـة، فعـرَّفوا صاحبَ الـشُّرطة مَحَلِّى، ومنزلتى، ويسارى، وأقبل القرّاد يحيدُ عن قرده.

فمـا برِحت حتى أمـر صاحب الشُّرطة بقـتل القرد، وطُلبت المرأةُ، فـهربَتْ، وسَلِمَ اليهودىّ.

●●●

١٣- من غرائبِ الصُّوفية

حدّثنا إبراهيمُ الخوّاص الصوفى، رحمه اللّه تعالى قال:

ركبتُ البحر مع جماعة من الصُّوفيَّة، فكُسر بنا المركب، فنجا منّا قومٌ على لوح من خشب المركب.

فوقفنا على ساحل لا ندرى فى أى مكان هو، فأقمنا فيه أيامًا لا نجد ما نقتاته، فأحسسنا بالموت، وأيقنّا بتَلَفِنا من الجوع لا محالة.

فقال بعضنا لبعض: تعالَوْا نجعلْ للّه تعالى على أنفسنا أن ندع له شيئًا، فلعلّه أن يرحمَنا فيخلّصَنا من هذه الشدّة.

فقال بعضنا: أصومُ الدهر كلّه.

وقال الآخر: أصلّى كلّ يوم كذا وكذا ركعة.

وقال بعضنا: أدَع لذّات الدنيا، إلى أن قال كلٌّ واحد منهم شيئًا، وأنا ساكت.

فقالوا: قُلْ أنت الآخر شيئًا.

فلم يجر على لسانى إلاّ أنْ قلت: أنا لا آكل لحم فيل أبدًا.

فقالوا: ما هذا القول فى مثل هذا الحال؟

فقلت: واللّهِ، لم أتعمّد هذا، ولكنّى منذ بدأتم فعاهدتم اللّه تعالى عليه، وأنا أعرض على نفسى شيئًا كثيرة فلا تطاوعنى بتركها، ولا خطر ببالى شىء أدَعه للّه تعالى، ولا مرّ على قلبى غير الذى لَفَظَتُ به، وما أجْرِىَ هذا على لسانى إلا لأمرٍ.

فلما كان بعد الساعة، قال أحدنا: لِمَ لا نطوف هذه الأرضَ متفرّقين فنطلب قوتًا، فمَن وجد شيئًا أنذر به الباقين، والموعد هذه الشجرة.

قال: فتفرّقنا فى الطواف، فوقع بعضنا على ولد فيل صغير، فلوّح بعضنا لبعض فاجتمعنا، فأخذه أصحابنا، واحتالوا فيه حتى شووه وقعدوا يأكلون.

فقالوا: لى: تقدمْ وكُلْ معنا.

فقلت: أنتم تعلمون أنّى منذ ساعة تركـته للّهِ عزَّ وجَلَّ، وما كنتُ لأرجع فيه، ولعلّ ذلك قد جـرى على لسانى من ذِكْرِى له، هو سـبب موتى من بينكم، لأنّى ما أكلتُ شيئًـا منذ أيّام، ولا أطمعُ فى شىء آخر، ولا يرانى اللّه عَزَّ وجَلَّ أنقض عهده، ولو متّ جوعا، فاعتزلتهم وأكل أصحابى.

وأقبـل الليل، فأويتُ إلى أصل شـجرة كنت أبيتُ عندهـا، وتفرّق أصحـابى للنوم.

فلم يكن إلاّ لحظة، وإذا بفيل عظيم قـد أقبل وهو يَنْعَر، والصحـراء تتدكْدَك، بنعيره وشدّة سعيه، وهو يطلبنا.

فقـال بعضنا لبـعض: قد حـضر الأجل، فتـشهـدّوا، فأخذنا فى الاسـتغـفار والتسبيح، وطَرَحَ القومُ نفوسَهم على وجوههم.

فجعل الفيل يقصد واحدًا واحدًا منهم، فيتشمّمه من أوّل جسده إلى آخره، فإذا لم يبقَ منه موضعًا إلى شمّه، شال إحدى قوائمه فوضعها عليه ففسخه.

فإذا علم أنّه قد تَلِف، قصد إلى آخر ففعل به مثل فِعله بالأوّل.

إلى أن لم يبقَ غيـرى، وأنا جالس منتصبٌ أشاهد مـا جرى وأستغفـرُ اللّه عَزَّ وجَلَّ وأسبّح.

فقصدنى الفيل، فحين قَرُب منّى، رميتُ بنفسى على ظهرى ففعل بى من الشمّ كما فـعل بأصحابى، ثم عاد فـشمّنى دفعتين أو ثلاثًا، ولم يـكن فعَل ذلك بأحد منهم غيرى، وروحى فى خلال ذلك تكاد تخرج فَزَعًا.

ثم لفّ خُـرطومـه علىّ وشـالنى فى الهـواء، فظننتـه يريد قـتلى، فـجهـرتُ بالاستغفار.

ثم لفّنى بخرطومه فجعلنى فوق ظهره، فانتـصبتُ جالسًا، واجتهدتُ فى حفظ نفسى بموضعى.

وانطلق الفيل، يُهرول تارةً، ويسعى تارة، وأنا تارة أحمَد اللَّه تعالى على تأخير الأجل وأطمعُ فى الحياة، وتارة أتوقّع أن يثور بى فيقتلَنى، فأعاودُ الاستغفار، وأنا أقاسى فى خلالِ ذلك من الألم والجزع لشدة سرعة سَعْيِ الفيل أمرًا عظيمًا.

فلم أزل على ذلك، إلىّ أن طلع الفجر وانتشر ضوؤه، فإذا به قد لفّ خرطومه علىّ.

فقلت: قد دنا الأجل وحضر الموت، وأكثرتُ من الاستغفار.

فإذا قد أنزلنى عن ظـهره برفق، وتركنى على الأرض، ورجع إلى الطريق التى جاء منها، وأنا لا أصدّق.

فلما غاب عنّى، حتى لا أسمع له حسّاً، خررتُ ساجدًا للّه تعالى، فما رفعتُ رأسى حتى أحسستُ بالشمس.

فإذا أنا على محجّة عظيـمة، فمشيْتُ نحو فَرسخيْن، فانتـهيتُ إلى بلد كبير، فدخلته.

فعجب أهلُه منّى، وسألونى عن قصّتى، فأخـبرتهم بها، فزعموا أنّ الفيل قد سار بى فى تلك الليلة مسيرة أيّام، واستطرفوا سلامتى.

فأقمتُ عندهم حـتى صَلُحْتُ من تلك الشدّة التى قاسيـتها، وتندّى بدنى، ثم سرتُ عنهم مع التجـار، فركبتُ فى مركب، ورزقنى اللَّه السـلامة، إلى أن عدتُ إلى بلدى.

●●●

١٤- أمينٌ.. شَريفٌ

حدّثني أبو بكر محمّد بن عبيد اللَّه بن محمّد الرازى، المعروف بابن حَمْدون، عن الحسن بن محمّد الأنبارى الكاتب، قال: كان لى أيّام مُقامى بأرَّجَان جارٌ تاجر، يعرف بجعفر بن محمّد، وكنت آنَسُ به، فحدّثنى، قال:

كنت أحجّ دائمًا، وأنزل على رجل عَلَوِىٍّ، حُسَيْنِىٍّ فقير، مستور، فألْطِفُه، وأتفقّده.

فتأخرّتُ عن الحجّ سنة، ثمّ عاودتُ، فوجدته مُثْرِيًا، فسررتُ، وسألته عن سبب ذلك.

فقال: كان قد اجتمع معى دُرَيْهِمات على وجه الدّهر، ففكّرتُ، عامَ أوّل، فى أن أتزوج، فإنّى كنت عَزَبًا، كما قد علمتَ.

ثمّ علمتُ أنّ فرض الحجّ قد تعيّن علىّ، فرأيتُ أن أقدّم أداء الفرض، وأتوكلّ على اللَّه عَزَّ وجَلَّ، فى أن يسهّل لى -بعد ذلك- ما أتزوّج به.

فلمّا حججتُ، طُفت طَواف الدخول، وأودعتُ رَحْلى، وما كان معى، فى بيت من خان، وأقفلتُ بابه، وخرجتُ إلى مِنَى.

فلمّا عدت، وجدتُ البيت مفتوحًا، فارغًا فتحيّرتُ، ونزلت بى شدّة ما مرّ بى قطّ مثلُها.

فقلت: هذا أعظم للثواب، فما وجه الغمّ، فاستسلمتُ لأمر اللَّه عَزَّ وجَلَّ.

فجلستُ فى البيت، لا حيلة لى، ولا تسمح نفسى بالمسألة(١)، فاتّصل مُقامى ثلاثة أيّام، ما طعِمْتُ فيها شيئًا.

فلمّا كان فى اليوم الرابع، بدأ فىَّ الضعف سَحَرًا، وخفت على نفسى، وذكرتُ قول جدّى رسول الله ﷺ وآله: «ماءُ زمزم لما شُرِبَ له»، فخرجتُ أريدها

(١) لم تطب نفسه بأن يتسوّل.

حتّى شـربتُ منها، ورجـعتُ أريد باب إبراهيم الخليل -على نبـيّنا وعليـه أفضل الصلاة والسلام -لأستريحَ فيه.

فـبيّنا أنا أسـير، إذ عَـثَرتُ فى الطريق بـشىء أوجع إصبـعى، فأكْـبَبْتُ عليـه لأمسكه، فوقعت يدى عليُ هِميان أدلم[1] أحمر كبير، فأخذته.

فلمّا حصل فى يدى، ندمتُ، وعلمتُ أنّ اللقَطَة -ما لم تُعرَّف- حرام.

وقلت: إذا تركـتـه الآن، كنتُ أنا المضيِّـع له، وقد لزمنـى أن أعرِّفـه، ولعلّ صاحبه، إذا رجع إليه، أن يَهَبَ لى شيئًا أقتاته حلالاً.

فجئتُ إلى بيتى، وفتحتُ الهِميان، فإذا فيه دنانيرُ صُفر، تزيد على ألفىْ دينار.

فسـددته، ورجعتُ إلى المسجـد، فجلستُ عند الحِجْـر، وناديت: مَنْ ضاع له شىء، فيأتينى بعلامته، ويأخذه.

فانقضى يومى، وأنا أنادى، وما جاءنى أحد، وأنا على حالى من الجوع.

وبتُّ فى بيتى، ليـلتى كذلك، وعدتُ إلى الصَّـفَا والـمَروة، فـعرّفتـه عندهما يومى، حتّى كاد ينقضى، فلم يأتنى أحد.

فضعُفْتُ ضعفًا شديدًا، وخشِيتُ على نفـسى، فرجعتُ متحاملاً، ثقيلا، حتّى جلستُ على باب إبراهيم الخليل، على نبيّنا وعليـه السلام، وقلت قبل انصرافى: إنّى قد ضَـعُفْتُ عن الصـياح وأنا ماضٍ أجـلس على باب إبراهيم، فمَن رأيتـموه يطلب شيئًا ضاع منه، فأرشدوه إلىّ..

فلمّا قَرُب المغرب، وأنا فى الموضع، إذا أنا بخُراسانى ينشد ضالّة[2]، فصحتُ به، وقلتُ له: صِفْ لى ما ضاع منك، فـأعطانى صفة الهِميـان بعينه، وذكر وزْنَ الدنانير وعددها.

فقلت: إن أرشدتك إلى مَن يردّه عليك، تعطينى منه مائة دينار؟

---

(١) الهميان: كيس لحفظ النقود مثبت بحزام يُربط على الوسط.

(٢) رجل من خراسان يبحث عن شىء فقده.

قال: لا.

قلت: فعشرة دنانير؟

قال: لا.

فلم أزل أنزل معه، حتّى بلغتُ إلى دينار واحد.

فقـال: لا، إن رأى من هو عنده، أن يرده إيمانًا واحتـسابًا، وإلا فهـو أبصَر، وولّى لينصرف.

فوَرَدَ علىّ أعظمُ وارِد، وهَـمَمْتُ بالسكوت، ثمّ خِفتُ اللَّـهَ سبحـانه وتعالى، وأشفقتُ أن يفوتنى الخُراسانىّ.

فصحتُ به: ارجع، ارجع، وأخرجتُ الهِميان، فدفعتُه إليه، فأخذه، ومضى، وجلستُ، ليس لى قوّة على المشى إلى بيتى.

فمـا غاب عنّى إلاّ قليلاً، حـتّى عاد، فقـال لى: من أى البلاد أنت، ومن أىّ النّاس؟

قال: فاغتظتُ منه غيظًا شديدًا، وقلت: ما عليك، هل بقى لك عندى شىء؟

قال: لا، ولكنّى أسـألك باللّهِ العظيم، من أى النّاس والبلاد أنتَ؟ فـعرِّفنى، ولا تضجَر.

فقلت: رجلٌ من العرب، من أهل الكوفة.

فقال: من أيّهم أنت، واختصِرْ؟

فقلت: رجلٌ من ولد الحسيْن بن علىّ بن أبى طالب، رضى اللّه عنهم.

فقال: ما حالُك ومالُك.

قلت: لا أملك فى هذه الدنيـا كلّها إلاّ ما تراه، وقـصصتُ عليه حـالَ محنتى وما كنت طمعت فيه أن يُعطينيه من الهِمـيان، وما قد انتهيتُ إليه من الضعف من الجوع.

فقال: أريد مَن يُعرّفنى صحةَ نَسَبِكَ وحالك، حتّى أقوم بجميع أمرك كلّه.

فقلت: ما أقدر على المشى للضعف، ولكن إئتِ الطُّوَّاف، وصِحْ بالكوفيّين، وقُلْ: رجل من بلدكم، علوىّ، بباب إبراهيم، يريد أن يجيئه منكم مَن ينشط لحالٍ هو فيها، فمَن جاء معك فهاتِه.

فغاب غير بعيد، ثمّ جاء ومعه من الكوفيين جماعة اتّفق أنّهم كلّهم كانوا يعرفون باطن حالى.

فقالوا: ما تريد أيّها الشّريف؟[1].

فقلت: هذا رجلٌ يريد أن يعرف حالى، ونَسبى، لشىءٍ بينى وبينه، فعرِّفوه ما تعرفون من ذلك.

قال: فعرِّفوه صحّة نسبى، ووصفوا له طريقتى، وعُدْمِى.

فضمِّنى، وجاء فأخرج الهِميان بعينه، كما سلّمته إليه، فقال: خذ هذا بأسره، بارك اللَّه لك فيه.

فقلت: يا هذا، ما كفاك ما عاملتنى به، حتّى تهزأ بى، وأنا فى حال الموت.

قال: معاذ اللَّه، هو لك، واللَّهِ.

فقلت: فَلِمَ بخِلْتَ علىّ بدينار منه، ثمّ وهبت لى الجميع؟

فقال: ليس الهِميان لى، وما كان يجوز لى أن أعطيكَ منه شيئًا، قَلّ أو كثر، وإنّما أعطانيه رجل من بلدى، وسألنى أن أطلب فى العراق، أو فى الحجاز، رجلاً علوياً، حُسينياً، فقيراً، مستوراً، فإذا علمتُ هذا من حاله، أغنيته، بأن أسلّم إليه هذا المال كلَّه، ليصير أصلاً لنعمة تنعقد له، فلم تجتمع لى هذه الصفات قبلك فى أحد، فلمّا اجتمعت فيك بما شاهدته من أمانتك، وفقرك، وعفّتك، وصبرك، وصحّ عندى نسبك فأعطيتكه.

---

(١) الشريف: المنتسب إلى آل البيت.

فقلت له: يرحمك اللَّه، إن كنتَ تحبّ استكمال الأجر، فخذ منه ديناراً وابتع لى به دراهم، واشتر بها ما آكله، وصر به إلىّ الساعة ههنا.

فقال: لى إليك حاجة.

قلت: قُلْ.

قال: أنا رجلٌ موسر، والذى أعطيتُك ليس لى فيه شيء، كما عرفتك، وأنا أسألك أن تقوم معى إلى رحلى، فتكونَ فى ضيافتى إلى الكوفة، وتتوفر عليك دنانيرك.

فقلت: ما فىّ حركة، فاحتل فى حَمْلى، كيف شئتَ.

فغاب عنّى ساعة، وجاء بمركوب، وأركبنيه إلى رحله، وأطعمنى فى الحال ما كان عنده، وقطع لى من الغد ثيابًا، وكان يخدُمنى بنفسه، وعادلنى فى عمّاريته[1] إلى الكوفة، فلمّا بلغتها، أعطانى من عنده دنانير أخر، وقال لى: تزودّ بها بضاعة، وفارقته، وأنا أدعو له، وأشكره، ولم أمسّ الهِميان.

وأخذتُ أنفق من الدنانير التى أعطانيها الرّجل، باقتصاد، إلى أن اتّفقت لى ضيْعةٌ رخيصة، فابتعتها بالهِميان، فأغلّت، وأثمرت، وأنا من اللَّه عَزَّ وجَلّ، فى نعمة جزيلة، وخير كثير، والحمد للّه على ذلك.

●●●

(١) يعنى كان معه فى نفس الهودج فوق راحلته.

الفصل الرابع

القصص السياسية

١- مراكزُ القُوَى

كان في يد صاعـد بن مَخْلَد ضمانات كـثيرة[1]، وكانت معـاملته مع أبي نوح عيسى بن إبراهيم[2]، وكان صاعدٌ من وجوه النّاس.

فحـضر صاعدٌ بين يـدى أبي نوح، يحاسبَه في أمـوال وجبت عليه، فـجرت بينهما مناظرات، فشتم فيها أبو نوح صاعدًا، فردّ عليه صاعد، مثل ما قاله له.

فاستعظم الحـاضرون ذلك، واستخفّوا بصاعـد، وقالوا له: يا مجنون، ما هذا الفعل؟ قتلتَ نـفسَك، ثمّ أقاموه، وخلّصوه من أبي نوح، وقـالوا: هذا مجنون، لم يدْرِ ما خرج من رأسه.

فانصرف إلى منـزله، متحيّرًا، لا يدرى مـا يصنع فيما نزل به، فـحدّث أخاه عَبْدون[3] بما جرى.

فقـال له: إن لم تطعني، قَبَضَ عليك في غدٍ، وطالبك من الـمُـصَادرة بما لا يَفِي به حالُك، ولا حالُ جميع أهلك، وقتلك -بلا شكّ- تشفّيًا.

قال له صاعد: فما الرأى؟

قال: كم عندك من المال، واصدُقني؟ قال: خمسون ألف دينار.

قال: أتَطِيبُ نفسُك أن تتعرَّى عنها، وتحرسَ دمَك، وما يبقى من حالك وضياعك؟ أم لا تسمح بذلك، فتؤخذ منك تحت المقارع، وتذهب النّفس والنّعمة كلّها؟

(١) الضمان: هو أن يتعـهد الشخص بتسديد مبـالغ مالية كبيرة للدولة نظيـر إطلاق يده في أراض أو مصالح يديرها لحسابه.

(٢) يدل السياق على أن أبا نوح هذا هو المسئول عن ديوان الضياع أو الأراضي.

(٣)) من طرائف هذا الخبـر ما ذكره عبود الشـالجي أن صاعدًا وعبـدون كانا نصرانيين ثم أسلم صـاعد وبقي أخوه عبدون نصرانيًا، وحين فزع إليه فإنه أخلص له النصح وأنقذه.

فقال له: قد تَعَرَّيْتُ عنها، كى تبقى نفسى.

قال: فادفع إلىّ منها ثلاثين ألف دِرهم، ففعل.

فحملها عبدون، وأتى حاجبَ مـوسى بن بُغَا، فقال له: خذ هذه العشرةَ آلاف دِرهم، وأوصلنى إلى فلان الخادم، وكان هذا خادمه الذى يتعشّقهُ موسى، ويطيعُه فى كلّ أموره، ومـوسى إذ ذاك هو الخليفة، وكَـتَبَتُهُ كـالوَزَارة، والأمور فى يده، والخليفة فى حِجْره[1].

قال: فأخذ الحاجب ذلك، وأوصله إلى الخادم، فأحضره العشرين ألف درهم، وقال: خـذ هذه، وأوصلنى إلى الأميـر السّاعـة، وأعنِّى عليه فى حـاجة أريد أن أساله إيّاها، ومشورةٍ أشير بها عليه، فأوصله الخادم إليه.

فلمّا مَثَلَ بين يديه، سعى إليه بكتابه، وقـال له: قد نهبوك، وأخـذوا مالك، وأخربوا ضـياعك، وأخى يجـعل كتـابتَك أجلَّ من الوزارة[2]، ويغلبُ لك على الأمـور، ويوفّر عليك كـذا، ويحـمل إليك اللّيلة، من قـبل أن ينتـصف اللّيل، خمسين ألف دينار عَيْنًا، هديةً لك، لا يريد عنها مكافأة، ولا يرتجعها من مالك، وتستكتبُه، وتخلَعُ عليه.

فقال موسى: أفكّر فى هذا؟

فقال: ليس فى هذا فكر، وألحّ عليه.

فقال الخادم: فى الدنيا أحد جاءه مثلُ هذا المال، فرده؟ وكاتبٌ بِكاتب، فأجابه موسى، وأنعمَ له.

فقال له عبدون: فتستدعى أخى السّاعةَ، وتشافههُ بذلك، فأنْفَذَ إليه، فأحضرَه، وقرّر عليه ذلك، وبات عبْدون فى الدّار لتصحيح المال، فوفّاه.

---

(١) هكذا بدأت رحلة البحث عن مركز قوة للاحتمـاء به من بطش صاحب ديوان الضياع: الحاجب، فالخادم الخاص بالملذات الشاذة، فالقائد التركى المتسلط على الخليفة.

(٢) يجعل ديوانك الخاص أعظم من دواوين الدولة.

وبكَّر صاعـدٌ، فخَلَعَ عليه لكتابتـه، وأركب الجيش كلَّه فى خدمـته، وانقلبت سامُراء، بظهور الخبر.

فبكَّر بعضُ المتصرِّفين إلى الحسن بن مَخْلَد، وكان صديقًا لأبى نوح، فقال له: قد خُلِع علَى صاعد.

فقال: لأىّ شىء؟

فقال: تقلّد كتابة موسى بن بَغَا، فاستعظم ذلك.

وركب فى الحال، إلى أبى نوح، وقال له: عرفتَ خبر صاعد؟

فقال: نعم، الكلب، قد بلغك ما عاملنى به، واللَّه لأفعلنّ به، ولأصنعنّ.

فقـال له: أنت نائم؟ ليس هذا أردتُ، قـد وَلِىَ الرّجـلُ كـتـابةَ الأميـر موسى ابن بغا، وخَلَع عليه، وركب معه الجيش بأسْرِهِم إلى داره.

فقال أبو نوح: ليس هذا ما ظننته، بات خائفًا منّا، فـأصبحنا خائفين منه، فما الرأى عندك؟

قال: أن أصْلِحَ بينكما السّاعة.

فركب الحـسن بن مخلد إلى صاعـد، فهنّأه، وأشار عليـه أن يُصالح أبا نوح، وقال له: أنت بلا زوجة، وأنا أجعلك صِهَـره، وتعتَضِد به، وإن كنت قد نُصرت عليه، فهو مَن تعلمُ موضعَه، ومحلّه، ومَحلّ مصاهرته ومودّته، ولـم يَدَعَهْ، حتّى أجابَ إلى الصلح والمصاهرة.

فقال له: فـتركبُ معى إليه، فإنّه أبو البـنت، والزّوج يقصِد المرأةَ، ولولا ذاك لجاءك.

فحـمله من يومه إلى أبى نوح، واصطلحا، ووقع العـقدُ فى الحال بينهـما فى ذلك المجلس.

●●●

٢- من السُّجْن إلى الوَزارة

وحدّثنى غيرُ واحد من الكتّاب، عمّن سمع أبا على بن مُقْلة، لما عاد من فارس وزيرًا، يحدّث، قال:

من طريف مـا اتّفَقَ لى فى نكبتى هـذه التى أدّتنى إلى الوَزارة، أنّنى أصبـحتُ وأنا محبوسٌ مـقيّد فى حجرة من دار ياقوتَ، أميرِ فـارس، وقد لحقنى من اليأس من الفَـرَجِ وضـيق الصـدر مـا أقْنَطَنِى وكـاد يذهـبُ بعـقلى، وكنّا، أنا وفـلان محبوسَيْن، مقيّدين، فى بيت واحد من الحجرة، إلاّ أنّا على سبيل تَرْفِيهٍ وإكرام.

فدخل علينا كـاتبٌ لياقـوت، وكان كثـيرًا ما يجـيئنا برسالتـه، فقال: الأمـير يُقرِئكُما السّلام، ويتعرّف أخباركما، ويعرض عليكما قضاء حاجة إن كانت لكما.

فقلتُ له: تقرأ عليه السّلام، وتقول له: قد -واللّه- ضاق صدرى واشتهيتُ أن أشربَ على غـناءٍ طيّب، فإن جاز أن يـسامحنا بذلـك سِراً، ويتّخـذ به مِنّةً علىَّ ويدًا، تفضَّلَ بذلك.

فقال لى المحبوس الذى كان معى: يا هذا، ما فى قلوبنا فضلٌ لذلك.

فقلت للكاتب: أدِّ عنّى ما قلتُ لك.

قال: السمـع والطاعةُ، ومضى، وعاد فـقال: الأمير يقول لك: نَـعَمْ، وكَرامة وعَزَازة، أىَّ وقتٍ شئتَ.

فقلت: الساعةَ.

فلم تمض إلا ساعة، حـتّى جاءوا بالطعام، فأكلنا، وبالمشامّ والفواكـه والنبيذ، وصُفَّ المجلس، فجلستُ أنا والمحبوس الذى معى فى القيْدَيْن.

وقلتُ له: تعالَ، حتى نشرب، ونتفاءل بأوّلِ صـوت تغنّيه الـمُغنِّية، فى سرعة الفرج ممّا نحن فيه فلعلّه يصحّ الفأل.

فقال: أمّا أنا فلا أشـرب، فلم أزل أرفُق به حتّى شرِب، فكان أوّلَ صوت غنّته المغنيّة:

تَوَاعَــدَ لـلبـيْن الخَلِيطُ لِيَنْبـتُّـوا ... وقـال لراعى الذّوْدِ مـوعدُك السّبتُ

ولكـنّهم بانـوا -ولم أدْرِ- بغـتـةً ... وأفظع شىء حـين يفْجَـؤُك البَغْتُ

فقال لى: ما هذا ممّا يُتفاءل به، وأىُّ معنى فيه، ممّا يدلّ على فَرَجِنا؟

فقلت: ما هو إلا فألٌ مُبارك، وأنا أرجو أن يفرّق اللّه بيننا وبين هذه الحالة التى نحن عليها، وبين الفرج والصلاح، يوم السبت.

قال: وأخذْنا فى شربنا يومنا، وسكْرِنَا، وانصرفَتْ الـمُغنّية، ومضت الأيّام.

فلمّا كـان يوم السبت، وقـد مضى من النّهـار ساعتـان، إذا بياقـوتَ قد دخل علينا، فارتَعْنا، وقمتُ إليه، فقال: أيّها الوزير، اللّهَ، اللّهَ، فى أمرى، وأقبل إلىّ مسرعًا، وعانقنى، وأجلسنـى، وأخذ يهنّينى بالوَزارة فبُهِتُّ، ولم يكن عندى علمٌ بشىء من الأمر، ولا مقدّمة له.

فأخرج إلىّ كتابًا ورد عليه من القاهر باللّه، يُعلمه فيه بما جرى على الـمُقتدر، ومبايعة النّاس له بالخلافة، ويأمرُه بأخذ الـبيعة على مَنْ بفارسَ من الأولياء، وفيه تقليده إيّاى الوَزارة، ويأمـره بطاعتى، وسلّم إلىّ أيضًا، كتابًا مـن القاهر، يأمرنى فيـه بالنّظر فى أموال فـارس، والأولياء بهـا، واستـصْحاب مـا يمكنى من المال، وتدبير أمر البلد بما أراه، والبِدار إلى حضرته، وأنّه استخلف لى -إلى أن أحضرُ- الكَلْوَذَانىّ.

فحَمِـدتُ اللّه كثيرًا، وشكرته، وإذا الحـدّاد واقف، فتقدّمتُ إليـه بفكّ قيودى وقيود الـرّجل، ودخلتُ الحَمَّامَ، وأصلحتُ أمرى وأمـرَ الرّجل، وخرجتُ فنظرتُ فى الأعمال والأمـوال، وجمّعْتُ مالاً جليلاً فى أيام يسيـرة، وقررتُ أمورَ البلد، واستصحبتُ الرجل معى إلى الحضرة، حتى جلستُ هذا المجلس، وفرَّجَ اللّهُ عنا.

●●●

٣- فَنُّ اصطِناعِ الأوْلِياء

قال: دعا المأمون يومًا بأبى عبّادَ[١] فدفع إليه كتابًا مختومًا، وأمره أن يأتىَ عَمْرَو بنَ مَسْعَدَةَ، فيُناظرَه على ما فيه بابًا، بابًا، ويأخذَ تحت كلّ باب خَطه فيه، ويختمَه بِخَاتَمه، وخاتَمِ عمرو، ويحتفظَ به إلى أن يسألَه عنه، ولا يذكره ابتداءً، وأكّد على ذلك.

قال: فعلمتُ أنّها وقيعة، وقد كنتُ شاركتُ عمرًا فى أشياء، فصارت إلينا منها أموال، فخفْتُ أن تكون مذكورةً فى الكتاب.

فقصدتُ عمْرًا، فوجدته فى بُستان أحمد بن يوسف، يلعب بالشَطَرنْج مع بعض أصحابه، فعرّفته أنّى محتاج إلى الخَلوة معه.

فقال: دعنى الساعة، فقد استوى لى هذا الدَّسْت، (أى سينتصر فى الدوْر).

فضاق صدرى، وقلبتُ الشطرنج، وقلت: قد سال السّيْل، وهلكنا وأنت غافل، اقرأ هذا الكتاب، فقرأه فطالبتُه أن يكتبَ خطّه، تحت كلّ فصل منه، بحُجّته.

فضحك، وقال: ويُحك، أما تستحى، تخدُم رجلاً طول هذه المدّة، ولا تعرف أخلاقه، ولا مذَهَبَهُ؟

فقلت: يا هذا؟ أخبرنى عنك، إن أقدمتَ على جَحْد[٢] ما فى هذا الكتاب، لتعذّر حجّة ما شاركُتك فيه، أمّا أنا فواللّهِ ما أجحدُ، ولكن أصبِرُ لأمر الله تعالى.

قال: فتحبّ أن أطلعك على ما هو أشدّ عليك من هذا؟

---

(١) أبو عباد من كُتّاب المأمون، وعمرو بن مسعدة من وزرائه.. وخلاصة ما جرى أن المأمون استدعى كاتبه وقدّم إليه كشفًا بممتلكات الوزير وطلب منه أن يأخذ توقيعه عليها، ويوقع إلى جانبه ويحتفظ الكاتب عنده بهذا الكشف، ولا يبرزه إلا إذا طلبه المأمون.

(٢) الجحد: الإنكار.

قلت: وما هو؟

فقال: كتاب دفعه إلىّ أميرُ المؤمنين منذ سنة، وأمرنى فيه بمثل ما أمرك فى هذا، فعرفتُ ضِيقَ صدرك، فلم أذكره لك.

فكدتُ أموت إلى أن فَرَغ من كلامه، فقلت له: أرنى إيّاه، فأحضره وقرأتُه، وأنا أنتفض، وعمرو يضحك.

فلمّا فرغت منه، قلت: عند اللّه أحتسب نفسى ونعمتى.

فقال: أنتَ واللّهِ مجنون.

فقلت: دعنا من هذا، ووقّعْ تحت كلّ فصل.

فنظر إلى جُملةِ ما نُسبَ إليه فى الكتاب، فوجده أربعين ألف ألف درهم، فوقّع فى آخره: لو قَصُرت همّتنا فى هذا القدر وأضعافه، لوَسّعتّنا منازلُنا، وما يفى هذا، بِدَلْجَةٍ فى بَرْدٍ، أو رَوْحَةٍ فى حرٍّ، وأرجو أن يُطيلَ اللّهُ بقاء أمير المؤمنين، ويبلغَنا فيه ما نؤمّله به، وعلى يده[1].

وكان جملة ما رُفِعَ علىّ، سبعة وعشرون ألف ألف دِرهم.

فقال: يا هذا، إنّ صاحبنا ليس ببخيل، ولكنّه رجل يكره أن يطوى معروفه، وإنّما أراد أن يُعلِمَنا أنّه قد علِم بما صار إلينا، فأمسَكَ عنه على علم.

ثمّ ختم الكتاب بخاتَمه، وخاتَمى، وانصرفتُ وأنا فى الموت، فلم ألبث أن كتبتُ وصيتى، وأحكمْتُ أمرى، وكنت سنة مغمومًا، وذاب جسمى.

فقال لى المأمون يومًا: يا أبا عبّاد، قد أنكرتُ حالَك، أتشكو علّة؟

فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، ولكنى منذ سنة، حىٌّ كميت لأجل الكتاب الذى دفعه إلىّ أميرُ المؤمنين، لأناظرَ عليه عمروَ بنَ مَسْعَدَة.

---

(١) هذا من أغرب الحجج التى يذكرها وزير للإثراء واستغلال النفوذ، أنه يبذل جهدًا كبيرًا، ويعانى مشقة، وأنه يستطيع أن يكسب أكثر لو كان فى بيته، والعجب أن المأمون قبل هذا المنطق، وقبل الاستمرار فيه.

فقال: أمسك عنّى، حتى أعيدَ عليك جميع ما جرى بينكما، فحدّثنى بجميع ما دار بيننا، كأنّه كان ثالثنا.

فقلت: لقد استقصى لك الذى وكّلته بخبرِنا، واللّه، ما خَرَمَ منه حرفًا.

فقال: واللّه، ما وكَّلتُ بكما أحدًا، ولكن ظنّاً ظننته، وعلمت أنّه لا يدور بينكما غيرُه، ولقد عجبتَ من غير عجب، لأنّ عقول الرجال يدرك بعضها بعضًا، وهذا عمرو بن مسعدة، أعرفُ بنا منك، وأوسع صدرًا، وأبعدُ همّة، وما أردتُ بما فعلتُ، إلاّ أن تعلمَا أنّى قد عرفتُ ما صار إليكما، وتستكثرانه، فأحببتُ أن أزيل عنكما غَمَّ المُسَاتَرة، وثِقْل المُرَاقبة، وأنّى لمتذمّم لكما، خَجِلٌ من ضَعْفِ أثَرِى عليكما.

فسررتُ، وحرتُ كأنّى أطلِقْتُ من عِقَال، فشكرتُه ودعوتُ له.

ثم قلت: ما أصنع بهذا الكتاب؟

قال: خَرِّقْه إلى لعنة اللّه، وامض مصاحبًا، آمنًا، فى سِتر اللّه عَزَّ وجَلَّ.

●●●

٤- قَلَقُ الضَّمِير

كان أحمدُ بنُ أبى خالد، بغيضًا، قبيحَ اللهجة، وكان مع ذلك حراً[١]، وكان يلزمه رجل متعطّل من طلاّب التصرّف يقال له: صالحُ بنُ علىّ الأضْجَم[٢]، من وجوه الكُتّاب، فحدّث، قال:

طالت بى العُطْلَةُ فى أيّام المأمون، والوزير -إذ ذاك- أحمد بن أبى خالد، وضاقت حالى، حتّى خَشِيتُ التكشّف[٣].

فبكّرت يومًا إلى أحمدَ بنِ أبى خالد مُغَلِّسًا[٤]، لأكلّمَه فى أمرى، فرأيتُ بابه قد فُتِحَ، وخرج وبين يديه شمعة، يريد دارَ المأمون.

فلمّا نظر إلىّ، أنكر علىّ بُكُورى، وعبَس فى وجهى، وقال: فى الدنيا أحد بكَّر هذا البُكُور ليشغلَنا عن أمرِنا.

فلم تصبر نفسى أن قلتُ: ليس العَجَبُ منك -أصلحك الله- فيما استقبلتنى به، وإنّما العَجَبُ منّى، وقد سهرتُ ليلتى، وأسْهَرْتُ مَن فى دارى تأميلاً لك، وتوقّعًا للصبح، لأصيرَ إليك، فأبثُّك أمرى، وأستعينُ بك على صلاح حالى، وإلاّ فعلىَّ، وعلىَّ، وحلفتُ يمينًا غليظة، لا وقفت ببابك، ولا سألتُك حاجة، حتّى تصيرَ إلىّ معتذرًا ممّا كلّمتنى به.

وانصرفتُ مغمومًا، مكروبًا بما لَقِينى به، متندّمًا على ما فَرَطَ منّى، غير شاكّ فى العَطَب، إذ كنت لا أقدرُ على الحِنْث، وكان ابنُ أبى خالد، لا يلتفت إلى إبْرار قَسَمِى.

فإنّى لكذلك، وقد طلعت الشمس، إذ طلع بعض غلمانى، فقال: أحمدُ ابنُ أبى خالد، مُقبل فى الشّارع، ثمّ دخل آخر، فقال: قد دخل دَرْبَنَا، ثمّ دخل

(١) كان قاسيًا متجهمًا، ولكنه شريف الصفات، يقدّر الشرفاء.

(٢) طلاّب التصرف: الباحثون عن الوظائف.

(٣) التكشف: انكشاف الحال وظهور علامات الفقر.

(٤) وقت الغلس وهو حين يختلط ظلام آخر الليل بأول النهار.

آخر، فقال: قد وقفَ على الباب، ثمّ تبادر الغلمان بدخوله الدهليز، فخرجتُ مستقبلاً له.

فلمّا استقرّ به مجلسه في داري، ابتدأتُ أشكره على إبرارِه قَسَمي، فقال: إنّ أمير المؤمنين، كان أمرَني بالبُكور إليه في بعض مُهمّاته، فدخلتُ إليه، وقد غلبني الفكر، لِمَا فَرَطَ منّي إليك، حتّى أنكَر ذلك، فقصصتُ عليه قصّتي معك.

فقال: قد أسأتَ بالرجل، قم، فامض إليه، فاعتذر ممّا قلتَ له.

قلت: فأمضي إليه فارغَ اليد؟

قال: فتريد ماذا؟

قلت: يُقْضَى دَيْنُه.

قال: كم هو؟

قلت: ثلثمائة ألف درهم.

قال: وقِّع له بذلك.

قلت: فيرجع بعدُ إلى الدَّيْن؟

قلت: وَقِّع له بثلثمائة ألف درهم أخرى.

قلت: فولاية يُشَرَّف بها.

قال: ولِّه مصر، أو غيرَها، ممّا يشبهها.

قلت: ومعونةً على سفره؟

قال: وَقِّع له بثلثمائة ألف درهم ثالثة.

قال: وأخرَجَ التوقيع من خُفِّه، بالولاية، وبتسعمائة ألف درهم، فدفع ذلك إليَّ، وانصرف.

●●●

٥- خَصْمٌ شَرِيف

حدّثني عليّ بن عـيسى، وكان ضامنًا لأعمـال الخَراج والضياع ببلده، فـبقيَتْ عليه أربعون ألف دِينار[1].

وألحّ المأمون في مطالبـته، حتى قال لعـليِّ بنِ صالح، حاجبـه: طالْبه بالمال، وأنظِرْه ثلاثةَ أيّام، فإن أحْـضر المالُ قبل انقـضائها، وإلا فـاضرَبْه بالسيـاط، حتى يؤدّيَها أو يتلف.

وكانت بين عليّ بن عيسى وغسّان بن عبّادِ عداوةٌ، فانصرف عليٌّ بنُ عيسى من دار المأمون آيسًا من نفسه، لا يقدر على شيء من المال.

فقال له كـاتبه: لو عرّجْتَ على غسّـان، وأخبرتَه بخبرك، لـرجوتُ أن يعينَك على أمرك.

فقال: على ما بيني وبينه؟! (أي من العداوة والخصومة).

قال: نعم، فإنّ الرجل أريَحيٌّ كريم.

قال: فـحملته حالُه على قَـبول ذلك، فدخل على غـسّان، فقام إليـه، وتلقّاه بجميلٍ، ووفّاه حقّه.

فقال له: إنّ الحالَ الذي بيني وبينك، لا يوجب ما أبديتَه من تكْرِمَتي.

فقال: ذاك حيث تقـع المنافسةُ عليه والمضايقة فـيه، والذي بيني وبينك بحاله، ولدخـول داري حرمـةٌ توجِبُ لك عليَّ بلوغَ ما ترجـوه، فإن كـانت لك حـاجةٌ فاذكرها، فقصّ كاتبهُ عليه قصّتَه.

فقال غسّان: أرجو أن يكفيَه اللّه تعالى. ولم يَزِد على هذا شيئًا.

---

(١) نظام الضمان في العصر العباسي هو نفسه نظام الالـتزام في مصر في عصر المماليك. يلتزم الضامن بدفع مبلغ للحكومة، في نظير أن يـسمح له بجبايتـه من الناس (الفلاحين) في منطقته، وكان الأثرياء يتهربون من الضمان والالتزام لما فيه من جور عليهم.

فمضى على بن عيسى آيسًا من نفسه، كاسفَ البال، نادمًا على قصده، وقال لكاتبه لما انصرف: ما أفدتنى بقصد غسان إلا تعجل المهانة والذل.

وتشاغَلَ فى طريقه بلقاء بعض إخوانه، وعاد إلى داره، فوجد على بابه بغالاً عليها أربعون ألف دينار، مع رسول غسان بن عباد، فأبلغه سلامَه، وعرفه غمّه بما دُفِعَ إليه، وسلم إليه المال، وتقدم إليه بحضور دار المأمون من غد ذلك اليوم.

فبكَّر علىٌّ بنُ عيسى، فوجد غسان بن عباد قد سبقه إليها، فلما وصل الناس إلى المأمون، مَثُلَ غسان بن عبّاد بين الصفين، وقال: يا أمير المؤمنين إنّ لعلى ابن عيسى حُرْمة وخدمة، وسالفَ أصل، ولأمير المؤمنين عليه سالفُ إحسان، وقد لحقه من الخُسران فى ضمانه ما قد تعارفه الناس، وقد جرى عليه من حدة المطالبة، وشدتها، والوعيد بضرب السياط إلى أن يتلف، ما حيّره، وقطعه عن الاحتيال فيما عليه من المال، فإن رأى أمير المؤمنين، أن يُجْرِينى على حُسْن عادته فى كرمه، ويشفعنى فى بعض ما عليه، ويضعه عنه، فعل.

قال: فلم يزل بهذا ونحوه، حتى حطه النصف، واقتصر منه على عشرين ألف دينار.

قال غسان: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يجدد عليه الضمان، ويشرِّفه بخلعٍ.

فأجابه المأمون إلى ذلك.

قال: فيأذن أميرُ المؤمنين، أن أحملَ الدواة إليه، ليوقع بذلك، ويبقى شَرَفُ حملها على وعلى عقَبى.

قال: افعل.

ففعل، وخرج على بن عيسى، والتوقيع معه بذلك، وعليه الخلع.

فلمّا وصل إلى منزله، ردّ العشرين ألف دينار، إلى غسان، وشكره.

فردّها غسان، وقال: إنّى لم أستحطها لنفسى، وإنّما أحببتُ توفيرها عليك، واستحططها لك، -واللّهِ- يعود شىءٌ من المال إلى ملكى أبدًا.

وعرف علىّ بن عيسى، ما فعله معه غسان، فلم يزل يخدُمُه إلى آخر العمر.

●●●

٦- وَلِيُّ العَهد فى السِّجن

حكى الخليفةُ المعتضد عن فَترة ولايته للعهد قال:

لما ضَرَّب[1] إسماعيلُ بنُ بلبل بينى وبين أبى المُوفَّق، فأوحشه منى، حتى حبسنى الحَبْسَةَ المشهورة، وكنتُ أتخوف القتل صباحًا ومساءً، ولا آمن أن يرفع إسماعيل عنّى، ما يَزيدُ فى غيظ الموفق على، فيأمرُ بقتلى.

فكنت كذلك، حتى خرج الموفق إلى الجبل، فازداد خوفى، وأشفقتُ أن يحدثه عنّى إسماعيلُ بكذب، فيجعل غيبته طريقًا إليه، فلا يكشفه، ويأمر بقتلى، فأقبلتُ على الدعاء والتضرّع إلى اللّه، والابتهال فى تخليصى.

وكان إسماعيل يجيئنى فى كلّ يوم، مراعيًا خَبَرَى، ويُرينى أنّ ذلك خدمةً لى.

فدخل إلىّ يومًا: وبيدى المصحف، وأنا أقرأ، فتركتُه، وأخذتُ أحادثُهُ.

فقال: أيّها الأمير، أعطنى المصحف لأتفاءل لك به، فلم أجبه بشىء.

فأخذ المصحف: ففتحه، فكان فى أوَّل سطر منه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فاسودّ وجهه، واربَدّ وخلط الورق.

وفتحه الثانية، فخرج: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥، ٦].. إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ فازداد قلقًا واضطرابًا.

وفتحه الثالثة، فخرج: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) ضرب (بتشديد الراء): أوقع وأثار الخلاف. وهنا استطاع الوزير ابن بلبل أن يوقع بين الخليفة وابنه، حتى حبسه.

فوضع المصحف من يده، وقال: أيها الأمير، أنت واللّه الخليفة، بغير شكّ، فما حقٌّ بِشارَتى؟

فقلت: اللّهَ، اللّهَ، فى أمرى، احقن دمى، أسأل اللّه أن يُبْقى أمير المؤمنين، والأمير الناصر، وما أنا وهذا؟ ومثلك فى عقلك، لا يُطلق مثل هذا القول بمثل هذا الاتفاق، فأمسَكَ عنى.

وما زال يحدّثنى، ويخرجنى من حديث، ويدخلنى فى غيره، إلى أن جرى حديث ما بينى وبين أبى، فأقبل يحلف لى بأيْمان غليظة، أنه لم يكن له فى أمرى صُنْع، ولا سعايةٌ بمكروه، فصدقته، ولم أزل أخاطبه بما تطيب به نفسه، خوفًا من أن تزيدَ وحشَتُه، فيسرعَ فى التدبير لتَلَفِى، إلى أن انصرف.

ثم صار إلىَّ بعد ذلك، وأخذ فى التنصل والاعتذار، وأنا أظهر له التصديق والقبول، حتى سكن، ولم يشك أنّى معترف ببراءة ساحته.

فما كان بأسرع من أن جاء الموفق من الجبل، وقد اشتدّت علته، ومات فأخرجنى الغلمان من الحبس، فصيّرونى مكانه، وفرج اللّه عنّى، وقاد الخلافةَ إلىّ، ومكننى من عدوّى إسماعيلَ بن بُلبل، فأنفذتُ حُكْمَ اللّه فيه.

●●●

٧- أنت اليوم.. وأنا غداً

قال عبيد اللّه بن سليمان:

كنت بحضـرة أبى، فى ديوان الخَراج بـ «سُـرَّ مَن رأى»، وهو يتولاّه -إذ ذاك- إذ دخل علينا أحمدُ بنُ خالـد الصَّريفينى، فقام له أبى قائمًا فى مـجلسه، وأقعده فى صدره، وتشاغل به[١]، ولم ينظُر فى عمل حـتّى نهض، ثم قام معـه، وأمر غِلمانه بالخروج بين يديه.

فاستـعظمتُ أنا، وكلّ من فى الدواوين ذلك، لأنّ رسم[٢] أصحاب الديوان، صغارَهم وكـبارَهم، أن لا يقوموا فى الديوان لأحـد من خلق اللّه عَزَّ وجَلَّ، ممن يدخل إليهم.

وتبيّن ذلك أبى فى وجـهى، فقال لى: يا بنى، إذا خَلَوْنا، فـسلْنى عن السبب فيما عملته مع هذا الرجل.

قال: وكان أبى يأكل فى الدِّيوان، وينام فيه، ويعمل عشياً.

فلمّا جلسنا نأكل، لـم أذكّره، إلى أن رأيت الطعام قـد كاد ينقضى، فقال لى: يا بنىّ شغلك الطعام عن إذكارى بما قلتُ لك أن تذكرنى به؟

فقلت: لا، ولكن أردتُ أن يكون ذلك على خَلوة.

فقال: يا بنىّ، هذا وقت خَلوة، ثم قال: أليس قد أنكرتَ، أنت والحاضرون، قيامى لأحمدَ بن خالد، فى دخوله وخروجه، وما عاملته به؟

فقلت: بلى.

قال: كان هذا يتـقلد مصر، فَصَرَفْـتُهُ عنها[٣]، وقد كانت طالت مـدّتُه فيها،

---

(١) تفرغ للاهتمام بالضيف.

(٢) الرسم: التقاليد الوظيفية، أو البروتوكول.

(٣) كان أحمـد بن خالد واليًا على مصر، وفُـصل عن وظيفته، وخلفه فى الـولاية سليمان بن وهب، والد راوية الخبر.

فتتبّعتـه، فوطئتُ آثارَ رجل لم أجد أجملَ منه آثارًا، ولا أعفَّ عن أموال السلطان والرعيّة، ولا رأيتُ رعيّةً لعاملٍ أشكر من رعيّته له.

وكان الحسينُ الخادم المعروف بـ «عَـرَق الموت» صاحبَ البريد بمصر، من أصدق النّاس له، وكـان مع هذا من أبغض النّاس، وأشـدّهم اضطرابًا فى أخلاقـه، فلم أتعلّق عليه بحُجَّة.

ووجدته قد أخّر رفع الحسـاب لسنة مُتقدّمة ولسنَته التى هو فيها، ولم يسـتتمّها لصَرْفى له عنهـا، ولم يُنفذه إلى الدّيوان، فسُمْـتُه أن يحطَّ من الدّخل، وأن يزيدَ فى النّفقـات والأرزاق، ويكْسِرَ من البقايا، فى كلّ سنة مـائة ألف دينار، لآخذها لنفسى، فامتنع من ذلك، فأغلظْتُ له، وتوعّـدته ونزلتُ معه إلى مائة ألف واحدة للسّنتين، وحلفتُ بأيْمان مؤكّدة، أنّى لا أقنع منه بأقل منها[1].

فأقام على امتناعه، وقـال: أنا لا أخون لنفسى، فكيف أخـون لغـيرى، وأزيلُ ما قام به جاهى من العفاف؟

فقيّدته وحبسته، فلم يجب، وأقام مقيّدًا فى الحبس شهورًا.

وكتب «عَـرَقُ الموت»، صاحبُ البـريد، إلى المتوكّل يضـرِّب علىَّ ويحلف أنّ أموال مصر لا تفى بنفقتى ومؤونتى، ويصف أحـمد بن خالد، ويذكر ميل الرّعية إليه، وعفّته.

فبينًا أنا ذات يوم على المائدة آكل، إذ وَرَدَتْ علىَّ رقعةُ أحمدَ بنِ خالد، يسألنى استـدعاءه لمهمّ يلقيه إلىّ، فلم أشكّ أنّه قـد غَرِضَ[2] بالقيد والحـبس، وقد عزم على الاستجابة لمرادى.

فلمّا غسلتُ يدى دعوتُهُ، فاستخلانى، فأخليْتُهُ، فقال: أمّا آن لك يا سيّدى أن تَرِقَّ لى ممّا أنا فيه، من غير ذنب أذنبته إليك، ولا جُرم، ولا قديم ذَحْل[3]، ولا عداوة.

---

(١) هنا يعترف الوالى الجديد بأنه حاول إكراه الوالى السابق على تزوير الدفاتر القديمة ليتمكن من سرقة نسبة من دخل الدولة.

(٢) ضاق صدرًا.

(٣) الذحل: الثأر.

فقلت: أنت اخترتَ لنفسك هذا، ولو أجبتنى إلى ما قد سمعتَ يمينى عليه، لتخلّصت، فاستجب لما أريد منك.

فأخذ يستعطفنى، فجاءنى ضدُّ ما قدّرته فيه، وغاظنى، فشتمتُه، وقلت: هذا الأمر المهمّ الذى ذكرتَ فى رقعتك أنّك تريد أن تلقيه إلىّ هو أن تستعطفنَى، وتسخرَ منّى، وتخدعَنى.

فقال: يا سيّدى، فليس عندك الآن غيرُ هذا؟

فقلت: لا.

فقال: إذا كان ليس غير هذا، فاقرأ يا سيدى هذا.

وأخرج إلىّ كتابًا لطيفًا مختومًا فى رُبع قرطاس، ففضضته، فإذا هو بخطّ المتوكّل[1] الذى أعرفه، إلىّ، بالانصراف، وتسليم ما أتولاه إلى أحمد بن خالد، والخروج إليه مما يلزمنى، ورفع الحساب إليه، والامتثال لأمره.

فورد علىّ ذلك أقبحَ مَوْرِد، لقرب عهد الرّجل بشتمى له، وأنّه فى الحال تحت مكارهى وحديدى، فَأمسكتُ مبهوتًا.

ولم ألبث أن دخل أميرُ البلد فى أصحابه وغلمانه، فوكّل بدارى، وجميع ما أملكه، وبأصحابى، وغلمانى، وجَهَابِذَتى، وكُتّابى، وجعلتُ أزحف من الصّدر، حتّى صرتُ بين يدى أحمد بن خالد وهو فى قيوده.

فدعا أميرُ البلد بحداد، ففكّ قيوده، فمددتُ رجلىّ، ليوضعَ فيهما القيد، فقال لى: يا أبا أيوب، ضُمَّ أقدامك ووثب قائمًا، وقال لى: يا أبا أيوب، أنت قريب عهد بعِمَالة هذا البلد، ولا منزل لك فيه ولا صديق، ومعك حُرُم وحاشية كبيرة، وليس تَسَعُك إلا هذا الدار -وكانت دار العمالة- وأنا أجد عِدّة مواضع، وليس لى كبير حاشية، ومن نكبة خَرَجْتُ، فأقم بمكانك.

وخرج، وصرف التوكيل[2] عنّى، وعن الدّار، وأخذ كتّابى وأسبابى إليه.

(١) الخليفة المتوكل الذى أعاد الوالى المحبوس إلى منصبه فجأة.

(٢) الحراسة الخاصة بقصد تقييد الحرية.

فلمّا انصرف، قلتُ لغلمانى: هذا الذى نراه فى النوم، انظروا من وكّلَ بنا؟

فقالوا: ما وُكِّلَ بنا أحد.

فعجبتُ من ذلك عجبًا شديدًا، وما صلّيتُ العصر حتّى عاد إلىّ جميع مَن حمله معه من المتصرفين والكُتّاب والجهابذة، وقالوا: أخذ خطوطنَا برَفْعِ الحساب، وأمرنا بالملازمة، وأطلقنا، فازداد عَجَبى.

فلمّا كان من الغد، باكَرَنِى مُسَلِّمًا، ورحتُ إليه فى عشيّة ذلك اليوم مسلِّمًا عليه.

فأقمتُ على ذلك ثلاثين يومًا، يغدو إلىّ، وأروحُ إليه، وربما غَدَوْتُ أنا، وراح هو، وهداياه وألطافُه تأتينى فى كلّ يومٍ من الفاكهة، والثلج، والحيوان والحلوى.

فلمّا كان بعد ثلاثين يومًا، جاءنى، فقال لى: قد عشقتَ مصرَ يا أبا أيّوب، واللّهِ ما هى طيّبةُ الهواء، ولا عذبة الماء، وإنّما تطيب بالولاية والاكتساب، ولو دخلتَ إلى «سُرَّ مَنْ رأى» لما أقمتَ إلاّ شهرًا حتّى تتقلّد أجلّ الأعمال.

فقلتُ له: واللّهِ، ما أقمتُ إلا توقّعًا لأمرِك فى الخروج.

فقال: أعطنى خطّ كاتبك، بأنّ عليه القيامَ بالحساب، واخرج فى حفظ اللّه

فأحضرتُ كاتبى، وأخذ خطّه كما أراد، وتسلّمه، وقال: اخرج فى أىّ وقتٍ شئتَ.

فخرجتُ من غدٍ، فخرج هو وأميرُ البلد وخاصتُه، ووجوهُ أهله، فشيّعونى إلى ظاهر البلد، وقال لى: تقيم فى أوّل منزلٍ على خمسةِ فراسخ، إلى أن أزيحَ عِلّةَ[1] قائد يصحبك إلى الرّملة، فإنّ الطريقَ فاسد.

فاستوحشتُ من ذلك، وقلت: هذا إنّما غرّنى حتّى أخرج كلّ ما أملكه، فيتمكنّ منه فى ظاهر البلد، فيقبضه، ثمّ يردّنى إلى الحبس والتوكيل والمطالبة، ويحتجّ علىّ بكتاب يذكر أنّه ورد عليه ثانيًا.

---

(١) أتمكن من تجهيز قائد.

فخـرجتُ، وأقمتُ بالمرحلة التى أمر بهـا، مستسلمًـا، متوقعًـا للشرّ، إلى أن رأيتُ أوائلَ عسكر مقبلٍ من مصر.

فقلتُ لعله القـائد الذى يريد أن يصحبنى، أو لعـلّه الذى يريد أن يقبض علىَّ به، فأمرتُ غلمانى بمعرفة الخبر.

فقالوا: قد جاء أحمدُ بنُ خالد العامل بنفسه.

فلم أشكَ إلاّ أنّ البلاء قد ورد بوروده، فخرجتُ من مِـضْرَبى، فلقيته وسلمت عليه، فلمّـا جلس، قال: أخلونا؟ فلم أشكّ أنّه للقبض علىَّ، فطار عـقلى، فقام من كان عندى، ولـم يبق غيرى وغيرُه.

فقـال: أعلمُ أنّ أيّامك لم تطل بمصر، ولا حظيتَ بكبـير فـائدة، وذلك الباب الذى سألتنيـه فى ولايتك فلم أستجب إليه، إنّمـا أخرت الإذن لك فى الانصراف من أوّل الأمـر إلـى الآن، لأنّى تشـاغلتُ بالـفـراغ لك منه، وقـد حـططتُ من الارتفاع[1]، وزدتُ فى النفـقات، فى كلّ سنة خـمسـةَ عَشَـرَ ألف دينار، تكون للسنتين ثلاثين ألف دينار، وهو يقـرب ولا يظهر، ويكون أيسر ممّا أردته منّى ذلك الوقت، وقد تشاغلتُ به حـتّى جمعتُه لك، وهذا المال على البغـال قد جئتُك به، فتقدمَ إلى من يتسلّمه.

فتقدّمتُ بقـبضه، وقبّلتُ يده، وقلت: واللَّه، قد فلعتَ يا سـيّدى ما لم تفعله البَرامِكة، فأنكر ذلك، وتقبَّض منه، وقبّل يدى.

وقال: ههنا شىء آخر أريد أن تقبله.

فقلت: وما هو؟

قال: خمسة آلاف دينار قد استحققتها من أرزاقى، فامتنعتُ من ذلك، وقلت: فيما تفضّلتَ به كفاية.

---

(١) أى زاد فى المصروفـات، وقلل فى الإيراد، بما يسمح باقـتناص جزء من المال العـام لنفسـه، أو للآخر، وهكذا رضى طواعية بما لم يرض به كرهًا من قبل، وفى الحالين هو سارق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فحلف بالطلاق، أنّى أقبلُها منه، فقبلتها.

ثمّ قال: وههنا ألطاف من هدايا مصر، أحببتُ أن أصحبك إيّاها، فإنّك تمضى إلى كُتّاب الدواوين ورؤساء الحضرة، فيقولون لك: وُلّيتَ مصر، فأين نصيبُنا من هداياها؟ ولم تطل أيّامك، فتعدّ لهم ذلك، وقد جمعتُ لك منه ما يشتمل عليه هذا الثَّبَتُ.

وأخرج إلىّ دُرجًا فيه ثَبَتٌ جامع لكلّ شىء فى الدّنيا حسن طريف، جليل القدر، من ثياب دَبِيقى، وقصب، وخَدَمٍ وبغال، ودواب، وحمير، وفُرُش، وطيب، وجوْهَر، حتّى أقلام ومِداد، ما يكون قيمته مالاً كثيرًا.

فأمرتُ بتسلّمه، وزدتُ فى شكره.

فقال لى: يا سيّدى، أنا مغرم بحبّ الفَرْش، وقد استعمل لى فرش بيت أرمنّى، وهو عشر مصليّات بمخادّها، ومساندها، ومساوِرِها، ومطارِحِها، وبُسُطها، وهو مذهب، بطُرُزِ مذّهبه، قد قام علىّ بخمسة آلاف دينار، على شدّة احتياطى، وقد أهديتهُ لك، فإن أهديتَه للوزير عَبَدَكَ، وإن أهديته للخليفة ملكّته به، وإن أبقيته لنفسك وتجمّلت به[1]، كان أحبَّ إلىّ.

قال: وحمله، فما رأيتُ مثله قَط، ولا سمحت نفسى بإهدائه إلى أحد، ولا استعماله، وما ابتذلتُ منه شيئًا غير هذا الصّدر ومسنده ومساوره، يوم إعذارك[2]، أفتلومنى على أن أقوم لهذا الرّجل، يا بنىّ؟

فقلتُ: لا واللّهِ يا أبتِ، ولا على ما هو أكثر من القيام، ولو كان مستطاعًا.

فكان أبى بعد ذلك، إذا صَرَفَ[3] رجلاً، عامله بكلّ جميل، ويقول: علّمنا أحمد بن خالد، حُسْنَ الصّرف، أحسن اللّه جزاءه.

●●●

---

(١) اعتراف خطير بعمومية البلوى وانتشار الرشوة فى نيل الوظائف الكبرى فى دولة الخلافة.

(٢) الإعذار: الختان أو الطهارة.

(٣) صرف رجلاً: أنهى عمله.

٨- الاستخبارات الخاصة

حدّثني شيوخ الكتّاب:

أنّ القاسم بنَ عـبْيد الله الوزير، لما انفـرد بالوَزارة بعد موت أبيـه، كان يحبّ الشُّرب، واللّعب، ويخاف أن يتّـصل ذلك بالمعتضِد[1]، فيستنقـصه، وينسبه إلى الصبيانيّة، والتهوّك[2] في اللّذات، والتشاغل عن الأعمال، وكان لا يشرب إلاّ في الأحايين، على أخفى وأسترَ ما يمكنه.

وأنّه خلا يومًـا مع جواريه، ولبس من ثيـابهنّ المصبَّـغَات[3]، وأحضر فـواكه كثيرة، وشرب، ولعب، من نصف النهّار إلى نصف الّليل، ونام بقية ليلته، وبكَّر إلى الـمعْتضِد على رسمه للخدمة، فما أنكر شيئًا.

وبكَّـر في اليوم الثاني، فحـين وقعـت عـين المعتضـد عليـه، قـال له: يا قاسم، ما كان عليكَ لو دعوتنا إلى خَلوتك، وألبستنا معك من ثيابكَ المصبَّغات.

قـال: فقـبّل الأرض، وورّى عن الصّـدق، وأظهـر الشكر على هذا البـسْط، وخرج وقد كاد أن يتلف غـمّاً لوقوف المعتضِد على هذا السّـر، وكيف رَقَى إليه، وأنه إذا لم يَخْفَ عليه هذا القـدر من أمره، فكيف تخفى عليه مَـرَافِقُه[4]، فجاء إلى داره كئيبًا.

وكان له في داره صاحبُ خبَر[5] جَلْدٌ يرفع إليه الأمور، فأحـضره، وعرّفه ما جرى بينـه وبين الـمُعتضِـد، وقال له: ابحث لي عمَّن أخرَجَ هذا الخـبر، فإن فعلتَ، زدتُ في رزقك وأجزتك بكذا وكذا، وإن لم تخرجـه، نفيتُك إلى عُمَان. وحلف له على الأمْرين.

---

(١) أحد الخلفاء الأقوياء من بني العباس.

(٢) التهوّك مزيج من التهور والتهتك وهي تحمل معنيهما.

(٣) الملابس المزركشة المخصصة للعب واللهو.

(٤) المرافق: الرشاوى وما يشبهها.

(٥) مخبر خاص.

فخرج صـاحبُ الخبر من حضـرته متحيراً كـئيبًا، لا يدرى ما يـعمل فى يومه ذلك، مفكرًا كيف يجتهد ويحتال، فما وقع له رأى يعمل عليه.

قال صـاحبُ الخبر: فلمّـا كان من الغد، بكَّرت إلـى دار القاسم، زيادة بكُور على ما جرى به رَسْمى، لفرط قلقى وسهرى تلك اللّيلة، ومحبّتى للبحث.

فجئتُ، ولـم يُفتح باب دار القاسم بعد، فـجلستُ، فإذا برجلٍ زَمِنٍ يزحف، فى ثياب المكدّين[1]، ومعه مخلاة، كما تكون مع الـمُكدّين.

فلمّـا جاء إلى البـاب، جلس إلى أن فُتِـح، فسـابقنى إلى الدّخول، فَـولَع به البوّابون، وقالوا له: أىُّ شىء خبرك يا فلان؟، وصـفعوه، ومازحوه، ومازحهم، وطايبهم، وشتموه، وجلس فى الدّهليز.

فقال: الوزير يركب اليوم؟

قالوا: نعم، السّاعةَ يركب.

قال: وأىّ وقت نام البارحة؟

قالوا: وقت كذ وكذا.

فلمّا رأيته يسـأل عن هذا، خمّنتُ عليه أنّه صاحب خبر، فـأصغيتُ إليه، ولم أرِه أنّى حافلٌ بأمـره وهو يسأل، إلى أن لم يُبقِ شـيئًـا يجوز أن يعلَمَـه البوّابون، عمّن وصل إلى الوزير، ومَن لم يصل، ومتى خـرجوا، إلا سألهم عنه، وحدّثوه هم، أحاديث أخر، على سبيل الفُضُول.

ثمّ زحف فدخـل إلى حيث أصحـاب السُّـور، فأخـذ معهم فى مـثل ذلك، وأخذوا معه فى مثله.

ثمّ زحف فدخل دار العامّة.

فقلت لأصحاب الستور: مَن هذا؟

---

(١) الزمن (بكسر الميم): العجوز الذى أضناه طول الزمن، والمكدّ: الشحاذ.

فقالوا: رجل زَمِنٌ فقير أبْلَهٌ طيّب، يدخل الدّار يتصدّق[1] ويتطايب، فيَهَبُ له الغِلمان والمتصرّفون.

فتبعته إلى أن دخل المطبخ، فسأل عمّا أكلَ الوزير، ومَن كان معه على المائدة، وكلّ واحد يخبره بشيء، ثمّ خرج يزحف، حتّى دخل حجرة الشّراب، فلم يزل يبحث عن كلّ شيء، فيحدّث به، ثم خرج إلى خزانة الكُسوة، فكانت صورته كذلك، ثمّ جاء إلى مجلس الكتّاب في الدّيوان، فتصدّق، وأقبل يسمع ما يجرى، ويسأل الصّبىّ بعد الصّبى، والحَدَث بعد الحَدَث، عن الشيء بعد الشيء، ويستخبر الخبر، في كلّ موضع من تلك المواضيع، ويستقيه، ويخلط الجِدّ بالمزح، والتطايب بكلامه، والأخبار تنجرّ إليه، وتتساقط عليه، والقطع والزلاّت[2] تجيئه، وهو يملأ المخلاة، فلمّا فرغ من هذا، أقبل راجعًا يريد الباب.

فلمّا بلغ الباب تَبِعْتُه، فخرج حتّى جاء إلى موضع من الخُلْد، فدخل إليه، فوقفتُ أنتظره، فإذا هو بعد ساعة، قد خرج شابًا بثياب حِسان، ماشيًا، بغير عِلَّة، فتبعته حتّى جاء إلى دارٍ بقرب دار الخادم الموكَّل بحفظ دار طاهر، فدخلها.

فسألتُ عنها، فقالوا: هذه دار فلان الهاشمى، رجل مُتَجمّل.

فرصدته إلى وقت المغرب، فجاء خادمٌ من دار ابن طاهر، فدقّ الباب، فكلّمه من خُوخَة له، ففتح له ورمى إليه برُقعة لطيفة، فأخذها الخادم وانصرف.

فجئتُ، فطلبتُ من الوزير غلمانًا، فسلّم إلىّ ما طلبت، فبكَّرتُ في السَّحَر إلى الدّار التى في الخُلْد، فإذا بالرّجل قد جاء بزيّه الذى دخل به داره بقرب دار ابن طاهر، فكَبَسْتُه في الموضع، فإذا هو قد نزع تلك الثياب، ولبس ثياب المُكِدّين التى رأيتُها عليه أوّلاً.

فحملته، وغطّيتُ وجهَه، وكتمتُ أمره، حتّى أدخلته دار القاسم، ودخلتُ إليه، فقصصتُ عليه الخبر.

---

(١) يتصدق -هنا- بمعنى يطلب الصدقة.

(٢) الزلات: الصدقات.

فلمّا فرغ القاسم من شُغله، استدعاه، فقال له: اصدُقْنى عن أمرك، أو لا ترى ضوءَ الدّنيا، ولا تخرج من هذه الحجرة -واللهِ- أبدًا.

قال: وتؤمّننى؟

قال: أنت آمن، فنهض لا عِلّةَ به.

فتحيّر القاسم، وقال له: خبرك؟

فقال: أنا فلان الهاشمى، وأنا رجل متجمّل، وأنا أتخبّر عليك للمعتضِد، منذ كذا وكذا، وأنزل فى دَرْب يعقوب، بقرب دار ابن طاهر، ويجرى علىّ المعتضد فى كل شهر خمسين دينارًا، فأخرج كلّ يوم من بيتى، بالزّى لا يُنكره جيرانى فأدخل دارًا فى الخُلْد، بيدى منها بيتٌ بأجرة، فيظنّ أهلها أنى منهم[1]، ولا ينكرون تغيير الزىّ.

فأخرج من هناك بهذه الثّياب، وأتزامن من الموضع وألبسَ لحية فوقَ لِحْيتى مخالَفةً للون لحيتى، حتّى إذا لقينى فى الطريق -بالاتّفاق- بعض مَن يعرفنى، أنكرنى.

فأمشى زحفًا من الخُلْد إلى دارك، فأعمل جميع ما حكاه صاحب خبرك، وأستقى أخبارَك من غلمانك، وهم لا يعرفون غرضى فيُخرجون إلىّ من الأسرار -بالاسترسال- ما لو بُذِلَ لهم فيه الأموال ما خرجوا به.

ثمّ أخرج فأجىء إلى موضعى من الخُلْد، فأغيّر ثيابى، وأعطى ذلك الذى اجتمع لى فى المِخلاة للمُكديّن، وألبَس ثيابى التى يعرفنى بها جيرانى، وأعود إلى منزلى، فآكل، وأشرب، وألعب، بقيّةَ يومى.

فإذا كان المغرب جاءنى خادمٌ من خدم دار ابن طاهر، مندوبٌ لهذا فأرمى إليه من رَوْزَنَة[2] لى، رُقعة فيها خبر ذلك اليوم، ولا أفتح له بابى.

فإذا كان بعد تسعة وعشرين يومًا، جاءنى الخادم، فأنزل إليه، فأعطيه رُقعة ذلك اليوم، ويعطينى جارى ذلك الشّهر.

---

(١) هذا يعنى أن أهل المنطقة من محترفى التسول والاحتيال.

(٢) الروزنة: كوة أو فتحة فى الجدار. فى ريف مصر: ناروزة.

ولولا أنّى لم أر صـاحب خـبرك، ولا فطنتُ لـه، لما تمّ علىّ هذا، ولو كنتُ لحظتْه لحظةً واحـدة، ما خـفى علىَّ أنّه صاحب خبـر، ولكنتُ أرجع من الموضع الذى أراه فيـه، فلا يعـرف خبرى، وبعـد ذلك فإنّما تمّ علـىّ هذا لأنّ أجلى قد حضر فالله، الله، فى دمى.

فقال له: اصدُقنى عما رفعته إلى المعتضِد عنّى، فحدّثه بأشياء رفعها، منها خبر الثّياب المصبّغة.

قال: فـحبـسه القـاسم أيّامًا، وأخفى أمـره، وأنفذنى إلى منـزله، وقال: راعِ أمرهم، وانظر ما يجرى.

فمـضيتُ إلى داره التى وصفـها بدرب يعقـوب، فجلستُ إلى المغرب، فـجاء الخادم، فصاح به.

فـقالت له الجـارية: مـا رجع اليوم، وهذه لم تكـن عادته قط، وقـد -والله- أشفَقْنا أن يكون قد حدث عليه حادث لا نعرفه. وقامت قيامتنا، فانصرف الخادم. وانصرفت.

وعدتُ أيضًا المغرب من الغد، وجاء الخادم، فقالوا له: قد -واللهِ- أيِسْنا منه، ولا نشكّ فى أنّه قد هلك، والمأتم قد أقيم عليه فى منزل أبيه وعمومته.

فانصرف الخادم، وجئتُ إلى القاسم بالخبر.

فلمّا كان من الغد، ركب القاسم إلى المعتضِـد، فحين رآه استدناه، وسارّه، وقال له: يا قاسم، بحياتى، أطلِقْ الهاشمىَّ المـتَّزامِن، وأحسِنْ إليه، وأنت آمن بعدها أن أنصب عليك صاحب خبر، ووالله لئن حدثت به حادثة، لا عرفتُ فى دمه غيرَك.

فقبل الأرض، وتلجلج، وانصرف، فعاد إلى منزله، وحمِدَ الله إذ لم يعجل عليه بسوء، وأخبرنا الخبر، وجاء الهاشمىّ، فخلع عليه، ووصله بمال له قدر، وصرفه.

وانقطعت أخباره عن المعتضِد.

●●●

٩- وَاحِدٌ مِنهم

ذكر ابن عَبْدوس فى كتابه «الوزراء»، قال:

كان الرّشـيد قد قلّد فَرَجًـا الرُّخَّجى[1] الأهوازَ، فاتّصلت السَّـعَايات به عنده، وكثرت الشكايات منه، وتظلّم الرعية، وادُّعِىَ عليه أنّه اقتطع مالاً عظيمًا، فصرفه بمحمّد بن أبان الأنبارى، وقبض عليه.

وحدث للرّشيد سفر، فأشخصه معه، فلمّا كان فى بعض الطّريق دعا به، فقال مَطَرُ بن سعيد، كاتبُ فَرَج: فلمّا أمر بإحضاره، حضر وأنا معه، ولستُ أشكّ فى الإيقاع به، وإزالة نـعمتـه، فوقفتُ بـباب مِضْـرَب الرّشيد، ودخـل فرج، ونحن نتوقّعه أن يخرج منكوبًا، إذ خرج وعليه الخِلَعُ، فـتضاعفت النعمة عندى، وسرتُ معه إلى منزله.

فلمًّا خـلا سألتُه عن خـبره، فقال: دخلتُ عليـه ووجهه إلى الحـائط، وظهرُهُ إلىّ، فلمّا أحسّ بى ، شتمنى أقبحَ شتْم، وتوعّدنى أشدُ توعّد.

ثمّ قال: يا ابنَ الفاعلة، رفعتُك فـوقَ قَدْرِك، وائتَمَنْتُك، فخنتَنى، وسرقتَ ما لى، وفعلت، وصنعت، والله، لأفعلنّ بك، ولأصنعنّ.

فلمّـا سكت، قلت: القول مـا قاله أميـرُ المؤمنين فى إنعـامه، وأكثـرَ منه، وحلفتُ بأيْمان البيعةِ وغيـرها، أنّى ناصحتُ وما سرقتُ، ووفّرتُ وما خنتُ، واستـقصـيتُ حقـوقَه من غيـر ظُلم، ولكنّى كنـت إذا حضر وقتُ الـغَلاَّت، جمعتُ التـجّار وناديتُ عليها، فإذا تقررّت العطايا أنفَـذْتُ البيع، وجعلت لى مع التجّار حِـصّة، فربّما رَبِحْتُ، وربّما وضـعت، إلى أن اجتمع لى من ذلك

---

(١) فرج الرخجى من عمّال الرشيد، موصوف بقـبح المظهر والمخبر، والظلم، والسرقة، وقد اعترف فى هذا الخبر بمتاجرته -بنفوذه- فى أملاك الدولة، وكان هذا الاعتراف طريقه للبقاء فى وظيفته، كواحد من أهل الثقة، أو كلاب الصيد.

وغـيره، فى عـدّة سنين، عشـرون ألف ألف درِهم، فاتّخـذتُ أزجًا كـبيـرًا، وأودعته المال، وسددّته عليه، فَخُذْها، وحوِّل وجَهك إلى عبدكِ، وكرّرتُ عليه الأيْمان، بأيْمان البيعة على صدقى.

فقال لى: بارك اللهُ لك فى مالِك، ارجع إلى عملك.

●●●

١٠- كَمَا تَدِينُ...

حدّثنى علىّ بن هشام بن عبد الله الكاتب، ويُعرف هشام بأبى قيراط، قال: كنت حاضرًا مع أبى رحمه الله، فى مجلس أبى الحسن بن الفُرات[١] فى شهر ربيع الأوّل سنة خمس وثلثمائة، فى وزارته الثانية، فسمعته يتحدّث، قال:

دخل علىّ أبو الهيثم العبّاس بن محمّد بن ثَوَابة الأنبارى، فى محبسى بدار المُقتدر[٢]، فطالبنى بكَتْب خطّى بثلاث عشر ألف ألف دينار.

فقلت: والله، ما جرى قدر هذا المال، على يدى للسلطان، فى طول وزارتى، فكيف أصَادَرُ على مثله؟

فقال: قد حلفتُ بالطّلاق أنّه لابدّ من أنّك تكتب خطّك بذلك، فكتبتُ ثلاثة عشر ألف ألف، من غير ما أذكر ما هى، أو ضمانًا فيها.

قال: فاكتب دينارًا، لتبرَينى من يمينى.

فكتبتُ دينارًا، ثمّ ضَرَبْتُ عليه، وأكلتُ الرُّقعة[٣]، وقلت له: قد بَرِئْتَ من يمينك، ولا سبيل إلى غير هذا منّى.

فاجتهد بى، فلم أجبه إلى شىء، فحبسنى.

فلمّا كان من الغد،، دخل إلى الحبس، ومعه أمّ موسى[٤]، فطالبنى بذلك، وأسرف فى سبّى وشتمى، ورمانى بالزّنا.

(١) ابن الفرات بطل هذه القصة شغل منصب الوزارة ثلاث مرات، فى مرتين يخرج من الوزارة إلى السجن، وفى ختام الثالثة قتل. والحادثة هنا عن سجنه الثانى، تأمل مقادير الأموال التى اتهم بجنيها من منصبه.

(٢) الخليفة العباسى، وكان فى داره مكان لسجن الكبراء، أما المقتدر فكان طفلاً وكانت السّلطة الفعلية فى يد خمسة من الغلمان والنساء!!

(٣) فى موقف طرفاه وزير خطير، وكاتب الخليفة جاء يحاسبه، يتصرف الوزير تصرف السوقة (يأكل الورقة) والكاتب يسب بلغة الأوباش.. وهذا هو العصر فى صورته الداخلية المؤلمة.

(٤) القهرمانة ذات النفوذ فى ذلك الوقت.

فحلفتُ بالطّلاق، والعِتاق، والأيْمان الـمُغلَظة، أنّي ما دخلتُ في محظور من هذا الجنس، من نيِّف وثلاثين سنة، وسُمْتُه أن يحلفَ بمثـل تلك اليمين أنّ غلامه القائمَ على رأسـه، لم يأته في ليلته تلك، فأنكرت أمّ مـوسى هذا الحال، وغطّت وجهَها حياءً منه.

فقال ابنُ ثَـوابة: إنّ هذا إنّما تُبْطره الأموال التي وراءه، ومثله في ذلـك كمثل المزّين مع كسرى، والحجّام مع الحجّاج، فـتستأمرين السّادةَ، في إنزال المكروه به، حتّى يُذعِنَ بالأموال.

قال أبو الحسين: ويعني بالسّادة: المقتدر، ووالدته، وخالته خاطف، ودستنبويه أمّ ولد المعتَضِد، لأنّهم كانوا -إذ ذاك- يدبّرون الأمور، لحداثة سنّ المقتدر.

قال ابنُ الفـراُت: فمـضت أمّ موسى، ثمّ عـادت، فقالت لابن ثـوابة: السّادة يقولون لك: صدقتَ فيما ذكرتَ، ويدك مطلقةٌ فيه.

وكنتُ في دار ضيّـقة، في حرّ شديد فأمـر بكَشْف البواري[1] حتّى صرتُ في الشّـمس، ونُحّيَ الحصـير من تحـتي، وأغلق أبواب البيـوت، حتّى حَـصَلْتُ في الصّحن، ثمّ قيّدني بقيد ثقيل، وألبسني جبّة صوف قد نقعت في ماء الأكارع[2]، وغلّني بغُلّ[3]، وأقفل باب الحجرة وانصرف، فأشرفتُ على التّلف.

وعدّدتُ على نفسي ذنوبي، فوجـدتُني قد عُوملتُ بما عَـامَلتُ به النّاس، من المصادرة، ونَهْبِ المنازل، وقبْضِ الضِّياع، وتسـليم النّاس إلى أعدائهم، وحبسهم، وتقييدهم، وإلبـاسهم جِبَاب الصّوف، وهتْكَ حريمِهم، وإقامـتهم في الشّموس، وإفرادهم في الحبوس.

ثمّ قلت: ما غَلَلْتُ أحدًا، فكيف غُلِلْتُ؟[4].

---

(١) البواري: ستائر الحصير التي تحمي من الشمس.

(٢) الأكارع: ما يُطلق عليه العامة: الكوارع.

(٣) الغل (بضم الغين): القيد من الحديد أو الحبال، يجمع اليدين إلى العنق.

(٤) ياله من سؤال بريء!! كان كل ما اعترف به لا يكفي أن يُغَل في سقر!!

ثمّ تذكّرتُ أنّ النَّرسْى، كاتبَ الطائىّ، كان سَلَّمَه إلىّ عبيد الله ابن سليمان، لمال عليه، فسلّمتُه إلى الحسن، المعروف بالمعلوف، المستخرِج، وكان عَنُوفًا، وأمرتُه بتقييده، وتعذيبه، ومطالبته بمال ذكرتُه له، فألطّ به[1]، فأمرتُ به أن يُغَلّ، ثم تَحَوّبتُ بعد أن غُلّ مقدار ساعتين من النّهار، فأمرتُ بأخذ الغُلّ عنه.

فلمّا جازت السَّاعتان، تذكّرتُ شيئًا آخر، وهو أنّه لما قرب سِبكْرَى من الجبل، مع رسول صاحب خُراسان، مأسورًا، كتبتُ إلى بعض عمّال المشرق، بمطالبته بأمواله وودائعه، فكتب إلىّ بإلطاطه، فكتبت بأن يُغَلّ، وكنت أتغدّى، فلمّا غسلتُ يدى، تندّمتُ، وتَحَوَّبتُ، فكتبتُ بأن يحلّ الغُلّ عنه إن كان قد غُلّ، فوصل الكتاب الأوّل فغُلّ، ووصل الكتاب الثّانى بعد ساعتين، فحُلّ عنه، على ما كتبتُ به.

فلمّا مضت أربع ساعات، إذا بصوت غلمان مجتازين فى الممّر الّذى فيه الحجرة الّتى أنا محبوس فيها، فقال لى الخدم الموكّلون بى: هذا بَدْرٌ الحَرَمِىّ[2] وهو لك صَنِيعَةٌ.

فاستغثت به، وصحتُ: يا أبا الخير، اللهَ، اللهَ، فىّ، لى عليك حقوق، وقد ترى حالى، والموت أسهل ممّا أنا فيه، فتخاطبُ السّادةَ فى أمرى، وتذكّرهم حرمتى، وخدمتى فى تثبيت دولتهم، إذ خذلهم النّاس[3]، وافتتاحى البلدان المنغلقة، وإثارتى الأموالَ المنكسرة، فإن كان ذنبى يوجب القتل، فالسّيفُ أرْوَحُ لى. فرجع، فدخل إليهم، فخاطبهم ورقّقهم، ولم يبرَح حتّى أمروا بأخذ حديدى، وإدخالى الحمّام، وأخْذِ شعرى، وتغيير لباسى، وتسليمى إلى زَيْدان[4]، وترفيهى.

فجاءنى بذلك، وقال: يقولون لك، لن ترى بعدها بأسا، وأقمت عند زيدان، إلى أن رُددت إلى هذا المجلس.

---

(١) ألط -كما يدل السياق- راوغ وتهرب.

(٢) الحرمى: نسبة إلى حرم الخليفة، فهو المسئول عن قصر النساء، أو قصورهن.

(٣) يذكرهم بموقفه معهم فى فتنة ابن المعتز، إذ وقف ابن الفرات فى جانب المقتدر.

(٤) زيدان الكهرمانة، ومعنى العبارة أنه نقل ليسجن عندها سجنًا مخففًا، وكانت زيدان تؤثره، وتتجسس له، فكأن هذا مقدمة لإطلاقه، وإعادته إلى الوزارة.. وقد كان.

١١- صَفَاءُ البَدِيهة

حدّثنى علىّ بن محمّد النَّوفلى:

إنّ المأمون ذكر عَمرو بنَ مَسْعَدة[١]، فاستبطأه فى أشياء، وقال: أيحسَب عمرو أنّى لا أعرف أخباره، وما يُجبىَ إليه، وما يعامِل به الناس، بلى والله، ثم يظنّ أنّه لا يسقط علىّ منه شىء؟ وكان أحمدُ بنُ أبى خالد حاضرًا لذلك، فمضى إلى عمرو، فأخبره بما قال المأمون.

فنهض من ساعته، ودخل إلى المأمون، فرمى بسيفه، وقال: أنا عائذٌ بالله من سَخَط أمير المؤمنين، وأنا أقلّ من أن يشكونَى إلى أحد، أو يُسِرُّ علىّ ضِغْنًا يَظهر منه بكلامه ما ظهر.

فقال له المأمون: وما ذاك؟ فأخبره بما بلغه.

فقال له: لم يكن الأمر كذلك، وإنّما جرى معنًى أوجب ذكرَ ما ذكرتُ، فقدّمته قبل أن أخبرَك به، وكان ذلك عزمى، وما لك عندى إلا ما تحبّ، فليُفْرِخْ رَوْعُك، وليَحْسُنْ ظنُّك، وسكّنَ منه حتى شكره، وجعل ماء الحياة يدور فى وجهه.

فلمّا دخل أحمد بن أبى خالد إلى المأمون، قال له: أشكو إليك مَن بحضرتى من خدمى وأهلى، أما لمجلسى حقّ ولا حُرْمةٌ ليُكتم ما يجرى فيه، حتى يؤدَّى إلى عَمرو بنِ مَسْعَدة؟ فإنّه قد أبلِغَ أشياء قلتها فيه، واتّهمت فيها بعضَ بنى هاشم ممّن كان حاضرًا، وذلك أنّ عمرًا دخل علىّ، وأعاد ما كان، فاعتذرتُ له بعذر لم يُبِنِ الحقّ نسجُه، ولم يتّسق القولُ منى فيه، وإنّ لسان الباطل، لعىّ الظاهر والباطن، وما نَعَشَ الباطلُ أحدًا، قال له أحمد: لا يتّهم أمير المؤمنين أحدًا، أنا أخبرت عَمْرًا.

---

(١) عمرو بن مسعدة وزير المأمون، معدود من البلغاء. والسياق يدل على أن المأمون تحدّث عن وزيره، ولم يكن حاضرًا.

قال: وما دعاك إلى ذلك؟

قال: الشكر لله، ولك لاصطناعك، والنصحُ لك، والمحبّة لتمام نعمتك على أوليائك وخدمك، وقد علمتُ أنّ أمير المؤمنين يحبّ استصلاح الأعداء والبُعَداء، فكيف بالأولياء والقرباء، ولا سيّما مثل عمرو، فى موضعه من الدولة، وموقعه من الخدمة، ومكانه من رأى أمير المؤمنين، فخبّرتُه بما أنكَرَه عليه، ليقوِّمَ أوَدَ نفسه، ويتلافى ما فَرَطَ منه، وإنّما العيْبُ لو أفشيْتُ كلامًا فيه لأمير المؤمنين سرٌّ، أو قدْحٌ على السلطان، أو نقضُ تدبيرٍ له.

فقال له: أحسنتَ والله يا أحمد، إذ كفيتنى مخاضة الظنّ، وصَدَقْتَنى عن نفسك، وأزلتَ التُّهمةَ عن غيرك.

●●●

١٢- اللَّبِنَةُ الأخِيرة

حدثنى الحسين بن نُمَيْر الخُزَاعى، قال:

صار الفَضْلُ بن الرَّبيع إلى الفَضْلِ بن يَحيى بن خالد البرمكى[١] فى حاجة له، فلم يرفعْ له رأسًا، ولا قضى حاجته، فقام مُغْضَبًا، فلم يَدْعُ بدابَته، ولا اكترث له، ثم أتبعه رجلاً، فقال: انظر ما يقول، فإن الرّجل ينبئ عما فى نفسه فى ثلاثة مواضع: إذا اضطجع على فراشه، وإذا خلا بعِرْسه، وإذا استوى على سَرْجه، قال الرّجل: فاتّبعته، فلما استوى على سرجه، عضّ على شفتيه، وقال:

عسى وعسى يَثْنِى الزّمانُ عِنَانَه	بِدَوْر زمانٍ والزّمانُ يدورُ
فيُعقِبَ روْعَاتٍ سروراً وغبطةً	وتحدثُ من بعد الأمور أمورُ

لم يكن بين ذلك، وبين أن سَخِط الرّشيد على البرامكة، واستوزر الفضل ابن الرّبيع، إلا أيّامًا يسيرة.

وحدّثنى بهذا الخبر، أبى، على مثل هذا الإسناد، ولم أحفظه، لأنّى لم أكتبه عنه فى الحال، فقال فى البيت الأوّل:

عسى وعسى يَثْنِى الزّمانُ عِنَانَه	بِعَثْرَةِ دَهْرٍ والزّمانُ عَثُور

وقال فى البيت الثانى:

فَتُدْرَكُ حاجاتٌ وتُقضَى مآربٌ	وتحدثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ

وزاد فيه: أنّ الفضل بن يحيى بن خالد رده فقضى حوائجه.

●●●

(١) الفضل بن الربيع زعيم الحزب العربى، والفضل بن يحيى البرمكى قطب الحزب الفارسى فى البلاط العباسى، بينهما عداوة راسخة تغلّب فيها البرامكة بحلمهم، ثم تغلب ابن الربيع بدهائه. وهذا الحادث بمثابة اللبنة الأخيرة فى حائط العداء المستحكم.

١٣- أمَويةٌ على بابِ عباسيَّة

قالت زينب بنت سليمان الهاشـمية: كنتُ -من أوّل أمس- عند الـخَيْزُرَان(١)، ومجلسى ومـجلسها -إذا اجتمـعنا- فى عتبة باب الرُّواق، وبالقـرب منّا فى صدر المكان، برذَعة(٢)، ووسادتان، ومسانيد، عليها سبنيّة(٣)، لأمير المؤمنين.

وهو كثـير الدخول إليـها والجلوس عندها، فإذا جـاء جلس فى ذلك الموضع، وإذا انصرف، طرحت علـيه السبنيـة إلى وقت رجوعه، فـإنّا لجُلوس، إذ دخلت عليها إحدى جواريها، فقالت: يا ستى، بالباب امرأة ما رأيتُ أحسنَ منها وجهًا، ولا أسوأ حالاً، عليها قـميص ما يستر بعضُه موضـعًا من بدنها، إلا انكشف منها موضع آخر غيرُه، تستأذن عليك.

فالتفتت إلىّ، وقالت: ما تَرَيْن؟

فقلت: تسألين عن اسمها، وحـالها، ثم تأذنين لها على عِلْم، فقالت الجارية: قد والله جَـهدت بها كل الـجَهْد، أن تفـعل، فما فـعلت، وأرادت الانصراف، فمنعتها.

فقلت لـلخيزران: ومـا عليك أن تأذنى لها، فـأنتِ منها بين ثـواب ومَكْرُمة، فأذنَتْ لها.

فدخلت امرأة على أكثر مما وصفَتْ الجارية، وهى مـستخفية، حتى صارت إلى عِضَادة(٤) الباب، مما يلينى، وكنتُ متَّكئة.

فقالت: السلام عليكم، فرددنا عليها السلام.

---

(١) الخيزران: هى زوجة الخليفـة العباسى: المهدى، وأم الخليفتين: الهادى والرشيد، وكـانت جليـستها زينب بنت سليمان، حين أقبلت مزنة زوجة مروان بن محمد آخـر خلفاء بنى أمية، وقد قتله العباسيون. لقد جاءت مزنة تحتمى بأعدائها من فعل الزمن.

(٢) برذعة: كنبة صغيرة للراحة.

(٣) سبنية: فرش لحماية الكنبة التى يجلس عليها الخليفة.

(٤) الإطار الخشبى الذى يثبت فيه الباب. فى لغة النجارين يسمى «حلَق الباب».

ثم قالت للخيزران: أنا امرأةُ مَرْوان بن محمد.

قالت: فلمّا وقع اسمها فى أذنى، استويتُ جالسة، ثم قلت: مُزْنة؟

قالت: نعم.

قلت: لا حيّاك الله، ولا قرّبك، الحمد لله الذى أزال نِعمتك، وأدَالَ عزّك، وصيّرك نكالاً وعبرة، أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك عجائزُ أهل بيتى يسألنَك أن تكلمى صاحبَك فى إنزال إبراهيم بن محمّد من خشبته[1] فلقيتيهن ذلك اللقاء، وأخرجتيهن ذلك الإخراج، الحمد لله الذى أزال نعمتك.

فضحكت -والله- المرأة، حتى كادت تقهقه، وبدا لها ثَغْر، ما رأيتُ أحسن منه قط.

وقالت: أى بنت عم[2]، أى شىء أعجبك من حُسْن صُنْع الله بى على ذلك الفعل، حتى أردتِ أن تتأسّى[3] بى، والله، لقد فعلتُ بنساء أهل بيتك، ما فعلت، فأسلمنى الله إليك جائعةً، ذليلةً، عريانةً، فكان هذا مقدار شكرك لله تعالى على ما أوْلاك فىَّ، ثم قالت: السلام عليكم.

ثم ولّت خارجة تمشى خلاف المِشية التى دخلت بها.

فقلت للخيزران: إنّها مُخَبّأة[4] من الله عَزَّ وجَلَّ، وهدية منه إلينا، ووالله -يا خَيْزُرَان- لا يتولّى إخراجَها مما هى فيه أحدٌ غيرى.

ثم نهضْتُ على أثَرِها، فلما أحسّت بى أسرعَتْ، وأسرعْتُ خلفها، حتى وافيتُها عند السِّتْر، ولحقتنى الخَيْزَران، فتعلّقَتْ بها.

---

(١) إبراهيم بن محمد عباسى هاشمى قتله الأمويون وصلبوه، ورفضت مزنة -أيام عزها- أن تكلم زوجها الخليفة فى إنزاله عن آلة الصلب.

(٢) لا غرابة فى نداء خصمها بابنة العم فالأمويون والعباسيون من قريش.

(٣) تتأسى: تقتدى وتقلدى.

(٤) أى أن الله تعالى أرسلها اختباراً لنا ليرى هل نحسن أو نسىء إلى من سبقت إساءته إلينا.

وقلت: يا أختُ، المعذرةُ إلى الله -عَزَّ وجَلَّ - وإليك، فإنّى ذكرتُ، بمكانك، ما نالنـا من المصيبـة بصاحـبنا، فكان منى ما ودِدتُ أنى غَـفَلَت عنه، ولم أملك نفسى.

وأردتُ معـانقتها، فـوضعت يدها فى صدرى، وقـالت: لا تفعلى، يا أخت، فإنّى على حال، أصونُك من الدنوّ منها.

فرددناها، وقلت للجوارى: أدخُلنَ معها الحمّام.

وقلت للمواشط: اذهَبنَ معها، حتى تُصلِحْنَ حِفَـافها، وما تحتاج إلى إصلاحه من وجهها.

فمـضت، ومضيّن مـعها، ودعـونا بكرسى، وجلسنا أنا والخَيْـزُرَانُ عليه، فى صحن الدار، ننتظر خروجها.

فخرجت إلينا إحدى المواشِط وهى تضحك.

فقلت لها: ما يُضحكك؟

فقالت: يا ستّى، إنا لنرى من هذه المرأة عجبًا.

فقلت: وما هو؟

فقالت: نحن معها فى انْتِهَار، وزَجْـر، وخصومة، ما تفعلين أنت، ولا ستُّنا، مثله إذا خدمناكما.

فقلت للخيزران: حتى تعلمين -والله- يا أختى أنّها حرّة رئيسة، والحرّة لا تَحتَشِمُ من الأحرار.

وخرجت إلينا جاريةٌ أعلمتنا أنها قد خرجت من الحمّام، فوجّهت إليها الخيزران أصناف الخلع، فتـخيَرت منها ما لبـسته، وبعثنا إليـها بطيب كثير، فـتطيبت، ثم خرجت إلينا.

فقمنا جميعًا، فعانقناها، فقالت: الآن، نعم.

ثم جئنا إلى الموضع الذى يجلس فيه أمير المؤمنين المهدى، فأقعدناها فيه.

ثم قالت الخيزران: إن غداءنا قد تأخر، فهل لك فى الطعام؟

فقالت: والله ما فيكنّ من هى أحوجُ إليه منى.

فدعونا بالطعام، فجعلت تأكل، وتضع بين أيدينا، حتى كأنّها فى منزلها.

فلمّا فرغنا من الأكل، قالت لها الخيزران: من لك ممن تعنين به؟

قالت: ما لى وراء هذا الحائط أحدٌ من خلق الله تعالى.

فقالت لها الخيزران: فهل لك فى المقام عندنا، على أن نخلى لك مقصورة من المقاصير، ويحوّل إليها جميع ما تحتاجين إليه، ويستمتع بعضنا ببعض؟

فقالت: ما دُرْتُ إلا على أقلٍّ من هذا الحال، وإذ قد تفضّل اللهُ -عزَّ وجَلّ- علىّ بكما، وبهذه النعمة، فلا أقلّ من الشكر لأمير المؤمنين المهدى، لكلّ نعمة، ولكما، فافعلى ما بدا لك، وما أحببتِ.

فقامت الخَيْزُرَانُ، وقمتُ معها، وأقمناها معنا، ودخلنا نطوف بالمقاصير، فاختارت -والله- أوسعها، وأحسنَها.

فملأتها الخيزران، بالجوارى، والوصائف، والخدم، والفَرْش، والآلات، ثم قالت: ننصرف عنكِ، وعليك بمنزلك، حتى تصلحيه، فخلّفناها فى المقصورة، وانصرفنا إلى موضعنا.

فقالت الخيزران: إنّ هذه امرأة رئيسة، وقد عضّها الفقر، وليس يملأ عينها إلا المالُ، ثم بعثت إليها بخمسة آلاف دينار، ومائة ألفِ درهم.

وأرسلت إليها: تكون هذه فى خِزانتك، ووظيفتُك، ووظيفةُ حَشمِك، قائمةٌ فى كل يوم، مع وظيفتنا.

ثم لم نلبث أن دخل علينا المهدى، فقلت له: يا سيدى، لك -والله- عندى حديث طريف.

فقال: ما هو؟ فحدثته بالخبر.

فلمّا قلت له ما كان منّى، من الوثوب عليها، وإسماعها، اقشعر، واصفرّ.

ثم قال: يا زينب، هذا مقدار شكرك لربّك عزّ وجلّ، وقد أمكنك من عدوك، وأظفرك به، على هذا الحال الذى تصفين؟ والله، لولا مكانُك منّى، لحلفت أن لا أكلّمَك أبدًا، وأين المرأة؟

قالت: فوفّيته خبرَها، فالتفت إلى الخَيْزُرَان، يصوّب فعلها، وجزَاها خيرًا.

ثم قال لخادم بين يديه: احمل إليها عشرة آلاف دينار، ومائتى ألف درهم، وبلّغها سلامى، وأعلمها أنّه لولا خوفى من احتشامها لسَرْتُ إليها مسلّمًا عليها، ومخبرًا لها بسرورى بها، فقل لها: أنا أخوك، وجميع ما ينفذ فيه أمرى، فأمرك فيه نافذ مقبول.

قالت زينب: فإذا هى قد وردت إلينا مع الخادم، وعلى رأسها دُرَاج ملحَّم[1]، حتى جلست.

فلقيها المهدى أحسن لقاء، فأقعدها عنده ساعة، تحادثه، ثم انصرفت إلى مقصورتها.

●●●

(١) الدراج: كلمة فارسية معناها اللحاف، وفى هذا السياق تعنى ما يشبه الحِرام أو العباءة.

١٤- مَراكِزُ القُوَى.. أيضًا!!

وصف سليمانُ بنُ وَهْبٍ ما جرى له فى أعقاب تولى «المتوكل» الخلافة، وقبضه ومصادرته لرجال عصر أخيه «المعتصم» وفى مقدمتهم القائدُ التركى «إيتاخ» وولداه، وكان سليمان بن وهب كاتبًا -فى تلك الفترة- لإيتاخ- وَصَفَ فقال:

ساعة قُبض على إيتاخ ببغداد. قُبض علىّ بـ«سُرَّ مَنْ رأى»، وسُلِّمتُ إلى عبيد الله بن يحيى[1].

وكتب المتوكّل إلى إسحاق بن إبراهيم[2]. بدخول «سُرَّ مَنْ رأى» ليتقوى به على الأتراك، لأنّه كان معه بضعة عشر ألفًا، ولكثرة الطاهريّة (جند خراسان) بخراسان، وشدة شوكتهم.

فلما دخل إسحاقُ «سامراء»، أمر المتوكّل بتسليمى إليه، وقال: هذا عدوّى، ففصّل لحمه عن عظمه، هذا كان يلقانى فى أيّام المعتصم، فلا يبدأنى بالسلام فأبدأه به لحاجتى إليه، فيردّ علىّ كما يردّ المولى على عبده، وكل ما دبّره إيتاخ، فعن رأيه.

فأخذنى إسحاق، وقيّدنى بقيد ثقيل، وألبسنى جبّةَ صوف، وحبسنى فى كَنِيف، وأغلق عليّ خمسة أبواب، فكنتُ لا أعرف الليل من النهار.

فأقمتُ على ذلك عشرين يومًا، لا يُفتح علىّ الباب إلا دَفعةً واحدة فى كلّ يوم وليلة، يُدفع إلىّ فيها خبز وملح جريش، وماء حار، فكنت آنس بالخنافس، وبنات وردان[3]، أتمنّى الموت من شدّة ما أنا فيه.

فعرضَ لى ليلة من الليالى، أن أطلتُ الصلاة، وسجدتُ، فتضرّعتُ إلى الله تعالى، ودعوتُه بالفرج، وقلت فى دعائى: اللهم، إن كنتَ تعلم أنّه كان لى فى

---

(١) أحد كبار الكتاب.

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن مصعب (أو المصعبى) قائد شرطة بغداد الجبار.

(٣) بنات وردان: الصراصير.

دم نجاح بن[1] سلمة صُنع، فلا تخلّصنى مما أنا فيه، وإن كنتَ تعلم أنّه لى فيه، ولا فى الدّماء التى سُفكت، ففرّج عنى.

فما استتمتُ الدّعاء، حتى سمعتُ صوت الأقفال تُفتح، فلم أشكَ أنّه القتل، ففتحت الأبواب، وجىء بالشمع، وحملنى الفرّاشون، لثقَلِ حديدى.

فقلت لحاجبه[2]: سألتُك باللهِ، اصدُقْنى عن أمرى.

فقال: ما أكل الأمير اليوم شيئًا، لأنّ أغْلظ عليه فى أمرك، وذلك أن أمير المؤمنين وبّخه بسببك، وقال: سلّمتُ إليك سليمان بن وهب تُسَمِّنُهُ أو تستخرج[3] ماله؟

فقال الأمير: أنا صاحبُ سيف، ولا أعرف الـمُناظرة على الأموال ووجوهها، ولو قُرِّر على شىء لطالبته به.

فأمر أمير المؤمنين الكتّاب بالاجتماع عند الأمير لمناظرتك، وإلزامك مالاً يُؤخذ به خطُّك، وتطالب به، وقد اجتمعوا، واستُدْعيتَ لهذا.

قال: فحُملت إلى المجلس، فإذا فيه موسى بن عبد الملك، صاحب ديوان الخَراج، والحسنَ بن مَخْلد، صاحبُ ديوان الضِّياع، وأحمدُ بن إسرائيل الكاتب، وأبو نوح عيسى بن إبراهيم، كاتبُ الفتح بن خاقان، وداودُ بن الجرّاح، صاحبُ الزّمام، فطُرحتُ فى آخر المجلس.

فشتمنى إسحاقُ أقبحَ شَتْم، وقال: يا فاعل، يا صانع، تعرّضنى لاستبطاء أمير المؤمنين، والله، لأفرّقنّ بين لحمك وعظمك، ولأجعلنّ بطن أرض أحبّ إليك من ظهرها، أين الأموال؟

---

(١) نجاح بن سلمة: أحد الكتّاب، تآمر عليه الكتّاب فى صراعاتهم على السُّلطة، وقتلوه، واستصفوا أمواله، بأمر الخليفة، بعد أن أوغروا صدره عليه.

(٢) أى حاجب الأمير إسحاق المصعبى (أمير الشّرطة).

(٣) كان من عادة الخليفة حين يأمر بالقبض على أحد الكبراء أن يسلمه إلى من يساويه أو يعلوه منزلة (يحدد إقامته عنده، أو يسجنه) حتى يرى فيه رأيه، وقد يندب لمحاسبته (محاسبة مالية وسياسية) عدداً من نظرائه فلا يتركونه حتى يلتزم بأموال ضخمة، كما سنرى، وهذا يدل على فساد السياسة والإدارة فى ذلك العصر (الذهبى!!).

فاحتججتُ بنكبة ابن الزيّات لى[1].

فبدرنى الحسنُ بن مخلد، فقال: أخذتَ من النّاس أضعافَ ما أدّيت، وعادت يدك إلى كتبة إيتاخ، فأخذت ضياع السلطان، واقتطعتَها لنفسك، وحزتَها سرقةً إليك، وأنت تُغلها ألفى ألف درهم، وتتزيّا بزى الوزراء، وقد بَقيَت عليك من تلك المصادرة جملة لم تؤدّها. وأخذت الجماعةُ تواجهُنى بكل قبيح، إلا موسى ابن عبد الملك، فإنّه كان ساكتًا لصداقة كانت بينى وبينه.

فأقبل من بينهم على إسحاق، وقال: يا سيّدى، أتأذن لى فى الخَلوة به لأفصل أمره؟ قال: افعل.

فاستدنانى، فحُملتُ إليه، فسارّنى، وقال: عزيزٌ علىّ يا أخى حالك، وبالله لو كان خلاصُك بنصف ما أملكه لفديتُك به، ولكن صورتَك قبيحة[2]، وما أملك إلا الرأى، فإن قبلتَ منّى، رجوتُ خلاصك، وإن خالفتنى، فأنت -والله- هالكٌ.

فقلت: لا أخالفك.

فقال: الرأى أن تكتب خطَّك بعشرة آلاف ألف درهم، تؤدّيها فى عشرة أشهر، عند انقضاء كلّ شهر ألف ألف درهم، وتَتَرفّهُ عاجلاً مما أنت فيه[3].

فسكتٌّ سكوت مبهوت، فقال لى: ما لك؟

فقلت له: والله، ما أرجع إلى رُبْعها، إلا بعد بيع عَقارى، ومن يشترى منى وأنا منكوب، وكيف يتوفّر لى الثمن وأنا على هذه الحالة؟

فقال: أنا أعلم أنّك صادق، ولكن احرس نفسك عاجلاً بعظَم ما تبذله، ويُطمع فيه من جهتك، وأنا من وراء الحيلة لك فى شىء أميلُ به رأى الخليفة من

(١) احتج سليمان بن وهب بأنه سبق القبض عليه واستصفاء ما لديه من مال فى مرة سابقة، تولاها الوزير ابن الزيات.

(٢) أى أن التهمة (السرقة والاستيلاء على ممتلكات الدولة) ثابتة عليك.

(٣) يدعوه للاعتراف بأنه سيدفع للخلافة هذا القدر على عشرة أقساط، وهذا يعنى أن يُرفَع عنه الحبس والعقوبة والمصادرة ليتمكن من الوفاء بما التزم.

جهتك، يعود إلى صلاحك، والله المعين، ومن ساعة إلى ساعة فَرَج، ولا تتعجّل الموت، ولو لم تستفد إلا الرّاحة مما أنت فيه يومًا واحدًا. لكفى[١].

فقلت: لست أتّهم ودّك ولا رأيَك، وأنا أفعل ما تقول.

فأقبل على الجماعة، وقال: يا سادتى، إنى قد أشرتُ عليه أن يكتب خطَّه بشىء لا يُطيقه، فضلاً عما هو أكثر منه، ورجوتُ أن نعاونه بأموالنا وجاهنا، ليمشى أمرُه، وقد واقفته ليكتب بكذا وكذا.

فقالوا: الصواب له أن يفعل هذا.

فدعا لى بدَوَاةٍ وقرطاس، وأخذ خطّى بالمال على نجومه[٢]، فلما أخذه، قام قائمًا، وقال لإسحاق: يا سيّدى، هذا رجل قد صار عليه للسلطان -أعزّه الله- مال، وسبيله أن يُرَفَّه، وتُحْرَس نفسُه، وينقل من هذه الحال ويغيّر زيُّه، ويردّ جاهُهُ، بإنزاله دارًا كبيرة، وإخدامه بفرش وآله حسنة، وإخدامه خُدَامًا بين يديه، ويُمكَّنَ من لقاء من يُؤثرُ لقاءه من مُعامليه، ومن يحب لقاءه من أهله وولده وحاشيته، ليجد فى حَمْل المال الحالّ عليه، قبل محلّه، ونعينه نحن، ويبيع أملاكه، ويرتجع ودائعه ممّن هى عنده[٣].

فقال إسحاق: السّاعة أفعلُ ذلك، وأبلغه جميع ما ذكرت، وأمكّنه منه، ونهضت الجماعة.

فأمر إسحاقُ بفكّ حديدى، وإدخالى الحمّام، وجاءنى بخِلعة حسنة وطيب، وبخور، فاستعملته، واستدعانى، فلمّا دخلتُ عليه نهض إلىّ، ولم يكن فى مجلسه أحد، واعتذر إلىّ مما خاطبنى به، وقال: أنا صاحب سَيْف، ومأمور، وقد لحقنى اليوم من أجلك سماعُ كل مكروه، حتى امتنعتُ عن الطعام غمّاً بأن أبتلى

---

(١) هكذا نصحه صديقه (الخفى) موسى بن عبد الملك، وقد صدق فيما وعد، إذ دبّر طريقة تجعل الخليفة يغيّر رأيه فى سليمان بن وهب، ويوليه مصر، بعد أن كان حريصًا على قتله. كما سنرى.

(٢) نجومه: أقساطه.

(٣) أى لابد من أن يستعيد مكانته الاجتماعية ليتمكن من السيطرة على ممتلكاته، ومن ثم الوفاء بالأقساط التى التزم بها.

بقتلك، أو يعتب الخليفة عليّ من أجلك وإنّما خاطبتك بذلك، إقامة عذر عند هؤلاء الأشرار[1]. ليبلغوا الخليفة ذلك، وجعلته وقايةً لك من الضرب والعذاب، فشكرتُه، وقلتُ ما حضرنى من الكلام.

فلما كان من الغد، حوّلنى إلى دار كبيرة، واسعة، حسنة، مفروشة، ووكّل بى فيها، على إحسان عِشْرَةٍ وإجلال، فاستدعيْتُ كل من أريده، وتسامَعَ بى أصحابى، فجاؤونى وفرّج الله عنى.

ومضت سبعة وعشرون يومًا، وقد أعددتُ ألف ألف دِرهم، مال النَّجْم الأوّل[2]، وأنا أتوقّع أن يَحِلّ، فأطالب، فأؤديه، فإذا بموسى بن عبد الملك قد دخل إلىّ، فقمتُ إليه، فقال: أبْشِر.

فقلت: ما الخبر يا سيدى؟

فقال: ورد كتابُ عامل مصر[3]، بمبلغ مال مصر لهذه السنة مجملاً فى مبلغ الحَمْل والنفقات، إلى أن ينفذ حسابه مفصّلاً، فقرأ عبيد الله ذلك على المتوكّل، فوقع إلى ديوانى بإخراج العِبرة لمصر، ليُعرف أثرُ العامل، فأخرجتُ ذلك من ديوان الخَراج والضياع، لأن مصر تجرى فى ديوان الخراج والضياع، وينفذ حسابُها إلى الديوانين، كما قد علمت، وجعلت سنتّك التى تولّيت فيها عمالة مصر، مصدرة، وأوردتُ بعدها السنين النّاقصة عن سنتك، تلطفا فى خلاصك، وجعلتُ أقول: النّقصان فى سنة كذا عن سنة كذا وكذا التى صدّرناها، كذا وكذا ألفًا.

فلما قرأ عبيد الله العمل على المتوكّل، قال: فهذه السنة الوافرة، من كان يتوّلى عِمَالتها؟

(١) هكذا اختلفت معاملة المصعبى لسليمان بن وهب بعد احتمال العفو عنه، وعودته إلى الحياة العامة.. واختلف رأيه فى كبراء زمانه أيضًا، فهم أشرار، وكذلك كانوا يرونه!!

(٢) النجم الأول: القسط الأول، وستتغير أحواله ويصبح واليًا على مصر، حتى قبل أن يدفع هذا القسط الأول ببركة «مراكز القوى» التى تعمل فى خدمته، وتنتظر معونته فى ظروف أخرى.

(٣) المسؤول عن أموال مصر، وقد جاء صافى إيراد مصر فى هذه السنة هابطًا عن المعدّل، فطلب الخليفة الاطلاع على معدل ما تقدمه مصر للخلافة من مال، وهنا كانت الفرصة لإبراز أن هذا المعدّل كان فى قمته حين تولى سليمان بن وهب هذه الوظيفة، لهذا السبب وحده أعاده الخليفة ورضى عنه.

فقلت أنا: سليمانُ بنُ وَهْب يا أمير المؤمنين.

فقال المتوكّل: فلِمَ لا يُردّ إليها؟

فقلت: وأين سليمانُ بنُ وهب؟ ذاك مقتول بالمطالبة، قد استُصْفى وافتقر.

فقال: تُزَال عنه المطالبة، ويُعان بمائة ألف درهم، ويُعَجّل إخراجه.

فقلت: وتُردّ ضياعه يا أمير المؤمنين، ليرجع جاهه.

قال: لتفعل ذلك، وقد تقدم إلى عبيـد الله بهذا، واستأذنته فى إخراجك فأذن لى، فقم بنا إلى الوزير، وقد كان دخل إلى إسحاق برسالة الخليفة بإطلاقى.

فخـرجتُ من وقتى، ولم أؤدّ من مـال النّجم الأوّل حبّـة واحدة، ورددته إلى موضعه.

وجئتُ إلى عبيد الله، فـوقع لى بمائة ألف درهم معونة على سفرى، ودفع إلىّ عهدى على مصر، فخرجتُ إليها.

●●●

الفصل الخامس

القصص الوعظية

١- آية للحماية

حدّثنا إبراهيم بن ربَاح، قال: حدّثنا أبو عبد اللّه أحمد بن أبى دُؤَاد، قال: حدّثنا الواثق، قال: حدّثنا المعتصم:

أنّ قومًا ركبوا البحر، فسمعوا هاتفًا يهتف بهم، مَن يعطينى عشرة آلاف دينار حتى أعلِّمَه كلمةً، إذا أصابه غمّ، أو أشرف على هلاك، فقالها، انكشف ذلك عنه.

فقال رجل من أهل المركب، معه عشرة آلاف دينار، فصاح: أيّها الهاتف أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وعلّمنى.

فقال: ارم بالمال فى البحر، فرمى به، وهو بدرتان فيهما عشرة آلاف دينار.

فسمع الهاتفَ يقول: إذا أصابك غَمٌّ، أو أشرفْتَ على هَلكة، فاقرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فقال جميع من فى المركب للرجل: لقد ضيّعتَ مالك.

فقال: كلاّ، إنّ هذه لعظة ما أشكّ فى نفعها.

قال: فلمّا كان بعد أيّام، كُسِرَ بهم المركب، فلم ينج منهم أحدٌ غير ذلك الرجل، فإنّه وقع على لَوْح.

فحدَّث بعد ذلك، قال: طرحنى البحر على جزيرة، فصعدتُ أمشى فيها، فإذا بقصر منيف، فدخلته، فإذا فيه كل ما يكون فى البحر من الجواهر وغيرها، وإذا بامرأة لم أر قطّ أحسن منها.

فقلت لها: مَن أنتِ وأىّ شىء تعملين ههنا؟

قالت: أنا بنت فلان ابن فلان التاجر بالبصرة، وكان أبى عظيم التجارة، وكان لا يصبر عنّى، فسافر بى معه فى البحر، فانكسر مركبنا، فاختُطفتُ، حتّى حَصَلْتُ فى هذه الجزيرة، فخرج إلىَّ شيطان من البحر، يتلاعب بى سبعة أيّام، من غير أن يطأنى، إلاّ أنه يلامسنُى، ويؤذينى، ويتلاعب بى، ثم ينظر إلىَّ، ثم ينزل إلى البحر سبعة أيام، وهذا يوم موافاته، فاتق اللّه فى نفسك، واخرج قبل موافاته، وإلا أتى عليك.

فما انقضى كلامُها حتى رأيتُ ظُلْمةً هائلة، فقالت: قد واللّهِ جاء وسيهلكك.

فلما قرب منى، وكاد يغشانى، قرأتُ الآية، فإذا هو قد خر كقطعة جبل، إلا أنّه رمادٌ محترق.

فقالت المرأة: هَلَك واللّهِ، وكُفِيتُ أمرَه، مَن أنت يا هذا الذى منّ اللّه علىّ بك؟

فقمتُ أنا وهى، فانتخبنا ذلك الجوهر، حتى حملنا كلّ ما فيه من نفيس وفاخر، ولزمنا الساحل نهارنا أجمع، فإذا كان الليل، رجعنا إلى القصر.

قال: وكان فيه ما يؤكل، فقلت لها: من أين لكِ هذا؟

فقالت: وجدته ههنا.

فلما كان بعد أيّام رأينا مركبًا بعيدًا، فلوحنا إليه، فدخل، فحَمَلَنَا، فسلمنَا اللّه تعالى إلى البصرة، فوصفَتْ لى منزل أهلها، فأتيتهم.

فقالوا: مَن هذا؟

فقلت: رسول فلانة بنت فلان.

فارتفعت الواعية[1]، وقالوا: يا هذا لقد جددت علينا مصابنا.

---

(١) الصراخ والبكاء على الميت.

فقلت: اخرجوا، فخرجوا.

فأخـذتُهم حتى جـئتُ بهم إلى ابنتهم، فكادوا يمـوتون فرحًـا، وسألوها عن خبرها، فقصّته عليهم.

وسألتهم أن يـزوجونى بها[1]، ففـعلوا، وحصّلنا ذلك الجـوهر رأس مال بينى وبينها، وأنا اليوم أيسر أهل البصرة، وهؤلاء أولادى منها.

●●●

(١) أراد واضع الحكاية أن يحتفظ برمـوز العفة سليمة، فهذا الشـيطان البحرى احتفظ بالفتـاة عذراء (غير أنه يتلاعب بها) أما الرجل التقى الذى دفع ثروته نظير آية كريمـة، فإنه صاحب الفتاة حتى طلب من أهلها أن يزوجوه منها.

٢- دُعاءٌ للخَلاص

قال لى المعلى بن أيّوب:

أعنتنى[1] الفضلُ بن مروان، ونحن فى بعض الأسفار وطالبنى بعمل طويل يُعمل فى مدة بعيدة، واقتضانيه فى كلّ يوم مراراً، إلى أن أمرنى عن المعتصم بالله أن لا أبرحَ إلاّ بعد الفراغ منه.

فقعدتُ فى ثيابى، وجاء الليل، فجعلتُ بين يدىّ نفّاطة[2]، وطرح غلمانى أنفسهم حولى، وورد علىّ همٌّ عظيم، لأننى قلت: ما تجاسر على أن يوكِّل بى إلا وقد وقف على سوء رأى فىَّ من المعتصم.

فإنّى لجالس، وذَقنى على يدى، وقد مضى الليل، وأنا متفكّر، فحملتنى عيناى، فرأيت كأنّ شخصًا قد مَثُل بين يدى، وهو يقول: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

ثم انتبهتُ، فإذا أنا بمشعَل قد أقبل من بعيد، فلما قُرب منى كان وراءه محمد ابن حماد دَنْقَش صاحبُ الحرس، وقد أنكر نفاطتى، فجاء يعرف سببها، فأخبرته خبرى.

فمضى إلى المعتصم، فأخبره، فإذا الرُسل يطلبونى، فدخلتُ إليه، وهو قاعد، ولم يبق بين يديه من الشمع إلا أسفلُه.

فقال لى: ما خبرك؟ فشرحته له.

---

(١) الإعنات: التضييق والاضطهاد، وكان الفضل -وهو وزير المعتصم- يضطهد المعلى وهو كاتب الخليفة كما سيظهر.

(٢) النفاطة: المصباح المضاء بالنفط.

فقال: ويلى عـلى النَّبَطىّ، يَمْتَهِنُك، وأىُّ يدٍ له عليك، أنت كاتـبى، كما هو كاتبى، انصرف.

فلما وَلّيتُ، ردّنى، واستدنانى، ثم قال لى: تمضى مُدَيْدَة، ثم ترى فيه ما تُحبّ.

قال: فانصرفتُ، وبكَّرت إلى الفضل على عادتى، لم أُنْكِر شيئًا.

●●●

٣- الانشراح

وأمّا الخبر في: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، فإنّ أبا بكر بن شُجاع، المُقرئَ البغدادي، الذي كان يخلفني على العيار في دار الضَّرْب بسوق الأهواز، في سنة ست وأربعين وثلثمائة، وكان خازن المسجد الجامع بها، وكان شيخًا محدّثًا ثقةً نبيلاً، من أمناء القاضي الأحنف وهو محمد بن عبد اللّه بن علي ابن محمد بن أبي الشوارب، حدّثنا بإسناد له ذكره، لم أحفظه، ولا المتن بلفظه، وبَعُدَ عن يدي إخراجه من الأصل، وقد تحريتُ مقاربة اللفظ بجهدي، ولعله يزيد أو ينقص:

أنّ بعض الصالحين، ألحّ عليه الغمّ، وضيقُ الصدر، وتعذّر الأمور حتى كاد يَقْنَطُ، فكان يومًا يمشي، وهو يقول:

أرى الموتَ لمن أمسى ... على الذلّ له أصْلَحْ

فهتف به هاتف، يُسمع صوته، ولا يُرى شخصه، أو أرىَ في النوم -أنا الشاكّ- كأنّ قائلاً يقول:

ألا يا أيّها المرءُ ... الذي الهمُّ به بَرَّحْ

إذا ضاق بك الأمر ... ففكّر في أَلَمْ نَشْرَحْ

قال: فواصلتُ قراءتها في صلاتي، فشرح اللّه صدري، وأزال همّي وكربي، وسهّل أمري -أو كما قال.

وحدّثني غيره بهذا الخبر، على قريب من هذا، وزادني في الشعر:

فإنّ العُسْرَ مقرونٌ ... بيسرين فلا تَبْرَحْ[١]

---

(١) في سورة الشرح تكرر العُسر مرتين بـ «الـ» المعرفة، وتكرر اليسر (نكرة) مرتين، وإذا تكررت المعرفة كانت هي الأولى بذاتها، أما النكرة فتكون غير الأولى، وهذا معنى أن العسر في السورة واحد. واليسر اثنان، ولن يتغلب واحد على اثنين.

٤- الاستِغفَار طريقُ الفَرَج

إنّ أعرابياً شكى إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليـه السلام شدّة لحقته، وضيقًا فى الحال، وكثرة من العيال.

فقال له: عليك بالاستغفار، فإنّ اللّه تعالى يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]. . . الآيات.

فعاد إليه، وقال: يا أمير المؤمنين قد استغفرت كثيراً، وما أرى فَرَجًا مما أنا فيه.

قال: لعلّك لا تُحسنِ أن تستغفر.

قال: علّمنى.

قال: أخلص نيّتك، وأطع ربّك، وقل: اللّهم إنّى أستغفرك من كلّ ذنب، قَوِىَ عليه بدنى بعافيتك، أو نالته يدى بفضل نعمتك، أو بسطْتُ إليه يدى بسابغ رزقك، أو اتّكلتُ فيه، عند خوفى منه، على أناتِك، أو وثِقْتُ فيه بحلمك، أو عوّلتُ فيه على كَرَمِ عفوك.

اللّهم إنّى أستغفرك من كلّ ذنب خُنْتُ فيه أمانتى، أو بخَستُ فيه نفسى، أو قدّمت فيه لذّتى، أو آثرتُ فيه شهوتى، أو سَعَيْتُ فيه لغيرى، أو استغويتُ فيه مَن تَبِعَنى، أو غَلَبْتُ فيه بفضل حيلتى، أو أحلتُ فيه عليك يا مولاى، فلم تؤاخذنى على فعلى، إذ كنتَ -سبحانك- كارهًا لمعصيتى، لكن سبق علمك فىّ باختيارى، واستعمالى مرادى وإيثارى، فحَلُمْتَ عنّى، لم تدخلنى فيه جبرًا، ولم تحملنى عليه قهرًا، ولم تظلمنى شيئًا، يا أرحم الراحمين: يا صاحبى عند شدّتى، يا مؤنسى فى وحدتى، ويا حافظى عند غُربتى، يا وليّى فى نعمتى، ويا كاشف كُربتى، ويا سامع دعوتى، ويا راحم عَبرتى، ويا مُقيل عَثرتى. يا إلهى بالتحقيق، يا ركنى الوثيق، يا رجائى فى الضيق، يا مولاى الشفيق، ويارَبّ البيت العتيق،

أخـرجنى من حَلقَ المضـيق، إلى سَعَـة الطريق، وفَـرَجٍ من عندك قـريب وثيق، واكشف عنّى كلّ شدّة وضيق، واكفنى ما أطيقُ وما لا أطيق.

اللّهمّ فرّج عنّى كلّ همّ وكرب، وأخـرجنى من كلّ غمّ وحزن، يا فارج الهمّ، ويا كـاشف الغمّ، ويا منزل القَطْر، ويا مـجـيب دعوة المضطر، يـا رحمن الدنيـا والآخرة ورحيمها، صلّ على خيـرتك محمد النبىّ، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وفَرِّج عنّى ما ضاق به صدرى، وعيلَ معه صَبْرى، وقلت فيه حيلتى، وضعفت له قووّتى، يا كاشفَ كلّ ضـرّ وبليّة، ويا عالمَ كل سّر وخفيّـة، يا أرحم الراحمين، وأفوّض أمرى إلى اللّه، إنّ اللّه بصيرٌ بالعباد، وما توفيقى إلاّ باللّه، عليه توكلّتُ، وهو ربّ العرش العظيم.

قـال الأعرابى: فـاستـغـفرتُ بذلك مـراراً، فكشف اللّه عَـزَّ وجَلَّ عنّى الغم والضيق، ووسّع علىّ فى الرزق، وأزال عنّى المحنة.

●●●

٥- العِلْمُ بالكتاب

قال إبراهيم التيْمى:

لما حُبِستُ الحَبْسَةَ المشهورة، أدخلتُ السجن، فأنزلتُ على أناس فى قيد واحد، ومكان ضيّق، لا يجد الرّجل إلاّ موضع مجلسه، وفيه يأكلون، وفيه يتغوطّون، وفيه يُصَلُّون.

قال: فجيء برجل من أهل البحريْن، فأدخل علينا، فلم نجد مكانًا، فجعلوا يتبرّمون به، فقال: اصبروا، فإنّما هى اللّيلة.

فلمّا دخل اللّيل، قام يُصلى، فقال: ياربّ، مننتَ على بدينك، وعلّمتنى كتابَك، ثم سلّطت علىّ شرّ خلقك، ياربّ، الليلةَ، اللّيلةَ، لا أصبح فيه.

فما أصبحنا حتّى ضُرِبَتْ أبوابُ السجن: أين البحرانى، أين البحرانى؟ فقال كلّ منّا: ما دُعِىَ الساعة، إلاّ ليُقتل، فخُلِّىَ سبيلُه.

فجاء، فقام على باب السجن، فسلّم علينا، وقال: أطيعوا اللّه لا يُضيِّعْكم[1].

●●●

(١) فى هذا الخبر (القصة) دلالات متعددة، فراويه إبراهيم التيمى من الزهاد، حبسه الحجاج، وقتله ومثل به (فيما بعد) لكنه يحكى هنا عن رجل بحرينى مستور، تعلم كتاب الله وأطاعه، فكانت لديه الثقة بالفرج!! وفى هذا العصر (ولعله تقليد قديم نجد ملامحه فى هذا النص) ينسب إلى البحرين: بحرْينى، فإذا قيل: بحرانى، فالمنسوب من الشيعة!! هكذا عرفنا من أهل البحرين. واللّه أعلم.

٦- قصّة أصحابِ الأخدود

وذكـر اللَّه سبـحانه وتعـالى، فى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج:١]، أصحابَ الأخدود، وروى قوم من أهل الملل المخالفة للإسلام عن كتبهم أشياء من ذلك، فذكرت اليـهودُ والنّصارى: أنّ أصحاب الأخـدود كانوا دعاةً إلى اللَّه، وأنّ ملك بلدهم، أضرم لهم نارًا، وطـرحهم فيهـا، فاطّلع اللَّه تعالى على صـبرهم، وخُلُوص نيّاتهم فى دينه وطاعته، فأمر النار أن لا تحرقـهم، فشوهدوا فيها قعودًا، وهى تضطرم عليـهم، ولا تحـرقهم، ونجـوا منها، وجـعل اللَّه دائرة السـوْءِ على الملك، وأهلكه.

●●●

٧- فَرَجٌ عَام

حكى عبيد اللّه بن سليمان، وكان وزيرًا، عن أبيه سليمان بن وهب، أنه قال:

كنتُ يومًا فى حبس محمد بن عبد الملك الزيات[١]، فى خلافة الواثق، آيس ما كنتُ من الفرج، وأشدّ محنة وغمّاً، حتى وردت علىّ رقعة أخى الحسن بن وهب، وفيها شعر له:

مِحَنٌ أبا أيّوب أنت مَحَلُّها	فإذا جزعتَ من الخطوب فمَنْ لها
إنّ الّذى عقد الّذى انعقدت به	عُقَد المكارِه فيك يُحسِنُ حلَّها
فاصبر فإنّ الله يُعقِبُ فُرْجَةً	ولعلّها أن تنجلى ولعلّها
وعسى تكونُ قريبة من حيث لا	ترجو وتمحو عن جديدك ذلّها

قال: فتفاءلتُ بذلك، وقَوِيتْ نفسى، فكتبتُ إليه:

صبّرتنى ووعظتَنى وأنالها	وستنجلى، بل لا أقول: لعلّها
ويَحُلُّها مَن كان صاحبَ عَقْدِها	ثقةً به إذ كان يملك حلَّها

قال: فلم أصلِّ العَتَمةَ ذلك اليوم، حتّى أطلقتُ، فصلّيتُها فى دارى ولم يمضِ يومى ذاك، حتّى فَرَّج اللّه عنّى، وأطلقتُ من حَبْسى.

وروى أنّ هاتين الرقعتين وقعتا بيد الواثِقَ[٢]، الرسالة والجواب، فأمر بإطلاق سليمان، وقال: واللّه، لا تركتُ فى حبسى مَن يرجو الفَرَج، ولا سيّما مَن خَدَمَنى، فأطلقه على كُرْهٍ من ابن الزيّات لذلك.

---

(١) كان ابن الزيات وزيرًا للمعتصم، ثم الواثق، وكان يتفنن فى التعذيب، حتى صنع تنورًا (فرنًا) من الحديد بداخله مسامير، وحين جاء الخليفة المتوكل أذاقه من نفس الكأس. أما سليمان بن وهب (الذى عذّبه الزيات) فقد كان كاتبًا مهمًا، ثم وزيرًا فيما بعد.

(٢) الخليفة العباسى.

٨- قصّة دانيال عليه السلام

وذكر هؤلاء القوم: أنّ نبيًا، كان فى بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام بزمان طويل، يُقال له دانْيال[١]، وأنّ قومه كذّبوه، فأخذه ملكهم، فقذفه إلى أسْد مجوّعة فى جُبٍّ، فلمّا اطّلع الله تعالى على حُسن اتّكاله عليه، وصبره طلبًا لما لديه، أمسك أفواه الأسْد عنه، حتى قام على رؤوسها برجليه، وهى مذلّلة، غير ضارّة له، فبعث الله تعالى إرميا[٢] من الشام، حتى تخلّص دانيال من هذه الشدّة، وأهلك مَن أراد إهلاك دانيال.

وعضدت روايتَهم، أشياءٌ رواها أصحاب الحديث، منها ما حدّثناه علىٌّ ابن أبى الطيّب الحسن بن علىّ بن مطرف الرَامَهُرْمزِى، قال: حدّثنا أحمد ابن محمد بن الجرّاح، قال: حدّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى، قال: حدّثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيبانى، قال: إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان، فحدّثنا بعض أصحابنا عنه، عن الأجْلح الكِنْدىّ، عن عبد الله بن أبى الهديل قال: ضرّى «بُخْتَ نَصّر»[٣] أسدين، فألقاهما فى جُبٍّ وجاء بدانيال فألقاه عليهما، فلم يُهيجاه فمكث ما شاء الله، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون، من الطعام والشراب، فأوحى الله إلى إرميا، وهو بالشام، أن أعدًّ طعامًا وشرابًا لدانيال، فقال: يا ربّ، أنا بالأرض المقدّسة، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله تعالى إليه أن أعدّ ما أمرناك به، فإنّا سنرسل إليك من يحملك، ويحمل ما أعددتَ ففعل، فأرسل الله إليه مَن حمله، وحمل ما أعدّ، حتى وقف على رأس الجُبّ.

فقال دانيال: مَن هذا؟

---

(١) يُنسب إليه أحد أسفار العهد القديم، فى الإسكندرية شارع يحمل اسمه.

(٢) من أنبياء بنى إسرائيل مثل دانيال.

(٣) بختنصر أو نبوخذ نصّر، ملك بابلى، أزال مملكة اليهود فى القدس وحملهم أسرى إلى بلاده. وضرّى أسدين: أى جوّعهما.

قال: أنا إرميا.

قال: ما جاء بك؟

قال: أرسلنى إليك ربُّك.

قال: وذكرنى؟

قال: نعم.

قال: الحمد لله الّذى لا ينسى مَن ذكره، والحمد للّه الّذى لا يُخيِّب مَن رجاه، والحمد لله الـذى مَن توكّل عليه كفاه، والحـمد لله الذى مَن وَثِقَ به لم يكِلْه إلى غيره، والحمد لله الّـذى يجزى بالإحسان إحسانًا، وبالسّيئات غـفُرانًا، والحمد لله الّذى يجدى بالصبر نجاة، والحمـد لله الّذى يكشف ضُرّنا، بعد كَرْبِنا، والحمد لله الّذى هو ثِقَتُنا، حـين تسوء ظنوننا بأعمـالنا، والحمد لله الّذى هو رجـاؤنا، حين تنقطع الحِيَلُ منّا.

●●●

٩- دَعْوَةُ المظْلُوم

حدّثنى أبو الحسن بن أبى الطاهر محمّد بن الحسن الكاتب، صاحب الجيش، قال:

قبض علىَّ أبو جعفر محمّد بن القاسم بن عبيد الله، فى أيّام وزَارته للقاهر بالله، وعلى أبى، فحبسنا فى حجرة ضيّقة، وأجلسنا على التّراب، وشدّد علينا، وكان يُخرجنا فى كلّ يوم، فيطالب أبى بمال المصادرة، وأضربُ أنا بحضرة أبى، ولا يُضرب هو، فلاقيْنا من ذلك أمرًا شديدًا صعبًا.

فلمّا كان بعد أيّام، قال لى أبى: إنّ هؤلاء الموكَّلين، قد صارت لهم بنا حُرْمة[1]، فتَوَصَّلْ إلى مكاتبة أبى بكر الصيرفى -وكان صديقًا لأبى- حتّى يُنفَذَ إلينا بثلاث آلاف درهم، نفرقها فيهم، ففعلتُ ذلك، فأنفذ إلينا بالمال من يومه.

فقلتُ للموكَّلين، فى عَشىٍّ ذلك اليوم: قد وجبت لكم علينا حقوق، فخذوا هذه الدراهم، فانتفعوا بها، فامْتَنَعُوا.

فقلتُ: ما سبب امتناعكم؟ فورُّوا عن ذلك.

فقلت: إمّا قبلتم، وإمّا عرفتمونا السّبب الّذى لأجله امتناعكُم.

فقالوا: نُشفق عليكم، ونستحى من ذلك.

فقال لهم أبى: اذكروه على كلّ حال.

قالوا: قد عَزَمَ الوزيرُ على قتلكما اللّيلة، ولا نستحسن أخذ شىء منكما مع هذا.

فقَلَقْتُ، ودخلتُ إلى أبى بغير تلك الصورة، فقال: ما لك؟ فأخبرته بالخبر، وقلت لأبى: ما أصنع بالدراهم؟

---

(١) اعتقد أبو طاهر أن سجانيه ومعذبى ولده أصبحوا من أهله يستحقون الإكرام، فطلب المال لهذا، لكنهم رفضوا أخذه لما غلب لديهم أنه سيُقتل مع ولده!!

فقال: ردَّها على أبى بكر، فرددتُها عليه.

وكان أبى يصوم تلك الأيّامَ كلَّها، فلمّا غابت الشّمس، تطهّر، وصلّى المغرب، فصلّيتُ معه، ولم يُفطِر، ثم أقبل على الصّلاة والدّعاء، إلى أن صلّى العشاء الآخرة، ثم دعانى.

فقال: اجلس يا بنىّ إلى جانبى، جاثيًا على ركبتك، ففعلت، وجلس هو كذلك.

ثم رفع رأسه إلى السّماء، فقال: يا ربّ، محمّد بن القاسم ظلمنى، وحبسنى على ما ترى، وأنا بين يديك، وقد استعديْتُ إليك، وأنت أحكم الحاكمين، فاحكم بيننا -لا يزيد عن ذلك.

ثم صاح بها إلى أن ارتفع صوته، ولم يزل يكرّرها بصياحٍ ونداءٍ واستغاثة، إلى أن ظننتُ أنّه قد مضى ربع اللّيل.

فوالله ما قطعها حتّى سمعتُ الباب يُدَقّ، فذهب علىّ أمرى، ولم أشكّ في أنّه القتل.

وفُتِحَت الأبوابُ فدخل قوم بشموع، فتأمّلتُ، وإذا فيهم سَابُور، خادمُ القاهرة، فقال: أين أبو طاهر؟ فقام إليه أبى، فقال: ها أنذا.

فقال: أين ابنُك؟

فقال: هُوَ ذَا.

فقال: انصرفا إلى منزلكما، فخرجنا، فإذا هو قد قَبَضَ على محمّد بن القاسم، وحدَّرَهُ إلى دار القاهر.

وعاش محمّد بن القاسم فى الاعتقال ثلاثة أيّام، ومات.

●●●

١- باب الفَرَج

حدّثنى فتّى من الكتّاب البغداديّين، يُعرف بأبى الحسن بن أبى اللّيث، قال:

قرأتُ فى بعض الكتب، إذا دهمك أمرٌ تخافه، فبِتْ وأنت طاهر، على فراش طاهر، وثياب كلّها طاهرة، وأقرأ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]. . . إلى آخر السورة، سبعًا، و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]. . . إلى آخر السورة، سبعًا: ثم قل: اللّهم اجعل لى فَرَجًا ومخرجًا من أمرى، فإنّه يأتيك فى الليلة الأوّلة أو الثانية، وإلى السابعة، أتٍ فى منامك، يقول لك: المخرج منه كذا وكذا.

قال: فحُبِسْتُ بعد هذا بسنين، حَبْسَةً طالت حتى أيِسْتُ الفَرَج، فذكرته يومًا وأنا فى الحبس، ففعلت ذلك، فلم أر فى الليلة الأوّلة، ولا الثانية، ولا الثالثة شيئًا، فلما كان فى الليلة الرابعة، فعلتُ ذلك على الرسم، فرأيت فى منامى كأن رجلاً يقول لى: خلاصُك على يدِ علىٍّ بنِ إبراهيم.

فأصبحتُ من غدٍ متعجبًا، ولم أكن أعرف رجلاً يقال له على بن إبراهيم، فلما كان بعد يومين، دخل إلىّ شاب لا أعرفه، فقال لى: قد كُفِلْتَ بما عليك، فَقُمْ، وإذا معه رسول إلى السجّان بتسليمى إليه، فقمتُ معه، فحملنى إلى منزلى، وسلّمنى فيه، وانصرف.

فقلت لهم: مَن هذا؟

فقالوا: رجل بزّاز[١] من أهل الأهْواز، يقال له علىٌّ بنُ إبراهيم، يكون فى الكَرْخ، قيل لنا إنّه صديق الذى حَبَسَك، فطرحنا أنفسَنا عليه، فتوسّط أمرك، وضمن ما عليك، وأخرجك.

قال مؤلّف هذا الكتاب: فلما كان بعد سنين، جاءنى علىٌّ بن إبراهيم هذا، وهو معاملى فى البَزّ، منذ سنين كثيرة، فذاكرته بالحديث، فقال: نعم، كان هذا

(١) البزاز: تاجر الحرير، البزّ (بفتح الباء): الحرير.

الفتى قد حبسه عَبْدُوس بن أخت أبى على الحسن بن إبراهيم النصرانىّ، خازن مُعزّ الدولة، وطالبه بخمسة آلاف درهم، كانت عليه من ضَمَانه[1]، وكان عَبْدوس لى صديقًا، فجاءنى مَن سألنى خطابه فى أمر هذا الرجل، وجرى الأمر على ما عرّفتك.

●●●

(١) معز الدولة أحد أمراء البويهيين، ونظام الضمان عُرِف فى مصر فى القرن الماضى بنظام الالتزام.

١١- دَوَاءُ المِحْنَة

روى عن بُزُرْجُمِهْر بن البَخْتكَان الحكيم[1]، الذى كان وزير أنوشَرْوَان، أنّه حبسه عند غضبه، فى بيت كالقبر ظلمة وضيقًا، وصفّده بالحديد، وألبسه الخشن من الصوف، وأمر أن لا يُزاد فى كلّ يوم، على قرصين خبزًا شعيرًا، وكفّ ملح جريش، ودَوْرَقَ ماء، وأن تُحصى ألفاظه، فتُنقل إليه، فأقام بُزُرْجُمِهْر شهورًا، لا تُسمع له لفظة.

فقال أنوشروان: أدخِلُوا إليه أصحابه، ومروهم أن يسألوه، ويفاتحوه فى الكلام، واسمعوا ما يجرى بينهم، وعرّفونيه.

فدخل إليه جماعة من المختصّين -كانوا- به، فقالوا له: أيّها الحكيم، نراك فى هذا الضيق، والحديد، والصوف، والشدّة التى وقعتَ فيها، ومع هذا، فإنّ سحنة وجهك، وصحّة جسمك، على حالهما، لم تتغيّرا، فما السبب فى ذلك؟

فقال: إنّى عملتُ جوَارِشًا[2] من ستّة أخلاط، آخذ منه كل يوم شيئًا، فهو الذى أبقانى على ما تَرَوْنَ.

قالوا: فصِفْه لنا، فعسى أن نُبْتَلى بمثل بلواك، أو أحدٌ من إخواننا، فنستعمله ونَصِفه له.

قال: الخَلْط الأوّل: الثقة بالله عَزَّ وجَلّ، والخَلْط الثانى: علِمى بأنّ كل مقدّر كائن، والخَلْط الثالث: الصبر خير ما استعمله الممتَحنون، والخَلْط الرابع: إن لم أصبر أنا فأىَّ شىء أعمل، ولِمَ أعينُ على نفسى بالجَزَع، والخَلْطُ الخامس: قد يُمكن أن أكون فى شر مما أنا فيه، والخَلْط السادس: من ساعةٍ إلى ساعةٍ فَرَج.

فبلغ كسرى كلامُه، فعفا عنه.

---

(١) حكيم فارسى له أقوال كثيرة مأثورة، نُسبت إليه النسخة الفارسية من كتاب «كليلة ودمنة» ذى الأصل الهندى. وكان وزيرًا لأنوشروان كما يدل الخبر.

(٢) الجوارش: المساحيق التى تُخلط ويتكون منها الدواء.

١٢- دُعاءُ جعفرَ الصَّادقِ لفكِّ الاعتقال

عن الفضل بن محمد اليزيدى، قال:

أراد جعفر بن محمد الحَجّ، فمنعه المنصور، فقال: الحمد لله الكافى، سبحان الله الأعلى، حسبى الله وكفى، ليس من الله منجى، ما شاء الله قضى، ليس وراء الله منتهى، توكّلتُ على الله ربّى وربكم، ما من دابة إلا وهو آخذ بناصيتها، إنّ ربّى على صراط مستقيم، اللّهم إنّ هذا عبد من عبيدك، خلقتَه كما خلقتنى، ليس له علىّ فضل، إلا ما فضَّلته علىّ به، فاكفنى شرَّه، وارزقنى خيره، واقدح لى فى قلبه المحبّة، واصرف عنّى أذاه، لا إله إلا أنت، سبحان الله ربُّ العرش العظيم، وصلى الله على محمد النبى وعلى آله وسلم كثيراً.

قال: فأذن له المنصور فى الحج.

●●●

١٣- موت الظالم

انصرف يحيى بنُ خالد البرمكى، من عند الهادى[١]، وقد نَاظرَه فى تسهيل خَلْع العهد عن هارون، فحلف له يحيى أنّه فَعَل، وجهد فيه، فامتنع عليه هارون.

فقال له الهادى: كذبتَ، ووالله لأفعلنّ بك وأصنعنّ، وتوعّده بكل عظيمة، وصَرَفَهُ.

فجاء إلى بيته، فكلّم بعض غلمانه بشىء، فأجابه بما غاظه، فلطمه يحيى، فانقطعت حَلْقَةُ خاتَمه، وطاح الفَصُّ، فاشتدّ ذلك على يحيى، وتطيّر منه، واغتمّ، فدخل عليه السيارى[٢] الشّاعر، وقد أخبِر بالقصّة، فأنشده فى الحال:

أخلاك من كلِّ الهموم سُقوطُهُ ... وأتاك بالفَرج انفراجُ الخاتمِ

قد كان ضاق فَفَكَ حلْقَةَ ضِيقه ... فاصبر فما ضِيقُ الزمان بدائمِ

قال: فما أمسى حتّى ارتفعت الواعية بموت موسى الهادى، وصار الأمر إلى هارون الرشيد، فأعطاه مائة ألف درهم.

●●●

---

(١) كان الرشيد ولى عهد أخيه الهادى، الذى أراد خلعه ووضع ابنه مكانه، فرفض الرشيد وكان الهادى يعتقد أن يحيى البرمكى هو الذى يغرى الرشيد بالرفض.

(٢) هو شاعر مجهول، لكنه أجاد التقاط الحادثة، وتأولها بما يرضى البرمكى، فاستحق الجائزة السخية، وجاء الفَرَج.

١٤- مجيب المضطر

أخبرنا أبو سعد البقّال، قال:

كنتُ محبوسًا فى دِيماس[١] الحجّاج، ومعنا إبراهيمُ التَّيمىُّ، فبات فى السّجن، فأتى رجل، فقال له: يا أبا إسحاق، فى أى شىء حُبِستَ؟

فقال: جاء العرِّيف، فتبرأ منى، وقال: إنّ هذا كثيرُ الصّوم والصّلاة، وأخاف أنّه يرى رأى الخوارج[٢].

فإنّا لنتحدّث مع مغيب الشّمس، ومعنا إبراهيم التّيْمى، إذ دخل علينا رجلُ السجن، فقلنا: يا عبد الله، ما قصّتك، وأمرك؟

فقال: لا أدرى، ولكنّى أخذت فى رأى الخوارج، ووالله، إنّه لرأى ما رأيتُه قط، ولا أحببتُه، ولا أحببتُ أهله، يا هؤلاء، ادعوا لى بوضوء، فدعونا له به، ثم قام فصلّى أربع ركعَات، ثمّ قال: اللّهم إنّك تعلم، أنّى كنت على إساءتى وظلمى، وإسرافى على نفسى، لم أجعل لك ولدًا، ولا شريكًا، ولا ندًا، ولا كُفؤا، فإن تُعذّبُ فَعَدْل، وإن تَعْفُ، فإنّك أنت العزيز الحكيم، اللّهم إنّى أسألك يا من لا تغلّطه المسائل، ولا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا يُبْرِمُهُ إلحاحُ الملحّين، أن تجعل لى فى ساعتى هذه، فَرَجًا ومخرجًا مّما أنا فيه، من حيث أرجو، ومن حيث لا أرجو، وخذ لى بقلب عبدك الحجّاج، وسمعِه، وبصره، ويده، ورجله، حتى تُخرجَنى فى ساعتى هذه، فإنّ قلبه، وناصيته، بيدك، يا رب، يا رب.

---

(١) أطلقت هذه التسمية على سجن الحجاج، إذ كان أشبه بخندق تحت الأرض، وفى اللغة: الديماس: السرب المظلم، ومنه: دمس الليل.

(٢) هذا دليل على انتشار العرفاء فى زمن الحجاج وهم أشبه بالشرطة السرية أو الكفلاء.

قال: وأكثـر، فوالذى لا إله غيره، ما انقطع دعاؤه، حـتّى ضُربَ بابُ السّجن وقيل: أين فلان؟

فقام صاحبنا، فقـال: يا هؤلاء، إن تكن العافية، فوالله، لا أدَع الدّعاء لكم، وإن تكن الأخرى، فجمع الله بيننا وبينكم، فى مستقر رحمته.

قال: فبلغنا من الغد، أنّه خُلّى سبيله.

●●●

١٥- الأنبياءُ والمساكين

عن أنس بن مالك، عن النّبى ﷺ، قال:

«كان ليعقوب عليه السّلام، أخ مؤاخٍ فى الله عزَّ وجَلَّ، فقال ليعقوب: ما الذى أذهب بصرَك، وقوّس ظهرَك؟

فقال: أمّا الذى قوّس ظهرى، فالحزن على بِنْيَامين، وأمّا الذى أذهب بصرى، فالبكاء على يُوسُف.

فأوحى الله تعالى إليه: أما تستحى، تشكونى إلى عبدى.

قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، ثم قال: يا ربّ، ارحم الشيخ الكبير، أذهبْتَ بصرى، وقوّست ظهرى، أردد علىّ ريحانتى يوسف، أشمّه، ثم افعل بى ما شئتَ.

فقال له جبريل عليه السّلام: إنّ ربّك يُقرؤك السّلام، ويقول لك: أبْشِرْ، وليفرحْ قلبُك، فوعزّتى لو كانا ميتين، لأنشرتهما لك، فاصنع طعامًا للمساكين وادعهم إليه، فإنّ أحبّ عبادى إلىّ، الأنبياءُ والمساكين، وإنّ الذى ذهب ببصرك، وقوّس ظهرك، وسبب صنع إخوة يوسف به ما صنعوا، أنكم ذبحتم شاةً، فأتاكم رجل صائم، فلم تطعموه.

فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغداء، أمر مناديه، فنادى: من كان يريد الغداء من المساكين فليتغدّ مع يعقوب، وإن كان صائمًا أمر مناديه، فنادى: من كان صائمًا من المساكين فليُفطر مع يعقوب».

●●●

١٦- الفَقِيهُ والجَبَّار!!

حدثنى بعض شيوخنا:

أنّ الحسن البَصرى دخل على الحجّاج بواسط[١]، فلمّا رأى بناءه قال: الحمد لله، أنّ هؤلاء الملوك ليَرَوْن فى أنفسهم عِبرًا، وأنّا لنرى فيهم عِبرًا، يعَمِد أحدُهم إلى قصرٍ فيشيِّده، وإلى فَرْش فيتّخذه، وقد حفّ به ذباب طمع، وفراش نار، ثم يقول: ألا فانظروا ما صنعتُ، فقد رأينا -يا عدوّ الله- ما صنعتَ، فماذا يا أفسق الفسَقَة، ويا أفجر الفَجرة، أما أهل السماء فلعنوك، وأما أهل الأرض فمقتوك.

ثم خرج وهو يقول: إنّما أخذ الله الميثاق على العلماء، ليُبيِّننه للنّاس، ولا يكتمونه.

فاغتاظ الحجّاج غيظًا شديدًا، ثم قال: يا أهل الشّام، هذا عُبَيد أهل البَصرة يشتمنى فى وجهى فلا ينكر عليه أحد، علىّ به، والله لأقتلنّه.

فمضى أهلُ الشام، فأحضروه، وقد أعلم بما قال، فكان فى طريقه يحرّك شفتيه بما لا يُسْمَع.

فلما دخل على الحجّاج، رأى السّيف والنِّطع[٢] بين يديه وهو متغيّظ، فلمّا وقعت عليه عينُ الحجّاج، كلّمه بكلام غليظ، ورفق به الحسن، ووعظه.

فأمر الحجّاج بالسيف والنِّطْع فَرُفِعَا، ثم لم يزل الحسن يمر فى كلامه، إلى أن دعا الحجاج بالطعام، فأكلا، وبالوضوء فتوضّأ، وبالغالية فغلّفه بيده، ثم صرفه مكرّمًا.

وقال صالح بن مِسمار: قيل للحسن بن أبى الحسن: بِمَ كنت تحرّك شفتيك؟

---

(١) واسط: منطقة فى جنوب العراق تجاه فارس.

(٢) النطع: بساط من الجلد يقف فوقه المحكوم بقتله.

قال: قلتُ: يا غياثى عند دعوتى، ويا عُدّتى فى ملمّتى، ويا ربّى عند كُربتى، ويا صاحبى فى شدّتى، ويا وليى فى نعمتى، ويا إلهى، وإله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى، ويارب النبيين كلّهم أجمعين، ويارب كهيعص، وطه، وطس، ويس، ورب القرآن الحكيم، يا كافى موسى فرعون، ويا كافى محمد الأحزاب، صلّ على محمّد وآله الطّيبين الطاهرين الأخيار، وارزقنى مودّة عبدك الحجّاج، وخيره، ومعروفه، واصرف عنّى أذاه، وشرّه، ومكروهه، ومعزّته.

فكفاه الله تعالى شرّه بمنّه وكرمه.

●●●

١٧- مَنْ يَرْحم

وذكر المدائنيُّ فى كتابه، قال: وجَّه سليمانُ بن عبد الملك، حين ولى الخلافة، محمد بنَ يزيد إلى العراق، فأطلق أهل السجون، وقسّم الأموال، وضيّق على يزيد بن أبى مسلم كاتبِ الحجّاج، فظفر به يزيد بإفريقية لما وليها فى شهر رمضان عند المغرب، وفى يده عنقود عنب.

فجعل محمدٌ يقول: اللهم احفظ لى إطلاقى الأسرى، وإعطائى الفقراء.

فقال له يزيد حين دنا منه: محمّد بن يزيد؟ ما زلتُ أسأل الله أن يُظْفِرنى بك.

قال له: وما زلتُ أسأل الله، أن يجيرنى منك.

قال: والله، ما أجارك، ولا أعاذك منّى، ووالله لأقتلنّك قبل أن آكل هذه الحبّة العنب، ووالله لو رأيتُ ملك الموت يريد قبض روحك، لسبقته إليها.

فأقيمت الصّلاة، فوضع يزيد الحبّة العنب من يده، وتقدّم، فصلّى بهم.

وكان أهلُ إفريقية قد أجمعوا على قتله، فلما ركع، ضربه رجل منهم على رأسه بعمود حديد، فقتله.

وقيل لمحمّد: اذهب حيث شِئتَ، فمضى سالمًا.

●●●

١٨- مَنْ القتيلُ؟

وذكر القاضى أبو الحسين فى كتابه، قال:

حُبس رجل قد وجب عليه حدّ، فلمّا رُفع خبره، أمِرَ بضرب عنقه.

قال المخبر: فـدخلتُ إلى الحبس إلى رجل بينى وبينه صُحبـة، لأعرف خبره، فرأيتُ الذى أمر بضرب عنقه يلعب بالنَّرد[١].

فقلت للذى دخلـتُ عـليه، وأنا لا أعلم أنّ قد أمِـرَ بضرب عنق ذلك الرجل: ما أفرغ قلبُ هذا، يلعب بالنّرِد وهو محبوس.

فقـال: إنّ أطرف من هذا أنّه قد أمِرَ بضَـرْب عُنقه، وقد عرف بذلك، فـهوذا ترى حاله.

قال: فازددتُ تعجباً، وفطن الرجل لما نحن فيـه، فأخذ بيده فَصّاً من فصوص النّرد فرفعه، وقال: إلى أن يسقط هذا إلى الأرض، مائة ألف فرج، ورمى بالفصّ من يده.

قال: فخرجتُ، وأنا متعجّب منه، مفكّر فى قوله.

فما أمسْينا ذلك اليوم، حتى شَغَب الجند، وفُتحت السـجون، وخرج من كان فيها، والرجل فيهم، وسلّمه الله تعالى من القتل.

●●●

(١) النرد: طاولة الزهر.

١٩- مَنْ يأمنُ للحيَّة؟!

كان فى بنى إسرائيل، رجلٌ فى صحراء قريبةٍ من جبل، يعبد الله تعالى، إذ مَثُلت له حيّة، فقالت له: قد أرهقنى من يريد قتلى، فأجِرْنى، أجارك الله فى ظلّه، يوم لا ظلّ إلا ظلّهُ.

قال لها: وممّن أجيرك؟

قالت: من عدوّ يريد قتلى.

قال: وممّن أنت؟

قال: من أهل لا إله إلا الله.

قال: فأين أخبّيك؟

قالت: فى جوْفك، إن كنت تريد المعروف.

ففتح فاه، وقال: ادخلى، ففعلت.

فلما جاء الطالب، قال له: رأيتَ حيَّةً تسعى؟

فقال العابد: ما أرى شيئًا، وصدق فى ذلك.

فقال له الطالب: الله.

فقال: الله.

فتركه، ومضى، ثم قال لها: اخرجى الآن.

فقالت: إنى من قوم لا يكافئون على الجميل إلا بقبيح.. لابد من قتلك!!

فقال لها الرجل: ليس غنًى عن هذا؟

قالت: لا.

قال: فأمـهلينى، حتى آتى سفح جبـل. فأصلّى ركعتين، وأدعـو الله تعالى، وأحفر لنفسى قبرًا، فإذا نزلته، فافعلى ما بدا لك.

قالت: افعل.

فلما صلّى، ودعا، أوحى الله إليه: إنّى قد رحمتك، فاقبض على الحيَّة، فإنّها تموت فى يدك، ولا تضرّك.

ففعل ذلك، وعاد إلى موضعه، وتشاغل بعبادة ربّه.

●●●

٢٠- الفَرَجُ على لِسَان طَائِر!!

وجدتُ في بعض الكتب:

حُكى أنّ رجلاً خـرج في وجه شـتاء، فابتـاع بأربعمائة درهـم -كان لا يملك غيرها- فراخَ الزّرْياب[١] للتجارة.

فلمّا ورد دكّانه ببغـداد، هبت ريح باردة، فأماتتها كلها إلا فـرخًا واحدًا، كان أضعفَهَا وأصغرها، فأيقن بالفقر.

فلم يزل يبتهل إلى اللّه تعالى ليلته أجمع بالدعاء والاستغاثة، ويسأله الفَرَج مما لحقه، وكان قوله: يا غياثَ المستغيثين، أغِثْنى.

فلمّا انجلى الصبح، زال البَرْدُ، وجعل ذلك الفرخ الباقي ينفش ريشَه، ويقول: يا غياثَ المستغيثين، أغِثْنى.

فاجتمع الناسُ على دكان الرجل، يرون الفرخ، ويسمعون الصوت.

فاجتازت جارية راكبة، من جـواري أمّ المقتدر، فسمعت صوتَ الطائر، ورأته، واستامـته[٢]، وتقاعـد الرجل، فاشترته بألفي درهم، وأعطتـه الدراهم، وأخذت الطائر.

●●●

(١) الزرياب: طائر صغير جميل، يمكنه محاكاة الأصوات كالببغاء.

(٢) عرفت ثمنه، وناقشت فيه.

٢١- العَقْل!!

عن نوف البَكالى:

أنّ نبيّاً أو صـديّقًا ذبح عجلاً بين يدى أمّـه، فخَبل[1]، فبينمـا هو كذلك ذات يوم، تحت شـجرة فـيـها وكـر طيـر، إذ وقع فَرْخُ طائـرٍ فى الأرض، وتغبـر فى التراب، فـأتاه الطائر، فجعل يـطير فوق رأسـه، فأخذ النبى أو الصـديق الفرخَ، فمسحه من التراب، وأعاده فى وكره، فرد اللَّه عَزَّ وجَلَّ عليه عقله.

●●●

(١) أصابه الخبل، أى الذهول والهوس، وقد قال رسول اللّه ﷺ: «إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» والحيوان لا يعقل ولكنه يشعر، ويدرك.

٢٢- دُعاء زَيْن العابِدين

عن طاووس[١]، قال:

إنّى لفى الحجْر[٢] ذات ليلة، إذ دخل علىّ بن الحسين عليهما السلام، فقلت: رجلٌ صالحٌ من أهل بيت الخَيـر، لأستمعنّ إلى دعائه الليلة، فـصلّى، ثم سجد، فأصغيتُ بسمعى إليه، فسمعته يقول: عُبَيْدُكَ[٣] بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك.

قال طاووس: فحفظتهنّ، فما دعوتُ بهنّ فى كرب، إلا فرجّ اللّه عنّى.

●●●

(١) طاووس بن كيسان: فقيه محدث من التابعين، وهو يمنّى.

(٢) حجْر إبراهيم بفناء الكعبة.

(٣) عُبَيْدُك (بصيغة المصغر): تصغير عبد.

٢٣- لا يَرْضَى الظُّلم.. حتى للمجوسىِّ

وجدتُ فى بعض الكتب: حدَّث على بن المعلّى، عن الزهرى البصرى، قال:

كنّا جلوسًا عند أبى عبد اللَّه جعفر بن محمد (الصادق) وذكر حديثًا فيه: أنّ أبا عبد اللَّه قال: إنّ قوم سَدُوم، هلكوا بمجوسى.

قيل: ما سبب ذلك؟

قال: أما تعرفون بالبصرة عندكم جسراً، يقال له: جسر الخشب؟

قلنا: بلى.

قال: ذاك جسرُ سدوم، جاءه رجل مجوسى، ومعه زوجته حاملاً، راكبة حماراً، تريد العبور فمنعوها إلا أن يأخذوا خمسة دراهم، فأبيا أن يعطيا ذلك، فطلبوا منهما عشرة دراهم، فأبيا أن يعطيا ذلك، فشمصوا الحمار، وقطعوا ذنبه، فاضطربت المرأة، فأسقطتْ جَنِينَها، فاشتدّت بالمجوسى محنتُه.

وقال: إلى مَن نتظلّم فيما فُعِلَ بنا؟

فقيل: إلى صاحب هذا القصر.

فدخل إليه، وقال: فُعِلَ بى كَيْتَ وكَيْتَ.

قال: لا بأس، ادفع إليهم حمارك، يعملوا عليه إلى أن ينبت ذَنَبُهُ، وادفع إليهم زوجتك، حتّى يطؤوها إلى أن تحمل.

فرفع المجوسى رأسه إلى السماء، وقال: اللَّهم، إن كان هذا حكم من عندك، وأنت به راضٍ، فأنا به أرضى، وأرضى.

فبعث اللَّه إليه ملكًا من الملائكة فأخذ بِعَضُده، وعضد زوجته، فعبر بهما الجسر.

فقال له: يا عبد اللَّه مَن أنت؟ فلقد مننتَ علىّ.

قـال: أنا مَلَكٌ من الملائكة، لما أن قلت: اللّهم إن كـان هذا حكم من عندك، وأنت به راضٍ، فأنا أرضى وأرضى، بعـثنى اللّه لأخلصك، فالتـفِتْ إلى القوم، وانظر ما أصابهم.

فالتفت المجوسى، فإذا القوم قد خُسِفَ بهم.

●●●

٢٤- الخائن

وحكى أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق التَّنوخي:

أنّ رجلاً أمسى فى بعض محالّ الجانب الغربى من مدينة السلام، ومعه دراهم لها قدر.

فخاف على نفسه من الطائف[١]، أو من بلية تقع عليه، فصار إلى رجل من أهل الموضع، وسأله أن يبيته عنده، فأدخله.

فلمّا تيقن أنّ معه مالاً، حدث نفسه بقتله، وأخذ المال.

وكان له ابن شاب، فنوّمه بحذاء الرجل، فى بيت واحد[٢]، ولم يُعلم ابنه ما فى نفسه، وخرج من عندهما، وقد عرف مكانهما، وطُفِئَ السراج.

فقُدّر أنّ الابن انتقل من موضعه إلى موضع الضيف، وانتقل الضيف إلى موضع الابن، وجاء أبوه يطلب الضيف، فصادف الابن فيه، وهو لا يشكّ أنّه الضيف، فخنقه، فاضطرب، ومات.

وانتبه الضيف باضطرابه، وعرف ما أريد به، فخرج هاربًا، وصاح فى الطريق، ووقف الجيران على خبره، وأغاثوه، وخرجوا إليه.

وأخِذَ الرجل، فقُرِّر، فأقرَّ بقتل ولده، فحُبس، وأخِذَ المال من داره، فردَّ على الضيف، وسَلِمَ.

●●●

---

(١) الطائف: العسس، أو جنود الحراسة التى تطوف بالليل فى المدينة.

(٢) البيت: الغرفة، أما مجموع الغرف فيكون «الدار».

٢٥- دِرْهَمٌ طيِّبٌ

إنّ رجلاً خرج بغزل، فباعه بدرهم ليشترى به دقيقًا، فمرّ على رجلين، كلّ واحد منهما آخذ برأس صاحبه.

فقال: ما هذا؟

فقيل: يقتَتلان فى درهم، فأعطاهما ذلك الدرهم، وليس له شىء غيره.

فأتى إلى امرأته، فأخبرها بما جرى له، فجمعتْ له أشياء من البيت، فذهب ليبيعها، فكسدت عليه، فمر على رجل ومعه سمكة قد أرْوَحَتْ.

فقال له: إنّ معك شيئًا قد كسد، ومعى شىء قد كسد، فهل لك أن تبيعنى هذا بهذا؟ فباعه.

وجاء الرجل بالسمكة إلى البيت، وقال لزوجته: قومى فأصلحى أمر هذه السمكة، فقد هلكنا من الجوع.

فقامت المرأة تصلحها، فشقّت جوف السمكة، فإذا هى بلؤلؤة، قد خرجت من جوفها.

فقالت المرأة: يا سيدى، قد خرج من السمكة شىء أصغر من بيض الدجاج، وهو يقارب بيض الحمام.

فقال: أرينى، فنظر إلى شىء ما رأى فى عمره مثله، فطار عقله، وحار لبّه.

فقال لزوجته: هذه أظنّها لؤلؤة.

فقالت: أتعرف قدر اللؤلؤة؟

قال: لا، ولكنى أعرف مَن يعرف ذلك، ثم أخذها، وانطلق بها إلى أصحاب اللؤلؤ، إلى صديق له جوهرى، فسلم عليه، فرد عليه السلام، وجلس إلى جانبه يتحدث، وأخرج تلك البيضة.

وقال: انظر كم قيمة هذه؟

قال: فنظر زمانًا طويلاً، ثم قال: لك بها علىَّ أربعون ألفا، فإن شئت أقبضتك المال الساعة، وإن طلبتَ الزيادة، فاذهب بها إلى فلان، فإنه أثمنُ بها لك منّى.

فذهب بها إليه، فنظر إليها واستحسنها، وقال: لك بها علىَّ ثمانون ألفًا، وإن شئتَ الزيادة، فاذهب بها إلى فلان، فإنى أراه أثمنَ بها لك منى.

فذهب بها إليه، فقال: لك بها على مائة وعشرون ألفًا، ولا أرى أحدًا يزيدك فوق ذلك شيئًا.

فقال: نعم، فوزن له المال، فحمل الرجل فى ذلك اليوم اثنتى عشرة بِدْرَة، فى كل بدرة عشرة آلاف درهم، فذهب بها إلى منزله، ليضعها فيه، فإذا فقير واقف بالباب، يسأل.

فقال: هذه قصتى التى كنت عليها، ادخل، فدخل الرجل.

فقال: خذ نصف هذا المال، فأخذ الرجل الفقير، ستّ بِدَرٍ، فحملها، ثم تباعد غير بعيد، ورجع إليه.

وقال: ما أنا بمسكين، ولا فقير، وإنّما أرسلنى إليك ربّك عزَّ وجَلَّ، الذى أعطاك بالدرهم عشرين قيراطًا، فهذا الذى أعطاك قيراط منه، وذَخَرَ لك تسعة عَشَرَ قيراطًا.

●●●

٢٦- عَطَاءُ رَسولِ اللَّه ﷺ

أنّ عطارًا من أهل الكَرخ، كان مشهورًا بالستر والأمانة، فركبه دَين، وقام من دكانه، ولزم بيته مستترًا، وأقبل على الدعاء والصلاة، إلى أن صلى ليلة الجمعة صلاة كثيرة، ودعا، ونام، فرأى النبى ﷺ فى منامه، وهو يقول له: اقصُد على ابن عيسى، وكان إذ ذاك وزيرًا، فقد أمرته أن يدفع إليك أربعمائة دينار، فخذها وأصلح بها أمرك.

قال الرجل: وكان علىَّ ستمائة دينار دَينًا، فلما كان من الغد، قلتُ: قد قال النبى ﷺ: «مَن رآنى فى منامه فقد رآنى، فإنّ الشيطان لا يتمثل بى»، فَلِمَ لا أقصد الوزير.

فلمّا صرتُ ببابه، مُنعتُ من الوصول إليه، فجلستُ إلى أن ضاق صدرى، وهممتُ بالانصراف، فخرج الشافعى صاحبُه، وكان يعرفنى معرفة ضعيفة، فأخبرته الخبر.

فقال: يا هذا، الوزير واللَّه فى طلبك منذ السَّحَر إلى الآن، وقد سألنى عنك فأنسيتُك، وما عرفك أحد، والرسل مبثوثة فى طلبك، فكن بمكانك، ثم رجع فدخل، فلم يكن بأسرع من أن دُعى بى، فدخلتُ إلى علىّ بن عيسى.

فقال لى: ما اسمك؟

قلت: فلان ابن فلان العطار.

قال: من أهل الكَرْخ؟

قلت: نعم.

قال: أحسن اللَّهُ إليك فى قصدكَ إيّاى، فواللَّه ما تهنّأتُ بعيش منذ البارحة، فإنّ رسول اللَّه ﷺ، جاءنى البارحة فى منامى، فقال: أعطِ فلانا ابن فلان العطار

من أهل الكَرْخ أربعمائة دينار يُصلح بها شأنه، فكنتُ اليوم فى طلبك، وما عرفك أحد.

فقلت: إنّ رسول اللّه ﷺ جاءنى البارحة، فقال لى كَيْتَ وكَيْتَ.

قال: فبكى علىُّ بنُ عيسى، وقال: أرجو أن تكون هذه عناية من رسول اللّه ﷺ بى.

ثم قال: هاتوا ألف دينار، فجاءوه بها عَيْنًا.

فقال: خذ منها أربعمائة دينار، امتثالاً لأمر رسول اللّه ﷺ، وستمائة دينار هَبَةً منّى لك.

فقلت: أيّها الوزير ما أحبُّ أن أزداد على عطاء رسول اللّه ﷺ شيئًا، فإنى أرجو البركة فيه، لا فيما عداه.

فبكى علىّ بن عيسى، وقال: هذا هو اليقين، خذ ما بدا لك.

فأخذتُ أربعمائة دينار، وانصرفتُ، فقصصتُ قصّتى على صديق لى، وأريته الدنانير، وسألته أن يقصد غُرَمَائى، ويتوسط بينى وبينهم، ففعل.

وقالوا: نمهله بالمال ثلاث سنين.

فقلت: لا، ولكن يأخذون منى الثلث عاجلاً، والثلثين فى سنتين، فى كل سنة ثلثًا، فرضوا بذلك، وأعطيتهم مائتى دينار، وفتحتُ دكانى بالمائتى دينار الباقية.

فما حال الحَوْل إلا ومعى ألفُ دينار، فقضيْتُ دَيْنى، وما زال مالى يزيد، وحالى يصلح، والحمد للّه.

●●●

محتويات الكتاب

القسم الأول: الدراسة الفنية

(٥-٩٧)

القسم الثانى: النماذج

(٩٩-٣٧٣)

الفصل الأول: القصص الفنية

(١٠١-١٦٠)

الفصل الثانى: القصص الاجتماعية

(١٦١-٢١٩)

الفصل الثالث: القصص الشعبية

(٢٢١-٢٨٩)

الفصل الرابع: القصص السياسية

(٢٩١-٣٣٤)

الفصل الخامس: القصص الوعظية

(٣٣٥-٣٧٣)

●●●